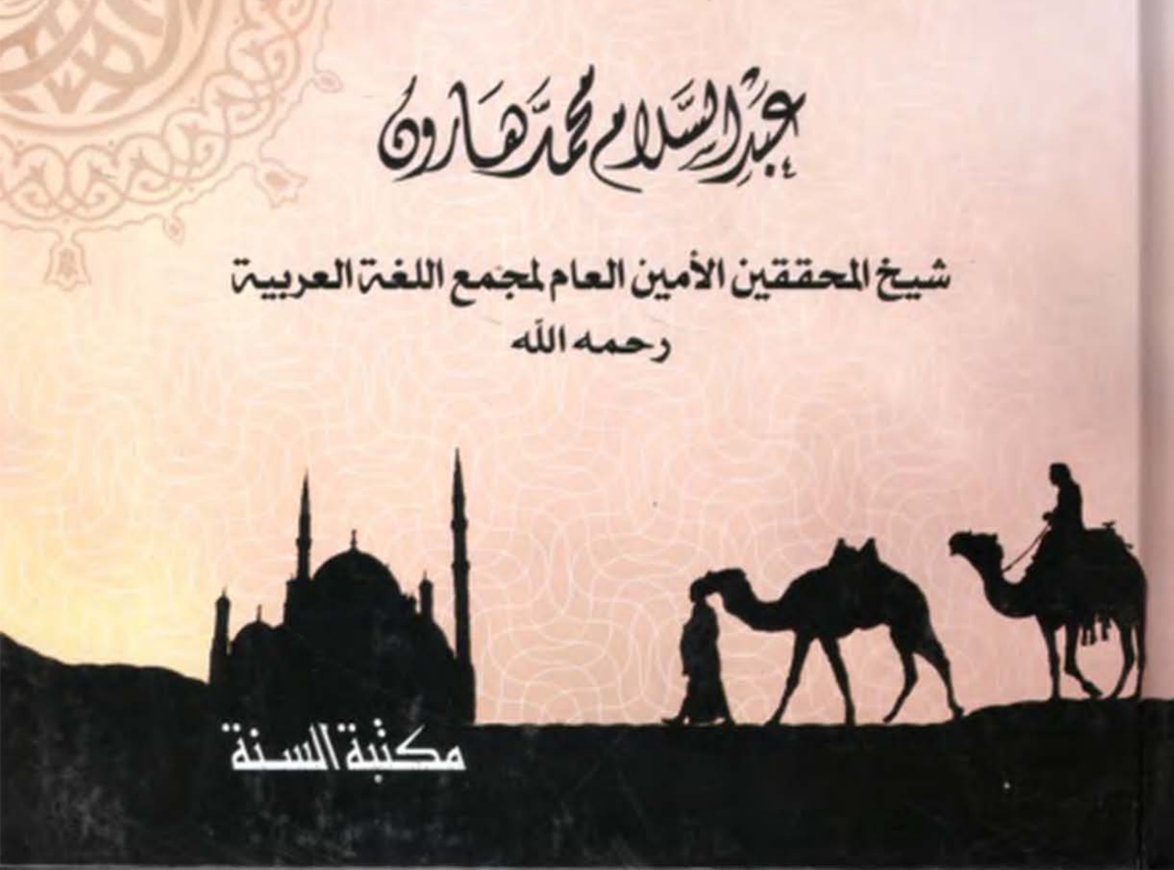
تهذيب
سيرة ابن هشام

عبد السلام محمد هارون

شيخ المحققين الأمين العام لمجمع اللغة العربية
رحمه الله



مكتبة السنة

عبد السلام محمد هارون
شيخ المحققين الأمين العام لمجمع اللغة العربية
رحمه الله

تهذيب سيرة ابن هشام

مكتبة السنة

الطبعة السادسة
مزيدة ومنقحة
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم

القاهرة — ٨١ شارع البستان ، ناصية شارع الجمهورية — عابدين — تليفون : ٣٩٠٠٣١٨
EL SONNA BOOKSHOP — CAIRO — 81 AL BUSTAN ST., ABDIN — TEL: 3900318

تهذيب

سِيرَةُ ابْنِ هِشَامٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

نورٌ وهّاج أفضى إلى ظلمات الجهل والوثنية فانجابت كما ينجاب الغمام ، وهُدًى من الله أرسله إلى هذه الإنسانية الضالّة فانتشلها من ضيعةٍ وانتاشَها من هلاك ، وأنقذها مما كانت تتخبّط فيه من دياجير الظلام وعقابيل الضلال .

كانت حياته ﷺ صفحةً عريضة من صفحات الجهاد لإنقاذ هذه البشَريَّة ، ومثلاً صادقاً من مُثُل البرّ والمرحَمة ، وسيرةً عالية سامية في معاملة الخالق ومعاملة المخلوق ، تلمع أضواءُ هذه السيرة في كتاب الله الذي يقول : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ، وفي آفاق الكتب الوثيقة التي خطَّها العلماءُ منذ القدم ، متضمّنةً نفحاتٍ من هذا العطر ، ووَمَضَاتٍ من ذلك الإشراق .

صلى الله عليه وسلم ، ورضيَ وأنعم .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة هذه الطبعة

إن أقدس الكتب وأجلّها ، وأعظمها شأناً « كتاب الله » ، تطيف به وتحفّه كتب تفسير القرآن الكثيرة العدد ، المتعددة المناهج ، التي تزخر بها المكتبة العربية وتزدهي ازدهاء .

ويلي كتاب الله وقرآنه الكريم كتب السُّنة المطهرة على اختلاف ضروبها وأنواعها ، تعتز بأقوال الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، كما تفيض ببيان أفعاله الكريمة وأدبه مع الخَلْق والخَالِق .

وقد قامت دراسات مستفيضة حول تلك الكتب : كتب السُّنة ، حول نصوص الحديث ومناسباته ، وخدمة ما به من لغة وألفاظ وأساليب ، ودراسة توثيقه ورجاله وإسناده ، في كثرة تعتز بها المكتبة العربية ، وتلقي من الأضواء والأنوار في جنبات هذه الوثيقة الثانية من وثائق الإسلام الخالدة .

ويلي ذلك ، وهو مما يمتّ إلى الثانية بسبب وثيق : كتب السيرة النبوية التي تعدد التأليف فيها وتنوع ، وكان أعلاها بلا ريب وأوثقها ، كتاب « السيرة » لمحمد بن إسحاق المطلبي التي قام بروايتها وتنقيحها وتهذيبها عالم جليل ، حفظ له التاريخ مكانته ، وبارك في كتابه الذي سُمي فيما بعد : « **سيرة ابن هشام** » : عبد الملك بن هشام الحميري .

فكان هذا الكتاب المبارك محوراً لدراسات وتعليقات ، ونشاط تأليفي تناول التعليق والتهذيب والتفسير ، كما تناول شرح الغريب .

وكان أعلى تلك التآليف كتاب « الروض الأنف » للسهيلي الأندلسي .

ولأمرٍ ما وجدتني أعنى بهذه السيرة عناية خاصة ، وأعكف على تلاوتها المرة تلو المرة ، وأجد في ذلك ، كما ذكرت في مقدمتي الأولى ، شيئا مما كنت أجد في تلاوة الكتاب الكريم وحديث الرسول ، من نشوة التعبد الخاشع ، والخشوع الخاضع . وساقني إلى ذلك كما ذكرت ، أن والدي رحمه الله وغفر له ، كان ممن ألفوا في فن السيرة ، فصنع كتابا موجزا سماه « تلخيص الدروس الأولية في السيرة المحمدية » في ثلاثين فصلا .

وظل ذلك الكتاب دهرا طويلا لا يدرس سواه في المعاهد الدينية بمصر ، إذ كان من برامج الدراسة فيها درس خاص يسمى « درس السيرة » كما يقال « درس الفقه » ، و« درس التوحيد » .

وكان من نعم الله عليّ وعظيم فضله وسابغ كرمه أن وفقت إلى تأليف كتابي هذا « تهذيب سيرة ابن هشام » جعلته احتساباً لوجه الله ، وتيمناً بذكرى رسوله الكريم ، فلقي هذا الكتاب من القبول في مصر وفي أنحاء العالم العربي والإسلامي ما ارتفعت به عدد طبعاته إلى ما فوق العشرين ، بين طبعة شرعية أذنت فيها للناشر بحق الطبع ، وبين طبعات مزيفة لم آذن للناشر فيها ، بل اختلسها اختلاساً . ومن تلك النشرات المزيفة ما قام به من يسمًّى « محمد الداية » في ربوع لبنان ، التي لم آذن فيها بحق الطبع إلا لرجل فاضل ، هو صاحب مؤسسة الرسالة ، وقد أصدر منها إلى الآن الطبعة السادسة عشرة ، جزاه الله خير الجزاء .

وقد طلب مني في القاهرة الأخ الثقة السيد / شرف حجازي صاحب مكتبة السنة أن آذن له بالطبع ، فأذنت له بعد أن وثقت بأمانته أن يطبع هذا الكتاب المبارك بعد إجراء بعض التنقيحات والإضافات لتكون طبعة معتمدة في مصر .

والله ولي التوفيق .

القاهرة في الإثنين : ٦ من صفر ١٤٠٨
٢٨ سبتمبر ١٩٨٧

عَبد السَّلام مُحمد هَارُون

تقديم

التاريخ والسيرة :

لم يعرف التاريخ في جاهليتهم إلا ما توارثوه بالرواية ، وكانت طبيعة التاريخ حينئذ مسايرة لطبيعة الحياة العربية ، ففيه مفاخر الآباء والأجداد ، من بطولة ومن كرم ومن وفاء وفيه الأخبار تدور حول الأنساب والأحلاف ، وفيه ما صنعوا من حديث يذكر تاريخ البيت وسدنته ، وزمزم وانبعاثها ، وأنباء جرهم وأمراء قريش وسد مأرب الذي انبثق فتفرق القوم إثره في البلاد ، وما كان من أخبار الكهان وأسجاعهم ، ونحو ذلك مما يصوّر حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية .

وجاء الإسلام وتلك الأخبار تروى ، وتلك الأنباء تؤثر ، ثم وجدوا في ظهور دعوة الإسلام وما سبقها من إرهاص بالنبوة ، ومن حياة الرسول الأولى ونشأته الكريمة ، وما تلا ذلك من أنباء الرسالة وأنباء المسلمين أصحاب رسول الله ، وأخبار أعداء رسول الله ، وسيرة رسول الله في المسلمين والمشركين والنصارى واليهود ، مادة غزيرة النبع واسعة الآفاق ، فتداولوا بينهم تلك الأخبار من طريق الرواية كذلك ، وكان القرآن الكريم والحديث النبوي وكلام الأصحاب ، سجلاً حافلاً لتلك الحياة الجديدة .

كان القرآن مكتوبا ، ولكن الحديث النبوي ظل دهراً طويلاً في منأى عن الكتابة ، لا يعرفه الناس إلا رواية موثوقاً بها ، ولم يجرؤ أحد أن يكتب الحديث بصفة عامة ، استجابة لما ورد في حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحه » .

وكانت الحكمة في هذا ظاهرة ، وهي الخشية من أن يختلط الوحي بحديث الرسول في أثناء نزول الكتاب ، وواضح أن هذا الأمر إنما كان يقصد به المحافظة على هذا الغرض الكريم ، وكان بلا ريب موقتاً بنزول القرآن .

وظل الأمر كذلك حتى كانت أيّام عمر بن عبد العزيز ، الذي ولي الخلافة من سنة

٩٩ إلى سنة ١٠١ . ويذكرون أنه ظل يستخير الله أربعين يوماً في تدوين الحديث ، فخار الله له ، وأذن لأبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم في تدوين الحديث فدوّن ما كان يحفظه ، في كتاب بعث به إلى الأمصار . وكان أبو بكر هذا قاضياً ووالياً على المدينة ، وتوفي سنة ١٢٠ .

كما أمر عمر بن عبد العزيز أيضاً محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، شيخ مالك ، أن يدوّن حديث رسول الله ، فصنع في ذلك كتاباً .

واستمر المسلمون من بعد ذلك يؤلفون في الحديث ، لا تتقيد كتبهم بنهج خاص في التنسيق والترتيب ، بل يجمعونها كما يتفق لهم ، وقد يصنف أحدهم كتاباً في باب خاص من أبواب التشريع ، ثم تدرج التصنيف فألفيناهم يبوِّبون كتب الحديث ويفردون من ذلك أبواباً خاصة لأخبار الرسول ﷺ يذكرون ما كان من أمر ولادته ورضاعه وما بعدهما إلى البعثة ، ثم يفصلون أحواله بعد ذلك في مكة ، من دعوته قريشاً إلى دين الله ، وصبره على إيذائهم له ولأصحابه ، ويتناولون أخبار الغزوات والسرايا وما أشبه ذلك من أمور الجهاد .

وانطلق المؤرخون في سبيل آخر يؤلفون في التاريخ كتباً عامة ، وقد يخصص أحدهم تاريخاً لحياة الرسول الكريم ، يشبعون بذلك ميولهم الدينية الخاصة ، التي ترى في الرسول ـ لا ريب ـ قدوة المسلمين ، وهدى للمهتدين .

مؤلفو السير :

فكان أول كتَّاب السيرة عروة بن الزبير بن العوام (٩٢) ، وأبان بن عثمان (١٠٥) ، ووهب بن منبه (١١٠) ، وشرحبيل بن سعد (١٢٣) ، وابن شهاب الزهري (١٢٤) ، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم (١٣٥) .

وقد بادت كتب هؤلاء جميعاً ، لم يبق منها إلا أشلاء متناثرة في بطون كتب التاريخ كتاريخ الطبري ، وإلا قطعة من كتاب وهب بن منبه محفوظة في مدينة هيدلبرج بألمانيا .

ثم جاءت طبقة من المؤلفين كان أشهر رجالها موسى بن عقبة (١٤١) ومعمر بن راشد (١٥٠) . ومحمد بن إسحاق (١٥٢) .

وطبقة أخرى كان منها زياد البكائي (١٨٣) ، والواقدي صاحب المغازي (٢٠٧) ، وابن هشام (٢١٨) ، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات (٢٣٠) .

سيرة ابن إسحاق :

وكان أشهر هذه الكتب وأعلاها مقاماً وأشدها وثوقاً ، سيرة محمد بن إسحاق[1] التي ألفها في أوائل أيام العباسيين . يروون أنه دخل على المنصور ببغداد ، وبين يديه ابنه المهدي ، فقال له المنصور : أتعرف هذا يا ابن إسحاق ؟ قال : نعم ، هذا ابن أمير المؤمنين . قال : اذهب فصنف له كتاباً منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى يومك هذا . فذهب ابن إسحاق فصنف له هذا الكتاب ، فقال له : لقد طولته يا ابن إسحاق ، اذهب فاختصره .

وألقي الكتاب الكبير في خزانة أمير المؤمنين .

(١) هو محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار ، أبو عبد الله المدني القرشي ، مولى قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف . كان جده يسار من سبي عين التمر ، بلدة غربي الكوفة على طرف البرية ، افتتحها المسلمون في خلافة أبي بكر سنة ١٢هـ فجيء به إلى المدينة ، وولد حفيده محمد فيها سنة ٨٥هـ وأمضى بالمدينة ثوب شبابه ورحل إلى البلدان الإسلامية ، وكانت رحلته إلى الإسكندرية في سنة ١١٥هـ فحدث عن جماعة من المصريين ، ثم رحل إلى الكوفة والجزيرة والري والبصرة وبغداد حيث ألقى عصاه ووافته منيته فيها سنة ١٥٢هـ وفيه يقول ابن عدي : « لو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الإشتغال بكتب لا يحصل منها شيء للإشتغال بمغازي رسول الله ﷺ ، ومبعثه ومبتدأ الخلق ، لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن إسحاق » .

سيرة ابن هشام

وقد جاء بعده ابن هشام[1] فروى لنا هذه السيرة مهذبة منقحة بعد تأليف ابن إسحاق بنحو نصف قرن ، بوساطة رجل واحد ، هو زياد البَكّائي[2] .

ولم يكن كتاب ابن إسحاق الذي رواه ابن هشام بهذا القدر الذي بين أيدينا اليوم ، فإن ابن هشام تناول جوانب سيرة ابن إسحاق بكثير من التحرير ، والاختصار ، والإضافة ، والنقد أحياناً ، والمعارضة بروايات أخر لغيره من العلماء كذلك . وقد ساق في صدر السيرة بعض منهجه لرواية ذلك الكتاب .

ونحن لا نشك مع ذلك أن ابن هشام كان ملتزماً جانب الأمانة والحرص في رواية كتاب ابن إسحاق ، لم يبدل منه كلمة واحدة ، ولم يزد كلمة لبيان الخطأ أو شرح الغامض أو معارضة الروايات إلا صدرها بقوله « قال ابن هشام » .

وأما الاختصار فإنه كان المقصد الأساسي في روايته للسيرة ، فحذف، ما كان قبل تاريخ إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السلام ، منذ بدء الخليقة ، وكذا حديث أبناء إسماعيل ، والأخبار التي ليست من السيرة في شيء ـ فيما كان يراه هو ـ وحذف الأشعار الكثيرة التي كان يشك في مبلغ روايتها من الصحة .

---

(١) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري . كان منشأه بالبصرة . ثم نزل مصر واجتمع به الإمام الشافعي ، وتناشدا من أشعار العرب الشيء الكثير . وصنف ابن هشام سوى تهذيبه سيرة ابن إسحاق كتاباً في أنساب حمير وملوكها . وكتاباً في شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب . توفي بالفسطاط سنة ٢١٨ .

(٢) هو الحافظ أبو محمد زياد بن عبد الملك بن الطفيل البكائي العامري الكوفي . والبكائي نسبة إلى بني البكاء من بني عامر بن صعصعة . قدم زياد إلى بغداد وحدث بها بالمغازي عن محمد بن إسحاق ، وبالفرائض عن محمد بن سالم . ثم رجع إلى الكوفة فمات بها في خلافة هارون سنة ١٨٣هـ . وكان ابن هشام يقدر هذا الشيخ حق قدره ، فيقول في صدر كتابه « وأنا تارك أشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره . وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته » .

والمتعقب لأصل السيرة من رواية ابن هشام يلمح في ذلك طابع الحرص الشديد والأمانة الصارمة ، التي كانت سمة العلماء المسلمين في تلك العصور القديمة .

منزلة سيرة ابن هشام :

ومهما يكن من شيء فإن كتاب ابن إسحاق كان العمدة لقراء السيرة منذ قديم الزمان إلى يومنا هذا ، ولا تكاد تجد رجلاً أوغل في دراسة سيرة الرسول إلا وكتاب ابن إسحاق إمامه الأول في ذلك .

وقد عرفت سيرة ابن إسحاق بين العلماء منذ عهد عهيد باسم « سيرة ابن هشام » لَما أنه كان روايَها ومهذبها . يقول ابن خلكان : « وابن هشام هذا هو الذي جمع سيرة رسول الله ﷺ من المغازي والسير لابن إسحاق . وهذبها ولخصها ، وهي السيرة الموجودة بأيدي الناس ، والمعروفة بسيرة ابن هشام » .

وقد لقيت هذه السيرة من الدارسين والشارحين عناية صادقة ، شرحها أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي[١] (٥٨١) شرحاً مسهباً في كتابه المسمى « الروضة الأنف » .

وجاء بعده أبو ذر الخشني[٢] ، فتصدى للكتاب فشرح غريبه ، وكتب شيئاً من النقد في كتابه « شرح السيرة النبوية » الذي نشره الدكتور برونله .

وصنع بدر الدين محمد بن أحمد العيني شرحاً لها سماه « كشف اللثام ، في شرح سيرة ابن هشام » فرغ منه سنة ٨٠٥ .

ومن ناحية أخرى نجد آخرين قد عنوا باختصار السيرة ، ومنهم برهان الدين إبراهيم بن محمد المعروف بابن المرحل الشافعي ، اختصرها وزاد عليها بعض ما كان ينقصها في كتاب جعله ثمانية عشر مجلساً ، سمَّاه « الذخيرة، في مختصر السيرة » أتم تأليفه سنة ٦١١ . وأبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي ، اختصرها

---

(١) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ الخثعمي السهيلي الأندلسي المالقي . وسهيل : واد بالأندلس من كورة مالقة . عاش حياته في الأندلس إذا ولد بها سنة ٥٠٨هـ وأقام بمراكش أعواماً ثلاثة حيث توفي بها سنة ٥٨١هـ .

(٢) هو أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الجياني الخشني . نسبة إلى خشين ، وهي قرية بالأندلس ، وقبيلة من قضاعة . ولد سنة ٥٣٢هـ وتوفي سنة ٦٠٤هـ .

في كتاب سماه « مختصر سيرة ابن هشام » فرغ منه سنة ٧١١ .

وممَّن نظمها شعراً أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن سعيد الدميري الديريني وكانت وفاته سنة ٦٦٣ . وأبو بكر محمد بن إبراهيم المعروف بابن الشهيد المتوفى سنة ٧٩٣ . وقد سمى كتابه « الفتح القريب ، في سيرة الحبيب » ، وهو في بضع عشرة ألف بيت .

تهذيب سيرة ابن هشام :

وقد كنت في صدر الشباب أحاول المرة بعد الأخرى أن أقرأ هذا الكتاب الجليل من مبتدئه إلى منتهاه ، فكان يصدُّني عن ذلك ما كنت أجده في ذلك التأليف من اضطراب واستطراد يكدُّ الذهن ويجلب السأمة ، فلا أقرأ منه إلا أجزاء متناثرة أراها كالرياض في صميم الفلاة ، يغريني بقراءتها ما يجتذبني من جمال القول وجلال الغاية .

والحق أنني كنت أجد في تلاوة السيرة شيئاً مما كنت أجد في تلاوة الكتاب الكريم وحديث الرسول من تعبد صادق وخشوع خاضع . ولعل سراً دفيناً كان ينزع بي إلى معاودة تلك التلاوة ، أن والدي رحمه الله كان ممن ألفوا في السيرة ، صنع في ذلك موجزاً سماه « تلخيص الدروس الأوليَّة ، في السيرة المحمدية » ، وجعله في ثلاثين فصلاً ، وظل ذلك الكتاب دهراً طويلاً لا يدرس سواه في المعاهد الدينية ، إذ كان من برامج الدراسة فيها درس خاص يسمى « درس السيرة » .

ولكني مع ذلك لم أوفق لقراءة الكتاب كله ، لما ذكرت من اضطراب التأليف وشيوع الاستطراد . فقارىء السيرة تعترضه فصول طوال في أسماء أسارى بدر ، وأسماء خيل المسلمين ببدر ، وجريدة من حضر ببدر من المسلمين من قريش ومن الأنصار ، ومن استشهد منهم يوم بدر ، ومن قتل به من المشركين ، وما قيل من الشعر في يوم بدر ، وأشباه ذلك من الأمور السردية ، ومن الأشعار المسهبة والأنساب المطوَّلة ، والاستطرادات اللغوية ، وطائفة من تفسير كتاب الله مما لا يدخل في صميم السيرة وإن كان يحوم حولها . وشيء آخر هو السند الذي تصدر به معظم فقار السيرة ، مما ليس له قدر إلا عند الناقدين من العلماء .

فحاولت في هذا « التهذيب » أن أستخلص لباب هذا التأليف لأقدمه إلى القارىء

في ثوب جديد يستسيغ النظر فيه ، ولا تنقطع به السبيل في تلاوته ، مع الحرص التام على نص الكتاب ، بحيث يستطيع القارىء أن يقتبس منه ويستشهد به معزواً إلى أصله الأول ، فإني لم أبدل حرفاً واحداً من نص الكتاب؛ لأني راعيت فيه أمانة الأداء ، وراعيت باطراد أن أنسب إلى ابن هشام ما هو له ، بأن أنص على ذلك في صدر كلامه ، أو أجعله وحده في حاشية الكتاب معزواً إليه ، طبقا لما يقتضيه التأليف . وأما سائر النصوص فهي نصوص ابن إسحاق من رواية ابن هشام . ولم أذكر من الإسناد إلا ما هو ضروري لإقامة النص ، مما رواه ابن إسحاق أو ابن هشام منسوبا إلى قائله .

وقد عنيت أن أضبط تلك النصوص جميعاً ، وأن أفسر منها ما يحتاج إلى توضيح ، معتمداً في ذلك على شراح السيرة ، وكتب الآثار واللغة المعتمدة .

وأما بعد : فإن التهذيب ضرب من التيسير لمن لم تتح له قراءة الأصل . ووصلة صالحة تصـل بين شباب اليوم وتراثهم القديم الكريم .

وبحسبك أنك تستطيع أن تقرأ هذا الكتاب في أيام معدودات فتظفر منه بالخير العاجل الكثير ، وأنت إذا قرأت الأصل . ولست بمطيقه ، اقتضاك هذا من الوقت أشهراً معدودات .

والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب نافعاً ، كما أحتسبه فيما قدمت للعلم من مجهود ضئيل ، أردت به فيما أردت رضوان الله ورضوان الرسول .

مصر الجديدة في ربيع الثاني ١٣٩٦
ابريل ١٩٧٦

عَبد السَّلام مُحمد هَارُون

بسم الله الرحمن الرحيم

تهذيب
سيرة ابن هشام

* ذِكر سَرْدِ النسَبِ الزَّكِيّ *
مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ إلَى آدَمَ عليهِ السَّلَامَ

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام :

هذا كتاب سيرة رسول الله ﷺ : محمد بن عبد الله بن عبد المطَّلب ، (واسم عبد المطلب شَيبة) بن هاشم ، (واسم هاشم عمرو) بن عبد مناف (واسم عبد مناف المغيرة) بن قُصَيّ ، (واسم قصي زيد) بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر بن مالك بن النَّضْر بن كِنانة بن خُزيمة بن مدركة ، (واسم مدركة عامر) بن الياس بن مُضَر بن نِزار بن مَعدّ بن عدنان بن أدّ ، ويقال أدَد ، بن مقوِّم بن ناحور بن تَيرح بن يَعرُب بن يشجُب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن بن تارح (وهو آزر) بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالَخ بن عَيْبر بن شالَخ بن أرفَخْشَذ بن سام بن نوح بن لَمْك بن متوشَلَخ بن أخنوخ (وهو إدريس النبي ﷺ فيما يزعمون) بن يَرْد بن مَهْلَيل بن قَيْنَن بن يانش بن شِيث بن آدم ﷺ .

قال ابن هشام :

وأنا إن شاء الله مبتدىء هذا الكتاب بذكر إسماعيل بن إبراهيم ، ومن وَلَد رسولَ الله ﷺ من وَلدِه وأولادهم لأصلابهم الأوّلَ فالأول ، من إسماعيل إلى رسول الله ﷺ ؛ وما يَعرض من حديثهم ، وتاركٌ ذكر غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة للاختصار ، إلى حديث سيرة رسول الله ﷺ ، وتاركٌ بعض ما ذكره ابن إسحاقَ في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله ﷺ فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعاراً ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضُها يشنع الحديث

به ، وبعض يسوء بعضَ الناس ذِكرُه ، وبعض لم يقرّ لنا البَكّائيُّ[1] بروايته ، ومستقصٍ إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه ، بمبلغ الرواية له ، والعلم به .

* سِياقَةُ النَّسَبِ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ *

وَلد إسماعيلُ بن إبراهيم عليهما السلام اثنَيْ عشر رجلاً : نابتاً ، وقيدر ، وأذبل ، ومنشا ، ومسمعا ، وماشى ، ودِما ، وأذر ، وطيما ، وتطورا ، ونبش ، وقَيذُما .

فولد نابت بن إسماعيل يشجبَ بن نابت ، فولد يشجب يعرِبَ ، فولد يعرب تيرح ، فولد تيرح ناحور ، فولد ناحور مقوّم ، فولد مقوّم أُدد ، فولد أُدد عدنان .

فمن عدنان تفرَّقت القبائل من ولد إسماعيل .

فولد عدنان رجلين : معدّ بن عدنان ، وعَكّ بن عدنان .

فصارت عكٌّ في دار اليمن . وذلك أن عكاً تزوّج في الأشعريِّين فأقام فيهم ، فصارت الدار واللغة واحدة . والأشعريون بنو أشعر بن نبت بن أُدد بن هميَسَع بن عمرو بن عَريب بن يَشجُب بن زيد بن كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وولد معد بن عدنان أربعة نفر : نزار ، وقُضاعة ، وقَنَص ، وإياد . فأما قضاعة فتيامَنَتْ إلى حمير بن سبأ ، وأما قنص بن معد فهلكت بقيتهم فيما يزعم نُسّاب معد ، وكان منهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

* رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ نَصْرٍ *

وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هالَتْه وفَظِع بها ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عائفاً[2] ، ولا منجّما من أهل مملكته إلاّ جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيَا هالَتْني وفَظِعت بها ، فأخبروني بها وبتأويلها . قالوا

---

(١) هو شيخ ابن هشام وتلميذ ابن إسحاق ، واسمه زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي . توفي سنة ١٨٣هـ والبكاء : بطن من بني عامر بن صعصعة .

(٢) العائف : الذي يزجر الطير ، يتكهن بأسمائها وأصواتها ومرورها .

له : اقصُصها علينا نخبرْك بتأويلها قال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرف تأويلها إلّا من عرفها قبل أن أخبره بها . فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سَطيح وشِقّ ، فإنه ليس أحدٌ أعلمَ منهما ، فهما يخبرانه بما سأل عنه .

فبعث إليهما فقدم إليه سَطيح قبل شِقّ ، فقال له : إنِّي قد رأيت رؤيا هالتني وفظعت بها فأخبرني بها ، فإنك إن أصبتَهَا أصبتَ تأويلها . قال : أفعلُ ، رأيتَ حُمَمة ، خرجت من ظُلُمة فوقعت بأرضٍ تَهِمة ، فأكلتْ منها كلَّ ذات جُمجمة[1] !

فقال له الملك : ما أخطأتَ منها شيئاً يا سطيح ، فما عندك في تأويلِها ؟

فقال : أحلفُ بما بين الحَرَّتين من حَنَش ، لتهبطن أرضكم الحبَش ، فليملكُنّ ما بين أَبْيَنْ إلى جُرَش[2] ! .

فقال له الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لغائظٌ موجع ، فمتى هو كائن أو في زماني هذا أم بعدَه ؟

قال : لا بل بعده بحين ، أكثر من سِتِّين أو سبعين ، يمضين من السِّنين !

قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟

قال : لا ، بل ينقطع لبضعٍ وسبعين من السنين ، ثم يُقتلون ويخرجون منها هاربين .

قال : ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم بن ذي يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن .

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بلى ، ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ قال نبيّ زكيّ ، يأتيه الوحي من العليّ ! قال : وممن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر ، بن مالك بن

---

(١) الحممة : القطعة من النار . تهمة : منخفضة .

(٢) أبين وجرش : بلدان في اليمن .

النضر ، يكون الملكُ في قومه إلى آخر الدهر !

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم، يوم يُجمع فيه الأوّلون والآخرون ، يَسعد فيه المحسنون ، ويشقَى فيه المسيئون .

قال أحقٌّ ما تخبروني ؟

قال : نعمْ ، والشَّفقِ والغَسَق ، والفلَق إذا اتَّسق ، إنَّ ما أنبأتُك لحَق .

ثم قدم عليه شِقٌّ فقال له كقوله لسطيح ، وكتَمَه ما قال سطيحٌ لينظر أيتَّفِقان أم يختلفان .

قال : نعمْ ، رأيتَ حُمَمة ، خرجت من ظُلمة ، فوقعت بين أرض وأكَمَة ، أكلتْ منها كل ذات نَسمة .

فلما قال له ذلك عرف أنَّهما قد اتَّفقا ، وأن قولهما واحد ، إلا أنَّ سطيحاً قال : « وقعت بأرض تهمة ، فأكلت منها كل ذات جمجمة » ، وقال شق : « وقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كلَّ ذات نسمة » .

فقال له الملك : ما أخطأتَ يا شقُّ منها شيئاً فما عندك في تأويلها ؟

قال : أحلف بما بين الحرّتين من إنسان ، لينزلَنَّ أرضَكم السُّودان ، فليغلُبنَّ على كلّ طَفلة البنان ، وليملُكنَّ ما بين أبيَنَ إلى نجران !

فقال له الملك : وأبيك يا شِقّ إن هذا لَنا لغائظ موجع فمتى هو كائِن ؟ أفي زماني أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منهم عظيمٌ ذو شان ، ويذيقُهم أشدَّ الهَوان !

قال : ومَن هذا العظيم الشان ؟ قال : غلام ليس بدَنيٍّ ولا مُدَنّ[1] ، يخرج عليهم من بيت ذي يَزَن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن .

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع برسولٍ مرسل ، يأتي بالحق

---

(١) المدني : المقصر في الأمور ، أو من يتبع خسيسها .

والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل .

قال : وما يوم الفصل ؟ قال : يومٌ تُجزَى فيه الولاة ، ويُدْعَى فيه من السماء بِدَعَوات ، ويسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع فيه بين الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتّقى الفوز والخيرات !

قال : أحقٌّ ما تقول ؟ قال : إي وربِّ السماء والأرض ، وما بينهما من رفْعٍ وخفض ، إن ما أنبأتُك به لحقٌّ ما فيه أَمْضٌ[1].

فوقع في نفس ربيعة ما قالا ، فجهَّز بيته وأهل بيته الى العراق بما يُصلحهم وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارسَ يقال له سابور بن خُرزاذ ، فأسكنهم الحِيرة .

* اسْتِيلاءُ أَبِي كَرِب تبَانِ أَسْعَدَ عَلَى مُلْكِ اليَمَنِ * وغَزْوُهُ إِلَى يَثْرِب

فلما هلك ربيعة بن نصر رجع مُلك اليمن كله إلى حسان بن تَبَان أسعد ، أبي كرب .

وكان أبوه تبان أسعد قد جعل طريقه حين أقبل من المشرق على المدينة فلم يَهِجْ أهلَها ، وخلَّف بين أظهرهم ابناً له فقُتل غِيلة ، فقدِمَها مرة أخرى وهو مُجمعٌ لإخرابها واستئصال أهلها ، فجمع له هذا الحيُّ من الأنصار ، ورئيسهم عمرو بن طَلَّة ، فاقتتلوا . فتزعُم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويَقْرونه باللَّيل[2] ، فيعجبه ذلك منهم ويقول : والله إنَّ قومنا لكرام !

فبينا تُبَّعٌ على ذلك من قتالهم إذ جاءه حَبْران من أحبار يهودَ عالمان ، راسخان في العلم ، حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها ، فقالا له : أيُّها الملك ، لا تفعل ، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حِيلَ بينك وبينها ، ولم نأمن عليك عاجلَ العقوبة ! فقال لهما : لم ذلك ؟ فقالا : هي مُهاجَر نبيٍّ يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزَّمان ، تكون دارَة وقراره !

---

(١) أي ما فيه شك أو باطل .

(٢) قرى الضيف يقريه : أضافه وأطعمه .

فتناهى عَن ذلك ورأى أن لهما علماً ، وأعجبه ما سمع منهما ، فانصرف عن المدينة واتّبعهما على دينهما .

وكان تُبَّع[1] وقومُه أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجّه إلى مكّة وهي طريقهُ إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عُسفان وأَمَج[2] أتاه نفرٌ من هُذيل بن مدركة فقالوا له : أيُّها الملك ، ألَا ندلُّك على بيت مالٍ داثر أغفلَتْه الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزَّبرجد والياقوت ، والذهب والفضة ؟ قال : بلى . قالوا : بيت بمكة يعبده أهلُه ، ويصَلُّون عنده !

وإنما أراد الهذليون هلاكَه بذلك ، لما عرفوا من هلاك من أراده مِنَ الملوك وبَغَى عنده .

فلما أجمَعَ لمَا قالوا أرسلَ إلى الحبرين فسألهما عن ذلك ، فقالا له : ما أراد القومُ إلا هلاكَك وهلاك جندك ، ما نعلمُ بيتاً لله اتّخذه في الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك إليه لَتهلِكنّ وليَهلِكنَّ من معك جميعاً ! قال : فماذا تأمرانني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله : تطوف به وتعظِّمه وتكرّمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذلَّ له حتى تخرج من عنده . قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟ قالا : أَما والله إنَّه لَبيتُ أبينا إبراهيم ، وإنه لَكمَا أخبرناك ، ولكنَّ أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله ، وبالدماء التي يَهرِيقون عنده ، وهم نَجَسٌ أهل شرك !

فعرف نُصحهما وصدقَ حديثهما ، فقرّب النَّفَر من هُذيل فقطع أَيديَهم وأرجلهم ، ثم مضى حتى قدِم مكّة ، فطاف بالبيت ونَحَر عنده ، وحلق رأسَه ، وأقام بمكّة ستة أيام ينحر بها للناس ويُطعم أهلها ، ويسقيهم العسل .

وأُريَ في المنام أن يكسوَ البيت ، فكساه الخَصَف[3]؛ ثم أُريَ أن يكسوه أحسنَ من ذلك ، فكساه المُلاء والوصائل[4].

---

(١) هو تبان أسعد والد أبي كرب .

(٢) أمج : بلد من اعراض المدينة .

(٣) الخصف : جمع خصفة ، وهو كساء غليظ جداً .

(٤) الملاء : جمع ملاءة . والوصائل : ثياب يمانية .

وكان تُبَّع فيما يزعمون أوّلَ من كسا البيت وأوصى به وُلاته من جُرهم؛ وأمرهم بتطهيره، وألا يُقْربوه دماً ولا مَيتةً ولا مِئلاة[1]. وجعل له باباً ومفتاحاً.

ثم خرج منها متوجهاً الى اليمن بمن معه من جنوده والحبرين، حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه، فأبَوْا عليه حتى يحاكموه إلى النار التي كانت باليمن.

وكانت نارٌ تحكم بينهم فيما يختلفون فيه: تأكل الظالم ولا تضُرُّ المظلوم. فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم، وخرج الحَبرانِ بمصاحفهما في أعناقهما متقلِّدَيْهِمَا، حتى قعدوا للنار عند مخرجها التي تخرج منه؛ فخرجت النار إليهم، فلما أقبلت نحوهم حادُوا عنها وهابوها، فَذَمَرهم[2] من حضرهم من الناس وأمروهم بالصَّبر لها، فصبَروا حتى غشيَتْهم فأكلت الأوثان وما قرَّبوا معها، ومن حمل ذلك من رجال حمير. وخرجَ الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تَعرق جباهُهما لم تضُرَّهما. فأصفقت[3] عند ذلك حِمير على دينه.

فمن هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن.

فلما ملك ابنه حسان بن تُبَانَ أسعدَ سار بأهل اليمن، يريد أن يطأ بهم أرضَ العرب وأرض الأعاجم، حتى إذا كانوا بأرض البحرَين كرهت حمير وقبائل اليمن المسيرَ معه، وأرادوا الرَّجعةَ إلى بلادهم وأهلهم، فكلَّموا أخاً له يقال له عمرو ـ وكان معه في جيشه ـ فقالُوا له: اقتل أخاك حسان، ونُملِّكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا. فأجابهم فاجتمعوا على ذلك إلا ذا رُعينِ الحميريَّ فإنَّه نهاه عن ذلك، فلم يَقبل منه، فقال ذو رعين:

ألا من يَشتري سهراً بنومٍ ... سعيدٌ مَن يبيتُ قريرَ عينِ
فإمّا حميرٌ غدرت وخانتْ ... فمعذرةُ الإلَــهِ لذي رُعينِ

ثم كتبهما في رقعة وختم عليها، ثم أتى بها عمراً فقال له: ضع لي هذا الكتابَ عندك. ففعل، ثمَّ قتل عَمرو أخاه حسّان ورجع بمن معه إلى اليمن.

---

(١) المئلاة: خرقة الحائض.

(٢) ذمره: لامه وحضه.

(٣) أصفقوا: اجمعوا.

فلما نزل عمرو بن تبان اليمنَ مُنع منه النوم ، وسُلِّط عليه السهر ، فلما جَهَده ذلك سأل الأطبّاء والحُزاة[1] من الكُهّان وَالعَرّافينَ عمّا به ، فقال له قائلٌ منهم : إنّه والله ما قتل رجلٌ قطُّ أخاه أو ذا رحِمِه بغياً ، علي مثلِ ما قَتلتَ أخاكَ عليه ، إلّا ذهب نومُه وسُلِّط عليه السهر . فلمّا قيل له ذلك جعل يقتُل كلَّ مَن أمرَه بقتل أخيه حسانٍ من أشراف اليمن ، حتّى خلَصَ إلى ذي رُعَين ، فقال له ذو رعين : إنَّ لي عندك براءةً . فقال : وما هي ؟ قال : الكتاب الذي دفعتُ إليك . فأخرجَه فإذا فيه البيتان ؛ فتركَه ورأى أنّه قد نصحَه .

وهلك عمرو ، فمرِج أمر حمير عند ذلك وتفرَّقوا .

فوثَب عليهم رجلٌ من حميرَ لم يكن من بيوت المملكة ، يقال له : « لَخْنيعة يَنُوفُ ذو شَناتر » ، فقَتل خيارَهم ، وعَبِثَ ببيوت أهل المملكة منهم .

وكان لخنيعة أمراً فاسقاً يعمل عمل قوم لوط ، فبعث إلى زُرْعَة ذي نواس بن تُبَّان أسعد ، أخي حَسّان ـ وكان صبيًّا صغيراً حين قُتِل حسان ، ثم شبَّ غلاماً وسيماً ذا هيئة وعقل ـ فلما أتاه رسولُه عرف ما يريد منه ، فأخذ سكِّيناً حديداً لطيفاً ، فخَبأه بين قدمه ونعله ثم أتاه ، فلما خلا معه وثب إليه ، فواثَبه ذو نواس فوجأه[2] حتى قتله ، ثم خرجَ على الناس فقالوا : ما ينبغي أن يملكنا غيرك ، إذ أرحتنا من هذا الخبيث .

فملَّكوه واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن ، فكان آخرَ ملوك حمير ، وهو صاحب الأخدود ، فأقام في ملكه زماناً .

وكان بنَجْران[3] بقَايا من أهل دين عيسى ابن مريم عليه السلام ، أهلُ فضل واستقامة ، لهم رأسٌ يُقَال له عبد الله بن الثامر ، فسار إليهم ذو نُواس بجنوده فدعاهم إلى اليهوديّة . وخيّرهم بين ذلك والقتل ، فخدَّ لهم الأخدود[4] ، فحرّق من حرّق بالنار ، وقَتل بالسَّيف ومثَّل بهم ، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً .

---

(١) الحزاة : جمع حاز ، وهو الذي يزجر الطير ويستدل بأصواتها ومرورها وأسمائها .

(٢) وجأه : ضربه بالسكين ونحوها .

(٣) نجران : مخلاف من مخاليف اليمن .

(٤) الأخدود : حفرة مستطيلة غامضة في الأرض .

ففي ذي نواس ذلك وجُندِه أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ : ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ(*) النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ(*) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(*) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ(*) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ .

ويقال : كان فيمن قَتل ذو نواس عبد الله بن الثامر ، رأسُهم وإمامهم .

* غَلَبَةُ الحَبَشَةِ عَلَى اليَمَن *

وأفلت منهم رجلٌ من سبإٍ يقال له « دَوس ذو ثُعلُبان » على فرسٍ له ، فسلك الرمل فأعجزهم ؛ فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر ملك الرومِ ، فاستنصره على ذي نواس وجنوده ، فأخبره بما بَلَغ منهم . فقال له : بعُدت بلادُك منَّا ، ولكنِّي سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنَّه على هذا الدين ، وهو أقربُ إلى بلادك . وكتب إليه يأمرهُ بنصره ، والطلبِ بثأره . فقدِم دوسٌ على النَّجاشي بكتابِ قيصر ، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة ، وأمَّر عليهم رجلاً منهم يقال له أرياطُ ، ومعه في جنده « أبرَهةُ الأشرم » .

فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ، ومعه دَوس ذو ثُعْلُبان ، وسار إليه ذو نواس في حِمير ومَن أطاعه من قبائلِ اليمن ، فلمَّا التقوا انهزم ذو نواسٍ وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجَّه فرسَه في البحر ، ثم ضَربه فدخل به فخاض به ضحضاح البحر(١) حتى أفضى به إلى غَمْره(٢) فأدخلَه فيه ، وكان آخر العهد به .

ودخل أرياط اليمن فملكها .

* نِزَاعُ أَرْيَاطَ وأَبْرَهَة *

فأقام أرياط بأرض اليمن سنين في سلطانه ذلك ، ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهةُ الحبشي حتى تفرقت الحبشةُ عليهما ، فانحاز إلى كلٍّ واحدٍ منهما طائفةٌ منهم ، ثم ثار أحدهما إلى الآخر ، فلمَّا تقارب الناس أرسل أبرهةُ إلى أرياط : إنَّك لا تصنع

(١) الضحضاح : الماء اليسير الذي لا غرق فيه .

(٢) الغمر : الماء الكثير يغرق فيه .

بأن تلقى الحبشةُ بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً؛ فابرُزْ إليَّ وأبرزَ إليك فأيُّنا أصابَ صاحبه انصرف إليه جنده . فأرسل إليه أرياط : أنصفت . فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً لحيما ، وكان ذا دين في النصرانية ، وخرج إليه أرياط وكان رجلاً جميلاً عظيما طويلاً ، وفي يده حربة له ، وخلف أبرهة غلام له يقال له « عَتْوَدَة » يمنع ظهره ، فرفع أرياطُ الحربة فضرب أبرهةَ يُرِيدُ يافوخه[1] فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وأنفه ، وعينَه وشفته ، فبذلك سمِّيَ « أبرهة الأشرم » . وحمل عَتودَةُ على أرياط من خلف أبرهة فقتله . وانصرف جند أرياط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن .

* قِصَّةُ أصحابِ الفِيل *

ثم إن أبرهة بنى القُلَّيْس[2] بصنعاء ، فبنى كنيسةً لم يُرَ مثلُها في زمانها بشيء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشيِّ : إني قد بنيتُ لك أيُّها الملك ، كنيسةً لم يُبنَ مثلُها لملكٍ كان قبلك ، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرفَ إليها حجَّ العرب ! .

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجلٌ من النَّسَأة[3] فخرج حتى أتى القُلَّيس فقعد فيها[4] ، ثم خرج فلحق بأرضه .

فأخبر بذلك أبرهة فقال : مَن صَنع هذا ؟ فقيل له : صنع هذا رجلٌ من العرب من أهل هذا البيت الذي تحجّ العرب إليه بمكّة ، لما سمع قولك « أصرف إليها حجَّ العرب » غضب فجاء فقعد فيها ، أي إنها ليست لذلك بأهل .

فغضب عند ذلك أبرهة ،وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه ، ثم أمر الحبشة فتهيّأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسمعت بذلك العربُ فأعظموه وفَظِعوا

---

(١) اليافوخ : وسط الرأس .

(٢) هي اسم الكنيسة التي أراد أبرهة أن يصرف إليها حج العرب ، وهي بضم القاف وتشديد اللام .

(٣) النسأة : جمع ناسىء ، وهم الذين كانوا ينسئون الشهور ، أي يؤخرونها ، كانوا إذا صدروا من منى يقول رجل منهم من كنانة فيقول : أنا الذي لا أعاب ولا أجاب ، ولا يرد لي قضاء ! فيقولون : صدقت ، أنسئنا شهراً ، أخر عنا حرمة المحرم واجعلها في صفر ، لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم لا يغيرون فيها ، لأن معاشهم كان من الغارة . فيحل لهم المحرم . فذلك الإنساء .

(٤) أي أحدث .

به ، ورأوا جهادَه حقًّا عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيتِ الله الحرام .

فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له « ذو نَفْر » ، فدعاه قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخرابه ، فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرض له فقاتله ، فهُزِم ذو نَفْر وأصحابه ، وأُخِذ له ذو نفر فأُتِيَ به أسيراً .

ثم مضى أبرَهة على وجهه ذلك ، يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نُفَيل بنُ حبيب الخثعمي في قبيلَيْ خثعم : شَهرانَ وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة ، وأُخِذ له نُفَيلٍ أسيراً . فخلَّى سبيله وخرج معه يدلُّه ، حتَّى إذا مرَّ بالطائف خرج إليه مسعود بن معتِّب ، في رجالٍ من ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتَنا هذا الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلُّك عليه . فتجاوزَ عنهم .

فبعثوا معه « أبا رِغَال » يدلُّه على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رِغَالٍ حتى أنزلَه المغمَّس[١] ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك ، فرجمت قبره العربُ . فهو قبرُه الذي يرجمُ الناسُ بالمغمَّس .

فلما نزل أبرهةُ المغمَّس بعث رجلاً من الحبشة يقال له « الأسود بن مفصود » على خيل له ، حتى انتهى إلى مكَّة ، فسَاق إليه أموال تِهامةَ من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتي بعيرٍ لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبيرُ قريش وسيِّدها ، فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة حُناطة الحميريّ إلى مكة فقال له : سلْ عن سيِّد أهل هذا البلد وشريفها . ثم قال له : إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحربٍ فلا حاجةَ لي في دمائكم . فإن هو لم يردْ حربي فأتني به .

---

(١) المغمس : موضع قرب مكة في طريق الطائف .

فلما دخل حُناطة مكَّة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم . فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربَه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيتُ الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعْه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفعٌ عنه . فقال حناطة : فانطلقْ معي إليه ، فإنه قد أمرني أن آتيَه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن « ذي نَفْر » ، وكان له صديقاً ، حتى دخل عليه وهو في محبسِه فقال له : ياذا نَفْر ، هل عندك من غَناءٍ فيما نزلَ بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غَناءُ رجلٍ أسيرٍ بيدَيْ ملك ينتظر أن يقتله غَدْواً أو عشيًّا ؟ ما كان عندي غَناءٌ في شيءٍ مما نزَلَ بك ؛ إلا أن أنيساً سائس الفيل صديقٌ لي ، وسأُرسل إليه فأُوصيه بذلك وأُعظم عليه حقَّك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلِّمَه بما بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدَر على ذلك . فقال : حَسْبِي . فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش ، وصاحب عِير مكة ، يُطعم الناس بالسهل ، والوحوشَ في رءُوس الجبال ، وقد أصاب له الملك؛ مائتي بعير ، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت . فقال : أفعل .

فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يسأذنُ عليك ، وهو صاحب عِير مكة[1] ، وهو يطعم الناس في السهل ، والوحوشَ في رءُوس الجبال ، فأذَنْ له عليك فليكلِّمك في حاجته . فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أوسمَ الناس وأجملَهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظَمه ، وأكرمه أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : قل له : حاجتك . فقال له ذلك الترجمان ، فقال : حاجتي أن يردَّ عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي . فلما قال ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتَني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلَّمتني ! أتكلِّمني في مائتي بعير أصبتُها لك وتترك بيتاً هو دينُك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تكلِّمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : إني أنا ربُّ الإبل ، وإن للبيت ربًّا سيمنعه ! قال : ما كان ليمتنع مني ! قال : أنت وذلك .

---

(١) العير ، بالكسر : قافلة التجارة .

وردَّ أبرهة على عبد المطَّلب الإبل التي أصاب له ، وانصرف عبد المطلب إلى قريشٍ فأخبرهم الخبرَ ، وأمرهم بالخروج من مكَّة والتحرّز في شعَف الجبال والشِّعاب[1] ، تخوُّفاً عليهم من مَعَرَّة الجيش[2] . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفرٌ من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجُنده ، فقال عبد المطلب ، وهو آخذٌ بحلْقة باب الكعبة :

لا هُـمَّ إن العبد يَمْـ ـنعُ رحلَه فامنعْ حِلالَك[3]
لا يغلبَنَّ صليبُهُم ومِحالُهم غَدْواً مِحالك[4]
إن كنت تاركَهم وقبـ ـلتنا فأَمرٌ ما بَدَا لك

ثم أرسل عبد المطَّلب حَلْقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكَّة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ، وعبَّى جيشه ، وكان اسم الفيل « محموداً » ، وأبرهة مُجمعٌ لهدم البيت ثم الانصرافِ إلى اليَمن ، فلما وجَّهوا الفيلَ إلى مكة أقبل نُفَيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأُذنه فقال : ابرُكْ أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام ! ثم أرسل أُذنه فبرك الفيل ، وخرج نفيلٌ يشتدُّ حتى أصعَدَ في الجبل ، وضربوا الفيلَ ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطَّبَرْزِين[5] ليقومَ فأَبى ، فأدخلوا محاجِنَ لهم في مَرَاقِّه فبزَغوه بها ليقومَ فأبى[6] ، فوجَّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يُهرول ، ووجَّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجَّهوه إلى مكة فبرك ، فأرسل الله تعالى طيراً من البحر أمثالَ الخطاطيف والبلَسان[7] ، مع كلّ طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجرٌ في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحِمَّص والعدَس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلَّهم أصابت . وخرجوا هاربين

---

(١) التحرز : التمنع والتحصن . شعف الجبال : رءوسها . والشعاب : المواضع الخفية بين الجبال .

(٢) معرة الجيش : شدته .

(٣) الحلال : جمع حلة ، بالكسر ، وهم القوم المجتمعون . ويروى : « رحالك » .

(٤) المحال : بالكسر : الشدة والقوة .

(٥) الطبرزين : آلة معقفة من حديد .

(٦) المحجن : عصا معوجة قد يجعل فيها حديد . والمراق : أسفل البطن . بزغوه : أدموه .

(٧) الخطاطيف : جمع خطاف ، وهو طائر أسود . والبلسان : الزرازير .

يبتدرون الطريق الذي منه جاءُوا ، يتساقطون بكل طريق ، ويهلِكون بكل مهلِك ، على كلِّ منهَل ، وأُصيب أبرهة في جسده فمات .

قال ابن إسحاق :

فلما بعث الله تعالى محمداً ﷺ كان ممَّا يعُدُّ الله على قريش من نعمه عليهم وفضلِه ، ما ردَّ عنهم من أمر الحبشة ، لبقاء أمرهم ومدَّتهم ، فقال الله تبارك وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأكُولٍ﴾ .

* ذِكرُ وَلَدِ نِزَارِ بنِ مَعَدٍّ *

فولَدَ (نزار) بن مَعَدٍّ ثلاثة نفر[1] : مُضَرُ ، وربيعة ، وأنمار .

فولد (مضر) رجلين : إلياس ، وعيلان .

فولد (إلياس) ثلاثة نفر : مدركة ، وطابخة ، وقَمَعة .

فولد (مدركة) رجلين : خزيمةُ ، وهذيل .

فولد (خُزَيمة) أربعة نفر: كنانة ، وأسَد ، وأسَدة ، والهُون .

فولد (كنانة) أربعة نفر : النضر[2] ، ومالك ، وعبد مناة ، ومِلْكان .

فولد (النَّضر) رجلين : مالك ، ويخلُد .

فولد (مالك) بن النضر : فهرَ بن مالك .

فولد (فِهْر) أربعة نفر : غالب ، ومحارب ، والحارث ، وأسد .

فولد (غالب) رجلين : لؤيّ ، وتَيْم .

فولد (لؤي) أربعة نفر : كعب ، وعامر : وسامة ، وعوف .

فولد (كعب) ثلاثة نفر : مرة ، وعدِيّ ، وهُصَيص .

---

(١) زاد ابن هشام رابعاً ، هو إياد بن نزار .

(٢) قال ابن هشام : النضر قريش ، فمن كان من ولده فهو قرشي ، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي ويقال فهر بن مالك هو قريش .

فولد (مُرّة) ثلاثة نفر : كلاب ، وتَيم ، ويَقَظة .

فولد (كلاب) رجلين : قُصَيّ ، وزُهْرة .

فولد (قصيّ) أربعة نفر : عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العُزَّى ، وعبد قصَيّ .

فولد (عبد مناف) أربعة نفر : هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل .

* أَوْلَادُ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِم *

قال ابن هشام :

فولد عبد المطَّلب بن هاشم عشرة نفر وستَّ نسوة : العباسَ ، وحمزة ، و (عبد الله) ، وأبا طالب ، والزُّبير ، والحارثَ ، وحَجْلًا ، والمقوِّم ، وضِراراً ، وأبا لهب واسمه عبد العُزَّى ، وصفيّة ، وأُمّ حكيمٍ البيضاءَ ، وعاتكة ، وأُميمة ، وأروَى ، وبَرَّة .

* والِدَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ *

فولد عبد الله بن عبد المطلب رسولَ الله ﷺ ، سيد ولدِ آدم ، محمدَ بن عبد الله بن عبد المطَّلب ، صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه وعلى آله .

وأُمّه : آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضر .

وأُمُّها بَرّة بنت عبد العُزَّى بن عثمان بن عبد الدار بن قصَيّ بن كِلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

فرسول الله ﷺ أشرف ولد آدم ، وأفضلهم نسباً ، من قِبَل أبيه وأُمّه ، صلى الله عليه وسلم ، وشرَّف وكرّم ، ومجَّد وعظَّم .

* حَفْرُ زَمْزَمَ وما جَرَى مِنَ الخُلْفِ فِيها *

ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم في الحِجْر[1] إذ أُتي فأُمِر بحفر زمزم .

---

(١) الحجر : حجر الكعبة ، وهو ما تركت قريش في بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام .

قال عبد المطلب :

إني لنائمٌ في الحِجر إذْ أتاني آتٍ فقال : احفر طِيبة . قلت : وما طِيبة ؟ ثم ذهب عنّي ، فلما كان الغد رَجعت إلى مضجعي فنمتُ فيه ، فجاءني فقال : آحفر المضنونة . فقلت : وما المضنونة ؟ ثم ذهب عنّي ، فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي فنمت فيه ، فجاءني فقال : آحفر زمزم . قلت : وما زمزم ؟ قال : لا تُنزَف أبداً ولا تُذَمّ(٢) ، تسقي الحجيجَ الأعظم ، وهي بين الفَرث والدم(٣) ، عند نَقْرة الغراب الأعصم(٤) .

فلمَّا بُيِّن له شأنها ودُلَّ على موضعها ، وعَرف أنه قد صُدِق ، غدَا بمِعولِه ومعه ابنه الحارث ، ليس له يومئذٍ ولد غيره ، فحفر فيها ، فلمَّا بدا لعبد المطلب الطَّيُّ(٤) كبّر ، فعرفت قريش أنه قد أدركَ حاجته ، فقاموا إليه فقالوا : يا عبد المطلب ، إنها بئر أبينا إِسماعيل ، وإن لنا فيها حقًّا ، فأشرِكنا معك فيها . قال : ما أنا بفاعل ، إنَّ هذا الأمر قد خُصِصْت به دونكم . فقالوا له : فأنصفنا فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها . قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمْكم إليه . قالوا : كاهنة بني سعد هُذَيم . قال : نَعَم ـ وكانت بأشراف الشام(٥) ـ فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر ، والأرض إذْ ذاك مفاوز ، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام ، فنِيَ ماءُ عبد المطلب وأصحابه ؛ فظمئوا حتّى أيقنوا بالهلَكة ، فاستسقَوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا : إنَّا بمفازة ، ونحن نخشى على أنفسنا مثلَ ما أصابكم . فلما رأى عبدُ المطلب ما صنع القومُ وما يتخوَّف على نفسه وأصحابه قال : ماذا ترون ؟ قالوا : ما رأيُنا إلا تبعٌ لرأيك ، فمرنا بما شئت . قال : فإني أرى أن يحفِرَ كلُّ رجل منكم حُفرتَه لنفسه بما بكم الآنَ من القوَّة ؛ فكلَّما مات رجلٌ دفعه أصحابه في حفرته ثم وارَوه ، حتى يكون آخركم رجلًا واحداً ،

---

(١) لا تذم : لا توجد قليلة الماء .

(٢) روي أنه لما قام ليحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل ونقرة الغراب ، ولم ير الفرث والدم ، فبينا هو كذلك فرت بقرة من جازرها ، فلم يدركها حتى دخلت المسجد الحرام ، فنحرها في الموضع الذي رسم ، فسال هناك الفرث والدم ، فحفر عبد المطلب حيث رسم له .

(٣) الأعصم : الذي في جناحيه بياض .

(٤) الطي : الحجارة تطوى بها البئر .

(٥) أي ما ارتفع من أرضها .

فضيعةُ رجلٍ واحدٍ أيسَرُ من ضيعة ركبٍ جميعاً . قالوا : نِعم ما أمرتَ به . فقام كل واحدٍ منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون الموتَ عطشاً . ثم إنَّ عبد المطَّلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت ، لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا ، لَعجز . فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد ؛ ارتحلوا . فارتحلوا حتى إذا فرَغوا ، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون.، تقدم عبد المطّلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عينٌ من ماءٍ عذب ، فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحابه ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه ، واستقَوْا حتى مَلئوا أسقيتهم . ثم دعا القبائل من قريش فقال : هلمَّ إلى الماء فقد سقانا الله ، فاشربوا واستقُوا .فجاءوا وشربوا واستقَوا ثم قالوا : قد والله قُضِيَ لك علينا يا عبد المطب ، والله لا نخاصمك في زمزمَ أبداً . إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سِقايتك راشداً !

فرجع ورجعوا معه ، ولم يَصِلوا إلى الكاهنة ، وخَلَّوا بينه وبينها .

* نَذْرُ عَبْدِ المُطَّلِبِ ذَبْحَ وَلَدِه *

وكان عبد المطلب بن هاشم ، قد نذر حين لقِيَ من قريش ما لقيَ عند حفر زمزم : لئن وُلد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتَّى يمنعوه لينحرنَّ أحدَهم لله عند الكعبة . فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه ، جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كلُّ رجل منكم قِدْحاً[1] ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتوني . ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على « هُبَل[2] » وكان هبلُ على بئر في جوف الكعبة . وكانت تلك البئر هي التي يُجمَع فيها ما يُهدَى للكعبة .

وكان عند هبل قداحٌ سبعة ، كل قِدح منها فيه كتاب ، قِدح فيه « العَقْل » إذا اختلفوا في العَقل[3] مَن يحمله منهم ، ضربوا بالقداح السبعة ؛ فإن خرج العقل فعلَى من خَرج حملُه . وقدِحٌ فيه « نَعَمْ » للأمر إذا أرادوه ، يُضرب به في القداح.وقدح فيه « لا » ، إذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح ، فإن خرج ذلك القِدحُ لم يفعلوا ذلك

---

(١) القدح بالكسر : قطعة من الخشب تعرض قليلاً وتسوى .

(٢) اسم صنم .

(٣) العقل : الدية .

الأمر . وقدح فيه « مِنكم » ، وقدح فيه « مُلصَق[1] » ، وقدح فيه « من غيركم » ، وقدح فيه « المياه » إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القِدح ، فحيثما خرج عمِلوا به .

وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غُلاماً أو يَنكِحوا مَنكَحاً ، أو يدفنوا ميتاً ، أو شكُّوا في نسب أحدهم ، ذهبوا به إلى هُبَل ، وبمائة درهم وجزور، فأعطَوها صاحبَ القداح الذي يضرب بها ، ثم قرَّبوا صاحبَهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلّهنا، هذا فُلانُ ابن فلانٍ، قد أردنا به كذا وكذا ، فأخرِج الحَقَّ فيه . ثم يقولون لصاحب القداح : اضربْ . فإن خرج عليه « منكم » كان منهم وسيطاً[2] ؛ وإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفاً ؛ وإن خرج عليه « مُلصَق » كان على منزلته فيهم ، لا نسب ولا حلف ؛ وإن خرج فيه شيءٌ مما يعملون به « نعمْ » عملوا به ؛ وإن خرج « لا » أخَّروه عامَه ذلك حتى يأتوه به مرة أُخرى ، ينتهون في أُمورهم إلى ذلك مما خرجتْ به القداح .

فقال عبد المطَّلب لصاحب القداح : اضرب على بنيَّ هؤلاء بقداحهم هذه . وأخبرَه بنذره الذي نذر ، فأعطاه كلُّ رجل منهم قِدحه الذي فيه اسمه ، وكان عبد الله أصغر بني أبيه[3] : وكان أحبَّ ولدِ عبد المطلب إليه ، فكان عبد المطلب يرى أن السَّهمَ إذا أخطأه فقد أشوى[4] .

فلمَّا أخذ صاحب القداحِ القداحَ ليضرب قام عبد المطلب عند هُبَل يدعو الله ، ثم ضرب صاحب القداح فخرج القدح على عبد الله ، فأخذه عبد المطلب بيده ، وأخذ الشَّفْرة ، ثم أقبل به إلى إسافٍ ونائلةَ ليذبحه ، فقامت إليه قريشٌ من أنديتها فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطَّلب ؟ قال : أذبَحُه . فقالت له قريشٌ وبَنوه : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعْذِر فيه[5] ، لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاءُ الناسِ على هذا ! وقال له المغيرة بن عبد الله بن عُمر بن مخزوم ، وكان ابنَ أُختِ

---

(١) الملصق : الدعي الذي ليس من نسب القوم .

(٢) وسيط : خالص النسب .

(٣) الملصق : الدعي الذي ليس من نسب القوم .

(٤) يقال : أشوى السهم ، إذا لم يصب المقتل .

(٥) أعذر إعذاراً : ثبت له عذر .

القوم : والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذِر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فَدَيناه ! وقالت له قريش وبنوه : لا تفعل انطلِقْ به إلى الحجاز ؛ فإنَّ به عَرَّافةً لها تابع ، فسَلْها ثم أنتَ على رأس أمرك ، إن أمَرَتْكَ بذبحه ذبحتَه ، وإن أمرتكَ بأمرٍ لك وله فيه فرجٌ قبِلته .

فانطلقوا حتى قدِموا المدينة فوجدوها بِخَيبر ، فركبوا حتى جاءُوها فسألوها ، وقصَّ عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه ، وما أراد به ، ونَذْرَه فيه ، فقالت لهم : ارجعوا عنِّي اليومَ حتَّى يأتيَني تابِعي فسأسأله . فرجعوا من عندها فلما خرجوا عنها قام عبد المطَّلب يدعـو الله ، ثم غدوا عليها فقالت لهم : قد جاءني الخبر ، كم الدِّيَة فيكم ؟ قالوا : عشرٌ من الإبل . قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قرِّبوا صاحبَكم وقرِّبوا عشراً من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقِداح ، فإن خرجَت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتَّى يرضى ربُّكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربُّكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدِموا مكَّة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطَّلب يدعو الله . ثم قدَّموا عبد الله وعشراً من الإبل ، وعبدُ المطَّلب قائم عند هبل يدعو الله عزَّ وجلّ ، ثم ضربوا فخرِج القِدْح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطَّلب يدعو الله عزَّ وجل . ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل أربعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله . ثم ضربوا فخرج على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل خمسين ، وقام عبد المطلب يدعو الله . ثم ضربوا فخرج القِدح على عبد الله . فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل ستين ، وقام عبد المطلب يدعو الله . ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل سبعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله . ثم ضربوا فخرج القِدح على عبد الله فزادوا عشراً فبلغت الإبل ثمانين ، وقام عبد المطلب يدعو الله . ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبل تسعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله . ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشراً من الإبل فبلغت الإبلِ مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله . ثم ضربوا فخرج القدح على « الإبل » فقالت قريشٌ ومن حضَرَ : قد انتهى رضا ربِّك يا عبد المطَّلب !

فزعموا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضربَ عليها ثلاثَ مرات . فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو فخرج القِدح على الإبل ؛ ثم عادوا

الثانيةَ وعبد المطلب قائم يدعو الله ، فضربوا فخرج القدح على الإبلِ ؛ ثم عادوا الثالثة وعبدُ المطلب قائم يدعو الله ، فضربوا فخرج القدح على الإبل ، فنُحرتْ ثم تركت لا يُصدُّ عنها إنسانٌ ولا يمنع .

* ذِكْرُ مَا قِيلَ لآمِنَةَ عِنْدَ حَمْلِها بِرسُولِ اللَّهِ ﷺ *

ويزعمون ـ فيما يتحدَّث الناس ، والله أعلم ـ أن آمنة بنت وهب أُمّ رسول الله ﷺ كانت تحدِّث :

أنها أُتيَت حين حَملتْ برسول الله ﷺ فقيل لها : إنك قد حملتِ بسيِّد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولي : « أُعيذه بالواحد ، من شرِّ كل حاسد ! » ، ثم سمِّيه محمداً(١) .

ورأت حين حملت به أنه خرج منها نورٌ رأت به قُصورَ بُصْرَى من أرض الشام .

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ أن هلك وأُمُّ رسول الله ﷺ حاملٌ به .

* وِلادَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ *

وُلِد رسول الله ﷺ يوم الإثنين ، لإثنَتيْ عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، عامَ الفيل(٢) .

عن قيس بن مخرمة قال : وُلدت أنا ورسول الله عام الفيل ، فنحن لِدتانِ(٣) .

عن حسان بن ثابت قال :

والله إنِّي لَغلامٌ يَفعَة(٤) ، ابن سبعِ سنينَ أو ثمان ، أعقل كلَّ ما سمعتُ ، إذْ سمعت يهوديًا يصرخ بأعلى صوتِهِ على أُطمةٍ(٥) بيثرب : يا معشر يهود ! حتى اذا

---

(١) لم يسم بهذا الإسم قبله ﷺ إلا ثلاثة ، طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر رسول الله وبقرب زمانه ، وأنه يبعث من الحجاز ، أن يكون ولداً لهم ، وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جد جد الفرزدق ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ، ومحمد بن حمران بن ربيعة ، كان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ممن لهم علم بالكتاب ، فأخبرهم بمبعث النبي ﷺ وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً ، فنذر كل منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً ، ففعلوا ذلك .

(٢) وقيل كان قبل مولده برمضان .

(٣) لدتان : مثنى لدة ، وهو ترب الإنسان يولد معه .

(٤) أي قوي ، قد طال قده .

(٥) الأطمة ، بفتحتين : الحصن .

اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك ! ما لك ؟ قال : طلع الليلة نجم أحمدَ الذي وُلدَ به .

فلما وضعْته أُمُّه ﷺ أرسلت إلى جدِّه عبد المطَّلب : إنه قد وُلدَ لك غلامٌ فأتِه فانظر إليه . فأتاه فنظر إليه ، وحدَّثْته بما رأت حين حملت به ، وما قيل لها فيه ، وما أُمِرت به أن تسمّيه .

فيزعمون أن عبد المطلب أخذه فدخل به الكعبةَ ، فقام يدعـو الله ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرجَ به إلى أُمّه فدفَعه إليها ، والتمس لرسول الله ﷺ المَراضع .

فاسترضع له امرأةً من سعد بن بكر ، يقال لها حليمة ابنة أبي ذُؤيب .

* حَدِيثُ حَلِيمَةَ *

كانت حليمة تحدِّث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابنٍ لها صغير[1] ترضعه في نسوةٍ من بني سعد ، تلتمس الرُّضَعاءَ[2] ، وذلك في سنةٍ شهباءَ[3] لم تُبْق لنا شيئاً . فخرجتُ على أتانٍ لي قَمْراء[4] معنا شارفٌ لنا[5] ، والله ما تَبِضُّ بقَطرة[6] ، وما ننام ليلَنا أجمعَ مِن صبيِّنا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثدييَّ ما يُغْنيه ، وما في شارفنا ما يغذِّيه ، ولكنَّا كنَّا نرجو الغيث والفرج . فخرجتُ على أتاني ، فلقد أدَمْتُ[7] بالرَّكْب حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفاً وعَجَفاً[8] حتَّى قدمْنا مكَّة نلتمس الرُّضعاء ، فما مِنَّا امرأةٌ إلا وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنَّا إنَّما كنَّا نرجو المعروفَ من أبِي الصبيِّ ، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أُمُّه وجَدّه ! فكنَّا نكرهه لذلك . فما بقيت امرأةٌ كانت معي إلاَّ أخذت رضيعاً ، غيري . فلمَّا أجمعنا الانطلاقَ قلت لصاحبي[9] : والله إنِّي لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذْ رضيعاً ، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنَّه ! قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعلَ لنا فيه بركة !

---

(١) اسمه عبد الله بن الحارث بن عبد العزى .

(٢) جمع رضيع .

(٣) الشهباء : المجدبة البيضاء لا يرى فيها خضرة .

(٤) الأتان : الحمارة . القمراء : التي يميل لونها إلى الخضرة .

(٥) الشارف : الناقة المسنة .

(٦) ما تبض بقطرة ، أي ما ترشح .

(٧) أي أطلت عليهم المسافة ، لتمهل عليها ، مأخوذ من الشيء الدائم .

(٨) العجف : الهزال .

(٩) تعني زوجها الحارث بن عبد العزى .

قالت : فذهبتُ إليه فأخذته ، وما حَمَلَنِي على أخذه إلَّا أنِّي لم أجد غيره . فلمَّا أخذتُه رجعتُ به إلى رحلي ، فلما وضعتُه في حِجري أقبلَ عليه ثدياي بما شاء من لبن ؛ فشرِب حتى رَوِيَ ، وشرِب معه أخوه حتى رويَ ثم ناما ، وما كنّا ننام مِنه قبلُ ذلك . وقام زوجي إلى شارِفنا تلك فإذا إنَّها لحافل[1] ، فحلب منها ما شرب ، وشربتُ معه حتى انتهينا ريًّا وشِبَعاً ، فبتنا بخيرِ ليلة !

قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعَلَّمِي والله يا حليمةُ ، لقد أخذتِ نَسَمة مباركة! فقلت : والله إني لأرجو ذلك .

ثم خرجنا وركبت أنا أتاني ، وحملتُه عليها معي ، فوالله لقطَعَتْ بالرَّكْب ، ما يقدِر عليها شيءٌ مِّن حُمُرهم ، حتى إنَّ صواحبي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويْحكِ اربَعِي علينا[2] ، أليست هذه أتانَكِ التي كنتِ خرجتِ عليها ؟! فأقول لهنَّ : بلى والله ، إنها لَهِي ! فيقلن : والله إنَّ لها لشأناً !

ثم قدمنا منازلَنا من بلاد بني سعد ، وما أعـلم أرضاً من أرض الله أجدبَ منها ؛ فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لُبْناً ، فنحلُب ونشرب ، وما يحلُب إنسانٌ قطرةَ لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنتِ أبي ذؤيب . فتروحُ أغنامهم جياعاً ما تبضُّ بقطرةِ لبن ، وتروح غنمي شِباعاً لُبْنا .

فلم نزلْ نتعرَّف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنَتَاهُ وفَصَلتُه ، وكان يشبُّ شباباً لا يَشِبُّه الغِلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفْراً[3] ؛ فقدمنا به على أمِّه ونحن أحرصُ شيءٍ على مُكثه فينا ؛ لما كُنَّا نرى من بركته ، فكلَّمْنا أمَّه ، وقلت لها : لو تركتِ بُنَيْ عندي حتَّى يَغلُظ ، فإني أخاف عليه وبَأ مكَّة . فلم نزل بها حتى ردّته معنا .

فرجعنا به ، فوالله إنه ، بعد مقدمنا به بأشهرٍ ، مع أخيه لَفي بَهْمٍ[4] لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتدّ ، فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشيُّ قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأضجعاه فشقَّا بطنه ، فهما يَسُوطانِه[5] !

---

(١) حافل : اجتمع لبنها في ضرعها وكثر .
(٢) أي أقيمي وانتظري .
(٣) الجفر : الغليظ الشديد .
(٤) البهم : الصغار من الغنم ، الواحدة بهمة .
(٥) يسوطانه : يضربان بعضه ببعض ويحركانه .

فخرجتُ أنا وأبوه نحوه ، فوجدته قائماً مُنتَقِعاً وجهه ، فالتزمتُه والتزمَه أبوه ، فقلنا : ما لكَ يا بنيّ ؟ قال : جاءني رجلانِ عليهما ثيابٌ بِيض ، فأضجعاني وشَقَّا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو ؟

فرجع به إلى خبائنا وقال لي أبوه : يا حليمة ، لقد خشِيتُ أن يكون هذا الغلامُ قد أُصيبَ ، فألحِقيه بأهله قبل أن يظهرَ ذلك به . فاحتملناه ، فقدِمنا به على أُمِّه ؛ فقالت : ما أقدَمَكِ به يا ظِئر[1] ، وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مُكثِه عندك ؟ فقلت : قد بلغ الله بابني وقضيتُ الذي عليَّ ، وتخوَّفت الأحداثَ عليه ، فأدّيته إليكِ كما تحبِّين . قالت : ما هذا شأنُكِ ، فاصدُقيني خبرَكِ . فلم تَدَعني حتى أخبرتها . قالت : أفتخوّفتِ عليه الشيطان ؟ قلت : نعم . قالت : كلا ، والله ما للشَّيطانِ عليه مِن سبيلٍ ، وإن لِبُنَيَّ لشأناً ، أفلا أُخبِرُكِ خبرَه ؟ قلت : بلَى . قالت : رأيتُ حين حملتُ به أنَّه خرجَ منِّي نورٌ أضاءَ قصور بُصرَى[2] من أرض الشام ، ثم حمَلتُ به فوالله ما رأيتُ من حملٍ قطُّ كان أخفَّ عليّ ولا أيسرَ منه ، ووقَع حين ولدتُه وإنَّه لواضعٌ يدَيه بالأرض ، رافعٌ رأسَه إلى السماء . دَعيه عنك وانطلقي راشدة .

* حَدِيثُ شَقِّ الصَّدْرِ *

قال ابن إسحاق :

حدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم ، ولا أحسبه إلا عن خالد بنِ مَعدَان الكَلاعيّ :

أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : نَعَم ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبُشرَى أخي عيسى ، ورأت أُمّي حين حملت بي ، أنه خرجَ منها نورٌ أضاء لها قصورَ الشام . واستَرضِعتُ في بني سعد بن بكر .

فبينا أنا مع أخٍ لي خلفَ بيوتنا نرعى بَهْماً لنا ، إذ أتاني رجلانِ عليهما ثيابٌ بيض ، بطَستٍ من ذهب مملوءة ثلجاً ، ثم أخذَاني فشقا بطني ، واستخرجا قلبي

---

(١) الظئر : المرأة ترضع ولد غيرها .

(٢) بصرى من أعمال دمشق .

فشقَّاه ، فاستخرجا منه عَلَقَةً سوداء فطرحاها ، ثم غَسَلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتَّى أنقَيَاه ، ثم قال أحدهما لصاحبه : زنْه بعشرة من أُمّته . فوزَنني بهم فوزنتُهم ، ثم قال : زنه بمائةٍ من أُمّته . فوزنني بهم فوزنتهم . ثم قال : زنه بألف من أمّته . فوزنني بهم فوزنتهم . فقال : دعه ؛ فوالله لو وزنتَه بأُمَّته لوَزَنها .

* كَفَالَةُ جَدِّهِ له *

وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجدِّه عبد المطلب بن هاشم في كِلاءة الله وحِفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً ، لِمَا يريد به من كرامته . فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين تُوفِّيت أُمه بالأبواء بين مكة والمدينة ، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عديّ بن النَّجار تُزيره إياهم ، فماتت وهي راجعة به إلى مكة .

فكان رسول الله ﷺ مع جدّه عبد المطلب بن هاشم . وكان يُوضَع لعبد المطَّلب فِراشٌ في ظلِّ الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فِراشِه ذلك حتى يخرجَ إليه ، لا يجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالاً له . فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلامٌ جَفْر[1] حتى يجلسَ عليه ، فيأخُذه أعمامه ليؤخِّروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دَعُوا ابنِي ، فوالله إنَّ له لشأناً ! ثم يجلسه معه على الفراش ويَمسح ظهرَه بيده ، ويسرُّه ما يراه يَصنع .

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين هلَك عبد المطَّلب ، وذلك بعد الفيل بثماني سنين .

* كَفَالَةُ عَمِّهِ له *

فكان رسول الله ﷺ بعد عبد المطَّلب مع عمه أبي طالب .

وإنَّ رجلاً من لِهْب[2] كان عائفاً[3] ، فكان إذا قدم مكَّة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم . فأتى به أبو طالبٍ وهو غلامٌ مع من يأتيه ، فنظر

(١) الجفر : الغليظ الشديد .

(٢) بنو لهب : قوم مشهورون بالعيافة .

(٣) العائف : الذي يتفرس في خلقة الإنسان فيخبر بما تؤول إليه .

إلى رسول الله ﷺ ، ثم شغله عنه شيء ، فلما فرغ قال : الغلامَ ، عليَّ به . فلما رأى أبو طالب حِرصَه عليه غيّبه عنه ، فجعل يقول : ويلكم ! ردُّوا عليّ الغلامَ الذي رأيتُ آنفاً ، فوالله ليكونَنّ له شأن !

* قِصَّةُ بَحِيرا *

ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام ، فلما تهيّأ للرحيل وأجمعَ المسيرَ صَبّ به[1] رسولُ الله ﷺ ، فرقّ له أبو طالب وقال : والله لأخرجنّ به معي ، ولا يُفارقني ولا أفارقه أبداً .

فخرج به معه ، فلما نزل الركبُ بُصرَى وبها راهبٌ يقال له « بَحيرا » ، في صومعةٍ له ، وكان إليه عِلْمُ أهل النصرانية . ولم يزل في تلك الصَّومعة ، منذ قطُّ ، راهبٌ إليه يصير علمهم عن كتاب فيها فيما يزعمون ، يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببحِيرا ، وكانوا كثيراً ما يمرُّون به قبلَ ذلك فلا يكلّمهم ولا يَعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنَع لهم طعاماً كثيراً .

وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته . يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في صومعته وفي الركب حين أقبلوا ، وغمامةٌ تُظِلُّه من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرةٍ قريباً منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلَّت الشجرة ، وتهصَّرت[2] أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظلّ تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته ، ثم أرسل إليهم فقال : إنّي قد صنعتُ لكم طعاماً يا معشر قريش ، فأنا أُحِبُّ أن تحضُروا كلُّكم صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحُرُّكم .

فقال له رجلٌ منهم : والله يا بَحيرا إنَّ لك لشأناً اليوم ، فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمُرُّ بك كثيراً ! فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرا : صدقتَ ، كان ما تقول ، ولكنّكم ضيفٌ ، وقد أحببتُ أن أُكرِمَكم وأصنعَ لكم طعاماً فتأكلوا منه كلُّكم .

فاجتمعوا إليه وتخلَّف رسول الله ﷺ من بين القوم ، لحداثة سنّه ، في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرا في القوم لم يَرَ الصفة التي يَعرِف ويَجِد عنده ،

---

(١) أي مال إليه ، ويروى : « ضبث به » ، أي تعلق .

(٢) تهصرت : مالت ، وتدلت .

فقال : يا معشر قريش ، لا يتخلَّفنَّ أحدٌ منكم عن طعامي . قالوا : يا بحيرا ، ما تخلَّفَ عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيَك إلاَّ غلام ، وهو أحدث القوم سنًّا فتخلَّفَ في رحالهم . فقال : لا تفعلوا ، ادعُوه فليحضُر هذا الطعامَ معكم . فقال رجلٌ من قريشٍ مع القوم : واللاَّتِ والعُزَّى ، إنْ كان لَلُؤمٌ بنا أن يتخلَّف ابنُ عبد المطَّلب عن طعامٍ من بيننا ! ثم قام فاحتضنه وأجلسه مع القوم ، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جَسَده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرَّقوا قام إليه بحيرا فقال له : يا غلام ، أسألُك بحقِّ اللات والعُزَّى إلاَّ ما أخبرتَني عما أسألُك عنه . وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما ـ فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له : لا تسألني باللات والعزَّى ، فوالله ما أبغضت شيئاً قطُّ بُغضَهما ! فقال له بحيرا : فبـالله إلاَّ ما أخبرتَني عما أسألك عنه . فقال له : سَلني ما بدا لك . فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته . ثم نظر إلى ظهرِهِ فرأى خاتَم النبوَّة بين كتفيه ، على موضعه من صفته التي عنده .

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلامُ منك ؟ قال : ابني ، قال له بحيرا : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا . قال : فإنه ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأُمُّه حُبلى به . قال : صدقت ، فارجعْ بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهودَ ، فوالله لئن رأوه وعرَفوا منه ما عرفتُ ليبغُنَّه شراً ، فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم !

فأسرعَ به إلى بلاده .

* حَرْبُ الفِجَار *

هاجت حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابنُ عشرين سنة[١] . وإنما سمِّي يومَ الفجار بما استَحلَّ هذان الحيان : كنانة وقيس عيلان ، فيه من المحارم بينهم .

---

(١) ذكر ابن هشام أن رسول الله ﷺ شهد بعض أيام الفجار ، أخرجه أعمامه معهم ، وقال رسول الله ﷺ : « كنت أنبل على أعمامي » ، أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها . وهذا الفجار هو الفجار الأخير ، وهو فجار البرَّاض . وقبله فجارات ثلاث : أولها بين كنانة وهوازن . والثاني بين قريش وهوازن ، والثالث بين كنانة وهوازن . وتفصيلها في العقد الفريد ، والأغاني .

وكان قائد قريش وكنانة حربَ بن أمية ، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان في وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس .

* تَزْوِيجُ خَدِيجَةَ رضي الله عنها *

وكانت خديجة بنت خويلد امرأةً تاجرةً ، ذاتَ شرفٍ ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتُضَارِبُهم إياه[1] بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجَّاراً ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعِظَم أمانته وكرم أخلاقه ، بعثَتْ إليه ، فعرضت عليه أن يخرجَ في مالٍ لها إلى الشام تاجراً وتعطيَه أفضلَ ما كانت تعطي غيره من التجَّار ، مع غلامٍ لها يقال له مَيْسَرة ، فقبله رسولُ الله ﷺ منها وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامُها ميسرة حتى قدم الشام .

فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب[2] من الرهبان ، فاطَّلع الراهب إلى ميسرةَ فقال : من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال له ميسرةٌ : هذا رجل من قريش من أهل الحرم . فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قطُّ إلا نبيّ !

ثم باع رسول الله ﷺ سِلْعته التي خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشتريَ ، ثم أقبل قافلا إلى مكة ، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرةُ واشتدّ الحر يرى مَلَكين يُظِلاَّنِه من الشمس وهو يسير على بعيره . فلما قدِم مكةَ على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعِفَ[3] أو قريباً .

وحدّثها ميسرةُ عن قول الراهب ، وعمَّا كان يرى من إظلال الملكين إياه . وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة ، مع ما أراد الله بها من كرامته ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثَتْ إلى رسول الله ﷺ فقالت له : يا ابن عمٍّ ، إني قد رغبتُ فيك لقرابتك وسِطَتك[4] في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك . ثم عرضتْ عليه

---

(١) المضاربة : أن تعطي مالاً للغير ليتجر فيه ، فيكون له سهم معلوم من الربح .
(٢) اسم هذا الراهب نسطورا .
(٣) أضعف : صار مضاعفاً .
(٤) السطة : الشرف ، من الوسط ، كالعدة من الوعد .

نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمَهنّ شرفاً ، وأكثرهنّ مالاً ، كلٌّ قومِها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه .

فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلِد بن أسد[1] فخطبها إليه فتزوّجها[2] .

فولدت لرسول الله ﷺ ولدَه كلَّهم ، إلا إبراهيم[3] : القاسمَ ، وبه كان يكنَى ، والطاهر والطيِّب[4] ، وزينب ورُقية ، وأمَّ كلثوم ، وفاطمة ، عليهم السلام .

فأما القاسم ، والطيب والطاهر ، فهلكوا في الجاهلية ، وأما بناته فكلهنّ أدركن الإسلام ، فأسلمن وهاجرن معه ﷺ .

* حَدِيثُ وَرَقَةَ بنِ نَوْفَل *

وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نَوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ـ وكان ابنَ عمها ، وكان نصرانيًا قد تتَبَّعَ الكتب وعَلم من عِلم الناس ـ ما ذكر لها غلامُها مَيسرةُ من قولِ الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان الملَكان يُظلِّلانه ، فقال ورقة : لئن كان هذا حقًّا يا خديجة إن محمداً لنبيٌّ هذه الأمة ، وقد عرَفتُ أنه كائن لهذه الأمّة نبيٌّ يُنتَظَر ، هذا زمانه !

فجعلِ ورقة يستبطىءُ الأمر ويقول : حتَّى متى ؟ وقال في ذلك :

لِججتُ وكنتُ في الذِّكرى لجوجًا ... لهم طالما بعث النشيجا
ووصفٍ من خديجةَ بعد وصفٍ ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكَّتين على رجائي ... حديثَكِ أن أرى منه خروجا[5]
بما خبَّرتِنا من قول قَسٍّ ... من الرُّهبان أكره أن أعوجا
بأنَّ محمداً سيسود فينا ... ويَخْصِم من يكون له حجيجا[6]

---

(١) هو خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي .

(٢) أصدقها ﷺ عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

(٣) أمه مارية القبطية ، من « حفن » من كورة أنصنا من صعيد مصر ، أهداها إليه المقوقس عظيم القبط .

(٤) الطاهر والطيب لقبان له ، واسمه « عبد الله » .

(٥) ثنى مكة ، لأن لها بطاحاً وظواهر .

(٦) يخصم : يغلب ، والحجيج : الذي يحاج غيره بالحجة .

ويُظهر في البلاد ضياء نورٍ يقيم به البريّةَ أن تموجا
فيلقى من يُحاربُه خَساراً ويلقَى من يسالمه فُلُوجا[1]
فيا ليتي إذا ما كان ذاكم شهدتُ فكنت أوّلَكم ولوجا

* بُنْيَانُ الكَعْبَة *

فلما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبُنيان الكعبة ، وكانوا يهمُّون بذلك ليسقِّفوها ، ويهابون هدمها ، وإنما كانت رَضْماً[2] فوقَ القامة .

وكان البحر قد رمى بسفينةٍ إلى جَدَّة ، لرجل من تُجّار الروم ، فتحطَّمت فأخذوا خشبَها فأعدُّوه لتسقيفها . وكان بمكة قبطيٌّ نجار ، فتهيَّأ لهم في أنفسهم بعضُ ما يصلحها . وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يُطرح فيها ما يُهدَى لها كلَّ يوم ، فتَتشرَّق[3] على جدار الكعبة . وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحدٌ إلاَّ احزألَّت وكشَّت[4] وفتحت فاها . فبينا هي ذات يوم تتشرّق على جدار الكعبة كما كانت تصنع بَعث الله إليها طائراً فاختطفها فذَهبَ بها ، فقالت قريش : إنَّا لنرجو أن يكون الله قد رضيَ ما أردنا ؛ عندنا عاملٌ رفيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية .

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عَبْد بن عِمران بن مخزوم ، فتناول من الكعبة حجراً فوثبَ من يده حتى رجَع إلى موضعه ، فقال : يا معشرَ قريش ، لا تُدخِلوا في بنائها من كسبكم إلاَّ طيّبا : لا يدخل فيها مهر بَغِيّ ، ولا بيع ربا ، ولا مَظلِمةُ أَحدٍ من الناس .

ثم إن قريشاً جزَّأت الكعبة ، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزُهرة ، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزومٍ وقبائلَ من قريشٍ انضمُّوا اليهم ، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَحَ وسهم ، وشِقّ الحِجر لبني عبد الدار بن قصي ولبني أسد بن عبد العزى ، ولبني عديٍّ بن كعب .

---

(١) الفلوج : النصر والغلبة .
(٢) الرضم : حجارة منضودة من غير ملاط .
(٣) أي تبرز الشمس .
(٤) احزألت : رفعت رأسها . وكشت : صوتت باحتكاك جلدها بعضه ببعض .

ثم إنَّ الناس هَابوا هَدمَها وفرِقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم في هدمها . فأخذ المعولَ ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم نزغ[1] ! اللهم لا نريد إلا الخير ! ثم هَدمَ من ناحية الركنين ، فتربّص الناسُ تلك الليلةَ وقالوا : ننظر ، فإن أُصيبَ لم نهدمْ منها شيئاً ورددناها كما كانت ، وإن لم يُصبه شيء فقد رضيَ الله صُنْعَنا فهدمْنا .

فأصبح الوليدُ من ليلته غادياً على عمله ، فهدَم وهدم الناسُ معه حتى إذا انتهى الهدمُ بهم إلى الأساس ، أساسِ إبراهيم عليه السلام ، أفضَوا إلى حجارة خُضرٍ كالأسنمة[2] آخذٍ بعضُها بعضاً .

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حِدَة ، ثم بنَوْها حتى بلغَ البنيانُ موضعَ الركن[3] فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوزوا[4] وتحالفوا ، وأَعَدُّوا للقتال .

فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أُمية بن المغيرة ، وكان عامئذٍ أسنَّ قريش كلِّها ، قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوّلَ من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضي بينكم فيه . ففعلوا . فكان أوّلَ داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ! هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ : « هلُمَّ إليَّ ثوباً » . فأُتِيَ به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال : « لتأخذْ كل قبيلةٍ بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً » . ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه .

* إخْبَارُ الكُهَّانِ مِنَ العَرَبِ *
وَالأَحْبَارِ مِنَ اليَهُودِ ، والرُّهْبَانِ مِنَ النَّصَارَى

وكانت الأحبار من يهودَ ، والرهبانُ من النصارى ، والكُهّان من العرب ، قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مَبعثه لِمَا تقارب من زمانِه . أما الأحبار من يهود والرهبان

---

(١) لم نزغ : لم نمل عن دينك . زاغ يزوغ ، وزاغ يزيغ .

(٢) جمع سنام ، وهو أعلى ظهر البعير . ويروى : « كالأسنة » جمع سنان ، شبهت به في الخضرة .

(٣) يراد به الحجر الأسود ، لأن موضعه في الركن .

(١) تحاوزوا : انحاز كل قبيل منهم إلى جانب .

من النصارى ، فعَمَّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه . وأما الكُهَّان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجنِّ فيما تسترِقُ من السَّمع ، إذْ كانت وهي لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم . وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكرُ بعضِ أُموره ، لا تُلقي العرب لذلك فيه بالاً ، حتَّى بعثه الله ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون ، فعرفوها .

فلمَّا تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضرَ مَبعثُه ، حُجبت الشياطين عن السمع ، وحِيلَ بينها وبين المقاعد التي كانت تَقعُد لاستراق السمع فيها ، فرُمُوا بالنجوم ، فَعرفت الجنُّ أن ذلك لأمرٍ حدثَ من أمر الله في العباد .

* صِفةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ *

قال ابن هشام :

وكانت صفة رسول الله ﷺ فيما ذَكَر عُمر مولى غُفرة ، عن إبراهيم بن محمد بن علي بن أبي طالب قال :

كان علي بن أبي طالب عليه السلام إذا نَعتَ رسول الله قال : لم يكن بالطويل الممغَّط(١) ، ولا القصير المتردِّد ، وكان رَبْعةً(٢) من القوم ، ولم يكن بالجعد القَطَط(٣) ولا السَّبط . كان جَعْداً رَجْلاً(٤) ، ولم يكن بالمطهَّم(٥) ولا المكلثَم(٦) . وكان أبيضَ مُشْرباً ، أدعج العينين(٧) ، أهدب الأشفار(٨) جليل المُشَاشِ(٩) والكَتَد(١٠) ، دقيق المسرُبة(١١) أجردَ(١٢) شَثْن الكفين(١٣) والقَدَمين ؛ إذا مشى تقلَّع(١٤) كأنما يمشي في صبَب(١٥) ، وإذا التفَت التفَت معاً . بين كتفيه خاتَم النبوَّة ، وهو ﷺ خاتم النَّبيِّين .

---

(١) الممغط : الممتد .
(٢) الربعة : الذي ليس بالطويل ولا القصير .
(٣) القطط : الشديد جعودة الشعر .
(٤) الرجل : المسرح الشعر .
(٥) المطهم : العظيم الجسم .
(٦) المكلثم : المستدير الوجه في صغر .
(٧) الأدعج : الأسود العينين .
(٨) أهدب الأشفار : طويل أهدابها .
(٩) المشاش : عظام رءوس المفاصل .
(١٠) الكتد : ما بين الكتفين .
(١١) المسربة : الشعر الممتد من الصدر إلى السرة
(١٢) الأجرد : القليل الشعر .
(١٣) الشثن : الغليظ .
(١٤) تقلع : لم يثبت قدميه .
(١٥) الصبب : ما انحدر من الأرض .

أَجْوَدُ الناس كفًّا ، وأجرأُ الناس صدراً ، وأصدق الناس لَهْجة[1] ، وأوفى الناس ذمّة ، وألينُهم عريكة[2] ، وأكرمهم عشرة . من رآه بديهةً[3] هابَه ، ومن خالطَه أحبّه .

يقول ناعِتُه : لم أر قبله ولا بعده مثلَه ، صلى الله عليه وسلم .

* صِفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الإنْجِيل *

قال ابن إسحاق :

وقد كان فيما بلغني عما كان وَضَع عيسى ابنُ مريم فيما جاءه من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله ﷺ مما أثبتَ يُحَنّس الحواريُّ لهم ، حين نسخ لهم الإنجيل عَن عهد عيسى ابن مريم عليه السلام في رسول الله ﷺ إليهم ، أنه قال :

« من أبغَضَني فقد أبغض الربّ . ولولا أنِّي صنعتُ بحضرتهم صنائعَ لم يَصْنعْها أحدٌ قبلي ما كانت لهم خطيئة . ولكن من الآن بَطِروا وظنُّوا أنَّهم يَعُزُّونني[4] وأيضاً للربّ ، ولكن لا بدَّ من أن تتمَّ الكلمةُ التي في الناموس . إنَّهم أبغضوني مجَّاناً ـ أي باطلاً ـ فلو قد جاء المُنْحَمَنَّا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب . روح القدس هذا الذي من عند الرب خرج ، فهو شهيدٌ عليَّ وأنتم أيضاً ، لأنكم قديماً كنتم معي . في هذا قلت لكم لكيما لا تشكُّوا[5] » .

و «المُنْحَمَنَّا» ، بالسريانية : محمد ، وهو بالرومية « البَرَقْلِيطسْ » .

* البَعْث *

فلما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين ، وكافَّة للناس بشيراً . وكان الله تبارك وتعالى قد أخذَ الميثَاقَ على كلِّ نبيٍّ بعثه قبله بالإيمان به ، والتصديق له ، والنصر له على من خالفه ، وأخَذ عليهم أن يؤدُّوا ذلك إلى كل مَن آمن بهم وصدَّقهم ، فأدَّوا من ذلك ما كَانَ عليهم من الحق فيه .

(١) اللهجة : الكلام .

(٢) لين العريكة : حسن العشرة .

(٣) بديهة : ابتداء .

(٤) عزه يعزه ، بضم عين المضارع : غلبه .

(٥) انظر إنجيل يوحنا ١٥ : ٢٣ ـ ٢٦ . .

عن عائشة رضي الله عنها :

إنَّ أوَّلَ ما بديء به رسول الله ﷺ من النبوّة ، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح . وحبَّب الله تعالى إليه الخَلوة ، فلم يكن شيءٌ أحبَّ من أن يخلوَ وحده .

وعن عبد الملك بن عبيد الله :

أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوّة ، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تُحسَر عنه البيوت[١] ، ويفضيَ إلى شِعاب[٢] ، مكّة وبطونِ أوديتها ، فلا يمرُّ رسول الله ﷺ بحجرٍ ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . فيلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يَرى إلا الشجر والحجارة فمكث رسول الله ﷺ كذلك يَرى ويسمع ، ما شاء الله أن يمكث . ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء[٣] ، في شهر رمضان .

عن عبيد بن عمير :

كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تَحَنَّثُ به قريشٌ في الجاهلية[٤]. فكان يجاور ذلك الشهرَ من كل سنة ، يُطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك كان أوَّلُ ما يبدأ به إذا انصرفَ من جواره الكعبةَ ، قبل أن يدخل بيتَه ، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجِع إلى بيته . حتى إذا كانَ الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السَّنَة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ، ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلةُ التي أكرمَه الله فيها برسالته ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى .

قال رسول الله ﷺ : فجاءني جبريل وأنا نائم ، بنَمَط من دِيباج[٥] فيه كتابٌ ، فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ[٦]. قال : فغَتَّني به[٧] حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني

---

(١) أي تبعد عنه .
(٢) الشعب : ما انفرج بين الجبلين .
(٣) حراء : جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال .
(٤) التحنث : التعبد واعتزال الأصنام .
(٥) النمط : ضرب من البسط . والديباج : ثياب من الإبريسم .
(٦) ويروى : « ما أنا بقاريء » .
(٧) غته : عصره عصراً شديداً .

فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . فغتَّني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ فغتَّني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ فقال : ﴿اقرأ باسْمِ ربِّكَ الذي خَلَق * خَلَق الإنْسَانَ مِن عَلَقٍ * اقرأ وربُّك الأكرمُ * الذي علَّمَ بالقلم * علَّم الإنسانَ ما لم يَعلَم﴾ . قال : فقرأتُها ثم انتهى فانصرفَ عني ، وهببتُ من نومي فكأنَّما كُتِبت في قلبي كتاباً .

فخرجتُ حتى إذا كنتُ في وسطٍ من الجبل سمعتُ صوتاً من السماء يقول : يا محمد ، أنت رسولُ الله وأنا جبريل ! فرفعت رأسي إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍّ قدمَيه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ! فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخَّر ، وجعلت أصرِف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحية منها إلاَّ رأيته كذلك . فما زلتُ واقفاً ما أتقدَّمُ أمامي وما أرجع ورائي ، حتى بعثَتْ خديجةُ رسُلَها في طلبي ، فبلغوا أعلى مكَّة ورجعوا إليها ، وأنا واقفٌ في مكاني ذلك . ثم انصرف عني .

وانصرفتُ راجعاً إلى أهلي حتى أتيتُ خديجة ، فجلست إلى فخذها مُضيفاً إليها[1] ، فقالت : يا أبا القاسم ، أين كنت ؟ فوالله لقدْ بعثتُ رسلي في طلبك حتى بلغوا مكَّة ورجعوا إليَّ !

ثم حدَّثتُها بالذي رأيت فقالت : أبشِر يا بن عمّ واثبتْ ، فوَالذي نفسُ خديجة بيده إني لأرجـو أن تكون نبيَّ هذه الأُمة !

ثم قامت فجمعت عليها ثيابَها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمِّها ، وكَان ورقة تنصَّر وقرأ الكتب ، وسمع من أهلِ التوراة والإنجيل ، فأخبرتْه بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قُدُّوس قُدُّوس ، والذي نفس ورقةَ بيده ، لئن كنتِ صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر[2] الذي كان يأتي موسى[3] ، وإنه لنبيُّ هذه الأمَّة ، فقولي له فليثبُتْ .

---

(١) مضيفاً إليها : ملصقاً بها مائلاً إليها .

(٢) أراد به الملك الذي جاءه بالوحي ، وأصل الناموس صاحب سر الرجل .

(٣) السهيلي : « إنما ذكر ورقة موسى ولم يذكر عيسى وهو أقرب ، لأن ورقة كان قد تنصر ، والنصارى لا يقولون في عيسى : إنه نبي يأتيه جبريل ، إنما يقولون فيه : إن أقنوماً من الأقانيم الثلاثة اللاهوتية حل بناسوت المسيح واتحد به ، على اختلاف بينهم في ذلك الحلول » .

فرجعت خديجةُ إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة ، فلمّا قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف ، صنع كما كان يصنع : بدأ بالكعبة ، فقال : يا ابن أخي ، أخبرني بما رأيتَ وسمعت . فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال له ورقة : والذي نفسي بيده إنك لنبيُّ هذه الأمّة ، ولقد جاءك الناموسُ الأكبر الذي جاء موسى ، ولتُكذَّبنّه ، ولتُؤذَيَنَّه ، ولتُخرَجنَّه ولتُقَاتَلنَّه[1] ! ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنَّ الله نصراً يعلمه ! ثم أدنى رأسه منه فقبّل يافوخه[2] ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله .

* ابْتِدَاءُ تَنْزِيلِ القُرْآن *

فابتدىء رسول الله ﷺ بالتنزيل في شهر رمضان . يقولُ الله عزَّ وجلَّ : ﴿شهر رمضانَ الذي أُنزل فيه القرآنُ هدًى للنَّاس وبيِّناتٍ من الهُدَى والفرقان﴾ . وقال الله تعالى : ﴿إنا أنزلناهُ في ليلة القدر * وما أدْرَاكَ ما ليلةُ القَدْر * ليلةُ القدر خيرٌ من ألفِ شهر * تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها بإِذْن ربِّهم من كلِّ أمرٍ * سلامٌ هي حتى مَطلع الفَجْر﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿حمٓ * والكتاب المبين * إنَّا أنزلناه في ليلةٍ مُباركة إنَّا كُنَّا مُنذِرين * فيها يُفْرقُ كُلُّ أمرٍ حكيم * أمراً مِن عندنا إنَّا كُنَّا مُرْسِلين﴾ . وقال تعالى : ﴿إن كُنْتم آمنتم باللَّهِ وما أنْزَلْنا على عَبْدِنا يومَ الفُرقَان يومَ التَقَى الجَمْعَان﴾ وذلك ملتقى رسول الله ﷺ والمشركين ببدر .

* إِسْلَامُ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِد *

وآمنت به خديجة بنتُ خُويلِد ، وصدَّقت بما جاءه من الله ، ووازرته على أمره ، وكانت أوَّلَ من آمَنَ بالله وبرسوله ، وصدَّق بما جاء منه ، فخفَّف الله بذلك عن نبيِّه ﷺ ، لا يسمع شيئاً مما يكرهه مِن ردٍّ عليه وتكذيب له ، فيحزُنَه ذلك ، إلاَّ فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبّته وتخفّف عليه ، وتصدِّقه ، وتهوِّن عليه أمر الناس ، رحمها الله !

---

(١) الهاء في كل هذه الأفعال هي هاء السكت .

(٢) يافوخه : أم رأسه .

قال رسول الله ﷺ : « أُمرتُ أن أُبشِّر خديجة ببيتٍ من قَصَب[1] ، لا صخب فيه ولا نَصَب » .

* فَتْرَةُ الوَحْي *

ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترةً من ذلك ، حتَّى شقَّ ذلك عليه فأحزنه . فجاءه جبريل بسورة الضحى ، يُقسِم له ربُّه ، وهو الذي أكرمه بما أكرمَه به : ما ودَّعه وما قلاه . فقال تعالى : ﴿والضُّحَى * والليل إذا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ . يقول : ما صَرمَك فتركك ، وما أبغضَك ثم أحبَّك . ﴿وَللآخِرة خيرٌ لك من الأولى﴾ أي لَمَا عندي من مَرجعك إليّ خيرٌ لك مما عجَّلتُ لك من الكرامة في الدنيا . ﴿ولَسَوْفَ يُعطِيك ربُّكَ فتَرْضَى﴾ من الفَلَج[2] في الدنيا ، والثواب في الآخرة . ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوَى * ووَجَدك ضالاً فهَدَى * ووَجدَك عائلاً فأغنى﴾ . يعرِّفه الله ما ابتدأه به من كرامته في عاجل أمره . ومَنِّه عليه في يُتْمه وعَيلته وضلالته ، واستنقاذه من ذلك كلِّه برحمته . ﴿فأما اليتيمَ فلا تَقْهَرْ * وأما السَّائلَ فلا تَنهَرْ﴾ . أي لا تكن جبّاراً ولا متكبِّراً ، ولا فحَّاشاً فَظًّا على الضُّعفاء من عباد الله . ﴿وأَمَّا بنعمَةِ رَبِّك فحدِّث﴾ أي بما جاءك من الله من نعمته وكرامته من النبوّة فحدِّث ، أي اذكرْها وادعُ إليها .

فجعل رسولُ الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه ، وعلى العباد به من النبوّة سرًّا إلى مَن يطمئنُّ إليه من أهله .

* أوَّلُ النَّاسِ إسْلاَماً *

ثم كان أولَ ذكَر من الناس آمن برسول الله ﷺ ، وصلَّى معه وصدّق بما جاءه من الله تعالى : عليُّ بن أبي طالب ، رضوان الله وسلامه عليه . وهو يومئذ ابن عَشْرِ سنين .

وكان من نعمة الله على عليّ بن أبي طالب ، ومما صنع الله له ، وأراده به من الخير ، أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة . وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه ، وكان من أيسَر بني هاشم : يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير

---

(١) القصب : اللؤلؤ المنحوت .

(٢) الفلج : الفوز والغلبة والنصر .

العيال ، وقد أصاب الناسَ ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلقْ بنا فلنُخفِّف عنه من عياله ، آخذُ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفِّهما عنه . فقال العباس : نعم . فانطلقا حتى أتيا أبا طالب ، فقالا له : إنا نريد أن نخفِّف من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه . فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لي عَقيلاً فاصنعا ما شئتما .

فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا فضمَّه إليه ، وأخذ العباس جعفراً فضمَّه إليه . فلم يزل عليّ مع رسول الله ﷺ . حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيا ، فاتَّبعه عليّ رضي الله عنه ، وآمن به وصدّقه .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة . وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه ومن جميع أعمامه وسائر قومه . فيصلِّيان الصلواتِ فيها . فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا . ثم إنَّ أبا طالب عثَر عليهما يوماً وهما يصلِّيان . فقال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخي . ما هذا الدِّين الذي أراك تدين به ؟ قال : أيْ عم . هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم . بعثني الله به رسولاً إلى العباد . وأنت يا عمِّ أحقُّ مَن بذلتُ له النصيحةَ . ودعوته إلى الهدى . وأحقُّ من أجابني إليه فأعانني عليه . فقال أبو طالب : أي ابنَ أخي ، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه . ولكن والله لا يُخلَصُ إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ !

ثم أسلم (زيد بن حارثة) بن شُرَحْبِيل بن كعب بن عبد العزى . وكان حكيم بن حزام بن خويلد قدِم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة ، فدخلَت عليه عمّته خديجة ، وهي يومئذ عند رسول الله ﷺ ، فقال لها : اختاري يا عمة ، أيَّ هؤلاء الغلمان شئتِ فهو لك ، فاختارتْ زيداً فأخذته ، فرآه رسول الله ﷺ عندها فاستوهبه منها فوهبته له ، فأعتقه وتبناه ، وذلك قبل أن يُوحَى إليه .

ثم أسلم (أبو بكر بن أبي قُحافة) واسمه عتيق ، واسم أبي قحافة عثمان . فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه ، أظهر إسلامه ودعا إلى الله ورسوله . وكان أبو بكر رجلاً مألفاً لقومه ، محبَّباً سهلا ، وكان أنسبَ قريش لقريش وأعلم قريشٍ بها ، وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجراً ذا خلقٍ معروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحدٍ من الأمر : لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته . فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام مَن وثق به من قومه ، ممن يغشاه ويجلس إليه .

فأسلم بدعائه عثمانُ بن عفَّان ، والزُّبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعدُ بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله . فكان هؤلاء النفر الثمانية[1] الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلُّوا وصدّقوا .

ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم[2] ، وعثمان بن مظعون ، وأخواه قدامة وعبد الله ، وعُبيدة بن الحارث ، وسعيد بن زيد بن عمرو ، وامرأته فاطمة أخت عمر بن الخطاب ، وأسماءُ بنت أبي بكر ، وعائشة بنت أبي بكر ، وهي يومئذ صغيرة ، وخبّاب بـن الأرتّ ، وعُمَير بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، ومسعود بن القاريّ ، وسَلِيط بن عمرو ، وعيّاش بن أبي ربيعة ، وامرأته أسماءُ بنت سلامة ، وخُنَيس بن حُذافة ، وعامر بن ربيعة ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد ، وجعفر بن أبي طالب ، وامرأته أسماء بنت عُميس ، وحاطب بن الحارث ، وامرأته فاطمة بنت المجلّل ، وأخوه حطّاب ، وامرأته فُكَيهة بنت يسار ، ومعمر بن الحارث ، والسائب بن عثمان بن مظعون ، والمطّلب بن أزهر ، وامرأته رملة بنت أبي عوف ، والنحّام واسمه نُعيم بن عبد الله ، وعامر بن فهيرة ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وامرأته أمينة بنت خلف ، وحاطب بن عمرو ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وواقد بن عبد الله ، وخالد وعامر وعاقل وإياس : بنو البكير بن عبد ياليل ، وعمار بن ياسر ، وصُهيب بن سِنان الرومي[3] .

* الجَهْرُ بِالدَّعْوَة *

ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً[4] من الرجال والنساء ، حتى فشا ذِكر الإسلام بمكّة وتُحُدِّث به .

ثم إن الله عزَّ وجلّ أمر رسوله ﷺ أن يصدَعَ بما جاءه منه ، وأن يباديَ[5] الناس

---

(١) هم : علي ، وزيد وأبو بكر ، ومن أسلم على يديه .

(٢) وفي داره كان رسول الله ﷺ مستخفياً من قريش بمكة يدعو الناس فيها إلى الإسلام ، وكانت داره على الصفا ، حتى تكامل المسلمون أربعين رجلاً بإسلام عمر ، فلما تكاملوا أربعين رجلاً خرجوا .

(٣) صهيب عربي ، ولكن الروم سبته صغيراً فنشأ فيهم فصار ألكن ، ثم اشتراه رجل من كلب فباعه بمكة ، فاشتراه عبد الله بن جدعان فأعتقه . وفي الحديث : « صهيب سابق الروم » .

(٤) جمع رسل بالتحريك ، وهي الجماعة .

(٥) المباداة : المجاهرة .

بأمره وأن يدعوَ إليه . وكان بين ما أخفى رسولُ الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ، ثلاثُ سنين من مَبعثه ، ثم قال الله تعالى له : ﴿فَاصدَعْ بما تُؤمَرُ وأعرضْ عن المشركِينَ﴾ . وقال تعالى : ﴿وأَنْذِرْ عَشِيرتَكَ الأقرَبينَ * واخفِضْ جَنَاحَكَ لِمَن اتَّبَعَكَ من المؤمِنِينَ * وقُلْ إنِّي أنا النَّذيرُ المُبين﴾ .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلَّوا ذهبوا في الشِّعاب فاستخفَوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابِ رسول الله ﷺ في شِعبٍ من شعاب مكَّة ، إذْ ظهرَ عليهم نفر من المشركين وهم يصلُّون ، فناكَروهم وعابوا عليهم ما يصنعونَ حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقَّاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحْيِ بعيرٍ فشجَّه[1] ، فكان أوَّلَ دمٍ هُريق في الإسلام .

فلما بادَى رسول الله ﷺ قومَهُ بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد عنه قومه ولم يردُّوا عليه حتَّى ذكر آلهَتهم وعابها ، فلمَّا فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافَه وعداوتَه ، إلَّا مَن عَصَم الله تعالى منهم بالإسْلام ، وهم قليلٌ مستخفون .

وحدِب[2] على رسول الله ﷺ عمُّه أبو طالب ، ومنعَه وقام دونه ، ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره ، لا يردُّه عنه شيء . فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعتِبهم[3] من شيء أنكروه عليه ، من فِراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمَّه أبا طالب قد حدِب عليه ، وقام دونه فلم يُسلمْه لهم ، مشَى رجالٌ من أشراف قريشٍ إلى أبي طالبٍ فقالوا : يا أبا طالب ، إنَّ ابنَ أخيك قد سبَّ آلهَتنا وعاب دينَنا ، وسفَّه أحلامَنا ، وضَلَّل آباءنا ، فإمّا أن تكفَّه عنا ، وإمَّا أن تخلِّيَ بيننا وبينه ؟ فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردّهم ردًّا جميلا ، فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه ، يُظهر دين الله ويدعو إليه ، ثم شَرِيَ[4] الأمر بينه وبينهم حتى تباعَد الرجالُ وتضاغنوا ، وأكثرت قريشٌ ذكر رسول الله بينها ، فتذامروا فيه[5] ، وحضَّ بعضهم بعضاً عليه .

ثم إنهم مشَوا إلى أبي طالب مرَّة أُخرى فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنًّا

---

(١) اللحي : العظم الذي فيه الأسنان . شجه : كسر رأسه .
(٢) أي عطف ورق .
(٣) يعتبهم : يرضيهم .
(٤) شرى : استطار وتفرق .
(٥) أي حض بعضهم بعضاً .

وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإنَّا قد استنهَيناك من ابن أخيك فلم تَنهَه عنَّا ، وإنَّا والله لا نصبر على هذا مِن شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيبِ آلهتنا ، حتى تكفَّه عنا ، أو نُنازله وإياك في ذلك ، حتى يَهلِك أحد الفريقين .

فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له : « يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءُوني فقالوا لي كذا وكذا ـ للذي كانوا قالوا له ـ فأبقِ عليّ وعلى نفسك ، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق » .

فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمِّه فيه بَدَاءٌ(١) أنَّه خاذلْه ومُسْلِمه ، وأنّه قد ضعُف عن نصرته ، فقال رسول الله ﷺ : يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمسَ في يميني ، والقمَر في يساري ، على أن أتركَ هذا الأمرَ حتَّى يُظهرَه الله أو أهلِكَ فيه ، ما تركته ! ثم استعبَرَ رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قام ، فلما ولَّى ناداه أبو طالب فقال : أقبلْ يا ابن أخي . فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فقال : اذهبْ يا ابن أخي فقلْ ما أحببت ، فوالله لا أُسلمك لشيءٍ أبداً .

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خِذلان رسول الله ﷺ وإسلامه ، وإجماعَه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، مشَوا إليه بعُمارة بن المغيرة ، فقالوا له : يا أبا طالب ، هذا عمارة بن الوليد أنهَدُ(٢) فتًى في قريشٍ وأجملُه ، فخذْه فلك عقلُه(٣) ونُصرته ، واتَّخذْه ولداً فهو لك ، وأَسْلِمْ إلينا ابن أخيك ، هذا الذي قد خالف دينَك ودين آبائك ، وفرَّق جماعةَ قومك وسفَّه أحلامهم(٤) فنقتلَه ، فإنما هو رجل برجل ! فقال : والله لبئس ما تسومونني(٥) ! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم ، وأُعطيكم إبني تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون أبداً ! فقال المطعم بن عدي : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجَهَدوا على التخلُّص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبلَ منهم شيئاً ! فقال أبو طالب للمطعِم : والله ما أنصفوني ، ولكنَّك قد أجمعت خِذلانِي ومظاهرةَ القوم عليّ ، فاصنعْ ما بدا لك ؟

فحقِب الأمر(٦) ، وحميت الحرب ، وتنابذ القوم ، وبادَى بعضُهم بعضاً .

ثم إن قريشاً تذامروا(٧) بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول

---

(١) أي رأي جديد .
(٢) أي أشد وأقوى .
(٣) العقل . الدية .
(٤) أي عقولهم .
(٥) أي تكلفونني .
(٦) حقب أمرهم : فسد .
(٧) تذامروا : حض بعضهم بعضاً .

الله ﷺ الذين أسلموا معه ، فوثبت كلُّ قبيلةٍ على مَن فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله ﷺ منهم بعمه أبي طالب .

وقد قام أبو طالبٍ ، حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون ، في بني هاشم وبني المطلب ، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، إلا ما كان من أبي لهب عدوِّ الله الملعون .

* قَوْلُ الوَلِيدِ بنِ المُغِيرَةِ في القُرْآن *

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نَفَرٌ من قريش ، وكان ذا سنّ فيهم ، وقد حضر الموسمُ ، فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسمُ ، وإنَّ وفود العرب ستقدمُ عليكم فيه ، وقد سمِعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمِعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذِّبَ بعضكم بعضاً ، ويردَّ قولكُم بعضُه بعضاً .

فقالوا : فأنت يا أبا عبدِ شمسٍ فقُلْ ، وأقِمْ لنا رأياً نقول به .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكُهَّانَ ، فما هو بزمزمة[1] الكاهن ولا سجعه .

قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنونَ وعَرَفناه ، فما هو بخَنْقِه ولا تَخالُجِه[2] ولا وسوسته .

قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كلَّه رجزَه وهزجَه وقريضَه ، ومقبوضَه ومبسوطه ، فما هو بالشعر .

قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السُّحَّارَ وسحرَهم فما هو بنَفْثهم ولا عَقْدهم[3] .

قالوا : فما تقول أنت يا أبا عبد شمس . قال : والله إن لقوله لحَلاوةً ، وإنَّ أصلَه لعَذْق[4]، وإن فرعَه لَجنَاة[5]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلاَّ عُرف أنه باطل . وإنَّ

---

(١) الزمزمة : كلام خفي لا يسمع .
(٢) التخالج : الاضطراب .
(٣) كان الساحر يعقد خيطاً ثم ينفث فيه .
(٤) العذق ، بالفتح : النخلة .
(٥) الجناة : ما يجنى .

أقرب القولْ فيه لأنْ تقولوا : ساحر ، جاء بِقولٍ هو سحر يفرِّق بين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرَّقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون بسبُل الناس حين قدِموا الموسم ، لا يمرُّ بهم أحدٌ إلَّا حذَّروه إيَّاه وذكروا لهم أمره : فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وبَنِينَ شُهُوداً * ومَهَّدْتُ لهُ تَمْهيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أن أزيدَ * كَلَّا إنَّهُ كانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً﴾ .

فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناسِ ، وصدرت العربُ من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره في بلاد العرب كلِّها .

* ذِكْرُ مَا لَقِيَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ قَوْمِه *

ثم إن قريشاً اشتد أمرهم ، للشقاء الذي أصابهم ، في عداوة رسول الله ﷺ ومَن أسلم معه منهم ، فأغرَوْا به سفهاءهم فكذَّبوه وآذَوه ، ورمَوه بالشعر والسِّحر والكِهانة والجنون ، ورسول الله ﷺ مظهرٌ لأمر الله لا يَستخفي به ، مُبادٍ(١) لهم بما يكرهون ، من عيب دينهم واعتزال أوثانهم ، وفراقه إياهم على كفرهم .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص :

حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحِجر ، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأيْنا مِثلَ ما صبَرْنا عليه من أمر هذا الرجل قطُّ ! سَفَّه أحلامَنا ، وسَبَّ آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم !

فبينما هم في ذلك إذْ طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت ، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض القول ، قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ . فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفتُ ذلك في وجه رسول الله ﷺ . ثم مرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : « أتسمعون يا معشر قريش ، أمَا والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذَّبح(٢) ! » .

فأخذَت القومَ كلمتهُ حتى ما منهم رجلٌ إلَّا كأنما على رأسه طيرٌ واقع ، حتى إن أشدَّهم فيه وصاةً(٣) قبل ذلك ، لَيَرفَؤه(٤) بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرفْ يا أبا القاسم ، فوالله ما كنتَ جهولا ! .

---

(١) أي مجاهر .
(٢) كناية عن الهلاك إن لم يؤمنوا .
(٣) الوصاة : الوصية ، أي وصية بالأذى .
(٤) يرفؤه : يسكنه ويهدئه .

فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحِجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا ما بادأكم بما تكرهون تركتموه !

فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثَبوا وثبةَ رجلٍ واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ـ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم ـ فيقول رسول الله ﷺ : نَعَم أنا الذي أقول ذلك .

قال : فلقد رأيتُ رجلاً منهم أخذ بمَجمع ردائه ، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه ، وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربِّيَ الله !

ثم انصرفوا عنه . فإنّ ذلك لأشدُّ ما رأيت قريشاً نالوا منه قطُّ ؟

* إسْلَامُ حَمْزَةَ *

حدثني رجل من أسلم ، كان واعية :

أن أبا جهلٍ مَرَّ برسول الله ﷺ عند الصَّفا فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلّمه رسول الله ﷺ ـ ومولاةٌ لعبد الله بن جُدْعان في مسكنٍ لها تسمع ذلك ـ ثم انصرف عنه فَعمدَ إلى نادٍ من قريش عند الكعبة فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبلَ متوشِّحاً قوسَه[(١)] ، راجعاً من قَنَصٍ له[(٢)] ، وكان صاحبَ قَنص يرميه ويَخرُج له ، وكان إذا فعل ذلك لم يمرَّ على نادٍ من قريش إلَّا وقف وسلم وتحدَّثَ معهم ،وكان أعزَّ فتًى في قريش وأشدَّه شكيمة ، فلما مرَّ بالمولاة[(٣)] وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له : يا أبا عُمارة ، لو رأيت ما لقيَ ابنُ أخيك محمدٌ آنفاً من أبي الحكم[(٤)] بن هشام ؟ وجدَه ها هنا جالساً فآذاه وسبَّه ، وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ .

---

(١) أي متقلداً إياه .

(٢) القنص : الصيد .

(٣) هي مولاة عبد الله بن جدعان .

(٤) أبو الحكم : كنية أخرى لأبي جهل . واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم .

فاحتمل حمزةَ الغضبُ لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، مُعِدٌّ لأبي جهل إذا لقيَه أن يُوقِعَ به ، فلمَّا دخل المسجدَ نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوسَ فضربه بها فشجَّهُ شجَّةً منكرة ، ثم قال : أتشتُمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرُدَّ ذلك عليّ إن استطعت .

فقامت رجالٌ من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعُوا أبا عُمارة ، فإنِّي والله قد سببت ابنَ أخيهِ سبًّا قبيحاً . وتَمَّ حمزةُ رضي الله عنه على إسلامه ، وعلى ما تابع عليهِ رسولَ الله ﷺ . فلمَّا أسلمَ حمزةُ عرفت قريشٌ أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعهُ . فكَفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

* قَوْلُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ فِي أَمْرِ رَسُولِ اللهِ *

حُدِّثت أن عتبة بنَ ربيعة ـ وكان سيِّداً ـ قال يوماً وهو جالسٌ في نادي قُريشٍ ، ورسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحدهُ : يا معشرَ قريش ألا أقومُ إلى محمد فأُكلِّمَه وأعرضَ عليهِ أُموراً لعلَّه يقبل بعضَها ، فنعطيه أيها شاء ويكفّ عنّا ؟ وذلك حين أسلم حمزةُ ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون . فقالوا : بلى يَا أبا الوليد ، قمْ إليهِ فكلِّمْه . فقام إليهِ عتبةُ حتَّى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا ابن أخي ، إنَّك منَّا حيث قد علمتَ من السِّطَة[1] في العشيرة ، والمكانِ في النَّسب ، وإنك قد أتيتَ قومَك بأمرٍ عظيم ، فرَّقتَ بهِ جماعَتهم ، وسفَّهت بهِ أحلامَهم ، وعبتَ بهِ مَن مضى من آبائهم ، فاسمعْ مني أعرضْ عليك أموراً تنظر فيها ، لعلَّك تقبل منها بعضها . فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمعْ » .

قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا لكَ من أموالنا حتى تكون أكثَرنا مالاً . وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطعَ أمراً دونَك . وإن كنت تريد بِهِ مُلكاً ملَّكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا[2] تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبْنا لك الطِّبَّ وبذلْنا فيهِ أموالنا حتَّى نبْرئَك منهُ ، فإنَّه ربّما غلب التابعُ[3] على الرجل حتى يُداوَى منه .

(١) السطة : الشرف ، من الوسط ، كالعدة من الوعد .

(٢) الرئي : ما يتراءى للإنسان من الجن .

(٣) التابع : الصاحب من الجن .

حتى إذا فَرغَ عُتبةُ ورسول الله ﷺ يستمع منهُ . قال : أقد فَرَغتَ يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع مني . قال : أفعلُ . فقال :

﴿بسم الله الرحمن الرحيم * حمٓ * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِليهِ﴾ . ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليهِ ، فلمَّا سمِعها منهُ عتبةُ أنصتَ لها ،وألقى يديه خلفَ ظهره معتمداً عليهما يسمع منهُ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السَّجدة منها[1] فسجَد ، ثم قال : قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ ، فأنتَ وذاك .

فقام عتبةُ إلى أصحابه ، فقال بعضُهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهَب به . فلما جلسَ إليهم قالوا : ما وراءكَ يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أنِّي سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ بمثله قطُّ ، واللَّهِ ما هو بالشِّعر ، ولا بالسِّحر ، ولا بالكهانة . يا معشرَ قريش ، أطيعوني واجعلوها بي ، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ منهُ نبأ عظيم ، فإن تُصِبْهُ العربُ فقد كُفِيتُموه بغيركم ، وإن يَظهرْ على العرب فملكُه مُلككم ، وعزُّه عزُّكم ، وكنتم أسعدَ الناس به !

قالوا : سَحَركَ واللَّهِ يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيهِ فاصنعوا ما بدا لكم .

* مَا دَارَ بين رَسُول اللَّهِ ﷺ وبين رُؤَسَاءِ قُرَيْش *

ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكَّة في قبائل قريش ، في الرجال والنساء ، وقريش تحبس مَن قدرتْ على حبسه ، وتَفْتِنُ من استطاعت فتنَته من المسلمين .

ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة ، وهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبو البَخْتري بن هشام ، والأسود بن المطَّلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، وعبد الله بن

---

(١) هي قوله تعالى :﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

أبي أُمية ، والعاصي بن وائل ، ونُبَيه ومُنَبِّه ابنا الحجَّاج ، وأُمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلِّموه وخاصموه حتى تُعذِروا فيه . فبعثوا إليه : إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلِّموك فأتِهم . فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً ، وهو يظنُّ أن قد بدا لهم فيما كلَّمهم فيه بَدَاءٌ ، وكان عليهم حريصاً يحب رشدَهم ويعزُّ عليه عَنَتُهم[1] ، حتَّى جَلَس إليهم ، فقالوا له : يا محمد ، إنَّا قد بعثنا إليك لنكلِّمَك ، وإنَّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخَلَ على قومه مثلَ ما أدخلتَ على قومك : لقد شتمت الآباءَ ، وعبت الدين ، وشتمتَ الآلهة ، وسفَّهت الأحلام ، وفرَّقت الجماعة ، فما بقي أمرٌ قبيح إلا قد جئتَه فيما بيننا وبينك ؛ فإن كنتَ إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثَرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرفَ فينا فنحن نسوِّدك علينا ، وإن كنت تريد به مُلكاً ملَّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًّا تراه قد غلب عليك بَذَلنا لك أموالنا في طلب الطِّبّ لك ، حتى نبرئك منه أو نُعذِر فيك .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرفَ فيكم ، ولا الملكَ عليكم ، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزلَ عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلَّغتكم رسالاتِ ربي ونصحتُ لكم ، فإنْ تَقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه عليّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا : يا محمد ، فإن كنتَ غير قابلٍ منَّا شيئاً مما عرضْنا عليك فإنك قد علمتَ أن ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلداً ، ولا أقلَّ ماءً ، ولا أشدَّ عيشاً منَّا ، فسل لنا ربَّك الذي بعثك بما بعثك به فليسيِّر عنا هذه الجبالَ التي قد ضيَّقَتْ علينا ، وليبسطْ لنا بلادنا ، وليفجِّر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعثْ لنا من مضَى من آبائنا ، وليكن فيمن يَبعثُ لنا منهم قُصيُّ بنُ كِلاب ، فإنَّه كان شيخَ صدق ، فنسألهم عما تقول ، أحقٌّ هو أم باطل ؟ فإن صدَّقوك وصنعت ما سألناك صدَّقناك ، وعرفنا به منزلَتك من الله ، وأنَّه بعثك رسولاً كما تقول .

فقال لهم صلوات الله وسلامُه عليه : « ما بهذا بُعِثتُ إليكم ، إنَّما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلَّغتكم ما أُرسِلتُ به إليكم ، فإن تَقْبلوه فهو حظُّكم في الدُّنيا

---

(١) العنت : الجور والأذى .

والآخرة ، وإن تردُّوه عليَّ أصبرْ لأمر الله تعالى حتَّى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذْ لنفسك ، سَلْ ربَّك أن يبعث معك مَلَكاً يصدِّقك بما تقول ، ويُراجعُنا عنك ، وسلْه فليجعلْ لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفِضَّةٍ ، يُغنيك بها عمَّا نراك تبتغي ؛ فإنَّك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاشَ كما نلتمِسُه ، حتَّى نعرف فضلَك ومنزلتَك من ربِّك ، إن كنت رسولاً فيما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : « ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا ، وما بُعِثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ، فإن تقبلوا ما جئتُكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوهُ عليَّ أصبرْ لأمر الله حتَّى يحكم الله بيني وبينكم » .

قالوا : فأسقِط السماء علينا كِسَفاً[١] كما زعمت أن ربَّك إن شاء فعل ، فإنَّا لا نؤمن لك إلا أن تفعل .

فقال رسول الله ﷺ : « ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل » . .

قالوا : يا محمد ، أفما علم ربُّك أنَّا سنجلس معك ونسألُك عمّا سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدَّمَ إليك فيعلِمَكَ ما تُراجعُنا به ، ويخبرك ما هو صانعٌ في ذلك بنا ، إذْ لم نقبل منك ما جئتنا به ! إنَّه قد بلغنا أنه إنَّما يعلِّمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له « الرحمن[٢] » ، وإنا والله لا نؤمِن بالرحمن أبداً ، فقد أعْذَرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركُك وما بلغتَ منَّا حتى نُهلكَك أو تهلكنا ! وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهي بنات الله ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا .

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، وهو ابن عمَّته[٣] . فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومُك ما عرضوا فلم تقبلْه منهم ، ثم سألوا لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلَتك من الله كما تقول ، ويصدّقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألوك أن تأخذَ لنفسك ما يعرفون به فضلَك عليهم ومنزلَتك من

---

(١) جمع كسفة بالكسر ، وهي القطعة من الشيء .

(٢) هو مسيلمة بن حبيب الحنفي ، المعروف بمسيلمة الكذاب ، كان قد تسمى بالرحمن في الجاهلية ، وكان من المعمرين . الروض الأنف .

أسلم عبد الله هذا قبل فتح مكة .

الله فلم تفعل ، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلَّماً ثم تَرقَى فيه وأنا أنظرُ إليك حتَّى تأتيَها ؛ ثم تأتي معك أربعةٌ من الملائكة يَشهدون لك أنَّك كما تقول . وايمُ الله أن لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أنّي أُصدِّقُك !

ثم انصرف عن رسول الله ﷺ ، وانصرف عنه رسول الله إلى أهله حزيناً آسفاً ، لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دَعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إيّاه .

* صَنِيعُ أَبِي جَهْل *

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً قد أبَى إلاَّ ما ترون من عَيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا . وشتم آلهتنا ، وإنِّي أعاهد الله لأجلسنَّ له غداً بحجرٍ ما أطيق حمله ، فإذا سَجَد في صلاته فضختُ به رأسَه ، فأسلِموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم !

قالوا : والله لا نُسْلِمُك لشيء أبداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهلٍ أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وغدا رسول الله كما يغدو ، وكان بمكَّة وقبلتُه إلى الشام ، فكان إذا صلَّى صلَّى بين الركنين : الرُّكن اليَمَانيّ والأسود ، وجعل الكعبةَ بينه وبين الشام . فقام يصلِّي وقد غدت قريشٌ فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهلٍ فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً مُنْتَقَعاً لونُه[1] مرعوباً ، قد يبست يداه على حَجَره ، حتى قَذف الحَجَر من يده . وقامت إليه رجالُ قريش فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : قمتُ إليه لأفعل به ما قلتُ لكم البارحةَ ، فلما دنوتُ منه عَرَضَ لي دونه فحلٌ من الإبل ، لا والله ما رأيتُ مثلَ هامته ، ولا مثلَ قَصَرته[2] ولا أنيابه ، لفحلٍ قطُّ ، فهمَّ بي أن يأكلني !

* خَبَرُ النَّضْرِ بنِ الحَارِث *

فلما قال لهم ذلك أبو جهل قام النضر بن الحارث فقال : يا معشر قريش ، إنه

---

(١) انتقع لونه : (بالبناء للمفعول) : تغير من هم أو فزع .

(٢) القصرة : أصل العنق .

والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمدٌ فيكم غُلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيبَ ، وجاءكم بما جاء به قلتم : ساحر ! لا ، والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السَّحَرَة ونفْثهم عُقَدهم . وقلتم : كاهن ! لا والله ما هو بكاهن ، فقد رأينا الكهنة وتخالجَهم ، وسَمِعنا سجعهم . وقلتم شاعر ! لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافَه كلَّها : هزجَه ورجزَه . وقلتم : مجنون ! لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنونَ ، فما هو بخَنْقِه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه . يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم !

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحِيرةَ وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رُسْتَم وإسفَنْدِيار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكَّر فيه بالله ، وحذَّر قومَه ما أصابَ مَن قبلهم من الأُمم من نقمة الله ، خَلَفه في مجلسه إذا قام ثم قال : أنا والله يا مَعشَر قريشٍ أحسنُ حديثاً منه ، فهلمَّ إليّ فأنا أحدِّثكم أحسنَ من حديثه ، ثم يحدِّثهم عن ملوك فارس ورُستَم وإسفَنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسنُ حديثاً منّي ؟

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : نزل فيه ثماني آيات من القرآن : قول الله عزّ وجلّ : ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ ، وكلّ ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن .

* ذِكْرُ عُدْوَانِ المُشْرِكِينَ عَلَى المُسْتَضْعَفِينَ مِمَّنْ أَسْلَمَ *

ثم إنهم عدَوا على من أسلم واتَّبع رسول الله ﷺ من أصحابه فوثبت كلُّ قبيلةٍ على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمْضاء مكة إذا اشتدّ الحر ، من استُضعِفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يُفتَن من شدة البلاء الذي يصيبه ، ومنهم من يَصلُب لهم ، ويَعصمه الله منهم .

وكان بلالٌ مولى أبي بكر رضي الله عنهما ، لبعض بني جُمَح ، مولَّداً من مولَّديهم ، وهو بلال بن رَبَاح ، وكان اسم أُمّه حمامة ، وكان صادقَ الإسلام طاهرَ القلب . وكان أُمية بن خلف بن وهب بن حُذافة بن جُمَح ، يُخرجه إذا حميت الظهيرةُ

فيطرحُه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفرَ بمحمد وتعبدَ اللاَّتَ والعُزَّى ! فيقول وهو في ذلك البلاء : أَحدٌ أَحَد !! وكان ورقة بن نوفل يمرُّ به وهو يعذَّب بذلك وهو يقول : أحدٌ أحد ، فيقول : أَحَدٌ أَحَد واللَّهِ يا بلال ! ثم يُقبل على أمية بن خلف ومَن يصنع ذلك به من بني جمحَ فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتَّخذنَّه حَنَاناً[1] ! حتَّى مرَّ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوماً وهم يصنعون به ذلك ، فقال لأمية بن خَلَف : ألاَ تتَّقي الله في هذا المسكين ، حتى مَتَى ! قال : أنت الذي أفسدتَه فأنقِذْه مما ترى ! فقال أبو بكر : أفعلُ ، عندي غلامٌ أسودُ أَجْلَدُ منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به . قال : قد قبلت . فقال : هو لك . فأعطاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه غلامه ذلك وأخذه فأعتقَه .

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستَّ رقاب ، بلالٌ سابعهم : عامر بن فُهيرة ، وأُم عُبَيس ، وزِنِّيرة ، وأُصيب بصرُها حين أعتقَها فقالت قريش ما أذهبَ بصرَها إلا اللاتُ والعُزَّى ! فقالت : كذبوا وبيت الله ، ما تضرُّ اللاتُ والعُزَّى وما تنفعان ! فردَّ الله بصرَها .

وأعتق النَّهديةَ وبنتها ، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار ، فمرَّ بهما وقد بعثَتهما سيِّدتهما بطحينٍ لها وهي تقول : والله لا أُعتقكما أبداً ! فقال أبو بكر رضي الله عنه : حِلٌّ[2] يا أمَّ فلانٍ ! فقالت : حِلٌّ ؟ أنت أفسدتَهما فأعتقْهما ! قال : فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد أخذتُهما ، وهما حُرّتان ، أرجعا إليها طحينها . قالتا : أوَ نفرُغ منه يا أبا بكر ثم نردّه إليها ؟ قال : ذلك إن شئتما .

ومرَّ بجارية بني مؤمَّل ، وكانت مُسلمة ، وعمر بن الخطَّاب يعذِّبها لتترك الإسلام ، وهو يومئذ مشركٌ ، وهو يضربُها حتى إذا ملّ قال : إني أعتذرُ إليكِ إني لم أتركْكِ إلا مَلالة ! فتقول : كذلك فعَل الله بك ! فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

قال أبو قحافة لأبي بكر : يا بُنَيّ ، إني أراك تُعتِق رقاباً ضعافاً ، فلو أنَّك إذ فعلت أعتقتَ رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون دونك ؟ فقال أبو بكر : يا أبتِ إنِّي إنَّما أُريد ما أُريد لله عز وجل !

---

(١) أي موضع حنان ، أتمسح به متبركاً .

(٢) أي تحلل من يمينك .

وكانت بنومخزومٍ يَخرجون بعَمّار بن ياسر وبأبيه وأُمّه ، وكانوا أهل بيتِ إسلام ، إذا حميت الظهيرةُ ، يعذّبونهم برمضاء مكة[1] ، فيمرّ بهم رسول الله ﷺ فيقول : صبراً آلَ ياسر ، موعِدُكم الجنَّة !

فأما أُمُّه فقتلوها وهي تأبى إلاّ الإسلام .

وكان أبو جهلٍ الفاسقُ الذي يُغْرِي بهم في رجالٍ من قريش ، إذا سمع بالرجل قد أسلَم ، له شرفٌ ومَنعَة ، أنّبه وأخزاه وقال : تركتَ دينَ أبيك وهو خيرٌ منك ! لَنسفِّهنّ حِلمَك ، ولنُفيِّلنَّ[2] رأيك ، ولنضعَنَّ شرفَك !

وإن كان تاجراً قال : والله لنُكَسِّدَنَّ تجارَتك ، ولنُهلكنَّ مالك !

وإن كان ضعيفاً أغرَى به .

عن سعيد بن جبير قال :

قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغُون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يُعذَرون به في ترك دينهم ؟ قال : نعمْ والله ، إن كانوا ليَضربون أحدَهم ويُجيعونه ويعطّشونه حتى ما يقدر أن يستويَ جالساً من شدّة الضُرِّ الذي نزل به ، حتى يعطيَهم ما سألوهُ من الفتنة ، حتى يقولوا له : اللات والعُزَّى إلَهُك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجُعَل[3]ليمرُّ بهم فيقولون له : أهذا الجُعَل إلَهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، افتداءً منهم مما يبلغون من جَهده .

* الهِجْرَةُ الأُولَى إلَى الحَبَشَة *

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عمِّه أبي طالب ، وأنَّه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مَلِكاً لا يُظلَم عنده أحد ، وهي أرضُ صِدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه . فخرج عند ذلك المسلمون من

---

(١) الرمضاء : الرمل الساخن من شدة حرارة الشمس .

(٢) فيل رأيه : قبحه وخطأه .

(٣) الجعل : دابة سوداء كالخنفساء من دواب الأرض ، قيل هو أبو جعران .

أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافةَ الفتنـة ، وفِراراً إلى الله بدينهم . فكانت أوّلَ هجرةٍ كانت في الإسلام .

وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان ، معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبة معه امرأته سهلة بنت سهيل ، والزُّبير بن العوّام ، ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبي أُمية ، وعثمان بن مظعون ، وعامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة ، وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم ، وسُهيل بن بيضاء . فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة[1] .

ثم خرج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه .

فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرَجوا بهم معهم صغاراً أو ولدوا بها ، ثلاثة وثمانين رجلا .

* إرْسَالُ قُرَيْشٍ إِلَى الحَبَشَةِ في طَلَبِ المُهَاجِرِينَ إليها *

فلما رأت قريش أن أصحابَ رسولِ الله ﷺ قد أمنوا وَاطمأنُّوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جَلْدَين إلى النَّجاشي ، فيردّهم عليهم ، ليفتنوهم عن دينهم ، ويُخرجوهم من دارهم التي اطمأنُّوا بها وأمِنوا فيها ، فبعثوا عبدَ الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشيّ ولبطارقته ثم بعثوهما إليه .

عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قالت :

لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خيرَ جارٍ ، النجاشيّ ، أمِنّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذَى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه . فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشيّ فينا رجلين منهم جَلدين ، وأن يُهدوا للنجاشيّ هدايا مما يُستطرَف من متاع مكّة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدَم[2] . فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا

---

(١) قال ابن هشام : وكان عليهم عثمان بن مظعون . (٢) الأدم : الجلود .

من بطارقته بِطريقاً إلا أهدَوْا إليه هديّة ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كلّ بطريقٍ هديَّته قبل أن تكلِّما النجاشيَّ فيهم ، ثم قدِّما إلى النجاشيّ هداياه ، ثمَّ سلاه أن يسلِّمهم إليكما قبل أن يكلِّمهم . فخرجا حتى قدِما على النَّجاشيّ ونحن عنده بخير دارٍ ، عند خير جار ، فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلاَّ دفَعا إليه هديَّته قبل أن يكلِّما النجاشيّ ، وقالا لكل بطريقٍ منهم : إنّه قد ضَوَى[1] إلى بلد الملِك مِنّا غِلمانٌ سفهاءُ ، فارَقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بَعَثَنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردّهم إليهم ، فإذَا كلَّمنا الملكَ فيهم فأشيروا عليه بأن يُسْلِمهم إلينا ولا يكلِّمهم ، فإنَّ قومهم أعلى بهم عيناً[2] وأعلمُ بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

ثم إنَّهما قدَّما هداياهما إلى النجاشيِّ فقَبِلها منهما . ثمّ كلَّماه فقالا له : أيُّها الملك ، إنه قد ضَوَى إلى بلدك منا غِلمانٌ سفهاء ،فارقوا دينَ قومهم ولم يدخُلوا في دينك ، وجاءوا بدينٍ ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثَنَا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم ، لتردَّهم إليهم ، فهم أعْلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

قالت : ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامَهم النجاشيّ ؛ فقالت بطارقته حوله : صَدَقا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلمُ بما عابوا عليهم ، فأسلمْهم إليهما فليردَّاهم إلى بلادِهم وقومهم . فغضب النجاشيُّ ثم قال : لاها الله[3] ، إذاً لا أُسْلمهم إليهما ، ولا يكاد قومٌ جاوَروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على مَن سوايَ ، حتَّى أدعوَهم فأسألهم عما يقولُ هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنتُ جوارَهم ما جاوروني .

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم ، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضُهم لبعض : ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا : نقول والله ما

(١) ضوى إليه : لجأ وأوى .

(٢) هو أعلى به عيناً ، أي أبصر به .

(٣) أي لا والله .

عَلمنا ، وما أمَرنا به نبيّنا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن . فلما جاءوا ، وقد دعا النجاشيُّ أساقفتَه فنشروا مصاحفهم حولَه ، سألهم فقال لهم : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومَكم ولم تدخلوا به في ديني ولا في دِين أحدٍ من هذه الملَل ؟

فكان الذي كلَّمه جعفرَ بنَ أبي طالب ، فقال له : أيُّها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل المَيتَةَ ، ونَأتي الفواحشَ ، ونقطع الأرحام ، ونُسيءُ الجِوار ، ويأكل القويّ منّا الضعيف ؛ فكنّا على ذلك حتى بَعَثَ الله إلينا رسولاً منّا ، نعرف نسبَه وصدقَه ، وأمانته وعفافَه ، فدَعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده ، ونخلَع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا مِن دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصِدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقولِ الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحدَه فلم نشركُ به شيئاً ، وأمرَنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ قالت : فعدَّد عليه أُمور الإسلام ـ فصدَّقناه وآمنَّا به ، واتَّبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدْنا الله وحدَه لا نُشرِك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حرَّمَ علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعدا علينا قومُنا فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث ، فلمَّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على مَن سِواك ، ورغِبْنا في جوارك ، ورجونا ألَّا نُظلَمَ عندك أيها الملك !

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

فقال له جعفرٌ : نعمْ . فقال له النجاشيُّ : فاقرأه عليّ . فقرأ عليه صدراً من « كٓهيعٓصٓ » . قالت : فبكى واللَّهِ النَّجاشيُّ حتى اخضلّتْ لحيتُه[1] . وبكت أساقفته حتى أخْضَلُوا مصاحفَهم حين سمعوا ما تلا عليهم ! ثم قال لهم النجاشي : إنَّ هذا والذي جاء به عيسى لَيخْرُجُ من مِشكاةٍ واحدةٍ[2] ! انطلقا ، فلا واللَّهِ لا أُسْلمهم إليكما ، ولا يَكادون !

قالت : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : واللَّهِ لآتينَّه غداً بما أستأصِلُ

---

(١) أي ابتلت من الدموع .

(٢) المشكاة : الكوة غير النافذة .

به خَضراءهم(١) - فقال له عبد الله بن أبي ربيعة - وكان أتْقى(٢) الرجلين فينا - : لا تفعلْ ، فانّ لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا . قال : والله لأُخبرنّه أنهم يزعمون أنَّ عيسى ابن مريم عبد !

ثم غدا عليه من الغد فقال له أيها : الملكُ ، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيما ، فأرسلْ إليهم فسَلْهم عما يقولون فيه .

فأرسل إليهم ليسألهم عنه . قالت : ولم ينزلْ بنا مثلُها قطُّ . فاجتمع القوم ثم قال بعضُهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاءنا به نبيُّنا ، كائناً في ذلك ما هو كائن !

فلمّا دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسِى ابن مريم ؟ فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبيُّنا ﷺ ، يقول : هو عبد الله ورسوله ورُوحه ، وكلمته ألقاها إلى مريمَ العذراء البَتُول(٣) .

فضربَ النجاشيُّ بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : واللَّهِ ما عدا عيسى ابن مريم ممَّا قُلتَ هذا العودَ(٤) .

فتناخَرَت بطارقته حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نَخَرتم والله ، اذهبُوا فأنتم شُيومٌ بأرضي(٥) ، مَن سَبَّكُم غَرِم ، مَن سبَّكم غرِم ! ما أحِبُّ أن لي دَبْراً(٦) من ذهبٍ وأنِّي آذيت رجلا منكم ! ردُّوا عَليهما هداياهما فلا حاجة لي بها .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحَين ، مردوداً عليهما ما جاءوا به ، وأقمنا عنده بخير دارٍ ، مع خير جار .

قالت : فوالله إنا لَعَلى ذلك إذ نَزَلَ به رجلٌ من الحبشة ينازعُه في مُلكه فوالله ما علمتُنا حزِنَّا حزناً قط كان أشدَّ علينا من حزنٍ حزِنَّاه عند ذلك ، تخوُّفاً أن يظهر ذلك الرجلُ على النجاشي ، فيأتيَ رجلٌ لا يعرف من حقِّنا ما كان النجاشيُّ يَعرِف منه . وسار إليه النجاشيُّ وبينهما عَرْض النيل ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مَن رجلٌ يخرج

---

(١) أي شجرتهم التي تفرعوا منها . وخضراء كل شيء : أصله .

(٢) ويروى : « أبق » .

(٣) البتول : العذراء المنقطعة عن الأزواج .

(٤) أي مقدار هذا العود .

(٥) ويروى : « سيوم » أي آمنون .

(٦) الدبر ، بلغة الحبشة : الجبل .

حتى يَحضُر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر ؟ فقال الزبير بن العوام : أنا . قالوا : فأنت . وكان من أحدث القوم سِنًا ، فنفخوا له قِربةً فجعلها في صدره ، ثم سَبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلقَ حتى حضرهم .

قالت : فدعونا الله للنجاشيّ بالظهور على عدوّه ، والتمكين له في بلاده . فواللّهِ إنا لعلى ذلك متوقّعون لما هو كائن ، إذْ طلع الزُّبير وهو يسعى ، فلمع بثوبه[1] وهو يقول : ألَا أبشِروا فقد ظفِر النجاشيُّ !

وأهلَكَ اللّهُ عدوَّه ، ومكَّن له في بلاده ، واستوسق[2] عليه أمر الحبشة . فكنَّا عنده في خير منزل ، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكَّة .

* إسْلَامُ عُمَرَ بنِ الخَطَّاب *

ولما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش ، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله ﷺ ، وردَّهما النجاشيُّ بما يكرهون وأسلم عمر بن الخطاب ، وكان رجُلاً ذا شكيمة لا يُرامُ ما وراء ظهره ، امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة ، حتى عازُّوا قريشاً[3] .

وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر أن نصلِّيَ عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطَّاب ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلَّى عند الكعبة . وصلَّينا معه .

وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة .

وكان إسلام عمر فيما بلغني ، أن أُخته فاطمةَ بنت الخطاب كانت قد أسلمت وأسلم بَعلُها سعيد بن زيد ، وهما مستخْفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نُعيم بن عبد الله النحَّام ـ رجل من قومه من بني عدي بن كعب ـ قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فَرَقاً من قومه[4] .

وكان خبّاب بن الأرتّ يختلف إلى فاطمة بنت الخطّاب يقرئها القرآن ، فخرج عمرُ يوماً متوشِّحاً سيفَه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيتٍ عند الصَّفا ، وهم قريبٌ من أربعين ما بين رجالٍ ونساءٍ ، ومع رسول

---

(١) لمع بثوبه : رفعه وحركه ليراه غيره .
(٢) استوسق : اجتمع .
(٣) أي غيبوهم .
(٤) الفرق : الخوف .

الله ﷺ عمه حمزةُ بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين ، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرجْ فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نُعَيم بنُ عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابيَّ الذي فرَّق أمر قريشٍ وسفَّه أحلامَها وعاب دينَها ، وسبَّ آلهتها ، فأقتُله . فقال له نعيم : والله لقد غرّتْك نفسك من نفسك يا عمر ! أتُرى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلتَ محمداً ؟! أفلا ترجعُ إلى أهل بيتك فتقيمَ أمرهم ؟ قال : وأيّ أهل بيتي ؟ قال : ختَنُك وابن عمِّك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابَعا محمداً على دينه ، فعليك بهما[1] .

فرجع عمرُ عامداً إلى أخته وختنه[2]. وعندهما خبَّاب بن الأرتّ معه صحيفةٌ فيها : ﴿طه﴾ يقرئهما إياها . فلمَّا سمعوا حِسَّ عُمَر تغيَّبَ خبَّابٌ في مَخدع لهم[3] أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمةُ بنتُ الخطَّاب الصحيفةَ فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمرُ حين دنا إلى البيت قراءة خبَّابٍ عليهما ، فلمّا دخل قال : ما هذه الهَيْنَمة[4] التي سمعتُ ؟ قالا له : ما سمعتَ شيئاً . قال : بلى والله ، لقد أُخبرتُ أنكما تابعتما محمداً على دينه ! وبطشَ بختنه سعيدِ بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنتُ الخطاب لتكفَّه عن زوجها ، فضربَها فشجَّها ، فلمَّا فعل ذلك قالت له أخته وختنُه : نعمْ ، قد أسلمنا وَآمنَّا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ! فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندِم على ما كان صنع ، فارعوَى ، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفةَ التي سمعتكم تقرءُون آنفاً ، أنظرْ ما هذا الذي جاء به محمد ـ وكان عمر كاتباً[5] ـ فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاكَ عليها . قال : لا تخافي . وحلفَ لها بآلهته ليردَّنَّها إذا قرأها إليها . فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له : يا أخي ، إنك نجسٌ ، على شركك ، وإنَّه لا يمسُّها إلا الطَّاهر[6] ! فقام عمر فاغتَسل ، فأعطته الصحيفةَ وفيها : ﴿طه﴾ فقرأها ،

---

(١) إنما أراد بذلك صرفه عن رسول الله ﷺ ، خشية عليه . وإيذاء فاطمة وزوجها أهون من ذلك أمراً .

(٢) الختن : زوج البنت أو الأخت .

(٣) المخدع : بيت صغير داخل البيت الكبير .

(٤) الهينمة : صوت كلام لا يفهم .

(٥) أي عارفاً بالكتابة .

(٦) اختلف في الطهارة عند مس المصحف ، فقيل فرض ، وقيل مندوب .

فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمَه ! فلمَّا سمع ذلك خبَّابٌ خرج إليه فقال له : يا عمر ، والله إني لأرجـو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيِّه ، فإنِّي سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ! » . فاللَّهَ اللَّهَ يا عمر !

فقال له عند ذلك عمر : فدُلَّني يا خباب على محمد حتى آتيَه فأُسْلم . فقال له خباب : هو في بيت عند الصَّفا ، معه نفرٌ من أصحابه .

فأخذ عمر سيفَه فتوشَّحه ، ثم عَمَد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضربَ عليهم البابَ ، فلما سمِعوا صوته قام رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فنظرَ مِن خَلَل الباب ، فرآهُ متوشِّحاً السَّيفَ ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزعٌ فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشِّحاً السيف . فقال حمزة بن عبد المطلب : فَأْذَنْ له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلْناه له ، وإن كان جاء يريد شرًّا قتلناه بسيفه . فقال رسول الله ﷺ : إئذن له . فأذن له الرجل ونهضَ إليه رسولُ الله ﷺ حتى لقيَه في الحُجرة ، فأخَذ حجزته[١] أو بمجمع ردائه، ثم جبَذَه به جبذةً شديدة وقال: ما جاء بك يَا ابنَ الخطَّاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهيَ حتى يُنزِلَ الله بك قارعة[٢] . فقال عمر : يَا رسول الله ، جئتك لأُومن بالله وبرسوله وبما جَاء من عند الله !

فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرةً عرفَ أهلُ البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ عمر قد أسلم .

فتفرّق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر ، مع إسلام حمزة ، وعرفوا أنهما سيمنعان رسولَ الله ﷺ وينتصفون بهما من عدوّهم .

قال عمر : لما أسلمت تلك الليلةَ تذكَّرتُ أيَّ أهل مكةَ أشدُّ لرسول الله ﷺ عداوةً حتَّى آتيَه فأُخبرَه أنِّي قد أسلمت . قال : قلت أبو جهل . فأقبلت حين أصبحتُ حتى ضربتُ عليه بابه . قال : فخرج إليَّ أبو جهل فقال : مرحباً وأهلا بابن أختي[٣] ، ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبركَ أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدَّقت بما جَاء به . قال : فضرب البابَ في وجهي ، وقال : قَبحك الله وقَبح ما جئتَ به . !

---

(١) الحجزة : موضع شد الإزار .

(٢) القارعة : الداهية .

(٣) كانت أم عمر حنتمة بنت هشام بن المغيرة ، أخت أبي جهل بن هشام .

* خَبَرُ الصَّحِيفَةِ *

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً ، وأن النجاشيَّ قد مَنَعَ من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجعَل الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب ، « على ألا يَنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم » .

فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهَدوا وتواثقوا على ذلك ، ثمَّ علَّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم .

وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة ، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشُلَّ بعض أصابعه .

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطَّلب إلى أبي طالب بن عبد المطَّلب ، فدخلوا معه في شِعبه واجتمعوا إليه ، وخرج من بني هاشم أبو لهبٍ عبد العزَّى بنُ عبد المطلب ، إلى قريشٍ فظاهَرَهم . وكان يقول في بعض ما يقول :

يَعدُني محمدٌ أشياء لا أراها ، يزعم أنها كائنةٌ بعد الموت ، فماذا وَضَعَ في يديَّ بعد ذلك ؟ ثم ينفُخ في يديه ويقول : تبًّا لكما ، ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد ! فأنزل الله تعالى فيه : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(١) .

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جُهِدوا ، لا يصل إليهم شيءٌ إلَّا سرًّا ، مستخفياً به من أرادَ صِلَتَهم من قريش .

* ذِكْرُ مَا لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الأَذَى *

فجعلت قريشٌ حين منعه الله منها وقام عمُّه وقومُه من بني هاشم وبني المطَّلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ، يَهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه ،

---

(١) وقيل : إن سبب نزولها أنه لما نزل قول الله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾خرج رسول الله ﷺ حتى أتى الصفا ، فصعد عليه وقال : يا صباحاه ! فلما اجتمعوا إليه قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك ألهذا جمعتنا ! فأنزل الله تعالى : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ .

وجَعل القرآنُ ينزل في قريش بأحداثهم وفيمن نَصب لعداوته منهم ، فمنهم من سُمِّيَ لنا ، ومنهم من نزل فيه القرآنُ ، في عامَّة مَنْ ذكر الله من الكفَّار .

فكان ممَّن سُمِّي لنا من قريشٍ ممن نزل فيه القـرآن عمه أبو لهب بن عبدا المطلب وامرأته أم جميل بنت حرب بن أُمية « حَمَّالة الحطب » ؛ لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحُه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمرّ ، فأنزل الله تعالى فيهما :

﴿تبَّتْ يَدَا أبي لَهبٍ وَتبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَد﴾ .

قال ابن إسحاق : فذُكر لي أنَّ أُمَّ جميل ، حين سمعتْ ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله ﷺ وهو جَالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها فِهرٌ[1] من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ ، فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يَا أبا بكر ، أين صاحبُك فقد بلغني أنه يهجُوني ! والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ! ثم انصرفَتْ ، فقال أبو بكر : يَا رسول الله . أما تُراها رأتك ؟ فقال : ما رأتني ، لقد أخذ الله ببصرها عني .

وأمية بن خلف بن وهب بن حُذافة بنِ جُمَح ، كان إذا رأى رسول الله ﷺ همزَهُ ولَمزَه[2] ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ المُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ .

والعاص بن وائل السهميّ ، كان خباب بن الأرتّ ، صاحبُ رسول الله ﷺ ، قَيْناً يعمَلُ السُّيوفَ ، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفاً عمِلها له ، حتى كان له عليه مال ، فجاء يتقاضاه ، فقال له : يَا خبّاب ، أليس يزعمُ محمدٌ صاحبُكم هذا الذي أنتَ على دينه أنَّ في الجنَّة ما ابتغَى أهلُها من ذهب أو فضَّة ، أو ثياب أو خدم ! قال خبَّاب : بَلَى . قال : فأنظرني إلى يوم القيامة يَا خبَّاب ، حتَّى أرجع إلى تلك الدار فأقضيَك هنَالِك حَقَّك ، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خبَّاب آثرَ عند الله مني ولا أعظم حظاً في ذلك . فأنزل الله تعالى فيه : ﴿أفرأيتَ الذي كَفَر بآيَاتنا وقالَ لأُوتَينَّ مالاً وولَدا * أطَّلَعَ

---

(١) الفهر : حجر في مقدار ملء الكف .

(٢) الهمز : أن يشتم الرجل علانية ويكسر عينيه عليه ، ويغمز به . واللمز : أن يعيبه سراً .

الغيبَ﴾ إلى قوله : ﴿وَنَرِثُه ما يقولُ ويأتِينا فَرْدا﴾ .

ولقي أبو جهل بن هشام رسولَ الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ فقال له : والله يا محمد لتتركَنَّ سبَّ آلهتنا أو لنسُبَّنَّ إلٰهك الذي تعبد ! فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ولا تسبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُون الله فيسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بغير عِلْم﴾ . فذُكر لي أن رسول الله ﷺ كفَّ عن سبِّ آلهتهم وجعل يدعوهم إلى الله .

والنضر بن الحارث بن كَلَدَة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصيّ ، كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن ، وحذَّر فيهِ قريشاً ما أصاب الأمم الخالية ، خَلَفه في مجلسه إذا قام ، فحدَّثهم عن رُستمٍ الشِّيد[1] ، وعن إسْفَنْدِيَار ، وملوكِ فارس ثم يقول : والله ما محمد بأحسنَ حديثاً مني ، وما حديثه إلا أساطير الأوَّلين اكتتبتُها كما اكتَتَبها محمد . فأنزل الله فيه : ﴿وقالُوا أساطيرُ الأوَّلِينَ اكتَتَبَهَا فهِيَ تُمْلى عليه بكرَةً وأصيلا * قُلْ أنزلَه الذي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّموات والأرض إنَّهُ كانَ غَفُوراً رحيما﴾ ، ونزل فيه : ﴿إذا تُتْلى عليه آياتُنا قالَ أساطيرُ الأوَّلين﴾ . ونزل فيه : ﴿وَيلٌ لكُلِّ أفَّاكٍ أثيمٍ * يَسْمَعُ آياتِ الله تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكبِراً كَأَنْ لم يَسْمَعْها كَأَنَّ في أُذُنَيْهِ وَقراً فَبَشِّرْهُ بعَذابٍ أليم﴾ .

والأخنس بن شُرَيق بن وهبِ الثقفي ، وكان من أشراف القوم وممن يُستَمع منه ، فكان يُصيب من رسول الله ﷺ ويردُّ عليهِ ، فأنزل الله تعالى فيهِ : ﴿ولا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بنَميمٍ﴾ إلى قوله ﴿زَنيم﴾ .

والوليد بن المُغيرة قال : أينزَّلُ على محمدٍ وأُتركُ وأنا كبير قريش وسيِّدُها ! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثَّقفي سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين[2] ! فأنزل الله تعالى فيه : ﴿وقالوا لوْلا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رَجُلٍ من القَرِيتَيْن عَظيمٍ﴾ إلى قوله ﴿ممَّا يجمعون﴾ .

وأُبيُّ بن خلفٍ ، وعقبة بن أبي مُعَيط ، وكانا متصافيين ، حسناً ما بينهما ، فكان عُقبةُ قد جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منهُ ، فبلغ ذلك أُبيًّا ، فأتى عُقبةَ فقال له : ألم يبلغني أنَّك جالست محمداً وسمعتَ منه ! وجهي من وجهك حرامٌ أن

(١) معناه في الفارسية الشمس ، أو ضوؤها .

(٢) القريتان : مكة والطائف .

أكلِّمك ـ واستغلظَ من اليمين ـ إن أنت جلست إليه أو سمعتَ منه ، أو لم تأتِه فتتفلَ في وجهِه ! ففعل ذلك عدوُّ الله عُقبة بن أبي مُعَيطٍ لعنه الله ، فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ويَوم يَعَضّ الظالمُ على يديهِ يَقولُ يا ليتني اتّخذتُ مَعَ الرَّسول سَبيلاً﴾ إلى قوله : ﴿للإنسان خَذُولاً﴾ .

ومشى أُبيُّ بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظمٍ بالٍ قد ارفتَّ فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرمَّ[1] ! ثم فتّه في يده ثم نفخه في الريح نحوَ رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : نعم ، أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك الله النار ! فأنزل الله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العِظَامَ وهِيَ رمِيمٌ * قُلْ يحييها الذي أنْشأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بكُلِّ خَلْقٍ عَليمٌ * الَّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشجَرِ الأخضَر ناراً فإذَا أنتم منه تُوقِدُون﴾ .

واعترَض رسولَ الله ﷺ ، وهو يطوف بالكعبة فيما بلغني ، الأسودُ بنُ المطَّلب بن أسد بن عبد العزَّى ، والوليدُ بن المغيرة ، وأمية بن خَلفٍ ، والعاصُ بن وائلٍ السَّهْميّ ، وكانوا ذوي أسنانٍ في قومهم ، فقالوا : يا محمد ، هلُمَّ فلنعبدْ ما تعبدُ ، وتَعبد ما نعبد ، فنشترك نحنُ وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كُنَّا قد أخذْنا بحظِّنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنتَ قد أخذتَ بحظِّك منه . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿قُلْ يأيُّها الكافرونَ * لا أعبدُ ما تَعْبُدُون * ولا أنتم عابدُونَ ما أعبُدُ * ولا أنا عابدٌ ما عبدتم * ولا أنتم عابدونَ ما أعْبُد * لكمْ دينُكم وليَ دِين﴾ .

وأبو جهل بن هشام ، لما ذكر الله عزَّ وجلَّ شجرةَ الزَّقوم تخويفاً لهم بها قال : يا مَعْشَر قريش ، هل تَدْرُون ما شجرةُ الزَّقُّوم التي يخوِّفكم بها محمد ؟ قالوا : لا . قال : عجوة يثرب بالزُّبد ، والله لئن استمكنّا منها لنتزقَّمنَّها تزقُّما[2] ! فأنزل الله تعالى فيه : ﴿إن شجرَةَ الزَّقُّوم * طَعَامُ الأثيمِ * كالمُهلِ يَغْلِي في البُطون * كغَلْي الحميم﴾ . أي ليس كما يقول .

ووقفَ الوليد بن المغيرة مع رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ يكلِّمه ، وقد طمِع في إسلامه ، فبينا هو في ذلك إذ مرَّ به ابنُ أُمِّ مكتومٍ الأعمى ، فكلَّم رسولَ الله ﷺ

---

(١) أرم : بلى ، وصار رمة .

(٢) التزقم : الابتلاع .

وجعل يستقرئه القرآن ، فشقَّ ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضجره ، وذلك أنَّه شَغَله عما كان فيه من أمر الوليد ، وما طمع فيه من إسلامه ، فلما أكثر عليه انصرفَ عنه عابساً وتركه ، فأنزل الله تعالى فيه : ﴿عَبَس وتولَّى * أنْ جاءهُ الأعمَى﴾ ، الى قـوله تعالى : ﴿في صُحُفٍ مُكَرَّمة * مَرْفوعةٍ مُطَهَّرَة﴾ . أي إنما بُعثتُك بشيراً ونذيراً ، لم أخصَّ بك أحداً دون أحد ، فلا تمنعْه ممن ابتغاه ، ولا تتصدَّينَّ به لمن لا يريده .

وكان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب والحكم بن أبي العاص ، وعقبة بن أبي معيط وعديّ بن حمراء الثقفي ، وابن الأصداء الهذليّ ، وكانوا جيرانه ، لم يسلمْ منهم أحدٌ إلا الحكم بن أبي العاص فكان أحدهم ـ فيما ذُكر لي ـ يطرح عليه ﷺ رَحِمَ الشاة وهو يصلِّي ، وكان أحدهم يطرحها في برمته[1] إذا نُصِبت له ، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حِجْراً[2] يستتر به منهم إذا صلى . فكان إذا طرحوا عليه ذلك الأذى ، يخرج به ﷺ على العُود ، فيقف به على بابه ثم يقول : يا بني عبد مناف ، أيّ جوارٍ هذا ؟! ثم يلقيه في الطريق .

* عَوْدَةُ مُهَاجِرَةِ الحَبَشَةِ لَمَّا بَلَغَهُمْ إسلامَ أَهْلِ مَكَّةَ *

وبلغ أصحابَ رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلامُ أهل مكَّة ، فأقبلوا لِمَا بلغَهم من ذلك حتى إذا دنَوا من مَكَّة بلغهم أنَّ ما كانوا تحدَّثوا به من إسلام أهل مكَّة كان باطلاً ، فلم يدخلْ منهم أحدٌ إلا بجوارٍ أو مستخفياً . وجميعُ من قدم عليه من مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلا .

فكان من دخلَ منهم بجوارٍ فيمن سُمِّي لنا : عثمان بن مظعون بن حبيب الجمحي ، دخل بجوارٍ من الوليد بن المغيرة . وأبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ودخل بجوارٍ من أبي طالب بن عبد المطلب ـ وكان خالَه ـ وأم أبي سلمةَ برة بنت عبد المطَّلب .

---

(١) البرمة : القدر من حجارة .

(٢) الحجر : كل ما حجرته من حائط .

* حَدِيثُ نَقْضِ الصَّحِيفَة *

ثم إنَّه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريشٌ على بني هاشم وبني المطَّلب نفرٌ من قريش ، ولم يُبْل فيها أحدٌ أحسنَ من بلاء هشام بن عمرو وذلك أنه كان ابنَ أخي نَضْلة بن هاشمِ بن عبد مناف لأمِّه ، فكان هشامٌ لبني هاشمٍ واصِلاً ، وكان ذا شرفٍ في قومه ، فكان فيما بلغني يأتي بالبعير ، وبنو هاشم وبنو المطَّلب في الشِّعب ليلا ، قد أوقرَهُ[1] طعاماً ، حتى إذا أقبلَ به فَمَ الشعب خلعَ خِطامَه من رأسه ، ثم ضَرَب على جنْبه ، فيدخل الشِّعبَ عليهم ، ثم يأتي به قد أوقره بَزًّا[2] فيفعلُ به مثل ذلك .

ثم إنَّه مَشَى إلى زُهير بن أبي أُمية بن المغيرة ـ وكانت أُمه عاتكَةَ بنتَ عبد المطَّلب ـ فقال : يا زهير ، أقد رضيتَ أن تأكلَ الطَّعام ، وتلبسَ الثيابَ ، وتنكح النساءَ ، وأخوالُك حيث قد علمتَ ، ولا يُبتاع منهم ، ولا يَنكِحون ولا يُنكَح إليهم . أمَا إنِّي لأحلفُ بالله أن لو كانوا أخوالَ أبي الحكم بن هشام ثم دعوتَه إلى مثلِ ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً ! قال : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ إنَّما أنا رجلٌ واحدٌ ، والله أن لو كان معي رجلٌ آخرُ لقُمتُ في نقضها حتى أنقضَها . قال : قد وجدتُ رجلاً . قال : فمن هو ؟ قال : أنا . قال له زهير : أبْغِنا رجلاً ثالثاً .

فذهب إلى المطعِم بن عديٍّ فقال له : يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلكَ بطنان من بني عبد منافٍ وأنت شاهدٌ على ذلك ، موافقٌ لقريش فيه ؟! أَمَا واللَّهِ لئن أمكنتموهم من هذه لتجدُنَّهم إليها منكم سراعاً . قال : ويحك فماذا أصنع ؟ إنَّما أنا رجل واحد . قال : قد وجدتُ ثانياً . قال : من هو؟ قال : أنا . قال : أبْغِنا ثالثاً . قال : قد فعلت . قال : من هو؟ قال : زهير بن أبي أُمية . قال : أبغنا رابعاً .

فذهب إلى أبي البَخْتَريّ بن هشام ، فقال له نحواً ممَّا قال للمطعم بن عديّ فقال : وهل من أحدٍ يعين على هذا ؟ قال : نعم . قال : من هو؟ قال : زهير بن أبي أُمية ، والمطعم بن عدي ، وأنا معك . قال : أبغنا خامساً .

فذهب إلى زَمَعة بن الأسود بن المطَّلب . فكلَّمه وذكر له قرابتهم وحقَّهمْ ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد ؟ قال : نعم . ثمّ سمى له القوم .

---

(١) أوقره : حمله .

(٢) البزّ : الثياب .

فاتَّعدوا خَطْمَ الحَجُون[1] ليلاً بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك فأجمعوا أمرَهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقُضوها . وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أوَّلَ من يتكلَّم .

فلما أصبحوا غَدوْا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أُمية عليه حُلَّةٌ ، فطاف بالبيت سبعاً ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ، أنأكل الطعامَ ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكَى لا يبتاعُون ولا يبتاع منهم ! والله لا أقعدُ حتى تُشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد : كَذبتَ واللهِ لا تُشقّ !

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضِينا كتابتها حيثُ كُتِبتْ . قال أبو البَخْتريِّ : صدقَ زمعَة ، لا نَرضى ما كُتب فيها ولا نقرُّ به . قال المطعمُ بن عديٍّ : صدقتما ، وكَذَبَ من قال غيرَ ذلك ، نبرأُ إلى الله منها وممَّا كتِب فيها ! قال هشام بن عمرو نحواً من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمرٌ قُضيَ بلَيل ، تُشُووِر فيه بغير هذا المكان .

قال : وأبو طالب جالسٌ في ناحية المسجد . فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقَّها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » .

وكان كاتب الصحيفة مَنصور بن عِكرمة ، فشُلَّتْ يدهُ فيما يزعمون .

* أمْرُ الإراشِيِّ الَّذي بَاعَ أبَا جَهْلٍ إبلَهُ *

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي ، وكان واعية ، قال :

قدِم رجلٌ من إراش بإبلٍ له مكَّة ، فابتَاعَها منه أبو جهل ، فمطَلَه بأثمانها ، فأقبلَ الإراشيُّ حتى وقف على نَادٍ من قريش ، ورسول الله ﷺ في ناحية من المسجد جالس ، فقال : يا معشرَ قريش ، مَنْ رجلٌ يُؤْدِيني[2] على أبي الحكم بن هشام ؛ فإنِّي

---

(١) خطم الحجون : موضع . والحجون : جبل بأعلى مكة .

(٢) يؤديني : يعينني .

رجلٌ غريبٌ ، ابنُ سبيلٍ ، وقد غلبَني على حقّي ؟ فقال له أهلُ ذلك المجلس : أتَرى ذلك الرجلَ الجالس ـ لرسولِ الله ﷺ ، وهم يهزءُون به ، لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة ـ اذهبْ إليه فإنَّه يُؤْديك عليه !

فأقبل الإراشيُّ حتَّى وقفَ على رسول الله ﷺ ، فقال : يَا عبدَ الله ، إنَّ أبا الحكم بنَ هشامٍ قد غلَبني على حقٍّ لي قِبلَه ، وأنا رجلٌ غريبٌ ابنُ سبيل ، وقد سألتُ هؤلاء القومَ عن رجلٍ يؤْديني عليه ، يأخذ لي حقّي منه ، فأشاروا لي إليك ، فخذ لي حقّي منه يرحمك الله ! قال : انطلقْ إليه . وقام معه رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجلٍ ممَّن معهم : اتْبَعْه فانظر ماذا يصنع ؟

وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضربَ عليه بابه ، فقال : مَن هذا ؟ قال : محمد ، فاخرجْ إليّ . فخرج إليه وما في وجهه من رائحة[1] ، قد انتُقِع لونُه ، فقال : أعطِ هذا الرجلَ حقَّه . قال : نعم ، لا تبرحْ حتَّى أعطيَه الذي له . فدخلَ فخرجَ إليه بحقّه فدفعه إليه .

ثم انصرف رسول الله ﷺ ، وقال للإراشي : الحقْ بشأنك . فأقبل الإراشيّ حتى وقفَ على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيراً فقد واللّهِ أخذَ لي بحقّي .

قال : وجاء الرجلُ الذي بعثوا معه فقالوا : ويحك ! ماذا رأيت ؟ قال : عجباً من العجب . والله ما هو إلاّ أنْ ضربَ عليه بابَه ، فخرج إليه وما مَعه رُوحه فقال له : أعط هذا حقَّه ، فقال : نعم ، لا تبرحْ حتَّى أُخْرجَ إليه حقّه ، فدخل فخرج إليه بحقّه فأعطاه إياه !

ثم لم يلبَثْ أبو جهلٍ أن جاء ، فقالوا له : ويلك ! ما لك ؟ والله ما رأينا مثل ما صنعتَ قطُّ ! قال : ويحكمْ . والله ما هو إلا أن ضربَ عليَّ بابي وسمعتُ صوتَه فملئتُ رعباً ثم خرجتُ إليه ، وإنَّ فوقَ رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيتُ مثل هامته ، ولا قَصَرته ، ولا أنيابه لفحل قطُّ ! والله لو أبيتُ لأكلَني !

* حَدِيثُ الإسْرَاء *

ثم أُسريَ برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[2] وهو بيت المقدس من إيلياء ، وقد فشا الإسلام بمكةَ في قريش وفي القبائل كلِّها .

---

(١) أي بقية روح .

(٢) قال السهيلي : قيل كان قبل الهجرة بعام .

فكان عبد الله بن مسعود ـ فيما بلَغني عنه ـ يقول :

أُتيَ رسول الله ﷺ بالبُراق ، وهي الدابّةُ التي كانت تُحمَل عليها الأنبياءُ قبلَه ، تضع حافرَها في منتهى طرْفها ؛ فحُمِل عليها ، ثم خرج به صاحبُه ، يرى الآيَاتِ فيما بين السماء والأرض ، حتّى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجدَ فيه إبراهيمَ الخليل وموسى وعيسى ، في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له ، فصلَّى بهم . ثم أُتي بثلاثة آنية : إناءٌ فيه لبن ، وإناءٌ فيه خمر ، وإناءٌ فيه ماءٌ . فقال رسول الله ﷺ : فسمعتُ قائلاً يقول حين عُرِضَتْ عليّ : إن أخذ الماءَ غرق وغرقت أُمَّتُه ، وإن أخذَ الخمرَ غَوَى وغوت أُمّته ، وإن أخذ اللبنَ هُدِيَ وهديت أُمّتُه . قال : فأخذتُ إناء اللبن فشربت منه ، فقال لي جبريل عليه السلام : هُدِيتَ وهديتْ أُمتك يَا محمد !

قال ابن إسحاق : وحُدِّثت عن الحسن أنه قال :

قال رسول الله ﷺ : بينا أنا نائمٌ في الحِجر إذْ جاءني جبريلُ فهمزَني بقدمه ، فجلستُ فلم أرَ شيئاً ، فعدت إلى مضجعي . فجاءني الثانيةَ فهمزَني بقدمه ، فجلستُ فلم أرَ شيئاً ، فعدت إلى مضجعي . فجاءني الثالثةَ فهمزني بقدمه ، فجلستُ فأخذَ بعضدي ، فقمتُ معه ، فخرج بي إلى باب المسجد ، فإذا دابَّةٌ أبيض ، بين البغل والحمار ، في فخذيه جناحان يَحفِزُ[1] بهما رجليه ، يضع يدَه في منتهى طَرْفه ، فحملني عليه ، ثم خرجَ معي لا يفوتني ولا أفوته .

قال الحسن في حديثه : فمضى رسول الله ﷺ ومضى جبريل عليه السلام معه حتى انتهى به إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى ، في نفرٍ من الأنبياء ، فأمّهم رسولُ الله ﷺ فصلّى بهم ، ثم أُتِيَ بإناءيْن في أحدهما خمر وفي الآخر لبن ، فأخذ رسول الله ﷺ إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر ، فقال له جبريل : هُدِيت للفطرة وهديت أُمّتُك يَا محمد ، وحُرِّمت عليكم الخمر . ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة ، فلما أصبحَ غدا على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْر[2] البيِّن ! والله إنَّ العِيرَ لتَطَّردُ[3] شهراً من مكّة إلى الشام مدبرةً ، وشهراً مقْبلة ، أفيذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة !

---

(١) يحفز : يدفع .

(٢) الإمر ؛ بكسر الهمزة : العجيب المنكر .

(٣) العير : القافلة . تطرد اطراداً : تجري وتسرع .

قال : فارتدَّ كثير ممّن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له : هل لك يَا أبا بكر في صاحبك ، يزعم أنَّه قد جاء هذه الليلةَ بيتَ المقدس وصلَّى فيه ورجعَ إلى مكة ! فقال لهم أبو بكر : إنَّكم تكذِبون عليه . فقالوا : بلى ، ها هو ذاك في المسجد يحدِّث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدَق ، فما يُعجبكم من ذلك ! فوالله إنَّه ليُخبرني أن الخَبَر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ فأُصدِّقُه ! فهذا أبعدُ مما تَعجبون منه . ثم أقبلَ حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : يَا نبيَّ الله ، أحدَّثتَ هؤلاء القومَ أنَّك جئتَ بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال : يَا نبيَّ الله فصِفْه لي ، فإنِّي قد جئتُه . فقال رسول الله ﷺ : فرُفِع لي حتى نظرتُ إليه . فجعل رسول الله ﷺ يصفُه لأبي بكر ويقول أبو بكرٍ صدقت ، أشهد أنك رسول الله . حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر : وأنتَ يَا أبا بكرٍ الصِّديقُ . فيومئذٍ سمَّاه « الصِّدِّيق » .

عن سعيد بن المسيِّب ، أن رسول الله ﷺ وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رآهم في تلك الليلة فقال :

أمَّا إبراهيم فلم أر رجلاً أشبَه قطُّ بصاحبكم ، ولا صاحبُكم أشبهَ به منه[١] . وأما موسى فرجلٌ آدَمُ طويلٌ ضَربٌ جَعْدٌ أقنَى[٢] ، كأنه من رجال شَنوءة[٣] . وأما عيسى ابن مريم فرجلٌ أحمر بين القصير والطويل ، سَبْط الشَّعر كثير خِيلان الوجه[٤] ، كأنَّه خرجَ من ديماس[٥] ، تخال رأسَه يقطر ماء ، أشبهُ رجالكم به عروةُ بن مسعود الثقفيّ .

* قِصَّةُ المِعْرَاج *

قال ابن إسحاق : وحدَّثني من لا أتهم عن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه أنه قال :

---

(١) أي ولم أر رجلا صاحبكم أشبه به منه .

(٢) آدم : أسمر . الضرب : الخفيف اللحم . الجعد : المجتمع بعضه إلى بعض . الأقنى : العالي قصبة الأنف .

(٣) شنوءة : قبيلة من الأزد .

(٤) الخيلان : جمع خال ، وهو الشامة السوداء .

(٥) الديماس ، بكسر الدال وفتحها : الحمام .

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : لمّا فرغتُ مما كان في بيت المقدس ، أُتِيَ بالمعراج ، ولم أر شيئاً قطُّ أحسنَ منه ، وهو الذي يمدُّ إليه ميِّتكم عينيه إذا حُضِرَ ، فأصعدَني صاحبي فيه حتى انتهى بي إلى بابٍ من أبواب السماء يقال له باب الحَفَظَة ، عليه ملكٌ من الملائكة يقال له إسماعيل ، تحت يديه اثنا عشر ألفَ ملك ، تحت يدَيْ كل ملك منهم اثنا عشر ألف مَلك ـ يقول رسول الله ﷺ حين حدَّث بهذا الحديث : ﴿وما يَعلمُ جُنودَ رَبِّكَ إلاَّ هو﴾ ـ فلما دخل بي قال : مَن هذا يا جبريل ؟ قال : هذا محمد . قال : أوَ قد بُعث ؟ قال : نعم . قال : فدعا لي بخيرٍ وقاله .

قال : لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلاً جالساً تُعرَض عليه أرواح بني آدم فيقول لبعضها إذا عُرضَتْ عليه خيراً ويُسرُّ به ، ويقول : روح طيّبة خرجَتْ من جسدٍ طيِّب . ويقول لبعضها إذا عُرضَتْ عليه : أُفّ ! ويَعبِس بوجهه ويقول : روحٌ خبيثة خرجتْ من جسدٍ خبيث . قلتُ : مَن هذا يَا جبريل ؟ قال : هذا أبوك آدم ، تعرَض عليه أرواحُ ذريّته فإذا مرَّت به روح المؤمن منهم سُرَّ بها وقال : روح طيبة خرجت من جسدٍ طيب ! وإذا مرَّت به روح الكافر منهم أفَّف[1] منها وكرهها وساءه ذلك ، وقال : روح خبيثة خرجت من جسد خبيث .

ثمَّ رأيت رجالاً لهم مَشافر[2] كمشافر الإبل ، في أيديهم قِطَعٌ من نار ، كالأفهار[3] ، يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكَلَةُ أموال اليتامى ظُلما .

ثمَّ رأيت رجالاً لهم بطونٌ لم أر مثلَها قطُّ ، بسبيل آل فرعون [4] يمرُّون عليهم كالإبل المهيومة[5] حين يُعرضُون على النار ، يطئونهم لا يقدرون على أن يتحوَّلوا من مكانهم ذلك . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكَلَةُ الربا .

ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحمٌ سمين طيِّب ، إلى جنبه لحمٌ غثٌّ مُنتن[6] يأكلون من الغث المنتن ويتركون السَّمين الطيِّب . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يتركون ما أحلَّ اللّهُ لهم من النساء ، ويذهبون إلى ما حرَّم الله عليهم منهنَّ .

---

(١) أي قال : أف ، تضجراً .
(٢) المشفر : شفة البعير .
(٣) الأفهار : جمع فهر ، حجر مقدار ملء الكف .
(٤) آل فرعون ، لهم في الآخرة أشد العذاب .
(٥) المهيومة : العطاش .
(٦) الغث : الضعيف المهزول .

ثم رأيت نساء معلَّقاتٍ بثُديِّهنَّ ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء اللاتي أدخلن على الرِّجال مَن ليس من أولادهم .

ثم أصعدني إلى السماء الثانية ، فإذا فيها ابنا الخالة : عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا .

ثم أصعدني إلى السماء الثالثة ، فإذا فيها رجل صورتُه كصورة القمر ليلةَ البدر ، قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك يوسف بن يعقوب .

ثم أصعدني الى السماء الخامسة ، فإذا فيها كهلٌ أبيض الرأس واللحية ، عظيم العُثنون[1] ، لم أر كهلاً أجمل منه ؛ قلت من هذا يا جبريل : قال : هذا المحبَّب في قومه هارون بن عمران .

ثم أصعدني الى السماء السادسة ، فإذا فيها رجلٌ آدم طويلٌ أقنى[2] ، كأنَّه من رجال شنوءة ، فقلت له : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران .

ثم أصعدني إلى السماء السابعة ، فإذا فيها كهلٌ جالسٌ على كرسيّ إلى باب البيت المعمور ، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ ملك ، لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبُكم أشبه به منه . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

ثم دخل بي الجنةَ فرأيت فيها جاريةً لَعْسَاء[3] . فسألتها : لمن أنتِ ؟ وقد أعجبتني رؤيتهـا . فقالت : لزيد بن حارثة .

فبشَّر بها رسول الله ﷺ زيد بن حارثة .

قال رسول الله ﷺ : فأقبلت راجعاً ، فلما مررت بموسى بن عمران ، ونعم الصاحبُ كان لكم ، سألني : كم فُرض عليك من الصلاة ؟ فقلت : خمسين صلاةً كلَّ يوم . فقال : إن الصلاةَ ثقيلة ، وإن أُمّتك ضعيفة ، فارجعْ إلى ربِّك فاسأله أن يخفف عنك وعن أُمَّتك . فرجعتُ فسألتُ ربِّي أن يخفِّف عني وعن أمتي ، فوضع عنِّي عشراً . ثم انصرفت فمررتُ على موسى فقال لي مثلَ ذلك ، فرجعتُ فسألت ربِّي

(١) العثنون : اللحية .

(٢) الأقنى : الطويل الأنف مع دقة الأرنبة وحدب في وسطه .

(٣) اللعساء : التي يضرب لون شفتها إلى السواد قليلاً .

فوضَعَ عنِّي عشراً . ثم انصرفت فمررت على موسى فقال مثل ذلك ، فرجعت فسألته فوضع عني عشراً ، ثم لم يزلْ يقول لي مثلَ ذلك ، كلَّما رجعتُ إليه قال : فارجع فاسألْ . حتى انتهيت إلى أن وُضعَ ذلك عني ، إلا خمسَ صلواتٍ في كل يومٍ وليلة . ثم رجعت إلى موسى فقال لي مثل ذلك ، فقلتُ : قد راجعتُ ربي وسألته ، حتى استحييتُ منه ، فما أنا بفاعل .

فمن أدَّاهنَّ منكم إيماناً بهن واحتساباً لهن ، كان له أجر خمسين صلاةً مكتوبة .

* وَفَاةُ أَبِي طَالِبٍ وخَدِيجَة *

ثم إن خديجة بنتَ خُويلدٍ وأبا طالب هَلكا في عامٍ واحد ، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائبُ ، بِهُلكِ خديجة ، وكانت له وزيرَ صدقٍ على الإسلام ، يشكو إليها ؛ وبِهُلك عمِّه أبي طالب ، وكان له عضداً وحِرزاً في أمره ، ومَنَعَةً وناصراً على قومه . وذلك قبل مُهاجَرِهِ إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالبٍ نالت قريشٌ من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضَه سفيهٌ من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا ، ودخل رسول الله ﷺ بيتَه والترابُ على رأسه ، فقامت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه الترابَ وهي تبكي ، ورسولِ الله ﷺ يقول لها : لا تبكي يا بُنَيَّة فإنَّ الله مانعٌ أباك . ويقول بين ذلك : ما نالت منِّي قريشٌ شيئاً أكرهة حتًى مات أبو طالب .

ولما اشتكى أبو طالبٍ[(1)] وبلغ قريشا ثِقَله ، قالت قريشٌ بعضُها لبعض : إن حمزةَ وعُمر قد أسلما ، وقد فشا أمرُ محمدٍ في قبائل قريش كلِّها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالبٍ فليأخذ لنا على ابن أخيه ، ولْيُعطِهِ منَّا . والله ما نأمنُ أن يبتزُّونا أمرَنا .

قال ابن عباس : مَشَوا إلى أبي طالب فكلَّموه ، وهم أشراف قومه : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بنُ هشام ، وأمية بن خلَف ، وأبو سفيانَ بن حرب ، في رجالٍ من أشرافهم ، فقالوا : يا أبا طالب ، إنك منَّا حيث قد علمت ، وقد حضَرك ما ترى وتخوَّفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعُه فخُذ له منَّا وخذْ لنا منه ، ليكفَّ عنَّا ونكفّ عنه ، وليدَعنا ودينَنا وندعْه ودينه .

فبعث إليه أبو طالب فجاءه ، فقال : يا ابن أخي ، هؤلاء أشراف قومك ، قد

---

(١) اشتكى : مرض . والشكو والشكوى والشكاة والشكاء : المرض .

اجتمعوا لك ليُعطوك وليأخذوا منك . فقال رسول الله ﷺ : نَعَم كلمةٌ واحدة تعطونيها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم . فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشرُ كلمات . قال : « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » . فصفَّقوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن أمرَكَ لَعجَب ! ثم قال بعضُهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تُريدون ، فانطلِقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه .

ثم تفرقوا ، فقال أبو طالبٍ لرسول الله ﷺ : والله يا ابن أخي ، ما رأيتك سألتَهم شَطَطاً ! فلما قالها أبو طالب طمعَ رسول الله ﷺ في إسلامه فجعل يقول له : أي عمٍّ ، فأنت فقُلْها أستحلَّ لك بها الشفاعةَ يومَ القيامة .

فلما رأى حرصَ رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي ، والله لولاة مخافةُ السُّبّةِ عليك وعلى بني أبيك مِن بعدي ، وأن تظنَّ قريشٌ أنِّي إنما قلتُها جزعاً من الموت لقلتُها ، لا أقولها إلا لأسرَّك بها .

فلما تقارب من أبي طالبٍ الموتُ نَظر العباس إليه يحرِّك شفتيه ، فأصغى إليه بأُذنه فقال : يا ابنَ أخي ، والله لَقد قال أخي الكلمةَ التي أمرتَه أن يقولها ! فقال رسول الله ﷺ : لم أسمع .

قال : وأنزل الله تعالى في الرَّهط الذين كانوا اجتمعوا إليه وقال لهم ما قال وردّوا عليه ما ردُّوا : ﴿صٓ والقرآن ذي الذِّكر * بَل الذِينَ كَفَرُوا في عزَّة وشِقاق﴾ إلى قوله تعالى : ﴿أجعَلَ الآلهةَ إلَهاً واحداً إنَّ هذا لشيءٌ عُجابٌ * وانطَلَقَ المَلأ مِنْهم أن آمشُوا واصبروا عَلَى آلِهتِكُمْ إنَّ هذا لَشيءٌ يُراد * ما سَمِعْنا بهذا في الملَّةِ الآخِرَةِ﴾ ـ يعنون النصارى لقولهم : ﴿إنَّ الله ثالثُ ثلاثة﴾ ـ ﴿إنْ هذا إلَّا اختِلاقٌ﴾ .

ثم هلك أبو طالب .

* سَعَيُ الرَّسُولِ إلَى ثَقِيفٍ يَطْلُبُ النُّصْرَةَ *

ولما هلك أبو طالب نالت قريشٌ من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النُّصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عزَّ وجلَّ . فخرج إليهم وحدَه .

ولمَّا انتهى رسول الله ﷺ إلى الطَّائف ، عَمَد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذٍ ساده ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوةٌ ثلاثة : عبد ياليِلَ بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير ، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمح ، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله وكلَّمهم بما جاءهم له من نُصرته على الإسلام ، والقِيام معه على مَن خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : هو يَمْرُط[1] ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أمَا وجدَ الله أحداً يُرسلُه غيرك ! وقال الثالث : واللّهِ لا أُكلِّمك أبداً ، لئن كنتَ رسولاً من الله كما تقول ، لأنت أعظمُ خطراً من أن أرُدَّ عليك الكلام ، ولئن كنت تكذبُ على الله ما ينبغي لي أن أُكلِّمك !

فقام رسول الله ﷺ مِن عندهم ، وقد قال لهم : إذْ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنِّي . وكرِه رسول الله ﷺ أن يبلغَ قومَه عنه فيُذْئرهم[2] ذلك عليه . فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبُّونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط[3] لعتبة بن ربيعة وشَيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيفٍ مَن كان يتبعه ، فَعَمد إلى ظلِّ حُبْلة[4] من عنب ، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لَقِيَ من سفهاء أهل الطائف .

وقد لقي رسولُ الله ﷺ المرأة التي من بني جُمَح فقال لها : ماذا لقينا من أحمائك ! !

فلما اطمأنَّ رسول الله ﷺ قال ـ فيما ذُكر لي ـ : اللهم إليك أشكو ضعفَ قوَّتي ، وقِلَّة حيلتي ، وهَواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعَفين وأنت ربّي ، إلى مَن تَكِلُني : إلى بعيدٍ يتجهَّمُني[5] ، أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري ؟ إن لم يكنْ بك عليَّ غضبٌ فلا أُبالي ، ولكنَّ عافيتَك هي أوسعُ لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقَتْ له الظُّلمات ، وصلَح عليه أمر الدُّنيا والآخرة ، من أن تُنزل بي غضبَك ، أو يحُلّ عليَّ سَخَطُك ، لك العُتبى[6] حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك !

فلما رآه ابنا ربيعة : عتبة وشيبة ، وما لقِيَ ، تحركتْ له رَحِمُهما ، فدعَوَا غلاماً

---

(١) يمرطها : ينزعها ويرمي بها .
(٢) أذاره عليه : أثاره وجرأه .
(٣) الحائط : البستان إذا كان عليه جدار .
(٤) الحبلة : شجرة العنب .
(٥) يتجهمني : يلقاني بالغلظة والوجه الكريه .
(٦) العتبى : الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضي العاتب .

لهما نصرانياً يقال له « عَدَّاس » فقالا له : خُذْ قِطفاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهبْ به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه . ففعل عدّاس ، ثم أقبل به حتّى وضعَه بين يدي رسول الله ﷺ ، ثم قال له : كلْ . فلمَّا وضعَ رسول الله ﷺ فيه يدَه قال : باسم الله . ثم أكل ، فنظر عدَّاسٌ في وجهه ثم قال : والله إنّ هذا الكلامَ ما يقوله أهل هذه البلاد ! فقال له رسول الله ﷺ : ومِن أيِّ البلاد أنت يا عدّاس ، وما دينُك قال : نصرانيّ ، وأنا رجلٌ من أهلِ نِينَوَى[١]. فقال رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونسَ بن متّى ؟ فقال له عدَّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله ﷺ : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي ! فأكبَّ عدَّاس على رسول الله ﷺ يقبِّل رأسَه ويدَيه وقدمَيه .

قال : يقول ابنا ربيعة أحدُهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاءهما عدّاس قالا له : ويلك يا عدّاس ، ما لك تقبِّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يَا سيدي ، ما في الأرض شيءٌ خير من هذا ، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ ! قالا له : ويحك يا عدّاس ، لا يصرفنَّك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه .

* أمْرُ جنِّ نِصِّيبين *

ثم إنَّ رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكَّة ، حين يئس من خَير ثَقيف ، حتى إذا كان بنخلَة[٢] قام من جوف الليل يصلِّي ، فمرَّ به النفر من الجنّ الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، وهم ـ فيما ذكر لي ـ سبعة نفرٍ من جنِّ أهل نَصِّيبين[٣] ، فاستمعوا له ، فلمَّا فرغَ من صَلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا .

فقصَّ الله خبرهم عليه ﷺ . قال الله عزَّ وجلّ : ﴿وإذْ صَرَفْنا إلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجنِّ يَسْتَمِعُونَ القرآن﴾ ، إلى قوله : ﴿ويُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أليمٍ﴾ . وقال تبارك وتعالى : ﴿قُلْ أُوحِيَ إلَيَّ أنَّهُ آسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجنِّ﴾ إلى آخر القصَّة من خبرهم في هذه السورة .

---

(١) نينوى : قرية بالموصل ، من العراق .

(٢) نخلة : واديان على ليلتين من مكة ، يقال لأحدهما نخلة الشامية ، وللآخر نخلة اليمانية .

(٣) نصيبين : مدينة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشام .

* عَرْضُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَفْسَهُ عَلَى القَبَائِلِ *

ثم قدِم رسولُ الله ﷺ مكة وقومُه أشدُّ ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلا مستضعَفين ممن آمنَ به ؛ فكان رسولُ الله ﷺ يَعرض نفسه في المواسم إذا كانت ، على قبائل العرب ، يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنَّه نبيٌّ مرسَل ، ويسألهم أن يصدِّقوه ويمنعوه ، حتى يبيِّن لهم عن الله ما بعثه به .

قال ربيعة بن عباد :

إني لغلامٌ شابٌّ مع أبي بمِنًى ، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : يا بني فلان ، إنِّي رسولُ الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وَأن تخلعوا ما تعبدون من دُونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدِّقوا بي وتمنعوني ، حتى أُبيِّن عن الله ما بعثني به . وخلفَه رجلٌ أحولُ وضيءٌ ، له غديرتان[1] ، عليه حُلَّة عَدَنية ، فإذا فرغَ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه ، قال ذلك الرجل : يا بني فلانٍ ، إنَّ هذا إنما يدعوكم إلى أن تَسلَخوا اللاتَ والعُزَّى من أعناقكم ، وحُلفاءكم من بني مالك بن أُقَيشٍ[2] ، إلى ما جاء به من البدعة والضَّلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه !

فقلت لأبي : من هذا الذي يتبعه ويردُّ عليه ما يقول ؟ قال : هذا عمُّه عبد العُزَّى بن عبد المطلب ، أبو لهب .

قال ابن إسحاق : حدثنا ابن شهاب الزهري : أنه أتى كندَةَ في منازلهم ، وفيهم سيِّدٌ لهم يقال له مُلَيح ، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ ، وعرضَ عليهم نفسَه فأبوا عليه .

وأنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ وعرَض عليهم نفسه ، فقال له رجلٌ منهم يقال له « بَيْحَرَة بنِ فِراس » : والله لو أنِّي أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب ! ثم قال له : أرأيتَ إنْ نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرَك اللَّهُ على مَن خالفك أيكونُ لنا الأمرُ من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفنُهدِفُ[3] نحورُنا للعرب دونك ، فإذا أظهرَك الله كان الأمرُ لغيرنا ؟! لا حاجة لنا بأمرك ! فأبَوا عليه .

---

(١) الغديرة : الذؤابة من الشعر .
(٣) نهدفها : نصيرها هدفاً للرمي .
(٢) هم حي من الجن تنسب إليهم الإبل الأقيشية ، وهي إبل ليس عتاقاً ، تنفر من كل شيء .

فلما صدر الناسُ رجعت بنو عامرٍ إلى شيخٍ لهم قد كانت أدركته السنُّ حتى لا يقدرُ أن يوافيَ معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه حدَّثوه بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العامَ سألهم عما كان في موسمهم ، فقالوا : جاءنا فتًى من قريش ، ثم أحدُ بني عبد المطَّلب ، يزعم أنه نبيّ ، يدعونا إلى أن نمنعَه ونقومَ معه ، ونخرجَ به إلى بلادنا ! فوضعَ الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ، هل لها من تَلَافٍ(١) ، هل لِذُناباها من مَطلَب(٢) ! والذي نفسُ فلانٍ بيده ما تقوَّلها إسماعيليٌّ قط ، وإنَّها لحقّ ، فأين رأيكم كان عنكم ؟!

عن عبد الله بن كعب أن رسول الله ﷺ أتى بني حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرضَ عليهم نفسَه ، فلم يكن أحدٌ من العرب أقبحَ عليه ردًّا منهم .

فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره ، كلَّما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ، ويَعرض عليهم نفسَه وما جاء به من الله من الهُدَى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادمٍ يقدَم مكَّة من العرب له اسمٌ وشرف ، إلا تصدَّى له فدعاه إلى الله ، وعرضَ عليه ما عنده .

قدم سويد بن صامت ، أحد بني عمرو بن عوف ، مكَّةَ حاجًّا أو معتمراً ، فتصدَّى له رسول الله ﷺ حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له سويد : فلعلَّ معك مثل الذي معي . فقال رسول الله ﷺ : وما الذي معك ؟ قال : مَجَلَّةُ لُقمان . فقال رسول الله ﷺ : اعرضْها عليَّ . فعرضها عليه . فقال له : إنَّ هذا لكلامٌ حسن ، والذي معي أفضلُ من هذا : قرآنٌ أنزلَه الله تعالى عليّ ، هو هُدًى ونور . فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآنَ ، ودعاه إلى الإسلام فلم يَبعُد منه . وقال : إنَّ هذا لقولٌ حسن . ثم انصرف عنه ، فقدِم المدينةَ على قومه ، فلم يلبثْ أن قتلتْه الخزرج .

فإن كان رجالٌ من قومه لَيقولون : إنا لنراه قد قتِل وهو مسلم .

وكان قَتْلُه قبل يوم بُعاث(٣) .

---

(١) التلافي : التدارك .

(٢) مثل يضرب لما فات ، وهو من « ذنابي الطائر » أي ذنبه ، إذا أفلت من الحبالة فطلبت الأخذ به .

(٣) بعاث : موضع من نواحي مكة ، كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج .

* بَدْأُ إسْلامِ الأنْصَار *

فلما أراد الله عزَّ وجلّ إظهارَ دينه ، وإعزاز نبيّه ﷺ ، وإنجاز موعدِه له ، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفرُ من الأنصار ، فعرضَ نفسَه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العَقَبة(١)لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً(٢) .

لمّا لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمِنْ موالي يهود ؟ قالوا : نعمْ . قال : أفلا تجلسون أكلِّمُكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزَّ وجلّ ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام ، أن يهودَ كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهلَ كتاب وعلم ، وكانوا هم أهلَ شِرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غَزَوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيءٌ قالوا لهم :. إنَّ نبيًّا مبعوثُ الآنَ قد أظلَّ زمانُه ، نتّبعه فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم !

فلمّا كلّم رسولُ الله ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : تعلَّموا والله إنَّهُ لَلنبيُّ الذي توعَّدُكم يَهود ، فلا يسبقُنَّكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدّقوه وقبلوا منه ما عَرَض عليهم من الإسلام وقالوا : إنا قد تركنا قومَنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنَقْدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعْهم الله عليك فلا رجلَ أعزُّ منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدَّقوا . وهم فيما ذُكر لي ستةُ نفر من الخزرج .

فلما قدِموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ، ودعَوهم إلى الإسلام حتّى فشا فيهم ، فلم تَبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها ذِكرٌ من رسول الله ﷺ .

---

(١) العقبة : موضع بين منى ومكة ، بينها وبين مكة نحو ميلين ، ومنها ترمى جمرة العقبة .

(٢) كان ذلكَ في السنة الحادية عشر من النبوة .

* بَيْعَةُ العَقَبةِ الأولَى *

حتى إذا كان العامَ المقبل وافَى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلَقُوه بالعقبة ، وهي العقبة الأُولى ، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء[١] ، وذلك قبل أن تُفتَرَضَ عليهم الحرب ، منهم أسعد بن زُرارة ، ورافعُ بن مالك ، وعُبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التَّيِّهان .

عن عبادة بن الصامت قال :

كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنَيْ عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تُفترض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نَسرق ، ولا نزنيَ ، ولا نقتلَ أولادنا ، ولا نأتيَ ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيَه في معروف . فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غَشِيتُم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزَّ وجلَّ ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر .

قال ابنُ إسحاق : فلما انصرفَ عنه القومُ بَعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلِّمَهم الإسلام ، ويفقِّههم في الدين ، فكان يسمّى المقرىء بالمدينة .

كان يصلِّي بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضُهم أن يؤمَّه بعض .

* بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثَّانِيَة *

ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكَّة ، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم ، مع حجَّاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدِموا مكة ؟ فواعدوا رسول الله ﷺ العقبةَ ، من أوسط أيام التشريق[٢] حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته ، والنصر لنبيِّه ، وإعزاز الإسلام وأهله .

قال كعب بن مالك :

---

(١) أي على نمطها . وكانت بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا بعد ما فرغ من بيعة الرجال .
(٢) أيام التشريق : ثلاثة بعد النحر ، كانوا يشرقون فيها لحم الأضاحي للشمس .

خرجنا في حُجّاج قومِنا من المشركين ، وقد صلَّينا وفقُهنا ، ومعنا البَراءُ بن معرور ، سيدُنا وكبيرُنا ، فلما وجَّهْنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البَراءُ لنا : يا هؤلاء ، إنِّي قد رأيتُ رأياً فوالله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا ؟ قلنا : وما ذاك ؟ قال : رأيت ألَّا أدَعَ هذه البَنيّة منّي بظَهْر - يعني الكعبة - وأن أصلّيَ إليها . فقلنا : والله ما بلغنا أن نبيّنا ﷺ يصلي إلَّا إلى الشام[٢] ، وما نريد أن نخالفه . فقال : إني لمصلٍّ إليها . فقلنا له : لكنَّا لا نفعل . فكنَّا إذا حضرت الصلاة صلَّينا إلى الشام وصلَّى إلى الكعبة ، حتى قدِمْنا مكة وقد كنَّا عِبْنَا عليه ما صنَع وأبى إلَّا الإقامة على ذلك . فلما قدِمنا مكةَ قال لي : يا ابنَ أخي ، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى نسأله عما صنعتُ في سفري هذا ، فإنه والله لقد وقَع في نفسي منه شيءٌ ، لمَا رأيت من خلافكم إيَاي فيه .

قال : فخرجنا نسألُ عن رسول الله ﷺ ، وكنَّا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلا من أهل مكّة فسألناه عن رسول الله ﷺ ، فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا . قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمَّه ؟ قلنا : نعم - وقد كنَّا نعرف العباس ، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً - قال : فإذا دخلتما المسجدَ فهو الرجلُ الجالسُ مع العباس . فدخلنا المسجد فإذا العباسُ جالس ، ورسول الله ﷺ جالسٌ معه ، فسلمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله ﷺ للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ قال : نعم ، هذا البراءُ بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك . فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ : الشاعر ؟ قلت : نعم . فقال له البَرَاءُ بن معرور : يا نبيَّ الله ، إنِي خرجت في سفري هذا وقد هداني الله للإسلام ، فرأيت ألَّا أجعل هذه البَنِيَّةَ منّي بظَهْر ، فصلَّيتُ إليها ، وقد خالفني أصحابي في ذلك ، حتَّى وقعَ في نفسي من ذلك شيءٌ ، فماذا ترى يا رسول الله ؟ قال : قد كنتَ على قبلةٍ لَوْ صَبَرت عليها ؟

قال : فرجع البَراءُ إلى قبلة رسول الله ﷺ ، وصلَّى معنا إلى الشام .

ثمَّ خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسولَ الله ﷺ العقبةَ من أوسط أيام التشريق . فلما فرغْنا من الحج وكانت الليلة التي واعدْنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حَرَام أبو جابر ، سيِّد من ساداتنا ، وشريفٌ من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنَّا

---

(١) وجهنا : اتجهنا .

(٢) أي بيت المقدس .

نكتم مَن مَعنا مِن قومنا من المشركين أمرَنا ، فكلَّمناه وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيِّد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنّا نَرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً . ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد الرسول ﷺ إيّانا العقبةَ . فأسلمَ وشهد معنا العقبةَ ؛ وكان نقيباً .

فنمنا تلك الليلةَ مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلَّل تَسلُلَ القَطا مستخْفين ، حتّى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نُسَيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عديّ(١) .

قال : فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ ، حتى جاءنا ومعه عمُّه العباس بنِ عبد المطلب ، وهو يومئذٍ على دين قومه ، إلَّا أنَّه أحبَّ أن يحضرَ أمرَ ابنِ أخيه ويتوثَّق له . فلما جلسَ كان أوَّلُ متكلِّم العباسَ بن عبد المطلب ، فقال : يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب تسمِّي هذا الحي من الأنصار : الخزرج ، خزرجها وأوسها ـ إنَّ محمداً منّا حيث قد علمتم ، وقد منَعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزٍّ من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلَّا الانحياز إليكم ، واللحوقَ بكم ، فإن كنتم تَرَون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانِعوه ممن خالفَه فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمِنَ الآنِ فدَعوه ، فإنه في عزٍّ ومَنعةٍ من قومه وبلده . فقلنا له : قد سمعنا ما قلت ، فتكلَّم يا رسولَ الله ، فخذ لنفسك ولربِّك ما أحببت .

فتكلمَ رسولُ الله ﷺ فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغَّب في الإسلام ، ثم قال : أُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم !

فأخذ البراءُ بن معرور بيده ثم قال : نعم ، والذي بعثَك بالحق نبيًّا ، لنَمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرنا(٢) ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناءُ الحروب ، وأهل الحَلْقة(٣) ، ورثناها كابراً عن كابر !

---

(١) قال ابن إسحاق : كان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن قال : اذهبن لقد بايعتكن .

(٢) كنوا بالأزر عن النساء . أو عن النفوس ، يقال لكل منهما : إزار .

(٣) الحلقة : السلاح كله .

فاعترض القول ، والبراءُ يكلِّم رسول الله ﷺ ، أبو الهيثم بن التَّيِّهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنَّا قاطِعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عَسَيت إن نحن فعلْنا ذلك ثم أظهرَك الله أن ترجع إلى قومك وتدعَنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدَّمُ الدم ، والهَدْم الهَدْم[1] ، أنا منكم وأنتم مني ، أُحارب مَن حاربتم ، وأُسالم من سالمتم !

وقد كان قال رسول الله ﷺ : أخرجوا إليَّ منكم اثنَيْ عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس[2] .

وكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ، ثم بايع بَعْدُ القومُ .

فلمَا بايعْنا رسولَ الله ﷺ صرخ الشيطانُ من رأس العقبة بأنفذ صوتٍ سمعته قطّ : يا أهل الجَبَاجب[3] ، هل لكم في مذمَّم[4] والصُّباةِ[5] معه ، قد اجتمعوا على حربكم ؟ فقال رسول الله ﷺ : هذا أزبُّ العقبةً ، هذا ابن أزْيَب[6] !

ثم قال رسول الله ﷺ : ارفضُّوا إلى رحالكم . فقال له العباس بن عُبادة بن نَضْلة : والله الذي بعثَك بالحقّ ، إن شئتَ لَنميلَنَّ على أهل منًى غداً بأسيافنا ! فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

فرجعنا إلى مضاجعنا ، فنمنا عليها حتى أصبحنا ، فلما أصبحنا غدت علينا جِلَّةُ قريشٍ فقالوا : يا معشرَ الخزرج ، إنه قد بَلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا

---

(١) الهدم ، بإسكان الدال وفتحها : إهدار الدم ، أي إن طلب دمكم فقد طلب دمي ، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي . والهدم ، بالتحريك : القبر والمنزل ، أي أقبر حيث تقبرون ، وأنزل حيث تنزلون .

(٢) أما نقباء الخزرج السبعة فهم : أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت .

وأما نقباء الأوس فهم : أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن المنذر . قال ابن هشام : وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ، ولا يعدون رفاعة .

(٣) الجباجب : المنازل ، منازل منى .

(٤) كان المشركون يلقبونه بذلك .

(٥) الصباة : جمع صاب . والصابي : الخارج من دينه ، كانوا يسمون من أسلم بذلك .

(٦) أزب بن أزيب : اسم شيطان .

تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغضُ إلينا أن تَنشب الحربُ بيننا وبينهم ، منكم !

فانبعث مَن هناك مِن مشركي قومنا يحلفون بالله : ما كان من هذا شيءٌ ، وما علمناه ! وقد صدقوا ، لم يَعلموه . قال : وبعضنا ينظر إلى بعض .

ونفر الناس من منًى ، فتنطَّسَ القومُ الخبرَ[1] فوجدوه قد كان ، وخرجوا في طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عُبادة بأذاخر[2] ، والمنذر بنَ عمرو ، وكلاهما كان نقيباً . فأما المنذر فأعجزَ القوم ، وأما سعد فأخذوه ، فربَطوا يديه إلى عنقه بِنسْع رَحْلِهِ[3] ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ، ويجذبونه بجُمّته[4] ؛ وكان ذا شَعر كثير .

قال سعد :

فوالله إني لفي أيديهم إذْ طلع عليّ نفرٌ من قريشٍ ، فيهم رجلٌ وضيءٌ أبيض ، شَعشاعٌ[5] حلوٌ مِن الرجال ، فقلت في نفسي : إن يكُ عند أحدٍ من القوم خيرٌ فعند هذا . فلما دنا مني رفع يدَه فلكمني لكمةً شديدة ، فقلت في نفسي : والله ما عندهم بعد هذا من خير ! فوالله إنِّي لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي[6] رجلٌ ممَّن كان معهم فقال : ويحك ! أما بينك وبين أحدٍ من قريشٍ جوارٌ ولا عهد ؟ قلت : بلى والله ، لقد كنت أُجير لجُبَير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تجارَهُ ، وأمنعهم ممَّن أراد ظلمهم ببلادي ؛ وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . قال : ويحكَ فاهتفْ باسم الرجلين ، واذكرْ ما بينك وبينهما .

قال : ففعلتُ ، وخرج ذلك الرجلُ إليهما ، فوجدَهما في المسجد عند الكعبة ، فقال لهما : إنَّ رجلاً من الخزرج الآن يُضرَبُ بالأبطح ويهتف بكما ، ويذكُر أنَّ بينه وبينكما جواراً . قالا : ومن هو ؟ قال : سعد بن عبادة . قالا : صدق والله ، إنْ كان لَيُجيرُ لنا تجارنا ، ويمنعهم أن يُظْلَموا ببلده !

قال : فخلَّصا سعداً من أيديهم ، فانطلق .

---

(١) أي أكثروا البحث عنه .

(٢) أذاخر : موضع قريب من مكة .

(٣) النسع : شراك يشد به الرحل .

(٤) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

(٥) الشعشاع : الطويل الحسن .

(٦) أوى له : رق له ورحمه .

* شُرُوطُ بَيْعَةِ العَقَبَةِ الأَخِيرَةِ *

وكانت بيعة الحرب حين أذِن الله لرسوله في القتال شروطاً سِوى شرطه عليهم في العقبة الأولى . كانت الأولى على بيعة النساء ، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب ، فلما أذن الله له فيها ، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود ، أخذَ لنفسه ، واشترط على القوم لربه ، وجَعل لهم على الوفاء بذلك الجنةَ .

قال عُبادة بن الصامت : بايعنا رسولَ الله ﷺ بيعة الحرب ، على السمع والطاعة ؛ في عُسرنا ويُسرنا ، ومَنْشَطنا ومَكْرَهنا[1] ، وأثرةٍ علينا[2] ، وألا ننازعَ الأمرَ أهلَه ، وأن نقول بالحق أينما كنّا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

* نُزُولُ الأَمْرِ بِالقِتَالِ *

وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذنْ له في الحرب ولم تُحلَل له الدماءُ ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصَّبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل . وكانت قريشٌ قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ، ونَفَوْهم من بلادهم ، فهم من بين مفتونٍ في دينه ، ومن بين معذَّب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فِراراً منهم ؛ منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفي كلِّ وجه . فلما عَتتْ قريشٌ على اللّهِ عزَّ وجلَّ ، وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذَّبوا نبيَّه ﷺ ، وعذَّبوا وَنفَوا من عبدَه ووحَّده وصدَّق نبيَّه ، واعتصم بدينه ، أذِن الله عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظَلمهم وبغَى عليهم ، فكانت أول آية أُنزلت في إذنه له في الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال ، فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء ، قولَ الله تبارك وتعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ

---

(١) المنشط : الأمر تنشط له وتخف له . وهو خلاف المكره .

(٢) الأثرة بمعنى الاستئثار ، إشارة إلى إيثارهم المهاجرين على أنفسهم .

مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللَّهُ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ .

أي إني إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظُلموا ، ولم يكن لهم ذنبٌ فيما بينهم وبين الناس ، وإنهُم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكَر . يعني النبيَّ ﷺ وأصحابَه رضي الله عنهُم أجمعين .

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي لا يُفْتَنَ مؤمنٌ عن دينه ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ ، أي حتَّى يُعبَد الله لا يعبد معه غيره .

* الإِذْنُ بِهِجْرَةِ المُسْلِمِينَ إِلَى المَدِينَةِ *

فلما أذِن الله تعالى له ﷺ في الحرب ، وبايَعه هذا الحيُّ من الأنصار على الإسلام والنُصرةِ له ولمن اتَّبعه وأوَى إليه من المسلمين ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين بالخروجِ إلى المدينة والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : « إن الله عزَّ وجلَّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنُون بها » .

فخرجوا أرسالا(1) ، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربُّه في الخروج من مكة ، والهجرة إلى المدينة .

* ذِكْرُ المُهَاجِرِينَ إِلَى المَدِينَةِ *

فكان أوّل من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العَقَبة بسنة ، وكان قدم رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغَه إسلامُ من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً .

ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة عامر بي ربيعة ، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة . ثم عبد الله بن جحش ، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش ؛ وهو أبو أحمد ، وكان أبو أحمد رجلاً ضرير البصر ، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلَها بغير قائد ، وكان شاعراً .

---

(1) أي جماعات ، واحدة إثر الأخرى .

ثم خرج عمر بن الخطاب ، وعيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي ، حتى قدما المدينة ثم تتابع المهاجرون .

* هِجْرَةُ الرَّسُولِ ﷺ *

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخلَّف معه بمكة أحدٌ من المهاجرين إلا من حُبس وفُتن ، إلا عليّ بن أبي طالب ، وأبو بكر بن أبي قُحافة الصدِّيق ، رضي الله عنهما وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له رسول الله ﷺ : « لا تَعجَلْ لعلَّ الله يجعلُ لك صاحباً » ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحابٌ من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروجَ أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهُم قد نزلوا داراً وأصابوا منهُم مَنْعة ، فحذِروا خروجَ رسول الله ﷺ إليهم ، وعرفُوا أنه قد أجمَع لحربهم .

فاجتمعوا له في دار النَّدوة ـ وهي دار قُصيّ بن كلاب التي كانت قريشٌ لا تَقضِي أمراً إلا فيها ـ يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ ، حين خافوه .

عن ابن عباس قال : لما أجمعوا لذلك واتَّعدوا أن يدخلوا في دار النَّدوة ، ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ ، غَدَوا في اليوم الذي اتَّعدوا له ، وكان ذلك اليوم يسمَّى يوم الزَّحمة ، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل(١) ، عليه بَتّ(٢) ، فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : مَن الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد(٣) سمع بالذي اتَّعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى ألا يُعدمكم منه رأياً ونُصحاً ! قالوا : أجلْ فادخل . فدخلَ معهم وقد اجتمع فيها أشراف قُريش ، فقال بعضُهم لبعض : إنَّ هذا الرجلَ قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنَّا والله نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتَّبعه من غيرنا . فاجمِعوا فيه رأياً .

فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربَّصوا به ما أصاب أشباهَه من الشعراء الذين كانوا قبله : زهيراً والنابغة ، ومن مضى منهم ،

---

(١) جليل : مسن .
(٢) البت : كساء غليظ مربع .
(٣) السهيلي : إنما قال لهم ، إني من أهل نجد ، لأنهم قالوا : لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة ، لأن هواهم مع محمد ، فلذلك تمثل لهم في صورة شيخ نجدي .

مِن هذا الموت ، حتى يصيبَه ما أصابهم ! فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأي ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجنَّ أمرُه من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فَلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتّى يغلبوكم على أمركم . ما هذا لكم برأي ، فانظروا في غيره .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم[١] : نُخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا أُخرجَ عنَّا فوالله ما نبالي أين ذهَب ، ولا حيث وقع ، إذا غابَ عَنَّا وفرغنا منه ، فأصْلَحْنا أمرَنا وأُلفَتنا كما كانت .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأي ، ألم تَروا حُسنَ حديثه ، وحلاوةَ منطقه ، وغلبَته على قلوب الرجال بما يأتي به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يَحُلَّ على حيٍّ من العرب ، فيغلبَ عليهم بذلك من قوله وحديثه ، حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعلَ بكم ما أراد ، أدِيرُوا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل بن هشام : والله إنَّ لي لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعدُ . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أن نأخذ من كل قبيلةٍ فتًى شابًّا جليداً نسيباً وسيطاً[٢] فينا ، ثم نعطيَ كلَّ فتًى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربةَ رجلٍ واحدٍ فيقتلوه ، فنستريحَ منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمُه في القبائل جميعاً ، فلم يَقدر بنو عبد منافٍ على حرب قومهم جميعاً ، فرضُوا منا بالعقل[٣] ، فعقلناه لهم .

فقال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي لا رأيَ غيره ! فتفرق القومُ على ذلك وهم مُجمعون له .

فأتى جبريلُ عليه السلام رسولَ الله ﷺ فقال : لا تَبِتْ هذه الليلةَ على فراشك الذي كنتَ تبيت عليه .

فلما كانت عتمةٌ من الليل اجتمعوا على بابه يرصُدونه متى ينام ، فيثبون عليه ؛ فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : « نَم على فراشي ، وتَسَجَّ[٤] ببردِي هذا الحضرميِّ الأخضر[٥] ، فَنَمْ فيه ، فإنه لن يَخلُص إليك شيءٌ تكرهه منهم » .

---

(١) هو أبو الأسود ربيعة بن عامر .
(٢) الوسيط : الشريف .
(٣) العقل : الدية .
(٤) تسجى بالثوب : غطى به جسده ووجهه .
(٥) الحضرمي : منسوب إلى حضرموت .

وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام .

عن محمد بن كعب القرظي قال :

لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام ، فقال وهُم على بابه : إنَّ محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بُعثتم من بعد موتكم فجُعلتْ لكم جنانٌ كجنان الأُردنّ ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جُعلت لكم نارٌ تُحرقون فيها .

وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حُفنة من تراب في يده ، ثم قال : أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم . وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يَرونه فجعل ينثرُ ذلك الترابَ على رءُوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يسّ : ﴿ يسّ* والقرآن الحكيم﴾ إلى قوله : ﴿فأغشيناهم فهُمْ لا يُبصرون﴾ ، حتى فرغ رسُولُ الله ﷺ من هؤلاء الآيات ، ولم يبق منهم رجلٌ إلاّ وقد وضَعَ على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟ قالوا : محمداً . قال : خيَّبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلاَّ وقد وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفما ترونَ ما بكم ، فوضع كلُّ رجلٍ منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثمَّ جعلوا يتطلَّعون فَيرون علياً على الفراش مُتَسجِّياً ببُرد رسول الله ﷺ فيقولون : والله إن هذا لمحمدٌ نائماً ، عليه برده . فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . فقام علي رضي الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقْد كان صدَقَنا الذي حدَّثنا .

قال ابن إسحاق : وكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً ذا مال ، فكان حينَ استأذنَ رسولَ الله ﷺ في الهجرة فقال له رسول الله ﷺ : لا تعجلْ لعلّ الله يجعلُ لك صاحباً ـ قد طمع بأن يكون رسول الله ﷺ إنما يعني نفسه حين قال له ذلك ـ فابتاع راحلتين فاحتبسهما في داره يعلفهما .

قالت عائشة : كان لا يخطىء رسولَ الله ﷺ أن يأتيَ بيت أبي بكر أحدَ طرَفي النَّهار ، إما بُكرةً وإمّا عشيّة ، حتَّى إذا كان اليوم الذي أُذِن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرَي قومِه ، أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعةٍ كان لا

يأتي فيها ، فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسولُ الله ﷺ هذه الساعةَ إلاّ لأمر حدث ! فلمّا دخل تأخَّر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكرٍ إلا أنا وأُختي أسماءِ بنت أبي بكر ، فقال رسول الله ﷺ : أخرِجْ عنّي مَن عندك فقال : يا رسول الله ، إنّما هما ابنتاي ، وما ذاك ؟ فِداك أبي وأُمّي ! فقال : إنَّ الله قد أذن لي في الخروج والهجرة . فقال أبو بكر : الصُّحبة يا رسول الله ؟ قال : الصُّحبة . قالت : فوالله ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم أنَّ أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكرٍ يبكي يومئذ . ثم قال : يا نبيَّ الله ، إنَّ هاتين راحلتان قد كنت أعددتُهما لهذا . فاستأجرا عبدَ الله بن أرقط ، وكان مشركاً ، يدلُّهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما .

قال ابن إسحاق : ولم يَعلم فيما بلغنى بخروج رسول الله ﷺ أحدٌ حين خرج ، إلاّ عليّ بن أبي طالب ، وأبو بكر الصِّديق وآل أبي بكر . أمّا عليٌّ فإنّ رسول الله ﷺ ـ فيما بلغني ـ أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلّف بعده بمكة حتى يؤدِّيَ عن رسول الله ﷺ الودائعِ التي كانت عنده للناس ،وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحدٌ عنده شيءٌ يخشى عليه إلاّ وضعَه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته .

فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروجَ ، أتى أبا بكر بنَ أبي قُحافة فخرجا من خَوخَةٍ[١] لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم عَمَدَا إلى غارٍ بثَور[٢] فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بنَ أبي بكر أن يتسمَّع لهما ما يقول الناسُ فيهما نهارَه ، ثم يأتيَهما إذا أمسَى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر . وأمر عامر بن فُهيرةَ مولاه أن يرعى غنمَه نهارَه ثم يريحَها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى في الغار . وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمسَتْ بما يُصلحهما[٣] .

فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر،وكانت قريشٌ فيه ،حين فقدوه ، مائة ناقة،لمن يردُّه عليهم.وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهارَه معهم ، يسمع

---

(١) الخوخة : باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها باب .

(٢) ثور : جبل بأسفل مكة .

(٣) ابن هشام عن الحسن البصري : « انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ ، فلمس الغار ، لينظر : أفيه سبع أو حية ؟ يقي رسول الله ﷺ بنفسه » .

ما يأتمرون به ، وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ وأبي بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه ، يَرعى في رُعيان أهل مكة ، فإذا أمسَى أراح عليهما غنَم أبي بكر ، فاحتلبا وذبحَا . فإذا عبد الله بن أبي بكر غدًا من عندهما إلى مكة ، اتَّبع عامر بنُ فُهيرةَ أثَره بالغنم حتى يعفِّيَ عليه . حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبُهما الذي استأجراه ، ببعيريهما وبعيرٍ له ، وأتتهما أَسماءُ بنت أبي بكرٍ بسُفرتهما ، ونسيَتْ أن تجعل لها عِصاما[1] ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلِّق السفرةَ فإذا ليس لها عِصام ، فتحلّ نطاقَها فتجعله عصاما ، ثم علَّقتها به .

فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر : ذات النطاق ، لذلك[2] .

فلما قرَّب أبوبكر ، رضي الله عنه ، الراحلتين إلى رسول الله ﷺ قدَّم له أفضلهما ثم قال : اركب ، فداك أبي وأمي ! فقال رسول الله ﷺ : إنِّي لا أركب بعيراً ليس لي . قال : فهي لك يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ! قال : لا ، ولكن ما الثمن الذي ابتعتَها به ؟ قال : كذا وكذا . قال : قد أخذتها به . قال : هما لك يا رسول الله .

فركبا وانطلقا ، وأرْدف أبو بكرٍ الصدّيق رضي الله عنه عامرَ بن فهيرة مولاه خلفَه ، ليخدُمهما في الطريق .

قالت أسماء بنت أبي بكر : لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، أتانا نفرٌ من قريش فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجتُ إليهم فقالوا : أين أبوكِ يا بنت أبي بكر ؟ قلت : لا أدري والله أين أبي . قالت : فرفع أبو جهل يدَه ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطمَ خدِّي لطمةً طَرح منها قرطي !

ثم انصرفوا . فمكثنا ثلاث ليال وما ندري أين وجهُ رسول الله ﷺ ، حتى أقبل رجلٌ من الجنِّ من أسفل مكَّة ، يتغنَّى بأبياتٍ من شعر غِناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته ، ما يَرونه ، حتَّى خرج من أعلى مكَّة وهو يقول :

---

(١) العصام : رباط القربة والمزادة ونحوهما .

(٢) قال ابن هشام : « وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : ذات النطاقين . وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها باثنين ، فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر » .

جزى اللَّهُ ربُّ الناس خيرَ جزائه   رفيقَين حلاَّ خيمَتيْ أُمِّ معبدِ[1]
هما نزلا بالبِرِّ ثم تروّحا   فأفلحَ مَن أمسى رفيقَ محمدِ
لِيَهْنِ بني كعبٍ مكانُ فتاتهم   ومَقعدُها للمؤمنين بمرصد

فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجهُ رسول الله ﷺ ، وأنَّ وَجهَه إلى المدينة .

قال سراقة بن مالك بن جُعشم : لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائةَ ناقة لمن ردَّه عليهم . فبينا أنا جالسٌ في نادي قومي إذْ أقبلَ رجلٌ منَّا حتى وقف علينا ، فقال : والله لقد رأيت رَكَبةً ثلاثةً مرُّوا عليّ آنفاً ، إني لأراهم محمداً وأصحابه . فأومأت إليه بعيني : أن اسكتْ ، ثم قلت : إنما هم بنو فلانٍ يبتغون ضالّة لهم ! قال : لَعلَّه . ثم سكتَ . ثم مكثت قليلا ثم قمت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفرسي فَقُيِّد لي إلى بطن الوادي وأمرتُ بسلاحي فأُخرِج لي من دُبر حجرتي ، ثم أخذت قداحي التي أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبستُ لأمتي[2] ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره : « لا يضرُّه »[3]. وكنت أرجوا أن أردَّه على قريش فآخذ المائة الناقة . فركبتُ على أثره ، فبينا فرسي يشتدُّ بي عثر بي ، فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ! ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره : « لا يضره » . فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فسقطت عنه فقلت : ما هذا ! ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره : « لا يضرّه » . فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثَر بي فرسي . فذهبت يداه في الأرض ، وسقطْتُ عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخانٌ كالإعصار ، فعرفت حين رأيت ذلك أنَّه قد مُنع مني وأنَّه ظاهر[4] ، فناديت القوم فقلت : أنا سراقة بن جُعشُم أنظِروني أُكلمْكم ، فوالله لا أُريبُكم ، ولا يأتيكم مني شيءٌ تكرهونه . فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : قل له : وما تبتغي منا ؟ فقال ذلك أبو بكر . قلت : تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك . قال : اكتبْ له يا أبا بكر .

---

(١) أم معبد ، واسمها عاتكة بنت خالد : امرأة من بني كعب ، نزل بها رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، وعبد الله بن أرقط ، فسألوها لحماً وتمراً يشترون منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً ، ورأى رسول الله شاة بكسر الخيمة لا تدر ، فاستأذنها أن يحلبها ، فمسح ضرعها فدرت دراً غزيراً ، ثم بايعته المرأة على الإسلام .

(٢) اللأمة : الدرع والسلاح .   (٣) أي المكتوب فيه هذه الكلمة .   (٤) أي غالب منتصر .

فكتبَ لي كتاباً في عَظم ، أو في رقعة ، أو في خَزَفة ، ثم ألقاه إليَّ ، فأخذته فجعلتُهُ في كنانتي ثم رجَعت . فسكتُ فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ ، وفرغ من حُنين والطائف ، خرجت ومعي الكتاب لألقاه ، فلقِيتُه بالجِعرَّانة[1] ، فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعونني بالرماحِ ويقولون : إليك إليك ، ماذا تريد ؟ فدنوتُ من رسول الله ﷺ وهو على ناقته ، والله لكأني أنظر إلى ساقِه في غَرزِهِ[2] كأنها جُمَّارة ، فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله . هذا كتابك لي ، أنا سراقة بن مالك بن جعشم . فقال رسول الله ﷺ : يومُ وفاءٍ وبرّ ، ادنُهْ . فدنوتُ منه فأسلمت . ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره ، إلاَّ أني قلْت : يا رسول الله ، الضالَّة من الإبل تغشى حياضي وقد ملأتها لإبلي ، هل لي من أجرٍ في أن أسقيَها ؟ قال : « نعم في كل ذات كبدٍ حرَّى أجر » . ثم رجعت إلى قومي فسُقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي .

قال إبن إسحاق :

فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط ، سلك بهما أسفلَ مكة ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفلَ من عُسْفان ، ثم سلك بهما على أسفل أمَج ، ثم أستجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قُديداً ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك بهما الخرَّار ، ثم سلك بهما لِقْفاً ، ثم أجاز بهما مَدلجة لِقْف ، ثم استبطن بهما مَدلجة مَحَاج ، ثم سلك بهما مَرجح محاج ، ثم تبطَّن بهما مَرجح من ذي الغَضَوين ، ثم بطن ذي كشْر ، ثم أخذ بهما على الجَداجد ، ثم على الأجرد . ثم سلك بهما ذا سَلم من بطن أعداء مَدلجةِ تِعِهن ، ثم على العبابيد ، ثم أجاز بهما الفاجّة .

قال ابن هشام : ثم هبط بهما العَرْج وقد أبطأ عليهما بعضُ ظهرهم ، فحمل رسولَ الله ﷺ رجلٌ من أسلم يقال له أوس بن حَجَر[3]، على جمل له يقال له إبن الرِّداء ، إلى المدينة ، وبعث معه غلاماً له يقال له مسعود بن هنيدة ، ثم خرج بهما دليلهما من

---

(١) الجعرانة : ما بين الطائف ومكة . (٢) الغرز للرجل : بمنزلة الركاب للسرج .

(٣) أوس بن حجر هذا صحابي ، وهو غير أوس الشاعر الجاهلي .

العرجِ ، فسلك بهما ثنية العائر عن يمين رَكوبة ، حتَّى هبط بهما بطن رِيم ، ثم قدِم بهما قباء على بني عمرِو بن عوف ، لاثنتَيْ عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول يوم الاثنين ، حين اشتدَّ الضَّحاءُ وكادت الشمس تعتدل .

* قُدُومُ قُبَاء *

عن عبد الرحمن بن عويمر بن ساعدة ، قال : حدّثني رجالٌ من قومي ، من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا :

لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وتوكَّفْنا[1] قدومه ، كنَّا نخرج إذا صلَّينا الصبح إلى ظاهر حَرَّتنا ، ننتظر رسول الله ﷺ ، فوالله لا نبرح حتَّى تغلبنا الشمسُ على الظِّلال ، فإذا لم نجد ظلاًّ دخلنا ، وذلك في أيام حارّة ، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبقَ ظلٌّ دخلنا بيوتنا . وقدمَ رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوتَ ، فكان أوّلَ مَن رآه رجلٌ من اليهود ، وقد رأى ما كنا نصنع وأنَّا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا ، فصرخَ بأعلى صوته : يا بني قَيلة[2] ، هذا جَدُّكم[3] قد جاء .

فخرجنا إلى رسول الله ﷺ في ظلِّ نخلةٍ ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سنِّه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسولَ الله ﷺ قبل ذلك ، وركبه الناس[4] وما يعرفونه من أبي بكر ، حتى زال الظلّ عن رسول الله ﷺ ، فقام أبو بكرٍ فأظلَّه بردائه فعرفناه عند ذلك .

قال ابن إسحاق :

فنزل رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ على كُلثوم بن هِدم ، ويقال : بل نزل على سعد بن خَيثمة . ويقول من يذكر أنه نزل على كلثوم بن هدم : إنَّما كان رسول الله ﷺ إذا خرج من منزل كلثوم بن هدم جلس للناس في بيت سعد بن خيثمة ، وذلك أنَّه كان عزباً لا أهل له ، وكان منزلَ الأعزاب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين .

---

(١) توكفناه : استشعرناه وانتظرناه .

(٢) هم الأنصار جميعاً ، وقيلة جدة كانت لهم .

(٣) الجد ، الحظ .

(٤) أي ازدحموا عليه .

ونزل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على حُبَيب بن إساف . ويقول قائل : كان منزلُه على خارجة بن زيد .

وأقام علي بن أبي طالب عليه السلام بمكَّة ثلاث ليالٍ وأيّامَها ، حتى أدّى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عندَه للناس ، حتى إذا فرغ منها لَحِق برسول الله ﷺ ، فنزل معه على كلثوم بن هدم .

فأقام رسول الله ﷺ بقُباء في بني عمرو بن عوف ، يوم الاثنين ، ويوم الثلاثاء ، ويوم الأربعاء ، ويوم الخميس . وأسَّس مسجده .

* قُدُومُ المَدِينة *

ثم أخرجه الله من بينِ أظهرهم يوم الجمعة . فأدركت رسولَ الله ﷺ الجمعةُ في بني سالم بن عوف ، فصلَّاها في المسجد الذي في بطن الوادي ، وادي رانوناء ، فكانت أولَ جمعةٍ صلَّاها بالمدينة .

فأتاه عِتْبان بن مالك ، وعباس بن عُبادة بن نَضْلة ، في رجالٍ من بني سالم بنِ عوف ، فقالوا : يا رسول الله ، أقِمْ عندنا في العَدد والعُدّة والمنعة . قال : خلّوا سبيلها ، فإنها مأمورة - لناقته - فخلَّوا سبيلها ، فانطلقَتْ حتى إذا وازنت دار بني بَيَاضة تلقَّاه زياد بن لبيد ، وفروة بن عمرو ، في رجالٍ من بني بياضة ، فقالوا : يا رسول الله ، هلمَّ إلينا ، إلى العدد والعُدَّة والمنَعَة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . فانطلقَتْ حتى إذا مرت بدار بني ساعدة اعترضَه سعدُ بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، في رجالٍ من بني ساعدة ، فقالوا : يا رسول الله ، هلمَّ إلينا ، إلى العدد والعُدَّة والمنعة . قال : خلّوا سبيلها فإنها مأمورة . فخلَّوا سبيلها فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج ، اعترضَه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد ، وعبد الله بن رواحة ، في رجال من بني الحارث بنِ الخزرج فقالوا : يا رسول الله ، هلمَّ إلينا ، إلى العدد والعُدَّة والمنعة . قال : خلّوا سبيلها فإنها مأمورة . فخلَّوا سبيلها فانطلقت . حتى إذا مرت بدار بني عديّ بن النجار ، وهم أخواله دِنيا - أمُّ عبد المطلب سلمى بنتُ عمرو ، إحدى نسائهم - اعترضه سليط بن قيس ، وأبو سَليط أُسيرة بن أبي خارجة ، في رجالٍ من بني عديّ بن النجار ، فقالوا : يا رسول الله ، هلمَّ إلى أخوالك ، إلى العدد والعُدَّة والمنعة . قال : خلُّوا سبيلَها فإنها مأمورة . فخلَّوا سبيلَها فانطلقت .

حتى إذا أتت دار بني مالك بن النَّجار ، بركت على باب مسجده ﷺ ، وهو يومئذ مِربَدٌ[1] لغلامين يتيمين من بني النجَّار ـ وهما في حِجر مُعاذ بن عفراء ـ سهل وسُهيل ابني عمرو . فلما بركت ورسولُ الله ﷺ لم ينزل وثبتْ ، فسارت غيرَ بعيدٍ ورسولُ الله ﷺ واضع لها زمامَها لا يَثنيها به ، ثم التفتَتْ إلى خلفها ، فرجعت إلى مبركها أوّلَ مرة ، فبركتْ فيه ، ثم تحلحلت[2] وأرزمت[3] ووضعت جرانها[4] ، فنزل عنها رسول الله ﷺ : فاحتمل أبو أيوبَ خالدُ بن زيدٍ رحلَه فوضعَه في بيته ، ونزل عليه رسول الله ﷺ وسأل عن المِربد : لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسُهَيل ابني عمرو ، وهما يتيمان لي ، وسأرضيهما منه ، فاتَّخذه مسجداً .

فأمر به رسول الله ﷺ أن يُبنَى مسجداً ، ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب حتى بنى مسجدَه ومساكنه ، فعمِل فيه رسولُ الله ﷺ ليرغِّب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، ودأبوا فيه . فقال قائلٌ من المسلمين :

لئن قعدنا والنبيُّ يعملُ لَذَاك مِنَّا العملُ المضلَّلُ

وارتجز المسلمون ، وهم يبنونه ، يقولون : « لا عيش إلا عيشُ الآخرة ، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة » . فيقول رسول الله ﷺ : « لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار » .

فأقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب حتى بُني له مسجدهُ ومساكنه ، ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبي أيوب ، رحمةُ الله عليه ورضوانه .

قال أبو أيوب :

لما نزل عليّ رسولُ الله ﷺ في بيتي نزل السُّفلَ ، وأنا وأمُّ أيوبَ في العُلْو ، فقلت له : يا نَبيَّ الله . بأبي أنت وأمِّي ، إني لأكرهُ وأُعْظِم أن أكون فوقك وتكونَ تحتي ، فاظهر أنت فكن في العُلْو ، وننزل نحن فنكون في السُّفل . فقال : « يا أبا أيوب ، إنَّ أرفقَ بنا وبمن يغشانا أن نكون في سُفْل البيت » .

---

(١) المربد : الموضع الذي يجفف فيه التمر .

(٢) تحلحلت : تحركت .

(٣) أرزمت : صوتت .

(٤) الجران : ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن خفها .

قال : فكان رسول الله ﷺ في سُفله وكنّا فوقَه في المسكن ، فلقد انكسر حُبٌّ(١) لنا فيه ماء ، فقمتُ أنا وأمُّ أيوب بقطيفةٍ(٢) لنا ما لنا لحافٌ غيرها ، نَنشَف بها الماء ، تخوّفاً أن يقطُر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه .

قال : وكنا نصنع له العَشاء ثم نبعث به إليه ، فإذا ردَّ علينا فضلَه تيمَّمتُ أنا وأم أيوب موضع يده ، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلةً بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً ، فردَّه رسول الله ﷺ ، ولم أر ليده فيه أثراً ، فجئته فزعاً فقلت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمِّي ، رددتَ عشاءك ولم أر فيه موضع يدك ، وكنتُ إذا رددتَه علينا تيممت أنا وأم أيوب موضَع يدك ، نبتغي بذلك البركة . قال : « إنِّي وجدتُ فيه ريحَ هذه الشجرة ، وأنا رجلٌ أناجَى ، فأما أنتم فكلوه » .

قال : فأكلناه ، ولم نصنع له تلك الشجرةَ بعد .

قال ابن إسحاق : وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ ، فلم يبق بمكَّة منهم أحدٌ إلَّا مفتون أو محبوس ، ولم يُوعِب أهل هجرةٍ من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسول الله ﷺ إلا أهلُ دُورٍ مسمَّون : بنو مظعون من بني جمح ، وبنو جحش بن رئاب حلفاء بني أمية ، وبنو البُكير من بني سعد بن ليث حلفاء بني عدي بن كعب ، فإنّ دُورَهم غُلِّقَتْ بمكَّة هجرةً ، ليس فيها ساكن .

* الخُطَبُ وَالعُهُودُ بِالمَدِينَةِ *

فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قدِمها شهرَ ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة ، حتَّى بُني لِه فيها مسجدُه ومساكنه ، واستجمع له إسلام هذا الحيّ من الأنصار ، فلم يبق دارٌ من دور الأنصار إلَّا أسلم أهلها ، إلَّا ما كان من خَطْمة وواقف ووائل وأمية ، وتلك أوس الله ، وهم حيّ من الأوس ، فإنهم أقاموا على شركهم .

وكانت (أوَّلَ خطبة) خطبها رسول الله ﷺ - فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، نعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل - أنه قام فيهم ، فحمِد الله وأثنَى عليه بما هو أهلُه ، ثم قال :

---

(١) الحب : الجرة ، أو جرة ضخمة .

(٢) القطيفة : كساء له خمل ، أي أهداب .

« أما بعد ، أيُّها الناس ، فقدِّموا لأنفسكم . تَعَلَّمُنَّ والله لَيُصعَقَنَّ أحدُكم ، ثم لَيَدَعَنَّ غنمَه ليس لها راع ، ثم ليقولنَّ له ربُّه وليس له تَرجمانٌ ولا حاجبٌ يحجُبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلَّغَك ، وآتيتك مالاً وأفضلْتُ عليك ؟ فما قدَّمتَ لنفسك ؟ فلينظر يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرنَّ قُدَّامَه فلا يرى غير جهنَّم . فمن استطاعَ أن يقيَ وجهَه من النار ولو بشِقٍّ تمرة فليفعلْ ، ومَن لم يجد فبِكلمةٍ طيّبة ، فإنَّ بها تُجزَى الحسنةُ بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضِعف . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ثم خطب رسول الله ﷺ الناس مَرَّة أُخرى فقال :

« إنَّ الحمدَ للَّهِ ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهدِه الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هاديَ له . وأشهد أن لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له . إن أحسن الحديث كتابُ الله تبارك وتعالى ، وقد أفلح من زيَّنه الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنَّهُ أحسن الحديث وأبلغه . أحبُّوا ما أحبَّ الله ، أحِبّوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملُّوا كلامَ الله وذكرَه ، ولا تقسُ عنه قلوبكم ، فإنَّه من كلِّ ما يخلق الله يختار ويصطفي ، قد سمَّاه الله خِيرته من الأعمال[١] ومصطفاه من العباد[٢] ، والصَّالح من الحديث ، ومن كلِّ ما أوتي الناس من الحلال والحرام فاعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً ، واتَّقوه حقَّ تقاته ، واصدقوا الله صالحَ ما تقولون بأفواهكم ، وتحابُّوا بروح الله بينكـم . إن الله يغضب أن ينكث عَهدهُ والسلام عليكم » .

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادَع فيه يهودَ ، وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنَّهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربْعتهم[٣] يتعاقلون بينهم[٤] ، وهم يَفْدون عانيَهم[٥] بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم

(١) أي الذكر وتلاوة القرآن ، لقوله تعالى : ﴿يخلق ما يشاء ويختار﴾ .

(٢) أي وسمي المصطفى من عباده .

(٣) الربعة : الحال التي وجدهم عليها الإسلام .

(٤) أي يعقل بعضهم عن بعض . والعقل : الدية .

(٥) العاني : الأسير .

الأولى ، كل طائفةٍ تَفدى عانيَها بالمعروف والقسطِ بين المؤمنين وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جُشم على ربعتهم يتعاقلون مَعاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تَفدِي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تَفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النَّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً [١] بينهم أن يُعطوه بالمعروف في فداءٍ أو عقل . وألَّا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه ، وإن المؤمنين المتَّقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعةَ[٢] ظُلْم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولدَ أحدهم . ولا يقتلُ مؤمنٌ مؤمناً في كافرٍ ، ولا ينصر كافراً على مؤمن . وإن ذمَّة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم . وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس . وإنه من تبعنا من يهودَ فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصَر عليهم . وإنَّ سِلْمَ المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلَّا على سواء وعدل بينهم . وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً . وإنَّ المؤمنين يُبيءُ[٣] بعضهم على بعضٍ بما نال دماءهم في سبيل الله . وإن المؤمنين المتقين على أحسن هَديٍ وأقومه . وإنه لا يجير مشركٌ مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحولُ دونه على مؤمن ، وإنه من اعتَبَط[٤] مؤمناً قتلاً عن بيِّنةٍ فإنَّه قَوَدٌ به إلا أن يرضى وليُّ المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافَّة ، ولا يحلُّ لهم إلا قيامٌ عليه . وإنَّه لا يحلّ لمؤمنٍ أقرَّ بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدِثاً ولا يؤويَه ، وإنه من نصَره أو آواه فإنَّ عليه لعنةَ الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صَرف ولا عدل . وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد ﷺ .

---

(١) المفرح : المثقل بالدين والكثير العيال .
(٢) الدسيعة : العظيمة .
(٣) أباءه به : قتله به ، جعله بواء له .
(٤) اعتبطه : قتله بلا جناية توجب القتل .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلّا من ظلم وأثم فإنه لا يُوتِغُ[1] إلّا نفسه وأهل بيته . وإن ليهود بني النّجار مثلَ ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني الأوس مثلٍ ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلّا من ظلمٍ وأثم فإنّه لا يَوتِغ إلا نفسَه وأهل بيته . وإن جَفنةَ بطنٌ من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبني الشّطيبةِ مثلَ ما ليهود بني عوف وإن البرّ دون الإثم[2] ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وإنّ بطانة يهودَ كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلّا بإذن محمد ﷺ ، وإنه لا ينحجز على ثار جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فَتَك وأهل بيته ، إلا مَن ظلم . وإن الله على أبرِّ هذا[3] .
وإن على اليهود نفقتَهم وعلى المسلمين نفقتهم . وإن بينهم النصرَ على من حاربَ أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النُّصح والنصيحة والبرّ دون الإثم . وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإنَّ النصرِ للمظلوم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين[4] .
وإن يثرب حرام جوفُها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنّفس غير مضارٍّ ولا آثم ، وإنهُ لا تُجار حرمة إلّا بإذن أهلها . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلى محمد رسول الله ﷺ . وإن الله على أتقَى ما في هذه الصحيفة وأبرّه . وإنّه لا تُجار قريش ولا مَن نصرها ، وإنّ بينهم النصر على مَن دهِم يثرب ، وإذا دعُوا إلى صلح يصالحونه ويلبَسونه ، فإنّهم يصالحونه ويلبسونه . وإنّهم إذا دعَوا إلى مثل ذلك فإنّه لهم على المؤمنين ، إلّا مَن حارب في الدّين ، على كلّ أناسٍ حصّتهم من جانبهم الذي قِبَلهم ، وإنّ يهود الأوس ، مواليهم وأنفسَهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة .
وإن البرّ دون الإثم ، لا يكسب كاسبٌ إلّا عَلى نفسه ، وإن الله عَلى أصدق ما في هذه

(١) يوتغ : يهلك .
(٢) أي إن البر والوفاء ينبغي أن يكون حاجزاً عن الإثم .
(٣) أي إن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به .
(٤) كان هذا قبل أن تفرض الجزية وحين كان الإسلام ضعيفاً ، كان لليهود إذ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب .

الصحيفة وأبرِّه . وإنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالم أو آثم . وإنَّه من خرج آمن ، ومن قَعَد آمنٌ بالمدينة ، إلَّا من ظلم وأثم ، وإن الله جارٌ لمن بَرَّ واتَّقى ، ومحمد رسول الله ﷺ » .

* المُؤَاخَاةُ بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار *

قال ابن إسحاق :

وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال ـ فيما بلغنا ، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل :

« تآخَوْا في الله أخوين أخوين » . ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : « هذا أخي » . فكان رسول الله ﷺ سيدُ المرسلين وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أخوين . وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ﷺ وعمَّ رسول الله ﷺ ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدثَ به حادث الموت . وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطَّيَّار ، ومُعاذ بن جبل أخو بني سلمة أخوين .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه بن أبي قُحافة وخارجة بن زهير أخوين . وعمر بن الخطاب وعِتبان بن مالك أخوين . وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين . والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وَقْشٍ أخوين . وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخوين . وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك أخوين . وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأُبيٌّ بن كعب أخوين . ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد أخوين . وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين . وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أخوين . وأبو ذر الغِفاريّ والمنذر بن عمرو أخوين .

وكان حاطب بن أبي بَلتعة وعُويم بن ساعدة أخوين . وسلمان الفارسي وأبو الدرداء أخوين . وبلال مولى أبي بكر وأبو رويحة أخوين .

فهؤلاء من سُمّي لنا ، ممن كان رسول الله ﷺ آخى بينهم من أصحابه .

* خَبَرُ الأَذَانِ *

فلما اطمأنّ رسول الله ﷺ بالمدينة ، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحكم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ، وفُرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحي من الأنصار هم الذين تبوءُوا الدارَ والإيمان . وقد كان رسول الله ﷺ حين قدِمها إنَّمَا يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، فهمَّ رسول الله ﷺ حين قدِمها أن يجعل بُوقاً كبوق يهود الذي يهرعون به لصلاتهم ، ثم كرهه . ثم أمر بالناقوس فنُحت ليضربَ به للمسلمين للصلاة .

فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة أخو بلحارث بن الخزرج النداء : فأتى رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله ، إنّه طاف بي هذه الليلةَ طائف : مرّ بي رجلٌ عليه ثوبان أخضران ، يحمل ناقوساً في يده فقلت له : يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعو به إلى الصلاة . قال : أفلا أدلُّك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر . أشهد ألا إلّه إلا الله ، أشهد ألا إلّه إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أنَّ محمداً رسول الله . حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الصلاة . حيَّ على الفلاح ، حيَّ على الفلاح . الله أكبر ، الله أكبر . لا إلّه إلَّا الله .

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال : إنَّها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقُمْ مع بلال فألقِها عليه فليؤذِّن بها ، فإنَّه أندى صوتاً منك[1] فلما أذَّن بها بلالٌ سمعها عمرُ بن الخطاب وهو في بيته ، فخرج إلى رسول الله ﷺ يجرّ رداءه ، وهو يقول : يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى . فقال رسول الله ﷺ : فللَّه الحمد عَلى ذلك .

* ذِكْرُ مَنِ اعْتَلَّ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ *

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدِمها وهي أوبأ أرضِ الله من الحُمَّى ، فأصابَ

(١) أي أعلى وأرفع وأبعد مذهباً .

أصحابَه منها بلاء وسقم ، فصرف الله ذلك عن نبيِّه ﷺ . فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر ، مع أبي بكرٍ في بيتٍ واحد ، فأصابتهم الحمَّى ، فدخلت عليهم أعودُهم ، وذلك قبل أن يُضرَب علينا الحجاب ، وبهم ما لا يعلمه إلَّا الله من شدة الوَعْك[١] ، فدنوت من أبي بكر فقلت له : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كل امرىءٍ مصبَّح في أهله ... والموت أدنى من شِراك نعله

فقلت : والله ما يدري أبي ما يقول !

ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت له : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجَدتُ الموتَ قبل ذوقه ... إنَّ الجبانَ حَتفُه من فوقه

كل امرىءٍ مجاهدٌ بطَوقه[٢] ... كالثور يحمي جلدَه برَوقه[٣]

فقلت : والله ما يدري عامر ما يقول !

وكان بلالٌ إذا تركَبهُ الحمّى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته[٤] فقال :

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلةً ... بفخٍّ وحولي إذخِرٌ وجليلُ[٥]

وهلْ أردنْ يوماً مياه مَجَنَّةٍ ... وهل يبدُوَنْ لي شامةٌ وطَفِيلُ[٦]

فذكرتُ لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم فقلت : إنَّهم ليَهْذُون وما يعقلون من شِدّة الحمَّى . فقال رسول الله ﷺ :

« اللهم حبِّبْ إلينا المدينةَ كما حبَّبتَ إلينا مكَّة أو أشدَّ ، وباركْ لنا في مُدِّها وصاعها[٧] ، وانقلْ وباءها إلى مَهْيَعة[٨] » .

---

(١) الوعك : شدة ألم المرض

(٢) الطوق : الطاقة .

(٣) الروق : القرن .

(٤) أي رفع صوته .

(٥) فخ : موضع خارج مكة . الإذخر : نبت طيب الرائحة . والجليل : الثمام .

(٦) مجنة : اسم سوق للعرب في الجاهلية كانت بأسفل مكة على قدر بريد منها . وشامة وطفيل : جبلان بمكة .

(٧) أي ما يكال بالمد والصاع . المد : رطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلث عند أهل الحجاز . والصاع : أربعة أمداد عند الحجازيين .

(٨) مهيعة ، هي الجحفة ، وهي ميقات أهل الشام .

* تَارِيخُ الهِجْرَة *

قدم رسول الله ﷺ المدينةَ يومَ الاثنين ، حين اشتدَّ الضَّحاءُ وكادت الشمس تعتدل ، لثنتي عشرة ليلةً مضت من شهر ربيع الأول ، ورسول الله ﷺ يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة ، وذلك بعد أن بعثه الله عز وجلّ بثلاث عشرة سنة ، فأقام بها بقية شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر ، وجُماديين ، ورجَبَ ، وشعبان ، ورمضان ، وشوالاً ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، والمحرم .

* أَوَّلُ الغَزَوات *

ثم خرج غازياً في صفر غزوة ودَّان ، على رأس اثنيْ عشر شهراً من مقدمِهِ المدينة حتى بلغ ودَّان ، وهي غزوة الأبواء ، يريد قريشاً وبني ضَمْرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فوادعته فيها بنو ضَمرة ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يَلْقَ كيداً . فأقام بها بقية صفر وصدراً من شهر ربيع الأول .

* سَرِيَّةُ عُبَيْدَةَ بنِ الحَارث *
وَهِيَ أوَّلُ رَايَةٍ عَقَدَها عَلَيْهِ السَّلام

وبعث رسول الله ﷺ ، في مُقامه ذلك بالمدينة ، عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي ، في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، فسار حتى بلغ ماء بأسفل ثنية المَرَة[١] . فلقيَ بها جمعاً عظيماً من قريش ، فلم يكن بينهم قتال ، إلاّ أنَّ سعد بن أبي وقَّاص قد رُمي يومئذ بسهم ، فكان أوَّلَ سهم رُمي به في الإسلام .

ثم انصرف القوم عن القوم ، وللمسلمين حامية .

* سَرِيَّةُ حَمْزَةَ إلَى سِيفِ البَحْرِ *

وبعث في مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سِيف البحر[٢] من ناحية العِيص ، في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، فلقيَ

---

(١) ضبطه في معجم ما استعجم ١٢٠٩ بقوله : « تخفيف مرأة » .

(٢) السيف ، بالكسر : الشاطىء .

أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلثمائة راكب من أهل مكة ، فحجز بينهم مجدِيّ بن عمرو الجهني ، وكان موادعاً للفريقين ، فانصرف بعض القوم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال .

* غَزْوَةُ بُوَاط *

ثم غزا رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول يريد قريشاً[١] ، حتى بلغ بُواط[٢] ، من ناحية رضوى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يَلقَ كيداً ، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى .

* غَزْوَةُ العُشَيْرَة *

ثم غزا قريشاً[٣] ، فسلك على نقب بني دينار ، ثم على فيفاء الخَبار ، فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر ، فصلَّى عندها ، فَثَمَّ مسجدُه ﷺ ، وصُنع له طعام فأكل منه وأكل الناسُ معه ، فموضع أثافي البُرمة معلوم هنالك ، واستُقي له من ماء به يقال له : المُشتَرَب ، ثم ارتحل رسول الله ﷺ فترك الخلائق[٤] بيسار ، وسلك شعبة يقال لها شعبة عبد الله ، ثم صبَّ لليسار حتى هبط يَلْيَل ، فنزل بمجتمعه ومجتمع الضَّبوعة ، واستقى من بئر بالضبوعة . ثم سلك الفرش : فرشَ مَلَل ، حتى لقي الطريق بصخَيرات اليمام ، ثم اعتدل به الطريقُ حتَّى نزل العُشَيرة من بطن ينبع ، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة ، ووادع فيها مدلج وحلفاءهم من بني ضَمرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً .

* سَرِيَّةُ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاص *

وقد كان بعث رسول الله ﷺ فيما بين ذلك من غزوةِ سعد بن أبي وقَّاص ، في ثمانية رهط من المهاجرين ، فخرج حتى بلغ الخرَّار من أرض الحجاز ، ثم رجع ولم يلق كيداً .

---

(١) واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون .

(٢) جبل من جبال جهينة ، بقرب ينبع .

(٣) واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد .

(٤) أرض بالمدينة لعبد الله بن أبي أحمد بن جحش .

* غَزْوَةُ سَفوَان ، وَهِيَ غَزْوَةُ بَدْرٍ الأولَى *

ولم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من غزوة العُشيرة إلا لياليَ قلائل لا تبلغ العشر ، حتى أغار كُرز بن جابرٍ الفهريّ على سرح المدينة[1] فخرج رسول الله ﷺ في طلبه[2] حتى بلغ واديا يقال له سَفَوان من ناحية بدر ، وفاتَه كرز بن جابر فلم يدركه ، وهي غزوة بدر الأولى . ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجَب وشعبان .

* سَرِيَّةُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ جَحْش *

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش ، في رجب ، مَقفلَهُ من بدر الأولى ، وبعث ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتاباً ، وأمره ألَّا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضي لما أمرَه به ، ولا يستكره من أصحابه أحداً .

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه ، فإذا فيه : فإذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل « نَخْلة » بين مكة والطائف ، فترصَّدْ بها قريشاً وتعلَّمْ لنا من أخبارهم .

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال : سمعاً وطاعة . ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضيَ إلى نخلة ، أرصدُ بها قريشاً حتى آتيَه منهم بخَبَر ، وقد نهاني أن أستكرهَ أحداً منكم . فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغبُ فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ .

فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف منهم أحد .

وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدنٍ فوق الفُرُع يقال له : بَحْران ، أضلَّ سعدُ بن أبي وقاص وعُتبة بن غَزوان بعيراً لهما كانا يعتقِبانِه ، فتخلَّفا عليه في طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة ، فمرت به عِير لقريش تحمل زبيباً وأدَماً[3] ، وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحضرمي ،

---

(١) السرح : الإبل والمواشي تسرح للرعي بالغداة . (٣) الأدم : الجلد .
(٢) واستعمل على المدينة زيد بن حارثة .

وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم ، فأشرف لهم عُكَّاشة بن مِحصن ، وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا وقالوا : عُمَّارٌ لا بأس عليكم منهم . وتشاور القوم فيهم ، وذلك في آخر يوم من رجب ، فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلةَ ليدخلُنَّ الحرم فلَيَمْتنِعُنَّ منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتُلُنَّهم في الشهر الحرام ! فتردّد القوم وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجَّعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قَدَروا عليه منهم وأخذِ ما معهم . فرمى وافد بن عبد الله التميمي عمرو بنَ الحضرميِّ بسهم فقتله ، واستأسر عثمانُ بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت القومَ نوفلُ بن عبد الله فأعجزهم ، وأقبل عبد الله بن جحش بالعِير والأسيرين ، حتى قدِمُوا على رسول الله ﷺ بالمدينة .

فلما قدِموا على رسول الله ﷺ المدينة قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام . فوقفَ العِير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً . فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سُقِط في أيدي القوم وظنوا أنهم هلكوا ، وعنَّفهم إخوانهم المسلمون فيما صنعوا . وقالت قريش : قد استحلَّ محمدٌ وأصحابه الشهر الحرام ! وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ! فقال من يردُّ عليهم من المسلمين ممّن كان بمكة : إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان .

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ ، أي إن كنتم قَتلتم في الشهر الحرام فقد صدُّوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجُكم منه وأنتم أهلُه أكبر عِند الله مِن قتل مَن قتلتم منهم . ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردُّوه إلى الكفر بعد إيمانه . فذلك أكبر عند الله من القتل . ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ ، أي ثم هم مقيمون على أخبثِ ذلك وأعظمِهِ ، غير تائبين ولا نازعين .

فلما نزل القرآن بهذا من الأمر ، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَق[١] ، قَبضَ رسول الله ﷺ العِير والأسيرين ، وبعثت إليه قريشٌ في فداء

(١) الشفق : الخوف والحذر .

عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، فقال رسول الله ﷺ : لا نُفديكموهما حتى يَقدمَ صاحبانا ـ يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزْوان ـ فإنا نخشاكم عليهما ؛ فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم ! فقدم سعد وعتبة ، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم .

فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر مَعُونة شهيداً . وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً .

* صَرْفُ القِبْلَةِ إلَى الكَعْبَة *

ويقال : صُرفت القبلة في شعبان ، على رأس ثمانية عشر شهراً من مَقدم رسول الله ﷺ المدينة .

* غَزْوَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى *

ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عِيرٍ لقريش عظيمة ، فيها أموالٌ لقريش ، وتجارةٌ من تجاراتهم ، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون ، منهم مَخرمة بن نوفل ، وعمرو بن العاص . فندَب المسلمين إليهم وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ اللَّهُ يُنْفلُكُموها . فانتدب الناسُ ، فخفّ بعضهم وثقُل بعضُهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً .

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسَّسُ الأخبار ، ويسأل من لقيَ من الركبان ، تخوُّفاً على أمر الناس ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان : إن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعِيرك ! فحذر عِندَ ذلك ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغِفاريّ فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتيَ قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عَرض لها في أصحابه . فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة

وقد رأت عاتكة بنتُ عبد المطَّلب قبل قدوم ضَمْضَمٍ مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها ، فبعثَتْ إلى أخيها العباس بن عبد المطَّلب فقالت له : يا أخي ، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني ، وتخوّفت أن يدخلَ عَلَى قومك منها شرٌّ ومصيبة فاكتم عني ما أحدّثك به . فقال لها : وما رأيتِ ؟ قالت : رأيت راكباً أقبلَ عَلَى بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا آنفروا يا لغُدَرَ لمَصارعكم في ثلاث ! فأرى الناس آجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجدَ والناس يتبعونه ، فبينما هم حوْله مَثل به بعيره[1]

(١) مثل به : قام

عَلى ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها : ألا آنفروا يا لغُدَر لمصارعكم في ثلاث ! ثم مثَل به بعيره عَلَى رأس أبي قُبيس ، فصرخ بمثلها ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوي ، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت[1] فما بقي بيتٌ من بيوت مكة ولا دارٌ إلا دخلتها منها فِلقة !

قال العباس : والله إنَّ هذه لرؤيا ! وأنتِ فاكتميها ولا تذكريها لأحد .

ثم خرج العباس فلقي الوليدَ بن عتبة بن ربيعة ، وكان صديقاً ، فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، ففشا الحديث بمكة حتَّى تحدثتْ به قريشٌ في أنديتها .

قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت ، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعودٌ يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآني أبو جهل قال : يا أبا الفضل ، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا . فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم فقال لي أبو جهل : يا بني عبد المطلب ، متى حدثَتْ فيكم هذه النبيَّة ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التي رأت عاتكةُ . فقلت : وما رأت ؟ قال : يا بني عبد المطَّلب أما رضيتم أن يتنبَّأ رجالكم حتى تتنبَّأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال : انفروا في ثلاث . فسنتربص بكم هذه الثلاثَ ، فإن يَكُ حقًّا ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيءٌ نكتبْ عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيتٍ في العرب .

قال العباس : فوالله ما كان منِّي إليه من كبير ، إلا أني جحدت ذلك ! وأنكرت أن تكون رأت شيئاً . ثم تفرقنا ، فلما أمسيت لم تبق امرأةٌ من بني عبد المطَّلب إلا أتتني فقالت : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناولَ النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غَيْرٌ[2] لشيءٍ مما سمعت ! قلت : قد والله فعلت ، ما كان مني إليه من كبير ، وايمُ الله لأتعرضنَّ له ، فإن عادَ لأكفينَّكنَّه . .

فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مُغضَب : أُرَى أني قد فاتني منه أمرٌ أحبُّ أن أدركه منه . فدخلت المسجد فرأيته ، فوالله إنِّي لأمشي نحوه أتعرَّضهُ ليعود لبعضِ ما قال فأَقَعَ به ـ وكان رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديدَ النظر ـ إذْ خرجَ نحو باب المسجد يشتدّ ، فقلت في نفسي : ما له لعنَه الله ، أكُلُّ

---

(١) ارفضت : تفرقت وتفتتت .

(٢) الغير : الغيرة .

هذا فَرَقٌ منِّي أن أُشاتمه ! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع : صوت ضمضم بن عمرٍو الغِفاري وهو يصرُخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره ، قد جدَّع بعيره[1] وحوّل رحله وشقَّ قميصه ، وهو يقول : يا معشر قريش ، اللطيمةَ اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عَرض لها محمدٌ في أصحابه ، لا أرى أن تُدركوها ! الغوثَ الغوث !

فشغلني عنه وشغله عنِّي ما جاء من الأمر .

فتجهز الناس سراعاً وقالوا : أيظن محمدٌ وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي[2] . كلا والله ليعلمنَّ غير ذلك ! فكانوا بين رجلين : إما خارج وإما باعث مكانه رجلا . وأوعبت[3] قريش ، فلم يتخَلَّف من أشرافها أحد ، إلَّا أنَّ أبا لهبٍ بن عبد المطلب تخلَّف ، وبعث مكانَه العاصيَ بنَ هشام بن المغيرة ، وكان قد لاط له[4] بأربعة آلاف درهم كانت له عليه ، أفلس بها ، فاستأجره بها على أن يجزىء عنه .

وإن أُمية بن خلف كان أجمَع القعودَ ، وكان شيخاً جليلاً جسيماً ثقيلاً ، فأتاه عقبة بن أبي مُعيطٍ ، وهو جالسٌ في المسجد بين ظهرانَي قومه ، بمجمرة يحملها فيها نار ومِجمَر[5] حتى وضعها بين يديه ثم قال : يا أبا علي ، استجمر ، فإنما أنت من النساء . قال : قَبحك الله وقَبح ما جئت به ! ثم تجهز فخرج مع الناس .

ولما فرغوا من جَهازهم وأجمعوا المسير ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة من الحرب فقالوا : إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا . فكاد ذلك يَثنيهم ، فتبدَّى لهم إبليس في صورة سُراقة بن مالك بن جُعشُم المدلجي فقال لهم : أنا جارٌ لكم من أن تأتيَكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه . فخرجوا سراعاً . وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان ، في أصحابه ، واستعمل عمرو بن أمِّ مكتوم على الصلاة بالناس ثم ردَّ أبا لُبابة من الرَّوحاء واستعمله على المدينة ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، وكان أبيض . وكان أمامَ رسول الله ﷺ رايتان سوداوان ، إحداهما مع علي بن أبي طالب ، يقال لها العقاب ، والأخرى مع بعض الأنصار .

---

(١) جدعه : قطع أنفه .

(٢) هو عمرو بن الحضرمي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش . انظر ما سبق في صفحة ١٢٠ ص ٢٤ .

(٣) أوعبت : خرجت كلها للغزو .

(٤) لاط : احتبس وامتسك .

(٥) المجمر : العود يتبخر به .

وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين فاعتقبوها ، فكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيراً . وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنَسةُ موليا رسول الله ﷺ يعتقبون بعيراً وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً .

فسلك طريقه من المدينة إلى مَكة على نَقْب المدينة ، ثم عَلى العقيق ، ثم عَلى ذي الحُليفة ، ثم عَلى أولات الجيش . ثم مرّ عَلى تُرْبان ثم عَلى مَلَل ثم غَميس الحَمام من مرَبين . ثم علي صُخَيرات اليمام ، ثم عَلى السَّيالة ، ثم عَلى فجّ الرَّوحاء ثم عَلى شَنُوكة . حتَّى إذا كان بعرق الظَّبيةِ لقُوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبراً ، فقال له الناس : سلِّمْ عَلى رسول الله . قال : أوَ فيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم . فسلَّمَ عليه . ثم قال : إن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه . قال له سلمة بن سلامة بن وقْش : لا تسأل رسول الله ﷺ وأقبلْ إليّ فأنا أخبرك عن ذلك ، نزوتَ عليها ، ففي بطنها منك سَخلة[1] ؟ فقال رسول الله ﷺ : « مه ، أفْحَشتَ عَلَى الرجل ! » . ثم أعرض عن سلمة .

ونزل رسولُ الله ﷺ سَجسَج ، وهي بئر الروحاء ، ثم ارتحل منها حتى إذ كان بالمنصرف ترك طريقَ مكّة بيسار ، وسلك ذات اليمين عَلى النازيَة يريد بدراً . فسلك في ناحية منها حتى جزع وادياً يقال له رُحقان ، بين النازية وبين مضيق الصفراء . ثم عَلى المضيق ، ثم انصبّ منه حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بَسْبسَ بن عمرو الجهنيّ وعديّ بن أبي الزَّغباء الجهني إلى بدر يتحسَّسان له الأخبار عن أبي سفيان بن حرب وعِيره . ثم ارتحل رسول الله ﷺ وقد قدّمهما .

وأتاه الخبرُ عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عِيرهم ، فاستشار الناسَ وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكرٍ الصدّيق ، فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امضِ لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿اذهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فقَاتِلَا إنَّا ها هنا قاعِدُون﴾ ، ولكن اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحقِّ لو سرت بنا إلى بَرك الغِماد[2] ، لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه ! فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له به .

---

(١) السخلة : الصغيرة من الضأن ، استعارها لولد الناقة . (٢) برك الغماد : موضع باليمن .

ثم قال رسول الله ﷺ : أشيروا عليَّ أيها الناس . وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنَّهم عَدد الناس ، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسولَ الله إنَّا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمّتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسولُ الله ﷺ يتخوَّف ألَّا تكون الأنصار ترى عليها نُصرةً إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوّه ، وأنْ ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم . فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن مُعاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : أجَلْ . قال : فقد آمنَّا بك وصدَّقناك ، وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحقّ ، وأعطيناك على ذلك عُهودَنا ومواثيقنا على السمع والطاعة . فامض يا رسولَ الله لما أردتَ فنحن معك ، فوالذي بعثَك بالحقّ ، لو استعرضتَ بنا البحر فخُضتَه لخضناه ما تخلَّف منا رجلٌ واحد ، وما نكره أن تَلقَى بنا عدوّنا غداً ، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء ، لعلّ الله يريك منَّا ما تقرُّ به عينك ، فسِرْ بنا على بركة الله ! .

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشَّطه ذلك ، ثم قال : سيروا وأبشروا ؛ فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين[١] ، والله لكأنِّي الآنَ أنظر إلى مصارع القوم !

ثم نزل رسول الله ﷺ قريباً من بدر ، فركب هو ورجل من أصحابه[٢] حتى وقف عَلى شيخٍ من العرب فسأله عن قريش ، وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لَا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك . قال : أذاك بذاك ؟ قال : نعم . قال الشيخ : فإنه بلَغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدقَ الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي به رسول الله ﷺ . وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صَدَقَني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي فيه قريش . فلمَّا فرغ من خبره قال : ممن أنتما ؟ فقال رسول الله ﷺ : نحن من ماء ! ثم انصرف عنه . يقول الشيخ : ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب

---

(١) الطائفة الأولى طائفة عير قريش ذات التجارة العظيمة، وفيها أبو سفيان وأبو عمرو بن العاص ، والأخرى : الطائفة التي استنفرها أبو جهل ، وكانوا ذوي شوكة وعدد .

(٢) هو أبو بكر الصديق .

والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، في نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر يلتمسون الخبرَ عليه ، فأصابوا راوية[1] لقريش فيها أسلَم غلام بني الحجاج ، وعَريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد ، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلّي . فقالا : نحن سُقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم خبرَهما ورجَوْا أن يكونا لأبي سفيان ، فضربوهما ، فلما أذلقوهما[2] قالا : نحن لأبي سفيان . فتركوهما ، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه ، ثم سلَّم وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ؟ صدَقَا واللّهِ إنّهما لقريش ! أخبراني عن قريش ؟ قالا : هم والله وراء هذا الكثيب الذي تَرى بالعُدوة القُصوى . فقال لهما رسول الله ﷺ : كم القوم ؟ قالا : لا ندري . قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعا ويوماً عشراً . فقال رسول الله ﷺ : القوم فيما بين التسعمائة والألف . ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البَخْتريّ بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطُعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمَعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبِّه ابنا الحجّاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ودّ . فأقبل رسولُ الله ﷺ على الناس فقال : هذه مكة قد ألقَتْ إليكم أفلاذَ كبدها[3] !

وكان بَسبس بن عمرو ، وعدي بن أبي الزَّغْباء ، قد مضيا حتى نزلا بدراً ، فأناخا إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا شنًّا[4] لهما يستقيان فيه ، ومَجديّ بن عمرو الجهنيّ على الماء ، فسمع عديٌّ وبَسبَسٌ جاريتين من جواري الحاضر[5] وهما يتلازمان[6] على الماء ، والملزومة[7] تقول لصاحبتها : إنّما تأتي العيرُ غداً أو بعد غدٍ فأعمَلُ لهم ثم أقضيك الذي لك . قال مجديّ : صدقتِ . ثم خلَّص بينهما . وسمع ذلك عديٌّ وبسبس فجلسَا على بعيريهما ، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ ، فأخبراه بما سمعا .

وأقبل أبو سفيانَ بن حرب حتى تقدَّم العير حذِراً حتى ورد الماء ، فقال لمجديّ بن عمرو : هل أحسستَ أحداً ؟ قال : ما رأيت أحداً أنكِرُه ، إلا أنِّي قد رأيت

---

(١) الراوية : البعير يستقى عليه الماء . والمراد بها السقاة .
(٢) اذلقوهما : بالقوافي ضربهما حتى أجهدوهما .
(٣) جمع فلذة ، وهي القطعة .
(٤) الشن : الزق البالي
(٥) الحاضر : القوم النزول على الماء
(٦) التلازم : أن يتعلق الغريم بغريمه
(٧) الملزومة : المدينة ، التي عليها الدين

راكبين قد أناخا إلى هذا التلّ ، ثم استقيا في شنٍّ لهما ثم انطلقا .

فأتى أبَو سفيانُ مُناخَهما فأخذ من أبعار بعيريهما ففتَّه فإذا فيه النوى . فقال : هذه والله علائف يثرب . فرجع إلى أصحابه سريعاً فضربَ وجهَ عِيره عن الطريق فساحَل بها ، وترك بدراً بيسارٍ ، وانطلق حتى أسرع .

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عِيَره أرسل إلى قريش : إنكم إنَّما خرجتم لتمنعوا عِيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجَّاها الله فارجعوا . فقال أبو جهل بن هشام : والله لا نرجع حتى نردَ بدراً ـ وكان بدرٌ موسماً من مواسم العرب ، يجتمع لهم به سوقٌ كلَّ عام ـ فنقيمَ عليه ثلاثاً ، فننحرَ الجزر ونُطعم الطعام ، ونُسقَى الخمر وتعزف علينا القيان[1] ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ، فامضُوا .

ومضت قريشٌ حتَّى نزلوا بالعُدوة القصوى من الوادي ، وبعثَ الله السماء وكان الوادي دهساً[2] ، فأصاب رسولَ الله ﷺ وأصحابه منها ما لبَّد لهم الأرض ولم يمنعهم عن السير ، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه . فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء ، حتَّى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به .

قال الحُباب بن المنذر : يا رسول الله ، أرأيتَ هذا المنزل . أمنزلاً أنزلكَه الله ليس لنا أن نتقدَّمه ولا نتأخَّر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فقال : يَا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتيَ أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغوِّر[3] ما وراءه من القُلُب ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرتَ بالرأي . فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس ، فسار حتَّى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقُلُب فغُوِّرت ، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه ، فملىء ماء ، ثم قذفوا فيه الآنية .

وقال سعد بن مُعاذ : يا نبيَّ الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونُعِدُّ عندك ركائبك ، ثم نَلقى عدوَّنا ، فإن أعزَّنا الله وأظهرَنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا . وإن

---

(١) القيان : الجواري المغنيات .

(٢) الدهس : اللين لم يبلغ أن يكون رملا .

(٣) التغوير : الدفن والطمس .

كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلَّف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشَدَّ لك حبًّا منهم ، ولو ظنوا أنك تَلقَى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له بخير ، ثم بُنِيَ لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه .

وقد ارتحلت قريشٌ حِين أصبحت ، فأقبلت ، فلما رآها رسول الله ﷺ تَصوَّبُ[1] من العَقْنَقَل ـ وهو الكثيب الذي جاءوا منه إلى الوادي ـ قالَ : اللَّهمّ هذه قريشُ قد أقبلَتْ بخُيلائها[2] وفخرها ، تحادُّك وتكذِّب رسولك . اللهم فنصرَكَ الذي وعدتَني ، اللهم أحِنْهُم الغداة[3] !

فلما نزل الناس أقبل نفرٌ من قريش حتَّى وردوا حوضَ رسولِ الله ﷺ ، فيهم حكيم بن حزام ، فقال رسول الله ﷺ : دعُوهم . فما شرب منه رجلٌ يومئذ إلا قُتل ، إلاَّ ما كان من حكيم بن حزام ، فإنه لم يُقتَل ، ثم أسلَم بعد ذلك فحسُنَ إسلامُه ، فكان إذا اجتهد في يمينه قال : لا والذي نجّاني من يوم بدر !

ولما اطمأنَّ القوم بعثوا عُمَير بن وهب الجُمحي فقالوا : احزُر[4] لنا أصحابَ محمد . فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال : ثلثمائة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظرَ أللقوم كمينٍ أو مدد ؟ فضرب في الوادي حتى أبعد ، فلم ير شيئاً ، فرجَع إليهم فقال : ما وجدتُ شيئاً ، ولكني قد رأيت ، يا معشر قريش ، البلايا[5] تحمل المنايا ، نواضحَ يثرب تحمل الموتَ الناقع[6] ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم حتى يُقتلَ رجلا منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادَهم فما خيرُ العيش بعد ذلك ! فرَوْا رأيكم .

---

(١) أي تنحدر .

(٢) الخيلاء : الكبر والعجب .

(٣) أحنهم : أهلكهم . حان : هلك .

(٤) احزر : أي قدر بالحدس والظن .

(٥) البلايا : جمع بلية ، وهي الناقة أو الدابة تربط إلى قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت .

(٦) النواضح : الإبل يستقى عليها . الناقع : الثابت ، البالغ في الإفناء .

فلما سمع حكيم بن حِزَام ذلك مشى في الناس ، فأتى عتبةَ فقال : يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدُها ، والمطاع فيها ، هل لك إلى ألاَّ تزالَ تُذكرُ فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناسِ وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي[١] . قال : قد فعلتُ ، أنت عليَّ بذلك ، إنَّما هو حليفي فعليَّ عقلُه[٢] وما أصيب منْ ماله ، فأتِ ابن الحنظلية[٣] فإني لا أخشى أن يشجُرَ أمرَ الناس[٤] غيره . ثم قامَ عتبة بن ربيعة خطيباً فقال : يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقَوا محمداً وأصحابَه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجلٍ يكره النظر إليه ، قَتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته ، فارجعُوا وخَلُّوا بين محمد وسائر العرب : فإنَ أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهلٍ فوجدتُه قد نثل[٥] درعاً له من جرابها فهو يَهنِئها[٦] ، فقلت له : يا أبا الحكم ، إن عتبةَ أرسلَني إليك بكذا وكذا ، للذي قال . فقال : انتفخَ واللَّهِ سَحْره[٧] حين رأى محمداً وأصحابه . كلا والله لا نرجع حتى يحكم اللَّهُ بيننا وبين محمدٍ ، وما بعتبةَ ما قال ، ولكنَّه قد رأى أنَّ محمداً وأصحابه أكلَةُ جَزور[٨] وفيهم ابنُه ، فقد تخوَّفكم عليه . ثم بعثَ إلى عامر بن الحضرمي فقال : هذا حليفُك يريد أن يرجعَ بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقُم فانشُدْ خُفْرتك[٩] ومقتل أخيك .

فقامَ عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ . واعَمْراه واعَمْراه[١٠]! فحمِيت الحرب ، وحقِب أمرُ الناس[١١] ،واستوسقوا[١٢]على ما هم عليه من الشرّ ، وأفسِدُ على الناس الرأيُ الذي دعاهم إليه عتبة .

---

(١) أنظر ما مضى في سرية عبد الله بن جحش ص ١٢٤ .
(٢) العقل : الدية .
(٣) هو أبو جهل بن هشام . أمه من حنظلة بن مالك .
(٤) أي يخالف بينهم .
(٥) نثل : أخرج .
(٦) يهنئها : يطليها بعكر الزيت . ويروى : « يهيئها » .
(٧) السحر : الرئة . وهذا كناية عن الجبن .
(٨) أي قليلو العدد : وأكلة الجزور نحو المائة . انظر ص ١٣١ .
(٩) أي اطلب من قريش الوفاء بخفرتهم لك ، أي عهدهم ، فقد كان جاراً لهم وحليفاً .
(١٠) يندب أخاه عمرو بن الحضرمي .
(١١) حقب : اشتد .
(١٢) استوسقوا : اجتمعوا .

وقد خرج الأسود بن عبد الأسود المخزومي ـ وكان رجلاً شرساً سيِّءَ الخلق ـ فقال : أعاهد الله لأشربنَّ من حوضهم أو لأهدمنَّه أو لأموتنَّ دونه ! فلما خرجَ خرجَ إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأطنَّ قدمه[١] بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخُب[٢] رجله دماً نحو أصحابه ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن يبرَّ بيمينه ، وأتبعه حمزة فضربَه حتى قتله في الحوض .

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة ، بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصلَ من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة . وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث ، ورجل آخر يقال هو عبد الله بن رواحة ، فقالوا من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار . قالوا : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرجْ إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله ﷺ : قم يا عُبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي . فلما قاموا ودنَوا منهم فقالوا : من أنتم ؟ قال عبيدة : عبيدة . وقال حمزة : حمزة . وقال عليٌّ : عليّ . قالوا نعمْ : أكْفاءٌ كرام . فبارز عبيدةُ ـ وكان أسنَّ القوم ـ عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزةُ شيبةَ بن ربيعة ، وبارز عليٌّ الوليدَ بن عتبة . فأما حمزة فلم يمهل شيبةَ أن قتله ، وأما عليٌّ فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبتَ صاحبه[٣] ، وكرَّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافهما على عتبةَ فذفَّفا عليه[٤] ، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه .

ثم تزاحف الناس ودَنا بعضُهم من بعض ، وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه ألاَّ يَحمِلوا حتَّى يأمرَهم ، وقال : إن اكتنفكم القومُ فانضحوهم[٥] عنكم بالنَّبل . ورسول الله ﷺ في العريش معه أبو بكر الصديق .

فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبعَ عشرةَ من رمضان .

ثم عدَّل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه أبو بكر الصديق ، ليس معه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربَّه ما وعدَه من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تَهلِكْ هذه العصابةُ اليومَ لا تعبد ! وأبو بكر يقول : يا نبي الله ، بعض

---

(١) أطنها : أطارها .

(٢) تشخب : تسيل بصوت .

(٣) أثبته : جرحه جراحة لم يقم معها .

(٤) ذفف عليه : أجهز وأسرع .

(٥) انضحوهم : ارموهم .

مناشدتِك ربَّك ، فإنَّ الله منجزٌ لك ما وعَدَك .

وقد خفق رسول الله خفقةً[1] وهو في العريش ، ثمّ انتبه فقال : أبشرْ يا أبا بكر ، أتاك نصرُ الله ! هذا جبريلُ آخذٌ بعنان فرسٍ يقوده ، على ثناياه النقْع[2] .

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرّضهم وقال : والذي نفسُ محمد بيدِه ، لا يقاتِلهم اليومَ رجلٌ فيقتَلَ صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلاَّ أدخله الله الجنَّة . فقال عُمير بن الحُمام ، أخو بنو سلمة ، وفي يده تَمراتٌ يأكلهنّ : بخ بخ[3] ، أفما بيني وبين أن أدخلَ الجنَّة إلاَّ أن يقتلني هؤلاء ! ثم قذَف التمراتِ من يده وأخذ سيفَه ، فقاتَل القوم حتى قُتِل .

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حُفنةً من الحصباء فاستقبلَ قريشاً بها ، ثم قال : شاهت الوجوه ! ثم نفحَهم بها ، وأمر أصحابَه فقال : شُدُّوا ! فكانت الهزيمة . فقتل اللَّهُ من قتل من صناديد قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم .

عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ : إني عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كَرْهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشمٍ فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله . ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنمَا أُخرج مُستكرَها . فقال أبو حذيفة : أنقتل آباءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونتركَ العبّاس ! والله لئن لقيتُهُ لأُلحمنَّه السيف[4] ! فبلَغتْ رسولَ الله ﷺ فقال لعمر بنُ الخطاب : يا أبا حفص ، أيضرب وجه عمٍّ رسول الله بالسيف ؟ فقال عُمر : يا رسول الله دعْني فلأضربْ عنقَه بالسيف ؛ فوالله لقد نافَق ! فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قلتُ يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفِّرها عنّي الشهادة ! فقتل يوم اليمامة شهيداً .

ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى بدرٍ من الأيام ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عَدداً ومَدداً ، لا يَضربون .

---

(١) أي نام نومة يسيرة .

(٢) النقع : الغبار .

(٣) كلمة تقال عند الإعجاب .

(٤) أي لأمكنن منه السيف . ويروى : « لألجمنه » ، أي لأضربنه به في وجهه .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من عدوّه أمر بأبي جهل أن يُلتمس في القتلى . قال ابن مسعود : احتززت رأسه ثم جئت به رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، هذا رأس عدوِّ الله أبي جهل . فقال رسول الله ﷺ : آللَّهِ[1] الذي لا إله غيره ؟ - قال : وكان يمينَ رسول الله ﷺ - قلت : نعم والله الذي لا إله غيره . ثم ألقيت رأسَه بين يديْ رسولَ الله ﷺ ، فحمد الله .

ولما أمر رسول الله ﷺ أن يُطرَحوا في القليب طُرحوا ، إلَّا ما كان من أميّة بن خلف ، فإنه انتفخ في درعه فملأها ، فذهبوا ليحرّكوه فتزايَلَ[2] لحمه ، فأقرُّوه وألقَوا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة . فلما ألقاهم في القليب وقف رسول الله ﷺ فسمعه أصحابه من جوف الليل وهو يقول : يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل - فعَدَّد من كان منهم في القليب - هل وجدتم ما وعد ربُّكم حقًّا فإني قد وجدت ما وعدني ربِّي حقاً ؟ فقال المسلمون : يا رسول الله ، أتنادِي قوماً قد جَيَّفوا ؟ قال : ما أنتم بأسمَع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني !

ثم إن رسول الله ﷺ أمر بما في العسكر ، مما جمَع الناس ، فجُمع ، فاختلف المسلمون فيه ، فقال من جمعه : هو لنا . وقال الذين كانوا يقاتلون العدوّ ويطلبونه : والله لولا نحن ما أصَبتموه ، لنحنُ شغَلْنا عنكم القوم حتَّى أصَبتم ما أصبتم . وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ مخافة أن يُخالِفَ إليه العدوّ : والله ما أنتم بأحقّ منا . والله لقد رأينا أن نقتُل العدوّ إذْ منحَنا الله تعالى أكتافَه ، ولقد رأينا أن نأخذ المتاعَ حين لم يكن دونه مَن يمنعه ، ولكنَّا خِفنا على رسول الله ﷺ كَرَّةَ العدوّ فقمنا دونه ، فما أنتم بأحقَّ به منَّا .

ثم بعث رسول الله ﷺ عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية بما فتح الله عزّ وجلّ على رسوله ﷺ وعلى المسلمين ، وبعث زيدَ بن حارثة إلى أهل السافلة ، ثم أقبل قافلا إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين ، وفيهم عُقبة بن أبي مُعَيط ، والنضر بن الحارث . واحتمل رسول الله ﷺ معه النفَل الذي أصيب من المشركين ، وجعل على النَّفَل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف .

---

(١) أي والله .　(٢) أي فسقط .

ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مَضيق الصفراء نزل على كثيب بين المضيق وبين النازيَة ، فقسم هنالك النَّفَل الذي أفاء الله عَلى المسلمين من المشركين عَلى السواء .

ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين ، فقال لهم سلمة بن سلامة : ما الذي تهنئوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلاَّ عجائز صُلْعاً كالإبل المعقَّلة فنحرناها ! فتبسَّم رسول الله ﷺ ثم قال : أي ابنَ أخي ، أولئك الملأ !

حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء قُتِل النضر بن الحارث ، قتله علي بن أبي طالب . ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية قتل عُقبة بن أبي معيط ، فقال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله : فمن للصِّبية يَا محمد ؟ قال : النار . فقتله عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري . ثم مضى رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم ، وحين أقبل بالأسارى فرَّقهم بين أصحابه وقال : استوصوا بالأسارى خيراً .

وكان أوّل من قدم مكة بمصاب قريش الحَيْسُمان بن عبد الله .

وناحت قريش عَلى قتلاهم ثم قالوا : لا تفعلوا فيبلغَ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنسُوا بهم[١] لا يأرب[٢] عليكم محمد وأصحابه في الفداء . وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده : زمعة بن الأسود ، وعقيل بن الأسود ، والحارث بن زمعة ، وكان يحبُّ أن يَبكيَ عَلَى بنيه ، فبينما هو كذلك إذْ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلامٍ له وقد ذهب بصره : انظرْ هل أُحِلَّ النَّحب[٣] ! هل بكت قريشٌ عَلَى قتلاها ؟ لعلِّي أبكي عَلَى أبي حكيمة ـ يعني زَمَعة ـ فإنّ جوفي قد احترق ! فلما رجعَ إليه الغلام قال : إنما هي امرأةٌ تبكي عَلى بَعيرٍ لها أضلَّته . فذلك حين يقول الأسود :

أتبكي أن يضلَّ لها بعيرٌ ويمنعُها من النوم السُّهودُ
فلا تبكي عَلى بَكْرٍ ولكنْ عَلَى بدرٍ تقاصرت الجدود[٤]
عَلى بدرٍ سراة بني هُصَيصٍ ومخزوم ورهط أبي الوليد

---

(١) أي تأخروا فداءهم .
(٢) يأرب : يشتد .
(٣) النحب : النحيب ، رفع الصوت بالبكاء .
(٤) البكر : الفتى من الإبل . وفي الشعر إقواء ظاهر .

وبكِّي إن بكيتِ عَلَى عَقيل وبكِّي حارثاً أسدَ الأُسود
وبكِّيهم ولا تَسِمِي جميعاً وما لأبي حكيمة من نديد[1]

ثم بعثت قريش في فداء الأسارى . فقدم مِكرز بن حفص في فداء سُهَيل بن عمرو ، فلما قاولهم فيه مكرز وانتهى إلى رضاهم قالوا : هات الذي لنا . قال : اجعلوا رجلي مَكان رجله وخلُّوا سبيلَه حتى يُبعَثَ إليكم بفدائه . فخلَّوا سبيل سهيل ، وحبسوا مِكرزاً مكانه عندهم .

وكان عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ : يَا رسول الله ، دعني أنزعْ ثنيّتَيْ سهيل بن عمروٍ ، ويَدْلَع[2] لسانُه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطنٍ أبداً . فقال رسول الله ﷺ : لا أُمثِّل به فيمثِّل الله بي ، وإن كنت نبيًّا .

وقد كان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزَّى : ختَنُ رسول الله ﷺ وزوج ابنته زينب ، وكان الإسلام فرَّقَ بين زينب حين أسلمت وبين أبي العاص بن الربيع ، إلاّ أن رسول الله ﷺ كان لا يقدر أن يـفرّق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها وهو عَلى شركه ، حتى هاجر رسول الله ﷺ ، فلما سارت قريشٌ إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع ، فأصيب في الأسارى يومَ بدر ، فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ .

ولما بعث أهلُ مكة في فداء أَسرائهم ، بعثت زينب بنتُ رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادةٍ لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بَنَى عليها . فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقَّة شديدة ، وقال : إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها مالَها فافعلوا . فقالوا : نعمْ يَا رسول الله . فأطلقوه وردُّوا عليها الذي لها .

وأقام أبو العاص بمكة ، وأقامت عند رسول الله ﷺ بالمدينة حتى فرَّق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام ، وكان رجلاً مأموناً ، بمالٍ له وأموال لرجالٍ من قريش ، أبضَعوها معه ، فلمَّا فرغ من تجارته وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه ، وأعجزهم هارباً . فلما قدمت السريَّة بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول

(١) لا تسمي : لا سامي . النديد المثيل .
(٢) يدلع : يخرج .

الله ﷺ فاستجار بها فأجارته ، وجاء في طلب ماله،فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصُّبح فكبّر وكبّر الناس معه ، صرخت زينب من صُفَّة النساء[1] : « أيها الناس ، إني قد أجَرت أبا العاص بن الربيع » . فلمَّا سلَّم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا : نعم . قال : أما والذي نفس محمد بيده ما علمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم ، إنهُ يجير على المسلمين أدناهم . ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال : أي بُنَيَّةُ ، أكرمي مثواه ، ولا يَخلُصَنَّ إليك ، فإنك لا تَحِلّين له .

عن عبد الله بن أبي بكر ، أن رسول الله ﷺ بعث إلى السريّة الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم : إنَّ هذا الرجل منّا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالاً ، فإن تُحسِنوا وتردُّوا عليه الذي له فإنَّا نحبُّ ذلك ، وإن أبَيتم فهو فَيء الله الذي أفاء عليكم ، فأنتم أحقُّ به . فقالوا : يا رسول الله ، بل نردُّه عليه . فرَدُّوه عليه حتى إنَّ الرجل ليأتي بالدَّلو ، ويأتي الرجلُ بالشَّنَّة[2] وبالإداوة[3] ، حتى إنَّ أحدهم ليأتي بالشِّظاظ[4] ، حتى ردُّوا عليه ماله بأسره لا يفقِد منه شيئاً . ثم احتمَلَ إلى مَكَّة فأدَّى إلى كلِّ ذي مال من قريش ماله ، ومن كان أبضَعَ معه . ثم قال : يا معشر قريش ، هل بقي لأحد منكم عندي مالٌ لم يأخذه ؟ قالوا : لا ، فجزاك اللَّهُ خيراً ، فقد وجدناك وفيًّا كريماً . قال فأنا أشهَد ألَّا إلَه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ! والله ما منَعني من الإسلام عِنده إلَّا تخوُّف أن تظنُّوا إنِّي إنما أردتُ أن آكلَ أموالكم ، فلما أدَّاها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمت .

ثم خرج حتى قدم على رسول الله .

وكان ممن سمِّي لنا من الأسارى ممن مُنَّ عليه بغير فداء أبو العاص بن الربيع والمطَّلب بن حَنْطَب ، وصَيفيّ بن أبي رفاعة ، وأبو عَزَّة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أُهَيب بن حُذافة بن جُمَح ، كان محتاجاً ذا بنات ، فكلَّم رسولَ الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، لقد عرفتَ ما لي من مال ، وإني لذو حاجة ودو عيال فامنُنْ عليَّ . فمنَّ عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه ألَّا يظاهرَ عليه أحداً ، فقال أبو عزَّة في ذلك يمدح رسول الله ﷺ ويذكر فضلَه في قومه :

---

(١) الصفة : السقيفة .

(٢) الشنة : السقاء البالي .

(٣) الإداوة : وعاء من الجلد صغير .

(٤) الشظاظ : خشبة تدخل في عروتي الجوالق.

مَن مُبلغٌ عنِّي الرسولَ محمداً ... بأنك حقٌّ والمَليك حميد
وأنت امرؤٌ تدعـو إلى الحقِّ والهدى ... عليك من الله العظيم شهود
وأنت امرؤ بوِّئت فينا مباءة ... لها درجات سَهلة وصَعُود[1]
فإنك من حاربته لمحارَبٌ ... شقيٌّ وَمن سالَمته لَسعيدُ

وكان فداءُ المشركين يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف درهم ، إلَّا من لا شيء له . فمنَّ رسول الله ﷺ عليه .

وجميع من شهد بدراً من المهاجرين ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره ثلاثة وثمانون رجلاً . وجميع من شهد بدراً من الأوس مع رسول الله ﷺ ومن ضرب له بسهمه وأجرِه واحد وستون رجلا . وجميع من شهد بدراً من الخزرج مائة وسبعون رجلاً .

فجميع من شهد بدراً من المسلمين ومن المهاجرين والأنصار ، من شهدها منهم ومن ضُرب له بسهمه وأجره ثلثمائة رجل وأربعةَ عشر رجلا .

* غَزْوَةُ بَنِي سُلَيْمٍ بِالكُدْر *

فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة لم يقُم بها إلَّا سبعَ ليال حتَّى غزا بنفسه يريد بني سُلَيم[2] ، فبلغ ماء من مياههم يقال له « الكُدْر » ، فأقام عليه ثلاث ليالٍ ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً ، فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وأفدى في إقامته تلك جُل الأسارى من قريش .

* غَزْوَةُ السَّوِيق *

ثم غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السَّويق[3] في ذي الحِجة ، وولِي تلك الحَجّة المشركون من تلك السَّنَة ، فكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة ورجع فَلّ[4] قريش من بدر ، نذر ألا يمسَّ رأسه ماءٌ من جَنابةٍ[5] حتى يغزوَ محمداً ﷺ ، فخرج في مائتي

---

(١) أي أنزلت منزلة عظيمة . والصعود : الطريق الصاعد .
(٢) واستعمل على المدينة حينئذ سباع بن عرفطة الغفاري ، وقيل : ابن أم كلثوم .
(٣) سميت بذلك لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم فيها السويق ، فهجم المسلمون على كثير منه . والسويق : مطحون الحنطة أو الشعير ، ويؤكل ممزوجاً باللبن والعسل والسمن ، أو بالماء .
(٤) الفل : المنهزمون .
(٥) كان الغسل من الجنابة معمولاً به في الجاهلية ، كالحج والنكاح .

راكب من قريش ليبرَّ بيمينه ، فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبلٍ يقال له « ثَيْب » من المدينة على بَريد أو نحوه ، ثم خرجَ من الليل حتى أتى بني النَّضير تحت اللَّيل ، فأتى حُييَّ بن أخطبَ فضربَ عليه بابَه ، فأبَى أن يفتحَ عليه بابه وخافَه فانصرف إلى سلاَّم بن مِشْكم ، وكان سيّد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كَنزهم[١] فاستأذنَ فأذِن له ، فقراه[٢] وسقاه ، وبَطَن له من خبر النَّاس[٣] . ثم خرجَ في عَقِب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث رجالاً من قريشٍ إلى المدينة ، فأتوا ناحيةً منها يقال لها العُرَيض ، فحرَّقوا في أصوار[٤] من نخلٍ بها ، ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما ، فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ، ونَذِرَ بهم الناس[٥] ، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم ، واستعمل عَلَى المدينة بشيرَ بن عبد المنذر ، حتى بلغ « قَرقرة الكُدْر » ، ثم انصرف راجعاً وقد فاته أبو سفيان وأصحابه ، وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها في الحَرْث ، يتخفَّفون منها للنجاء ، فقال المسلمون حين رجَع بهم رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، أتطمع لنا أن تكون غزوةً ؟ قال : نعم .

* غَزْوَةُ ذِي أَمَر *

فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريباً منها ، ثم غزا نجداً ، يريد غطفان ، وهي غزوة ذي أَمَر[٦] .

فأقام بنجد صفراً كلّه أو قريباً من ذلك ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فلبث بها شهرَ ربيعٍ الأول كلّه ، أو قليلاً منه .

* غَزْوَةُ الفُرُع مِنْ بَحْرَانَ *

ثم غزا رسول الله ﷺ يريد قريشاً[٧] حتى بلغ بَحران : معدناً بالحجاز من ناحية الفُرُع ، فأقام بها شهر ربيع الآخِر وجمادى الأولى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً .

---

(١) يراد بالكنز ما كانوا يجمعونه من مال بينهم ، لنوائبهم وما يعرض لهم .

(٢) قراه : أطعمه القرى ، وهو طعام الضيف .

(٣) بطن له من خبرهم : أعلمه سرهم .

(٤) جمع صور ، بالفتح ، وهو جماعة النخل .

(٥) نذروا بهم : علموا بهم .

(٦) واستعمل على المدينة عثمان بن عفان .

(٧) واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

* أمْرُ بَنِي قَيْنُقَاع *

كان من أمر بني قينقاع[1] أنَّ امرأةً من العرب قدمت بجَلَبٍ[2] لها فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقَده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفتْ سوأتُها ، فضحكوا بها فصاحت ، فوثَب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ـ وكان يهودياً ـ وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهلُ المسلم المسلمين على اليهود . فغضب المسلمون ، فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قينقاع .

وكان بنو قينقاع أولَ يهود نقَضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا عَلَى حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أبيّ بن سلول حين أمكنه الله منهم ، فقال : يَا محمد ، أحسنْ في مواليَّ ! فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فقال : يَا محمد ، أحسِنْ في مواليَّ ! فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب دِرع رسول الله ﷺ ، فقال له : أرسلْني ! وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوْا لوجهه ظُلَلا[3] ، ثم قال : ويحك أرسِلْني . قال . لا ، والله ، لا أرسلك حتى تُحسنَ في مواليَّ : أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود[4] تحصدهم في غداة واحدة! إني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول الله ﷺ : هم لك .

ومشى عُبادةُ بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان لهم من حِلفه مثلُ الذي لهم من عبد الله بن أبيّ ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى رسول الله ﷺ من حِلفهم ، وقال : يَا رسول الله ، أتَوَلَّى اللَّهَ ورسوله ﷺ والمؤمنين ، وأبرأ من حِلف هؤلاء الكفَّار وولايتهم .

ففيه وفي عبد الله بن أبيّ نزلت هذه القصة من المائدة : ﴿يَا أيُّها الذين آمنوا لا تتَّخذوا اليهودَ والنصارَى أولياء بعضُهم أولياءُ بَعْضٍ ، ومن يتولَّهم مِنكُمْ فإنَّه منهم ، إنَّ الله لا يَهدِي القومَ الظَّالمينَ * فَترى الذِينَ فِي قُلُوبهم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهم يَقُولُونَ

---

(١) بفتح القاف وتثليث النون ، شعب من اليهود .

(٢) الجلب ، بالتحريك : ما يجلب للأسواق ليباع فيها .

(٣) جمع ظلة ، وأصلها السحابة ، عنى بذلك تغير الوجه إلى السواد حين يشتد الغضب .

(٤) أي العجم والعرب .

نَخْشَى أنْ تُصِيبنَا دَائِرَةٌ فَعَسى اللَّهُ أنْ يَأتِيَ بالفَتْح أو أمْرٍ مِنْ عندِه فَيُصْبحُوا عَلى ما أسَرُّوا فِي أنفسهم نادِمِينَ * ويَقول الذين آمَنُوا أهؤلاء الذين أقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانهم﴾ ثم القصة إلى قوله تعالى : ﴿إنَّما وليُّكُمُ اللَّهُ ورَسُولُه والذين آمَنُوا الذينَ يُقيمون الصَّلَاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهم راكعون﴾ . وذكر لتولِّي عُبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا ، وتبرِّيه من بني قَينقاع وحلفهم وولايتهم : ﴿ومَن يتولَّ اللَّهَ ورسوله والذين آمنُوا فإن حزْبَ الله همُ الغالبون﴾ .

* سَرِيَّةُ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ إلَىٰ القَرَدَةِ مِنْ مِيَاهِ نَجْد *

وكان من حديثها أن قريشاً خافوا طريقهم الذين كانوا يسلكون إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان ، فسلكوا طريق العراق ، فخرج منهم تجَّار فيهم أبو سفيان بن حرب ، ومعه فضَّة كثيرة ، وهي عُظْم تجارتهم ، واستأجروا رجلاً من بني بكر بن وائل يقال له فُرات بن حيَّان ، يدلُّهم في ذلك على الطريق .

وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فلقيهم على ذلك الماء ، فأصاب تلك العِير وما فيها ، وأعجزه الرجالُ ، فقدِم بها على رسول الله ﷺ .

* غَزْوَةُ أُحُد *

لما أصيب يوم بدر من كفَّار قريش أصحابُ القليب ، ورجع فَلُّهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حربٍ بِعِيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعِكرمة بن أبي جهل ، وصَفوان بن أمية ، في رجالٍ من قريش ، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلَّموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يَا مَعشَر قريش ، إنَّ محمداً قد وَتَركم وقتلَ خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلَّنا ندركُ منه ثأرنا بمن أصابَ منَّا . ففعلوا .

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك ، أبو سفيان وأصحاب العير بأحابيشها[١] ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظُّعُن[٢] التماسَ الحفيظة ، وألَّا يفروا . فخرجَ أبو سفيان بن حرب ، وهو قائد الناس ، بهند

---

(١) الأحابيش : من اجتمع إلى العرب وانضم إليهم من غيرهم .

(٢) جمع ظعينة ، وهي المرأة .

بنت عتبة ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأُمّ حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صفوان بن أمية ببرْزَة بنت مسعود الثقفية ، وخرج عمرو بن العاص بريْطَةَ بنت منّبة بن الحجاج .

فأقبلوا حتى نزلوا بعينَين ، بجبل ببطن السَّبْخة ، من قناة على شفير الوادي مقابلَ المدينة . فلما سمع بهم رسول الله ﷺ ، والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا ، قال رسول الله ﷺ للمسلمين : « إني قد رأيت والله خيراً ، رأيت بقراً لي تذبح ، ورأيت في ذُباب[1] سيفي ثَلْما ، ورأيتُ أني أدخلتُ يدي في درع حصينة[2] ، فأوّلتُها المدينة . فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدَعوهم حيث نزَلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مُقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » . وكان رأي عبد الله بن أبيّ بن سَلول مع رأي رسول الله ﷺ يَرى رأيه في ذلك وألا يَخرجَ إليهم ، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج ، فقال رجالٌ من المسلمين ، ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره ، ممن كان فاتَه بدر : يَا رسولَ الله ، اخرجْ بنا إلى أعدائنا ، لا يرَوْن أنَّا جَبُنَّا عنهم وضعُفنا ! فقال عبد الله بن أبيّ بن سلول : يَا رسول الله ، أقمْ بالمدينة لا تخرجْ إليهم ، فوالله ما خرجْنا منها إلى عدوٍّ لنا قطُّ إلَّا أصابَ منَّا ، ولا دخلَها علينا إلا أصَبنا منه ، فدعْهم يَا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مَحبِس ، وإن دخلوا قاتَلَهم الرجالُ في وجههم ، ورماهم النساءُ والصِّبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجَعوا رجَعوا خائبين كما جاءُوا . فلم يزل النَّاسُ برسول الله ﷺ ، الذين كان من أمرهم حبُّ لقاء القوم ، حتَّى دخل رسولُ الله ﷺ بيتَه ، فلبس لأمَتَه[3] ، وذلك يومَ الجمعة حين فرغ من الصلاة ، وقد مات في ذلك اليوم رجلٌ من الأنصار يقال له مالك بن عمرو، فصلَّى عليه رسول الله ﷺ ثم خرج عليهم ، وقد ندم النَّاسُ وقالوا : استكرهْنا رسولَ الله ﷺ ، ولم يكن لنا ذلك . فلمَّا خرج عليهم رسول الله ﷺ قالوا : يَا رسول الله ، استكرهناك ولم يكنْ ذلك لنا ، فإن شئت فاقعدْ صلى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغي لنبيٍّ إذا لبس لأمَتَهُ أن يضعَهَا حتى يقاتل » . فخرج رسول الله ﷺ في ألفٍ من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشَّوط ، بين المدينة

---

(١) ذباب السيف : حده .

(٢) قال ﷺ : « أما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون . وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل » .

(٣) اللأمة : الدرع ، وقيل السلاح .

وأحد ، انخزل عنه عبد الله بن أبيّ بن سلول بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني ، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس !

فرجع بمن اتَّبعه من أهل النفاق والرَّيب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام يقول : يَا قوم ، أذكِّركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيَّكم عندما حَضر من عدُوِّهم . فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال . فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الإنصراف عنهم قال : أبعدَكم الله أعداء الله ، فسيُغني الله عنكم نبيَّه .

وقال الأنصار يوم أحد : يَا رسول الله ، ألا نستعين بحلفائنا من يهود ؟ فقال : لا حاجة لنا فيهم .

ومضى رسول الله ﷺ حتَّى نزل الشِّعب من أحد في عُدوَة الوادي إلى الجبل ، فجعل ظهرَه وعسكره إلى أحد ، وقال : لا يقاتِلنَّ أحدٌ منكم حتَّى نأمرَه بالقتال . وقد سرَّحت قريشٌ الظَّهرَ والكُراع[1] في زروعٍ كانت بالصَّمْغة[2] من « قناة » للمسلمين ، فقال رجلٌ من الأنصار حين نَهى رسولُ الله ﷺ عن القتال : أتُرعى زروعُ بني قَيلة[3] ولمَّا نُضارب !

وتعبَّى رسول الله ﷺ وهو في سبعمائة رجل ، وأمَّر على الرماة عبد الله بن جُبير ، وهو مُعْلِمٌ يومئذ بثياب بيض ، والرماة خمسون رجلاً ، فقال : انضح الخيل عنَّا بالنَّبل[4] ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت علينا لا نؤتينَّ من قِبلك . وظاهر رسولُ الله ﷺ بين درعين[5] ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، أخي بني عبد الدار .

وأجاز رسول الله ﷺ يومئذ سَمُرة بن جندب ، ورافع بن خديج أخا بني حارثة ، وهما ابنا خمسَ عشرةَ سنة ، وكان قد ردَّهما ، فقيل له : يا رسول الله ، إنَّ رافعاً رام . فأجازَه . فلمَّا أجاز رافعاً قيل له : يا رسولَ الله ، فإنَّ سمرة يصرع رافعاً . فأجازه . وردَّ رسول الله ﷺ أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ،

---

(١) الظهر : الإبل . والكراع : الخيل .
(٢) الصمغة : أرض قرب أحد .
(٣) هم الأوس والخزرج ، وقيلة أمهم .
(٤) أنضحهم : أدفعهم .
(٥) ظاهر بينهما : لبس إحداهما فوق الأخرى .

والبراء بن عازب ، وعمرو بن حزم ، وأسَيد بن ظُهير ، ثم أجازهم يوم الخندق وهم أبناء خمسَ عشرةَ سنة .

وتعبأت قريش ، وهم ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم مائتا فرسٍ قد جَنَبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالدَ بن الوليد ، وعلى ميسرتها عِكرمة بن أبي جهل .

وقال رسول الله ﷺ : مَن يأخذُ هذا السيف بحقِّه ؟ فقام إليه رجالٌ فأمسكه عنهم ، حتَّى قام إليه أبو دُجانة سِماك بن خَرَشة فقال : وما حقُّه يا رسول الله ؟ قال : أن تضربَ به العدوَّ حتى ينحني . قال : أنا آخذُه يا رسول الله بحقِّه ، فأعطاه إياه . وكان أبو دُجانة رجلًا شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت ، وكانت إذا أعْلَمَ بعصابةٍ له حمراء فاعتصب بها علم النَّاسُ أنه سيقاتل . فلمَّا أخذ السيفَ مِن يد رسول الله ﷺ أخرجَ عصابَته تلك فعَصَب بها رأسه ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال رسول الله ﷺ حين رأى أبا دُجانة : « إنها لمِشيةٌ يُبغضها الله إلاَّ في مثل هذا الموطن » .

وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرِّضهم بذلك على القتال : يا بني عبد الدار ، إنكم قد وَليتم لواءنـــا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناسُ من قِبَل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإمّا أن تَكفُونا لواءنـــا وإما أن تخلُّوا بيننا وبينه فنكفِيكَمُوه . فهَمُّوا به فتواعدوه ، وقالوا : نحنُ نُسْلم إليك لواءنَا ، ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع ! وذلك أراد أبو سفيان !

فلما التقى الناسُ ودنَا بعضُهم من بعض ، قامت هندُ بنت عُتبة في النسوة اللاتي معها ، وأخذن الدفوفَ يضربْن بها خلف الرجال ويحرّضنهم ، فقالت هند فيما تقول :

وَيهاً بني عبد الدار ويهاً حُمَاةَ الأدبار[1]
ضَرْباً بكل بتَّار[2]

وتقول :

إن تُقبلوا نعانقْ ونفرش النمارقْ[3]
أو تدبروا نفارق فراقَ غير وامق[4]

(١) حماة الأدبار : الذين يحمون أعقابهم .
(٢) البتار : السيف القطاع
(٣) النمرقة : الوسادة .
(٤) الوامق : المحب .

وكان شِعَار[1] أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد : أمِتْ أمتْ !

فاقتتلِ الناس حتى حميت الحرب ، وقاتل أبو دُجانة حتى أمعن في الناس ، فجعل لا يلقَى أحداً إلاّ ذفَّف عليه[2] ، فجعل كلٌّ واحدٍ منهما يدنو من صاحبه ، فدعوتُ الله أن يجمعَ بينهما ، فالتقيا فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دُجانة فاتقاه بدرقته فعضَّت بسيفه ، وضربه أبو دُجانة فقتله ، ثم رأيته قد حمل السيفَ على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدلَ السيفَ عنها[3] .

وقاتل حمزةُ بن عبد المطلب حتَّى قتل أرطاةَ بن عبد شُرَحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وكان أحد النفر الذين يحملون اللواء ، ثم مرَّ به سباع بن عبد العُزَى الغُبْشانيّ ، وكان يكنَى بأبي نِيار ، فقال له حمزة : هلمَّ إليَّ يا ابنَ مقطِّعة البُظور ! وكانت أمه ختَّانة بمكة .

قال وحشيٌّ غلام جُبير بن مُطعِم : والله إنِّي لأنظرُ إلى حمزة يُهذُّ[4] النَّاس بسيفه ما يُليق[5] به شيئاً ، مثل الجملِ الأورق[6] ، إذْ تقدَّمني إليه سِباع بن عبد العزّى ، فقال له حمزة : هلمَّ إليَّ يا ابنَ مقطِّعة البظور ! فضربه ضربة فكأنْ ما أخطأ رأسه ، وهززتْ حربتي حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه ، فوقعت في ثُنَّته[7] حتى خرجَتْ من بين رجليه ، فأقبل نحوي فغُلب فوقع ، وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذتُ حربتي ، ثم تنحّيت إلى العسكر . ولم تكن لي بشيء حاجةٌ غيرَه ، وإنما قتلته لأعتق ، فلما قدمت مكة أُعتِقت ، ثم أقمتُ حتى إذا افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها ، فلما خرجَ وفدُ الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيَّتْ عليَّ المذاهب ، فقلت : ألحق بالشام، أو اليمن ، أو ببعض البلاد . فوالله إني لفي ذلك من همِّي ، إذ قال لي

---

(١) الشعار : علامة يتنادون بها في الحرب بعضهم بعضاً .

(٢) ذفف عليه : أجهز عليه .

(٣) قال أبو دجانة : رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً ، فصمدت له ، فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة .

(٤) يهذ : يسرع في قطع لحومهم بسيفه . ويروى « يهد » بالمهملة ، ومعناها يرديهم ويهلكهم .

(٥) ما يليق : ما يبقى .

(٦) الأورق : ما لونه إلى الغبرة .

(٧) الثنة : ما بين أسفل البطن إلى العانة .

رجل : ويحك ! إنَّه والله ما يقتل أحداً من الناس دخلَ في دينه ، وتشهَّد شهادته . فلما قال لي ذلك خرجتُ حتَّى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة ، فلم يَرُعْه إلَّا بي قائماً على رأسه أتشهَّد بشهادة الحقّ ، فما رآني قال : أوحشيّ ؟ قلت : نعم ، يا رسول الله . قال : اقعد فحدِّثني كيف قتلتَ حمزة ؟ فلما فرغت من حديثي قال : ويحك ! غيِّبْ عنّي وجهَك فلا أرينَّك ! فكنتُ أتنكَّب عن رسول الله ﷺ حيث كان ، لئلا يراني ، حتى قبضه الله ، صلى الله عليه وسلم .

وقاتل مصعب بن عُمير دون رسول الله ﷺ حتى قُتل ، وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي ، وهو يظن أنه رسولُ الله ﷺ ، فرجع إلى قريش فقال : قتلتُ محمداً ! فلما قتِل مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء عليَّ بن أبي طالب ، وقاتل عليُّ بن أبي طالب ورجالٌ من المسلمين .

ولما اشتدّ القتال يوم أحد ، جلس رسول الله ﷺ تحت راية الأنصار ، وأرسلَ رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب : أن قدِّم الراية . فتقدم عليٌّ فقال : أنا أبو القُصَم[(١)] ! فناداه أبو سعد بن أبي طلحة ، وهو صاحب لواء المشركين : أنْ هل لك يَا أبا القُصَم في البِراز من حاجة ؟ قال : نعم . فبرز بين الصَّفين فاختلفا ضربتين ، فضربه عليٌّ فصرعَه ، ثم انصرفَ عنه ولم يُجهزْ عليه ، فقال له أصحابه : أفلا أجهزتَ عليه ؟ قال : إنه استقبلني بعورته فعطَفْتني عنه الرحم ، وعرفت أن الله عزَّ وجلَّ قد قتله .

وقاتلَ عاصمُ بن ثابت بن أبي الأقلح ، فقَتل مسافعَ بن طلحة وأخاه الجُلاس بن طلحة . كلاهما يُشعِره سهماً[(٢)] ، فيأتي أمَّه سُلافة ، فيضع رأسَه في حِجرها فتقول : يَا بنيَّ ، من أصابك ؟ فيقول : سمعتُ رجلاً حينَ رماني وهو يقول : خُذْها وأنا ابنُ أبي الأقلح . فنذرتْ إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر .

والتقى حنظلة بن عامرٍ الغسيلُ وأبو سفيان ، فلمَّا استعلاه حنظلة بن أبي عامر رآه شدَّاد بن الأسود ـ وهو ابن شَعوب ـ قد علا أبا سفيان ، فضربه شدّاد فقتله ، فقال رسول الله ﷺ : إنّ صاحبكم ـ يعني حنظَلة ـ لتغسِّلُه الملائكة . فسألوا أهله : ما شأنه ؟ فسئلتْ صاحبتُه عنه فقالت : خرج وهو جُنُب حين سمِع الهاتفة .

---

(١) القصم : الدواهي ، واحدتها قصمى . وإنما قال ذلك رداً على قول أبي سعد : أنا قاصم من يبارزني !

(٢) أشعره السهم : أصابه في جسده فصار له كالشعار .

ثم أنزل الله نصرَهُ عَلى المسلمين وصدَقهم وعدَه ، فحسُّوهم بالسُّيوف[1] ، حتى كشفوهم عن العسكر . وكانت الهزيمة لا شكَّ فيها .

قال الزبير : والله لقد رأيتُني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصَواحبها ، مشمِّرات هوارب ، ما دون أخْذهنّ قليل ولا كثير ، إذ مالت الرماةُ إلى العسكر حين كشفْنا القومَ عنه ، وخلَّوا ظهورَنا للخيل ، فأتينا من خلْفنا ، وصرخ صارخ : ألا إنَّ محمداً قد قُتِل ! فانكفأنا[2] وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحدٌ من القوم ، ولم يزل صريعاً حتّى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش ، فلاثُوا به[3] .

وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدوُّ ، وكان يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله فيه من أكرمَ من المسلمين بالشهادة حتّى خُلِص إلى رسول الله ﷺ ، فرُثَّ[4] بالحجارة حتّى وَقَعَ لِشقِّه[5] فأصيبت رَبَاعِيَتُه[6] ، وشُجَّ[7] في وجهه ، وكُلمت[8] شَفَته ، وكان الذي أصابه عُتبة بن أبي وقاص . فجعل الدمُ يسيل عَلَى وجهه ، وجَعَل يمسح الدمَ وهو يقول : « كيف يُفلح قومٌ خضَبوا وجه نبيِّهم وهو يدعوهم إلى ربِّهم ! » ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في ذلك : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ .

وعن أبي سعيد الخدري ، أن عتبة بن أبي وقّاص رمَى رسول الله ﷺ يومئذ فكَسر رَباعيَته اليمنى السفلى ، وجَرح شفته السُّفلى ، وأن عبد الله بن شهابٍ الزهريَّ شجَّه في جبهته ، وأنّ ابن قمئة جرحَ وجنتَه[9] ، فدخلت حَلقتان من حلَقِ المِغفر في وَجنته ، ووقع رسولُ الله ﷺ في حُفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، وهم لا يعلمون . فأخذَ عليّ أبي طالب بيد رسول الله ﷺ ، ورفَعه طَلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ، ومصَّ مالك بن سنان ، أبو أبي سعيد الخُدريّ ، الدمَ عن وجه رسول الله ﷺ ، ثم ازدرده ، فقال رسول الله ﷺ : « مَن مَسّ دمي دمه لم تُصبه النار » .

---

(١) حسوهم : قتلوهم واستأصلوهم .
(٢) انكفأنا : رجعنا .
(٣) لاثوا به : اجتمعوا من حوله والتفوا .
(٤) رث : أصيب .
(٥) الشق : الجانب .
(٦) الرباعية ، كثمانية : السن المجاورة للناب .
(٧) الشج : الجرح في الوجه والرأس .
(٨) كلمت : جرحت .
(٩) الوجنة : أعلى الخد .

وقال رسول الله ﷺ ، حين غشيه القوم : مَن رجلٌ يَشْتري لنا نفسه ؟ فقام زياد بنُ السَّكَن في نفرٍ خمسة من الأنصار ، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلاً ثم رجلاً ، يُقتلون دونه ، حتى كان آخرهم زياد ، أو عمارة بن يزيد بن السكَن ، فقاتلَ حتى أثبتته الجراحة ، ثم فاءت فئة[١] من المسلمين ، فأجهضوهم عنه[٢] ، فقال رسول الله ﷺ : أدنوه مني . فأدنَوه منه ، فوسَّده قدمَه فمات وخدُّه على قدم رسول الله ﷺ .

وترَّس دون رسول الله ﷺ أبو دُجانة بنفسه ، يقع النَّبلُ في ظهره وهو منحنٍ عليه ، حتى كثُر فيه النبل . ورمَى سعدُ بن أبي وقَّاص دون رسول الله ﷺ . قال سعدٌ : فلقد رأيته يناولني النبل ، وهو يقول : ارم ، فِداك أبي وأمّي ! حتّى إنَّه ليناولني السهمَ ما له نصل ، فيقول : ارم به .

وكان أول مَن عرَف رسولَ الله ﷺ بعد الهزيمة ، وقولِ الناس : قُتِل رسولُ الله ﷺ : كعب بن مالك ، قال : عرفت عينَيه تزهَران[٣] من تحت المِغْفر ، فناديتُ بأعلى صوتي : يَا معشر المسلمين ، أبشِروا ، هذا رسولُ الله ﷺ ! فأشار إليّ رسول الله ﷺ : أن أنصِتْ .

فلمَّا عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشِّعب معه أبو بكرٍ الصدِّيق ، وعمر بن الخطَّاب ، وعليّ بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوّام ـ رضوان الله عليهم ـ والحارث بن الصِّمّة ، ورهط من المسلمين .

فلمَّا أسندَ رسولُ الله ﷺ في الشِّعب أدركَه أبيّ بن خلف ، وهو يقول : أيّ محمد ، لا نجوتُ إن نجوتَ ! فقال القوم : يَا رسولَ الله ، أيَعطِف عليه رجلٌ مِنَّا ؟ فقال رسول الله ﷺ : دَعوه . فلمَّا دنا تناولَ رسولُ الله ﷺ الحربةَ من الحارث بن الصمَّة فلما تناول رسولُ الله ﷺ الحربةَ من الحارث بن الصِّمّة ، يقول بعض القوم فيما ذُكِر لي : فلمّا أخذَها رسول الله ﷺ منه انتفضَ بِها انتفاضةً تطايرنا عنه تطايُرَ الشَّعْراء[٤] عن ظهر البعير إذا انتفضَ بها . ثم استقبله فطعنه في عُنقه طعنةً تدأدأ[٥] منها عن فرسه مِراراً .

---

(١) الفئة : الجماعة .
(٢) أجهضوهم : أزالوهم وغلبوهم .
(٣) تزهران : تلمعان .
(٤) الشعراء : ذباب له لدغ .
(٥) تدأدأ : تدحرج .

وكان أبيّ بن خلفٍ يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول : يَا محمد ، إن عندي العَوْذ[١] : فرساً ، أعلِفُه كلَّ يومٍ فَرقاً[٢] من ذُرة ، أقتلك عليه . فيقول رسول الله ﷺ : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فلمَّا رجع إلى قريشٍ وقد خدشَه في عنقه خدشاً غير كبير ، فاحتقن الدم ، قال : قَتلني والله محمد ! قالوا له : ذهبَ والله فؤادك ، والله إنْ بكَ من بأس . قال : إنَّه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك ، فوالله لو بصَقَ عليّ لقتلني .

فمات عدوّ الله بسَرِف[٣] وهم قافلون به إلى مكَّة .

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشعب خرج علي بن أبي طالب حتى ملأ دَرقته[٤] ماء من المِهراس[٥] ، فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه ، فوجد له ريحاً ، فعَافَه فلم يشرب منه ، وغسَلَ عن وجهه الدمَ ، وصبَّ على رأسه وهو يقول : اشتدَّ غضب الله على مَن دمَّى وجه نبيِّه .

ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة من الجبلِ ليعلوَهَا ، وقد كان بدَّن[٦] رسولُ الله ﷺ ، وظاهَرَ بين درعين ، فلما ذهب لينهضَ ﷺ لم يستطع ، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها ، فقال رسول الله ﷺ يومئذ : « أوجَبَ طلحة[٧] ! » . حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع .

وكان ممن قُتِلَ يومَ أحد مُخَيْرِيق ، وكان أحد بني ثعلبة بن الفِطيَوْن ، لمَّا كان يوم أحد قال : يا معشرَ يهود ، والله لقد علمتم إن نصرَ محمدٍ عليكم لحقّ . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لا سبتَ لكم . فأخذَ سيفَه وعُدَّتَه ، وقال : إن أُصِبتُ فمالي لمحمدٍ يصنع فيه ما شاء . ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتلَ معه حتَّى قُتِل ، فقال رسول الله ﷺ : « مخيريق خير يهود » .

---

(١) العوذ : اسم فرسه .

(٢) الفرق ، بالفتح والتحريك : مكيال يسع اثني عشر رطلاً .

(٣) سرف ، بفتح فكسر : موضع على ستة أميال من مكة .

(٤) الدرقة : ترس من جلود .

(٥) المهراس : ماء بأحد ، أو حجر ينقر ويجعل إلى جانب البئر ويودع فيه الماء .

(٦) بدن تبديناً : أسن وضعف .

(٧) أي وجبت له الجنة .

وكان أبو هريرة يقول : حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنة لم يصلِّ قطُّ ؟ فإذا لم يعرفه الناس سألوه : من هو ؟ فيقول : أُصَيْرِم بني عبد الأشهل ، عمرو بن ثابت بن وَقْش .

قال الحصين بن عبد الرحمن : فقلت لمحمود بن أسد : كيف كان شأنُ الأصيرم ؟ قال : كان يأبى الإسلام على قومه ، فلما كان يوم خرج رسول الله ﷺ إلى أحد بدَا له في الإسلام فأسلم ، ثم أخذ سيفه فغدا حتى دخَل في عُرض الناس ، فقاتل حتى أثبتَته الجراحة(١) . فبينا رجالٌ من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به ، فقالوا : والله إنَّ هذا لَلأصيرم ، ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكِرٌ لهذا الحديث . فسألوه : ما جاء به ؟ فقالوا : ما جاء بك يا عمرو؟ أحَدَبٌ على قومك أم رغبة في الإسلام ؟ قال : بل رغبة في الإسلام ، آمنتُ بالله وبرسوله وأسلمت ، ثم أخذت سيفي فغدوت على رسول الله ﷺ ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني . ثم لم يلبث أن مات في أيديهم ، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال : « إنَّه لمِنْ أهل الجنَّة » .

وكان عمرو بن الجموح رجلاً أعرجَ شديد العَرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأُسْد ، يشهدون مع رسول الله ﷺ المَشاهد ، فلما كان يوم أُحد أرادوا حبسَه وقالوا له : إن الله عزَّ وجلَّ قد عذرك ! فأتى رسولَ الله ﷺ ، فقال : إنَّ بنيَّ يُريدون أن يحبسوني عن هذا الوجهِ والخروج معك فيه ، فوالله إني لأرجو أن أطأ بِعَرْجتي هذه في الجنة . فقال رسول الله ﷺ : أما أنت فقد عذَرَكَ الله فلا جهادَ عليك . وقال لبنيه : ما عليكم ألَّا تمنعوه ، لعلَّ الله أن يرزقه الشهادة . فخرجَ معه فقُتِل معه يوم أحد .

ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها ، يمثِّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ ، يجدِّعن الآذان والآنف ، حتَّى اتَّخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خَدَماً(٢) وقلائد ، وأعطت خدمَها وقلائدها وقِرَطتَها وحشيًّا غلام جُبير بن مطعم ، وبقَرتْ عن كبد حمزة ، فلاكَتْها(٣) فلم تستطع أن تُسيغها ، فلفظتها(٤) .

وقد كان الحُليس بن زبَّان ، وهو يومئذٍ سيِّد الأحابيش ، قد مرَّ بأبي سفيان ، وهو يَضرِب في شِدق حمزة بن عبد المطلب بزُجّ الرمح ويقول : ذقْ عُقَق(٥) ! فقال الحليس : يا بني كنانة ، هذا سيِّد قريش يصنع بابن عمِّه ما تَرون لحماً(٦) ! فقال :

---

(١) أثبتته : أثقلته فلم يتحرك .
(٢) الخدم : جمع خدمة ، وهي الخلخال .
(٣) لاكتها : مضغتها .
(٤) لفظتها : طرحتها .
(٥) يا عقق ، أي يا عاق .
(٦) أي ميتاً ليست به قدرة على الإنتصار .

ويحك ، اكتمْها عنِّي ، فإنها كانت زَلَّة .

ثم إنَّ أبا سفيانَ بن حربٍ حين أراد الانصرافَ أشرفَ على الجبل ثم صرخَ بأعلى صوته فقال : أنعمتِ فَعَالِ[1] ، إن الحرب سجالٌ[2] يوم بيوم ، أُعْلُ هُبل[3] أي أظهرْ دينك . فقال رسول الله ﷺ : قم يا عُمر فأجبْه فقل : الله أعلى وأجلّ . لا سواءُ[4] ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان : هلمَّ إليّ يا عمر . فقال رسول الله ﷺ لعمر : ائته فانظر ما شأنه ؟ فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر أَقَتَلْنا محمداً ؟ قال عمر : اللهمّ لا ، وإنه ليسمع كلامَك الآن . قال : أنت أصدقُ عندي من ابن قمئة وأبرّ ! لقول ابن قمئة لهم[5] : إني قد قتلت محمداً !

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان في قتلاكم مَثْل[6] ، والله ما رضيتُ وما سخطت ، وما نهيتُ وما أمرت !

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدرٌ للعام القابل .

فقال رسول الله ﷺ لرجلٍ من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا ، وبينَكَ موعد .

ثم بعث رسولُ الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال : اخرجْ في آثار القوم فانظرِ ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جَنبوا الخيل[7] وامتطوا الإبل فإنّهم يريدون مكّة ؛ وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة . والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ثم لأناجِزنّهم . قال علي : فخرجتُ في آثارهم انظر ماذا يصنعون . فجنَبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ووجَّهوا إلى مكَّة .

وفرغ الناس لقتلاهم ، فقال رسول الله ﷺ : مَن رجلٌ ينظُر لي ما فعلَ سَعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار[8] : أنا أنظر لك يا

---

(١) أنعمت : بالغت ، بفتح التاء خطاب لنفسه ، وبكسرها خطاب للحرب أو الوقيعة ، عال ، ثم ارتفع وعالى : ارتفع . أو فعال : اسم الفعلة ، كما قالوا فجار للفجرة .

(٢) أي مداولة ، مرة لهذا الفريق ومرة لذاك .

(٣) هبل : اسم صنم .

(٤) أي لا نحن سواء ، لسنا مستويين .

(٥) أنظر ما سبق في ص ١٥١ .

(٦) المثل : التمثيل بالقتيل .

(٧) جنبوا الخيل : قادوها إلى جنوبهم .

(٨) هو محمد بن مسلمة الأنصاري .

رسول الله ما فعل سعد . فنظر فوجدَه جريحاً في القتلى وبه رَمق . فقلت له : إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظرِ ، أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : أنا في الأموات ، فأبلغْ رسول الله ﷺ عني السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنّا خير ما جزَى نبيًّا عن أمّته ، وأبلغْ قومَك عني السلام وقل لهم : إن سعدَ بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذرَ لكم عند الله إن خُلص إلى نبيّكم ﷺ ومنكم عينٌ تَطرِف[1] . قال : ثم لم أبرحْ حتَّى مات ، فجئت رسول الله ﷺ فأخبرتُه خبرَه .

وخرج رسول الله ﷺ ، فيما بلغني ، يلتمس حمزة بن عبد المطلب فوجده ببطن الوادي قد بُقِر بطنُه عن كبده ، ومُثِّل به فجُدِع أنفه وأذناه ، فقال رسول الله ﷺ حين رأى : « لولا أن تحزنَ صفية ويكونَ سنّةً من بعدي لتركتُه حتى يكون في بطون السِّباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرَني الله على قريشٍ في موطنٍ من المواطن لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم ! » . فلما رأى المسلمون حُزن رسول الله ﷺ وغيظَه على من فعلَ بعمِّه ما فعلَ قالوا : والله لئن أظفرَنا الله بهِم يوماً من الدَّهر لنمثِّلنَّ بهم مُثلةً لم يمثّلها أحد من العرب .

عن ابن عباس أن الله عزّ وجلّ أنزل في ذلك من قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه : ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عُوقبتم به ، ولئن صَبرتُم لهو خيرٌ للصابرين * واصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلا بالله ، ولا تَحزَنْ عَلَيْهِم ولا تكُ في ضَيْقٍ مما يَمكرونَ﴾ . فعفا رسولُ الله ﷺ ، ونهى عن المُثْلة .

وأمر رسول الله بحمزة فسجِّي[2] ببردةٍ ، ثم صلَّى عليه فكبَّر سبع تكبيرات ، ثم أمَر بالقتلى يُوضعون إلى حمزة ، فصلى عليهم وعليه معهم ، حتى صلَّى عليه ثنتين وسبعين صلاة .

قال ابن اسحاق : وقد أقبلَتْ ـ فيما بلغني ـ صفية بنت عبد المطَّلب لتنظر إليه ، وكان أخاها لأبيها وأمها ، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزُّبير بن العوام : القَها فأرجعْها لا ترى ما بأخيها . فقال لها : يا أُمَّه ، إنَّ رسول الله ﷺ يأمُرك أن ترجعي . قالت : ولم ؟ وقد بلغني أن مُثِّل بأخي ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتبسنّ ولأصبرنّ إن شاء الله ! فلمّا جاء الزُّبير إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره بذلك قال : خلِ

---

(١) تطرف : تضرب بجفنها الأعلى على الأسفل .

(٢) سجي : غطي .

سبيلَها . فأتته فنظرت إليك واسترجعت[1] واستغفرت له . ثم أمر به رسولُ الله ﷺ فدُفن .

وكان قد احتمل ناسٌ من المسلمين قتلاهم إلى المدينة ، فدفنوهم بها ، ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك وقال : ادفنوهم حيث صُرعوا .

عن عبد الله بن ثعلبة أن رسول الله ﷺ لما أشرفَ على القتلَى يومَ أحد قال : أنا شهيدٌ على هؤلاء ، إنَّه ما مِن جريح يُجرَح في الله إلَّا ويبعثه الله يومَ القيامة يَدْمَى جُرحه ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك ! انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر .

وكانوا يدفعون الاثنين والثلاثة في القبر الواحد .

ثم انصرفَ رسولُ الله ﷺ راجعاً إلى المدينة ، فلقيتْه حَمْنَة بنت جحش ، فلمَّا لقيت الناسَ نُعيَ إليها أخوها عبد الله بن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له . ثم نُعيَ لها خالها حمزة بن عبد المطَّلب ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نُعي لها زوجُها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت ! فقال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ زوج المرأة منها لبِمكان ! » لمَا رأى من تثبُّتها عند أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها .

ومرّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظَفَر ، فسمع البكاءَ والنوائح على قتلاهم ، فذرفت عينا رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قال : « لكنّ حمزةَ لا بَواكيَ له » . فلما رجع سعد بن معاذ ، وأُسيد بن حُضَير ، إلى دار بني عبد الأشهل ، أمرَا نساءهم أن يتحزَّمن ثم يذهبن فيبكين على عمّ رسول الله ﷺ . ولمَّا سمع رسول الله ﷺ بكاءَهن على حمزة خرج عليهنَ وهنّ على باب مسجده يبكين عليه ، فقال : ارجعن يرحمكن الله ، فقد آسيتن[2] بأنفسكنَّ .

ومرَّ رسول الله ﷺ بامرأةٍ من بني دينارٍ وقد أُصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحد ، فلما نُعُوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً يا أُمّ فلان ، هو بحمد الله كما تحبِّين . قالت أروني حتى أَنظرَ إليه . فأُشير لها إليه ، حتى إذا رأته قالت كلُّ مصيبة بعدَك جَلَل . تريد : صغيرة .

(١) استرجعت : قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) المؤاساة : التعزية والمعاونة .

فلمّا انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ناولَ سيفَه ابنته فاطمة فقال : اغسلي عن هذا دمه يا بنيّة ، فوالله لقد صدقني اليوم . وناولَها عليٌّ بن أبي طالب سيفَه فقال : وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمَه ، فوالله لقد صدقَني اليوم . فقال رسول الله ﷺ : لئن كنتَ صدقتَ القتالَ لقد صدق معك سهلُ بن حُنيف ، وأبو دُجانة .

وكان يوم أُحدٍ يومَ السبت ، للنصف من شوّال .

فلمّا كان الغد من يوم الأحد لستٍّ عشرة ليلةً مضت من شوّال ، أذَّن مؤذِّن رسول الله ﷺ في الناس بطلَب العدوّ ، فأذَّن مؤذِّنه أن لا يخرجنَّ معنا أحدٌ إلّا أحدٌ حضر يومَنا بالأمس . فكلّمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال : يا رسول الله ، إنَّ أبي كان خلَّفَني على أخَواتٍ لي سبع ، وقال : يا بُنيَّ ، إنّه لا ينبغي لي ولا لك أن نتركَ هؤلاء النسوة لا رجلَ فيهنّ ، ولستُ بالذي أوثِرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي ، فتخلَّف على أخَواتك . فتخلَّفتُ عليهنَّ . فأذِن له رسولِ الله ﷺ فخرجَ معه . وإنّما خرجَ رسول الله ﷺ مُرهباً للعدوّ ، ولَيبلُغَهم أنه خرجَ في طلبهم ليظُنّوا به قوة ، وأنّ الذي أصابهم لم يُوهنهم عن عدوّهم .

فخرج رسول الله ﷺ حتّى انتهى إلى حمراء الأسد ـ وهي من المدينة على ثمانية أميال ـ واستعمل على المدينة ابن أمّ مكتوم ، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجَع إلى المدينة .

وقد مرّ به معبد بن أبي معبد الخُزاعي ، وكانت خزاعة مُسلمهم ومشركهم عَيبةَ نُصحٍ(١) لرسول الله ﷺ بتهامة ، صَفْقتُهم معه(٢) ، لا يُخفون عنه شيئاً كان بها ، ومعبدٌ يومئذ مشرك ، فقال يا محمد ، أمَا والله لقد عزَّ علينا ما أصابك ، ولوددنا أنَّ الله عافاك فيهم . ثم خرج رسولُ الله ﷺ بحمراء الأسد ، حتّى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالرَّوحاء(٣) ، وقد أجمعوا الرَّجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، وقالوا : أصبنا حدَّ أصحابه . وأشرافهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ! لنكُرَّنَّ على بقيتهم فلنفرغنَّ منهم . فلما رأى أبو سفيان مَعبداً قال : ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أرَ مثلَه قطُّ ، يتحرَّقون عليكم تحرُّقاً(٤) ، قد اجتمع معه من كانَ تخلَّفَ عنه في يومكم ، وندِموا على ما صنعوا ، فيهم من

---

(١) عيبة نصحه : موضع سره .
(٢) الصفقة : الاجتماع .
(٣) الروحاء : قرية لمزينة على ليلتين من المدينة .
(٤) التحرق : الغيظ .

الحَنَق[1] ، عليكم شيءٌ لم أرَ مثلَه قطّ ! قال : ويحك ، ما تقول ؟ قال : والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصيَ الخيل . قال : فوالله لقد أجمعْنا الكرَّة عليهم لنستأصلَ بقيَّتهم . قال : فإني أنهاك عن ذلك ، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلتُ فيهم أبياتاً من شعر ، قال : وما قلتَ ؟ قال : قلت :

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي ... إذْ سالت الأرض بالجُرد الأبابيل[2]
تَردِي بأسدٍ كرامٍ لا تَنابلةٍ ... عند اللقاء ولا مِيلٍ مَعازيلِ[3]
فظَلْتُ عَدْواً أظنُّ الأرض مائلةً ... لمَّا سَمَوا برئيس غير مخذولِ[4]
فقُلت : ويلَ ابنِ حربٍ من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالجيل[5]
إني نذيرٌ لأهل البَسْل ضاحيةً ... لكلِّ ذي إربةٍ منهم ومعقولِ[6]
مِن جَيش أحمد لا وَخْشٍ قنابلُه ... وليس يُوصَف ما أنذرتُ بالقيلِ[7]

فَثَنَى ذلك أبا سفيان ومن معه .

ومرَّ به ركبٌ من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة . قال : ولم ؟ قالوا : نريد المِيرة[8] . قال : فهل أنتم مُبْلغون عنِّي محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمِّل لكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنّا قد أجمعنا السَّيرَ إليه وإلى أصحابه ، لنستأصل بقيّتهم . فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان ، فقال : حسبُنا الله ونعم الوكيل .

وأخذ رسول الله ﷺ في جهة ذلك ، قبل رجوعه إلى المدينة ، معاويةَ بن

---

(١) الحنق : شدة الغيظ .
(٢) تهد : تسقط لهول ما رأت . والجرد : جمع أجرد ، وهو الفرس القصير الشعر . الأبابيل : الجماعات .
(٣) تردى : تسرع . التنابلة : القصار . الأميل : الذي لا يثبت على السرج . المعزال : الذي لا سلاح معه .
(٤) العدو : مشي سريع . سموا : ارتفعوا إلينا .
(٥) تغطمطت : اهتزت . الجيل : الصنف من الناس .
(٦) البسل : الحرام . والمراد قريش لأنهم أهل مكة ، ومكة حرام . ضاحية ، أي علانية . الإربة : العقل ، وكذلك المعقول .
(٧) الوخش : رذالة الناس والأخساء منهم . والقنابل : جمع قنبلة وقنبل ، وهم الطائفة من الناس ومن الخيل
(٨) الميرة : الطعام يجلب من بلد إلى آخر .

المغيرة بن أبي العاص ، وأبا عَزَّة الجُمَحيّ ، وكان رسول الله ﷺ أسَره ببدر ثم منَّ عليه ، فقال : يا رسول الله ، أقِلني . فقال رسول الله ﷺ : والله لا تمسح عارضيك بمكة بَعدها وتقول : خدعتُ محمداً مرتين[1] ، اضرب عنقَه يا زبير ! فضرب عنقه .

فلما قدِم رسول الله ﷺ المدينة ، وكان عبد الله بن أُبيٍّ بن سَلول له مَقامٌ يقومه كلَّ جمعة لا يُنكَر ، شرفاً له في نفسه وفي قومه ، وكان فيهم شريفاً ، إذا جلسَ رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس ، قام فقال : « أيها الناس ، هذا رسولُ الله ﷺ بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزَّكم به ، فانصروه وعزِّرُوه[2] ، واسمعوا له وأطيعوا » ، ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أُحدٍ ما صنَع ورجع بالناس ، قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس أيْ عدوَّ الله ، لست لذلك بأهلٍ وقد صنعتَ ما صنعتَ ! فخرج يتخطَّى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلتُ بُجْراً[3] أنْ قمتُ أُشدِّد أمرَه ! فلقيَه رجلٌ من الأنصار بباب المسجد فقال : ما لك ويلك ! قال : قمت أُشدِّد أمرَه فوثبَ عليَّ رجالٌ من أصحابه يجذبونني ويعنِّفونني ، لكأنما قلتُ بُجْراً أن قمتُ أُشدِّد أمره . قال : ويلَك ، ارجعْ يستغفر لك رسول الله ﷺ . قال : والله ما أبتغي أن يَستغفر لي .

قال ابن إسحاق :

وكان يوم أُحد يومَ بلاء ومصيبة وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ومَحَن به المنافقين ، ممَّن كان يُظهر الإيمان بلسانه ، وهو مستخفٍ بالكفر في قلبه . ويوماً أكرمَ الله فيه من أراد كرامَته بالشهادة من أهل ولايته .

* يَوْمُ الرَّجيعِ في سَنَةِ ثَلاثٍ *

قدِم على رسول الله ﷺ بعد أُحدٍ رهطٌ من عَضَل والقارَة[4] فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلاماً ، فابعثْ معنا نفراً من أصحابك يفقِّهوننا في الدين ، ويقْرِئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام . فبعث رسول الله ﷺ معهم نفراً من أصحابه ، وهم

---

(١) وقيل : قال له : إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ! أضرب عنقه يا عاصم بن ثابت . فضرب عنقه .

(٢) التعزير : النصر .

(٣) البجر : الشر والأمر العظيم .

(٤) قبيلتان من الهون بن خزيمة بن مدركة .

مرثد بن أبي مرثد ، وخالد بن البُكير ، وعاصم بن ثابت ، وخُبيب بن عديّ ، وزيد بن الدَّثِنة ، وعبد الله بن طارق . وأمَّرَ رسول الله ﷺ على القوم مرثد بن أبي مرثد ، فخرج مع القوم حتى إذا كانوا على الرَّجيع : ماءٌ لهذيل بناحية الحجاز على صدور الهدْأة[1] ، غدروا بهم ، فاستصرخوا[2] عليهم هُذَيلاً ، فلم يَرُع القومَ وهم في رِحالهم إلَّا الرجالُ بأيديهم السيوف ، قد غَشُوهم ، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم ، فقالوا لهم : إنَّا والله ما نريد قتلكم ، ولكنَّا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكَّة ، ولكم عهدُ الله وميثاقُه ألَّا نقتلكم .

فأما مرثد بن أبي مرثد ، وخالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت ، فقالوا : والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبدا . فقال عاصم بن ثابت :

ما عِلَّتي وأنا جَلْدٌ نابلٌ[3] والقَوسُ فيها وترٌ عُنابلُ[4]
تزلُّ عن صفحتها المعَابلُ[5] الموت حقٌّ والحياة باطلُ
وكلُّ ما حَمَّ الإلَهُ نازل[6] بالمرءِ والمرءُ إليه آئل[7]

ثم قاتل القومَ حتَّى قُتِل وقتل صاحباه .

فلما قُتل عاصم أرادت هذيلٌ أخذَ رأسه ليبيعوه من سُلافة بنت سعد بن شُهيد ، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أُحد : لئن قدَرْت على رأس عاصم لتشربنَّ في قِحفِه الخمر ، فمنعته الدَّبْر[8] فلمَّا حالت بينه وبينهم الدَّبر قالوا : دَعوه حتَّى يُمسيَ فتذهبَ عنه فنأخذه . فبعث الله الواديَ فاحتملَ عاصماً فذهبَ به .

وقد كان عاصمٌ قد أعطى الله عهداً ألَّا يمسَّه مشرك ولا يمسَّ مشركاً أبداً ، تنجُّساً . فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أنَّ الدَّبْر منعته : يحفظ الله العبدَ المؤمن ، كان عاصم نذر ألَّا يمسَّه مشرك ولا يمسَّ مشركاً أبداً في حياته ، فمنعه الله بعد وفاته ، كما امتنع منه في حياته .

وأما زيد بن الدَّثِنة ، وخُبيب بن عديّ ، وعبد الله بن طارق ، فلانُوا ورقُّوا ورغبوا

---

(١) الهدأة : موضع بين عسفان ومكة .
(٢) استصرخوا : استنصروا .
(٣) الجلد : الشديد . النابل : صاحب النبل .
(٤) العنابل : الغليظ الشديد .
(٥) المعابل : جمع معبلة ، وهو نصل عريض طويل .
(٦) حمه الإلَه : قدره .
(٧) آئل : صائر .
(٨) الدبر : الزنابير والنحل .

في الحياة ، فأعطَوْا بأيديهم فأسروهم ، ثم خرجوا بهم إلى مكّة ، ليبيعوهم بها ، حتّى إذا كانوا بالظَّهرانِ انتزع عبد الله بن طارق يدَه من القِران[1] ، ثم أخذ سيفه ، واستأخر عنه القومُ فَرمَوه بالحجارة ، فقبرُه رحمه الله بالظَّهران .

وأمّا خُبيب بن عدي ، وزيد بن الدّثنة ، فقدموا بهما مكّة ، فباعوهما من قُريشٍ بأسيرين من هذيل كانا بمكّة ، فابتاعَ خبيباً حُجير بن أبي إهاب لعُقبة بن الحارث بن عامر ، ليقتله بأبيه .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف . وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له ، يقال نِسطاس ، إلى التنعيم[2] ، وأخرجوه من الحرَم ليقتلوه . واجتمع رهطٌ من قريش ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قُدّم ليقتل : أنشُدك الله يا زيد ، أتحبُّ أنَّ محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقَه وأنَّك في أهلك ؟ قال : والله ما أُحبُّ أنَّ محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبُه شوكةٌ تؤذيه وأنّي جالس في أهلي !

يقول أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمد محمداً !

ثم قتله نسطاس ، يرحمه الله .

عن ماويَّة مولاة حُجَير بن أبي إهابٍ ـ وكانت قد أسلمت ـ قالت : كان خُبيب عندي ، حُبِس في بيتي ، فلقد اطّلعت عليه يوماً وإن في يده لَقِطفاً من عنب مثل رأس الرجل ، يأكل منه ، وما أعلم في أرض الله عنباً يؤكل ، قال لي حين حضره القتل : ابعثي إليَّ بحديدةٍ أتطهَّر بها للقتل . فأعطيتُ غلاماً من الحيّ المُوسَى فقلت : ادخلْ بها على هذا الرجل البيتَ . قالت : فوالله ما هو إلاّ أن ولّى الغلامُ بها إليه ، فقلتُ : ماذا صنعتُ ! أصاب والله الرجُل ثأرَه بقتل هذا الغلام ، فيكون رجلًا برجل ! فلما ناولَه الحديدة أخذَها من يده ثم قال : لعمرك ما خافت أُمُّك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليّ ؟! ثم خلّى سبيله .

ثم خرجوا بخُبيب حتى إذا جاءُوا به إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم : إن رأيتم أن

---

(١) القران : حبل يربط به الأسير .

(٢) التنعيم : موضع بين مكة وسرف ، على فرسخين من مكة .

تدعوني حتى أركعَ ركعتين فافعلوا . قالوا : دونَك فاركع . فركع ركعتين أتمَّهما وأحسنهما ، ثم أقبلَ على القوم فقال : أما والله لولا أن تظنوا أني إنَّما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة ! فكان خبيب بن عديّ أوّلَ من سنَّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين .

ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه قال : اللهم إنَّا قد بلَّغنا رسالة رسولك فبلِّغْه الغداةَ ما يُصنَع بنا !! ثم قال : اللهم أحصِهم عدداً ، واقتلهم بدَداً[1] ، ولا تغادرْ منهم أحداً !! ثم قتلوه رحمه الله .

فكان معاوية بن أبي سفيانَ يقول : حضرتُه يومئذ فيمن حضَرَه مع أبي سفيان ، فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فَرَقاً[2] من دَعوة خُبيب . وكانوا يقولون : إنَّ الرجل إذا دُعيَ عليه فاضطجَعَ لجنبه زالت عنه .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعملَ سَعيد بن عامر بن حِذْيم الجمحيّ على بعض الشام ، فكانت تصيبُه غَشيةٌ وهو بين ظهرَي القوم ، فذُكر ذلك لعمر بن الخطاب ، وقيل إن الرجل مصاب . فسأله عمر في قَدْمَةٍ قدِمَها عليه فقال : يا سعيد ، ما هذا الذي يصيبك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس ، ولكنّي كنت فيمن حضَر خبيبَ بنَ عديّ حين قُتِل ، وسمعتُ دعوتَه فوالله ما خطرتْ على قلبي وأنا في مجلسٍ قطُّ إلاَّ غُشِي عليّ ! فزادته عند عمر خيراً .

قال ابن عباس : لما أُصيبَت السريَّة التي كان فيها مرثد وعاصمٌ بالرجيع ، قال رجالٌ من المنافقين : يا ويحَ هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا ، لا هم قعدوا في أهلهم ، ولا هم أدَّوا رسالةَ صاحبهم . فأنزل الله تعالى في ذلك من قول المنافقين : ﴿ومِن الناس من يُعجِبُك قَولُه في الحَيَاة الدُّنيا﴾ ، أي يُظهِر من الإسلام بلسانه ﴿ويُشهِد اللَّهَ عَلَى ما في قَلْبِه﴾ وهو مخالفٌ لما يقوله بلسانه ﴿وهو أَلَدُّ الخصامِ﴾ ، أي ذو جدالٍ إذا كلَّمكَ وراجعك . ﴿وإذا تولَّى﴾ أي خرجَ من عندك ﴿سَعَى في الأرضِ ليُفسد فيها ويُهلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ واللَّهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ أي لا يحبّ عملَه ولا يرضاه . ﴿وإذا قِيلَ له اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْه العِزَّةُ بالإثْم فحسبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئسَ المِهَاد ومِنَ النَّاسِ مَنْ يشْرِي نفسَه ابتغاء مَرْضَاةِ اللَّهِ واللَّهُ رَءُوفٌ بالعِبادِ﴾ ، أي قد شَرَوْا أنفسهم من الله بالجهاد في سبيله ، والقيام بحقِّه ، حتى هلكوا على ذلك . يعني تلك السريّة .

---

(١) بدداً : متفرقين .

(٢) الفرق ، بالتحريك : الخوف والفزع .

وكان ممّا قيل في ذلك من الشِّعر قول خُبيب بن عديّ حين بلغه أن القوم قد اجتمعوا لصَلبه :

لقد جمّع الأحزابُ حولي وألّبوا ... قبائلَهم واستجمعوا كلَّ مَجمع[1]
وكلُّهم مُبدِي العداوة جاهدٌ ... عليَّ لأنّي في وَثاقٍ بمَضيَع
وقد جمّعوا أبناءَهم ونساءَهم ... وقُرِّبتُ من جِذعٍ طويلٍ ممنع
إلى الله أشكو غُربتي ثم كُربتي ... وما أرصَدَ الأحزابُ ليَ عند مَصرعي[2]
فذا العرشِ ، صبّرني على ما يراد بي ... فقد بضّعوا لحمي وقد ياسَ مطمعي[3]
وذلك في ذات الإله وإن يَشأ ... يُبارِكْ عَلَى أوْصال شِلْوٍ ممزّع[4]
وقد خيّروني الكُفرَ والموتُ دونَه ... وقد هَمَلت عينايَ من غير مَجزَع
وما بي حِذارُ الموت إنّي لميّتٌ ... ولكن حِذاري جَحْمَ نارٍ ملفّع[5]
فوالله ما أرجو إذا متُّ مسلماً ... على أيِّ جنبٍ كان في الله مصرعي[6]
فلستُ بمبدٍ للعدوِّ تخشُّعا ... ولا جزَعاً إنّي إلى الله مرجعي

وقال حسان بن ثابتٍ يبكي خبيباً :

ما بال عينك لا تَرقا مدامعُها ... سحًّا على الصَّدر مثل اللؤلؤ القَلِق[7]
على خُبيبٍ فتى الفتيان قد علموا ... لا فَشلٍ حين تلقاه ولا نزِقِ[8]
فاذهبْ خُبيبُ جزاك الله طيّبةً ... وجنَّةَ الخلد عند الحُور في الرُّفَق[9]
ماذا تقولون إن قال النبيُّ لكم ... حين الملائكةُ الأبرارُ في الأُفق
فِيمَ قتلتم شهيدَ الله في رجلٍ ... طاغٍ قَدَ أوعَثَ في البلدان والرَّفَقِ[10]

*حَدِيثُ بِئْرِ مَعُونَةَ في صَفَر سَنَةَ أَرْبَع *

فأقام رسول الله ﷺ بقية شوال ، وذا القعدة ، وذا الحِجّة ـ وولِيَ تلك الحَجّة

(١) ألبوا : جمعوا .
(٢) أرصدوا : أعدوا .
(٣) بضعوا : قطعوا . ياس : يئس .
(٤) الشلو : الجسد الممزع : المقطع .
(٥) الجحم : اضطراب النار .
ملفع : يشمله من جميع جوانبه .
(٦) أرجو : أخاف .
(٧) ترقا : تسكن . السح : الصب .
(٨) من النزق ، وهو التسرع والطيش .
(٩) الرفق : جمع رفقة ، وهم الأصحاب .
(١٠) الرفق ، بالتحريك : المرتع السهل المطلب .

المشركون ـ والمحرَّم ، ثم بعث رسولُ الله ﷺ أصحابَ بئر معونة في صفر ، على رأس أربعة أشهر من أحد .

وكان قد قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة ، على رسول الله ﷺ المدينةَ ، فعرضَ عليه رسولُ الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه ، فلم يُسلم ولم يَبعُد من الإسلام وقال : يا محمد ، لو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل نجدٍ فدعَوهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك . فقال رسول الله ﷺ : إنِّي أخشَى عليهم أهل نجد . قال أبو بَراء : أنا لهم جارٌ ، فابعثْهم فليدْعُوا الناسَ إلى أمرك .

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة ، « المعْنِقَ ليموت[١] » ، في أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين ، منهم الحارث بن الصِّمّة ، وحَرام بن مِلحان ، وعروة بن أسماء ، ونافع بن بديل بن ورقاء ، وعامر بن فُهَيرة مولى أبي بكر الصديق ، في رجالٍ مسَمَّين من خِيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة ، وهي بين أرض بني عامر وحَرَّة بني سُلَيم ، كِلا البلدين منها قريب ، وهي إلى حَرَّة بني سليم أقرب .

فلما نزلوها بعثوا حَرام بنَ مِلحان بكتاب رسُول الله ﷺ إلى عدوّ الله عامر بن الطُّفَيل . فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرَّجُلِ فقتله ثم استصرخَ[٢] عليهم بني عامرٍ فأبَوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، وقالوا : لن نُخفِر أبا براء[٣] وقد عقَد لهم عَقداً وجواراً . فاستصرخ عليهم قبائل من سُليم فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غَشُوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قُتِلوا من عند آخرهم ، يرحمهم الله ؛ إلاّ كعبَ بن زيد فإنَّهم تركوه وبه رمق ، فارتُثَّ[٤] من بين القتلى ، فعاش حتَّى قُتل يوم الخندق شهيداً ، يرحمه الله .

وكان في سَرح القوم عمرو بن أمية الضَّمْريّ ، ورجلٌ من الأنصار أحدُ بني عمرو بن عوف[٥] ، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطَّيرُ تحومُ حول العسكر ،

---

(١) أعنق : أسرع . وإنما سمي بذلك لأنه أسرع إلى الشهادة .

(٢) استصرخهم : استعان بهم .

(٣) نخفره : ننقض عهده .

(٤) الارتثاث : أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنته الجراح .

(٥) هو المنذر بن محمد بن عقبة .

فقالا : واللَّهِ إنّ لهذه الطَّير لشأناً . فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دِمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة ، فقال الأنصاريّ لعمرو بن أمية : ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ ، فنخبِره الخبر . فقال الأنصاريّ : ما كنتُ لأرغب بنفسي عن موطنٍ قُتِل فيه المنذر بن عمرو ، وما كنتُ لتخبرني عنه الرجال ! ثُمَّ قاتل القَومَ حتى قُتل .

وأخذوا عمرو بن أميّةَ أسيراً ، فلمَّا أخبرهم أنهُ من مُضَر أطلقه عامر بن الطفيل ، وجزَّ ناصيته ، وأعتقه عن رقبة زعمَ أنها كانت على أمّه ، فخرج عمرو بن أمية حتَّى إذا كان بالقَرقَرة[١] من صدر قناةَ[٢] أقبَل رجلانِ من بني عامرٍ حتى نزلا معه في ظلّ هو فيه . وكان معَ العامريَّين عَقدٌ من رسول الله ﷺ وجوارٌ لم يعلم به عمرو بن أمية ، وقد سألهما حين نزلا : ممّن أنتما ؟ فقالا : من بني عامر . فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما ، وهو يرى أنَّه قد أصابَ بهما ثُؤرةً[٣] من بني عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ .

فلمَّا قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ فأخبرهُ الخبر ، قال الرسول ﷺ : لقد قتلتَ قتيلين لأدِينَّهما ! ثم قال رسول الله ﷺ : هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارهاً متخوِّفاً !

فبلغ أبا براء فشقَّ عليه إخفارُ عامرٍ إياه ، وما أصاب أصحابَ رسول الله ﷺ بسببه وجواره .

وكان فيمن أصيب عامر بن فُهيرة .

عن هشام بن عروة عن أبيه ، أنّ عامر بن الطفيل كان يقول : مَن رجلٌ منهم لمّا قُتِل رأيته بين السماء والأرض حتى رأيتُ السَّماء مِن دُونه ؟ قالوا : هو عامر بن فهيرة .

* إجْلاءُ بَنِي النَّضِيرِ في سَنَةِ أَرْبَع *

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النَضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر[٤] ، اللذين قَتل عمرو بن أمية الضَّمري ؛ للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عَقَد لهما ، وكان بين بني النَّضير وبين بني عامر عَقد وحِلف ، فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببتَ ممّا استعنتَ بنا عليه .

---

(١) قرقرة الكدر ، بينها وبين المدينة ثمانية برد .

(٢) واد يصب في قرقرة الكدر .

(٣) الثؤرة ، بالضم : الثأر .

(٤) أنظر ما سبق في ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

ثم خلا بعضُهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجلَ على مثل حاله هذه ـ ورسولُ الله ﷺ إلى جنْب جدارٍ من بيوتهم قاعد ـ فمَن رجلٌ يعلو على هذا البيت فيُلقي عليه صخرةً فيريحُنا منه ! فانتدَبَ لذلك عمرو بن جِحاش بن كعب ، أحدهم ، فقال : أنا لذلك . فصعِد ليُلقِي عليه صخرةً كما قال ، ورسولُ الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعليّ ، رضوان الله عليهم .

فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السَّماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . فلمَّا استلبث[1] النبيَّ ﷺ أصحابُه قاموا في طلبه ، فلقُوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه . فقال : رأيته داخلاً المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر ، بما كانت اليهود أرادت من الغدر به . وأمَرَ رسول الله ﷺ بالتَّهيّؤ لحربهم والسَّير إليهم ، ثم سار بالناس حتى نزل بهم ، فتحصَّنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها ، فنادوه : أن يا محمد ، قد كنتَ تنهى عن الفساد وتعيبُه على من صنَعه ، فما بالُ قطعِ النخيل وتحريقها !

وقد كان رهْطٌ من بني عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبيّ بن سلول ، ووديعة ، ومالك بن أبي قَوقل ، وسُويد ، وداعس ، قد بعثوا إلى بني النَّضير ، أن اثبتوا وتمنَّعوا ، فإنا لن نُسْلمكم ؛ إن قوتلتم قاتلنا معكم ؛ وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرُّعب ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يُجليَهم ويكفَّ عن دمائهم ، على أنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلاَّ الحَلْقة[2] . ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلَّت به الإبل ، فكان الرجلُ منهم يهدم بيتَه عن نِجاف بابه[3] فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم مَن سار إلى الشام . فكان أشرافهم مَن سار منهم إلى خيبر : سلاَّم بن أبي الحُقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وحُيَيّ بن أخطب . فلمَّا نزلوها دانَ لهم أهلها .

حدّث عبد الله بن أبي بكر أنه حُدِّث أنَّهم استقلُّوا بالنساء والأبناء والأموال ، معهم الدُّفوف والمزامير ، والقيان يعزِفن خلفهم ، وإنَّ فيهم لأمَّ عمرو صاحبةَ عُروة بن

(١) استلبثه : استبطأه .
(٢) الحلقة : السلاح كله .
(٣) النجاف : العتبة التي بأعلى الباب .

الورد العَبْسي التي ابتاعوا منه[1] : بزهاء وفخر ما رُئِيَ مثلُه من حيّ من النَّاس في زمانهم .

وخلَّوا الأموال لرسول الله ﷺ ، فكانت له خِاصَّةً يضعها حيث يشاءُ ، فقسَّمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأوَّلين دون الأنصار ، إلا أنَّ سهل بن حُنيف وأبا دُجانة سِماك بن خَرَشة ذكَرا فقراً ، فأعطاهما رسول الله ﷺ .

ونزل في بني النَّضير سورةُ الحشر بأسرها ، يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته ، وما سلَّط عليهم به رسولَ الله ﷺ وما عمل به فيهم ، فقال تعالى : ﴿هو الذي أخرَجَ الذين كفروا من أهل الكتاب مِن دِيارهم لأوَّل الحَشْر ما ظَننتُم أن يَخْرجوا وظنُّوا أنهم مانِعَتُهم حُصونُهم من الله فأتاهم اللَّهُ من حَيْثُ لم يَحتسبُوا وقَذَفَ في قلوبهم الرُّعْبَ يُخرِبونَ بيوتَهم بأيديهِم وأيدي المؤمنينَ﴾ وذلك لهدمهم بيوتَهم عن نُجُف أبوابهم إذ احتملوها . ﴿فاعتبرُوا يا أُولي الأبصار * ولوْلا أنْ كتَبَ اللَّهُ عليهم الجَلاَء﴾ وكان لهم من الله نقمةً ﴿لعذَّبهم في الدُّنيا﴾ ، أي بالسَّيف . ﴿ولهم في الآخرةِ عذابُ النَّار﴾ مع ذلك . ﴿ما قَطعتُم من لِينةٍ أو تركتُموها قائمةً عَلَى أُصولها﴾ واللِّينة : ما خالف العجوةَ من النخل ﴿فبإذن الله﴾ أي فبأمر الله قُطعت ، لم يكن فَساداً ، ولكن كان نقمةً من الله ﴿وليُخْزِيَ الفاسقين * وما أفاء الله على رَسُوله مِنْهم﴾ يعني من بني النَّضير ﴿فما أوْجَفْتُم عَلَيه من خَيل ولا رِكابٍ ، ولكنَّ اللَّهَ يُسَلِّط رسله على مَن يشاءُ والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ * ما أفاءَ الله على رَسُولِه من أهْلِ القُرى فلِلَّه وللرّسول﴾ : ما يُوجِفُ عليه المسلمون بالخيل والرِّكاب ، وفُتح بالحرب عَنوةً ، فللَّه وللرسول ﴿ولذي القُربَى واليتامى والمساكينِ وابن السَّبيل كَي لا يكُونَ دُولةً بَيْنَ الأغنياء منْكم وما آتاكُم الرسولُ فخذُوه وما نَهاكُم عَنْه فانتهوا﴾ .

يقول : هذا قَسْمٌ آخر فيما أصيب بالحرب بين المسلمين على ما وضعه الله عليه .

---

(١) اسمها سلمى ، وكانت ناكحاً في مزينة ، فأغار عليهم عروة بن الورد فسباها . وكان عروة يتردد على بني النضير فيستقرضهم إذا احتاج ويبيع منهم إذا غنم . فرأوا عنده سلمى فأعجبتهم ، فسألوه أن يبيعها منهم فأبى ، فسقوه الخمر واحتالوا عليه حتى ابتاعوها منه وأشهدوا عليه . وفي ذلك يقول :

سقوني الخمر ثم تكنفوني ... عداة الله من كذب وزور
فيا للناس كيف غلبت نفسي ... على شيء ويكرهه ضميري

ثم قال تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذِين نَافَقُوا﴾ يعني عبد الله بنَ أُبيّ وأصحابه ومَن كان على مثل أمرهم ﴿يقولون لإخوانهم الذين كَفَروا من أهل الكِتاب﴾ يعني بني النَّضير ، إلى قوله ﴿كمثل الذين مِنْ قَبْلهم ذاقُوا وَبَالَ أمرِهم ولهم عذابٌ أليم﴾ يعني بني قَينُقاع ، ثم القصّة إلى قوله : ﴿كَمثل الشَّيطان إذ قال للإنسان اكفرْ فلما كفرَ قال إني بريءٌ مِنْك إنّي أخافُ الله ربَّ العالمين * فكانَ عاقبَتهما أنَّهما في النَّارِ خالدَينِ فيها وذلك جَزَاءُ الظَّالمين﴾ .

* غَزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاعِ في سَنَةِ أَرْبَع *

ثم أقام رسولُ الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة بني النَّضير شهرَ ربيع الآخِرِ وبعضَ جُمادى . ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان واستعمل على المدينة أبا ذَرٍّ الغِفاريّ حتى نزل نخلا[١] ، وهي غزوة ذات الرقاع[٢] فلقي بها جمعاً عظيماً من غَطفان ، فتقارب الناسُ ولم يكن بينهم حَرب ، وقد خاف الناسُ بعضهم بعضاً حتّى صلّى رسول الله ﷺ بالنَّاسِ صلاة الخوف ، ثم انصرف بالناس .

عن جابر بن عبد الله قال :

خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نَخْل ، على جمل لي ضعيف ، فلمَّا قفل رسولُ الله ﷺ جَعَلتِ الرِّفاقُ تمضي ، وجعلتُ أتخلَّف حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال : ما لك يا جابر ؟ قلتُ : يا رسول الله ، أبطأ بي جملي هذا . قال : أنِخه . فأنخْتُه وأناخ رسولُ الله ﷺ ثم قال : أعطني هذه العصا من يدك ، أو اقطعْ لي عصاً من شجرة . ففعلتُ ، فأخذها رسول الله ﷺ فَنخَسَه بها نَخَسات ثم قال : اركبْ : فركبتُ فخرجَ ، والذي بعثَه بالحقِّ ، يواهقُ ناقته مُواهقة[٣] .

وتحدَّثت مع رسول الله ﷺ فقال لي : أتبيعني جملَك هذا يا جابر ؟ قلت : يا

---

(١) نخل : موضع بنجد من أرض غطفان .

(٢) إنما قيل لها ذات الرقاع لأنهم رقعوا فيها راياتهم . وقيل : ذات الرقاع شجرة بذلك الموضع يقال لها ذات الرقاع . وقيل : لأن الحجارة أوهنت أقدامهم فشدوا رقاعاً . فقيل لها : ذات الرقاع .

(٣) يواهقها : يعارضها في المشي لسرعته .

رسول الله ، بل أهبُه لك . قال : لا ، ولكن بِعْنِيه . قلت : فسُمْنيه يا رسول الله . قال : قد أخذته بدرهم ! قلت : لا ، إذن تغبِنني يا رسول الله . قال : فبدرهمين ؟ قلت : لا . فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ في ثمنه حتى بلغ الأوقيَّة. فقلت : أفقد رضيتَ يا رسول الله ؟ قال : نعم . قلت : فهو لك . قال : قد أخذته . ثم قال : يا جابر ، هل تزوَّجتَ بعد ؟ قلت : نعم يا رسول الله . قال : أثيِّباً أم بكراً ؟ قلت : لا ، بل ثيِّباً . قال : أفلا جاريةً تلاعبها وتلاعبك ؟ قلت : يا رسول الله إنَّ أبي أُصيبَ يومَ أُحد وترك بناتٍ له سَبعاً ، فنكحتُ امرأةً جامعةً ، تجمع رؤوسهنَّ وتقوم عليهنَّ . قال : أصَبت إن شاء الله ، أمَا إنَّا لو قد جئنا صِراراً[1] أمرنا بِجَزورٍ فنُحِرت ، وأقمْنا عليها يومنا ذاك ، وسمِعَتْ بنا فنفضَتْ نمارقها[2]. فقلت : والله يا رسولَ الله ما لنا مِن نمارق ! قال : إنها ستكون ، فإذا أنت قدِمت فاعملْ عمَلاً كيِّسا .

فلما جئنا صراراً أمَر رسولُ الله ﷺ بجزورٍ فنُحرت ، وأقمْنا عليها ذلك اليوم ، فلما أمسى رسولُ الله ﷺ دخلَ ودخلْنا ، فحدَّثتُ المرأةَ الحديثَ وما قال لي رسول الله ﷺ . قالت : فدونَك ، فسمْعٌ وطاعة .

فلما أصبحتُ أخذتُ برأس الجمل ، فأقبلتُ به حتَّى أنختُه على باب رسول الله ﷺ ، ثم جلستُ في المسجد قريباً منه ، وخرج رسولُ الله ﷺ فرأى الجملَ فقال : ما هذا ؟ قالوا : يا رسول الله ، هذا جملٌ جاء به جابر . قال : فأين جابر ؟ فدُعيتُ له فقال : يا ابن أخي ، خذْ برأس جملك فهو لك . ودعا بلالاً فقال له : اذهبْ بِجابرٍ فأعطِه أوقية . فذهبت معه فأعطاني أُوقيةً وزادني شيئاً يسيراً ، فوالله ما زال يَنمى عندي ، ويُرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمس فيما أُصيب لنا ـ يعني يومَ الحرَّة .

وعنه أيضاً قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل ، فأصاب رجلٌ امرأةَ رجلٍ من المشركين ، فلما انصرفَ رسولُ الله ﷺ قافلاً أتى زوجُها وكان غائباً ، فلما أخبر الخبرَ حلف لا ينتهي حتى يُهرِيق في أصحاب محمد ﷺ دماً ! فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ، فنزل رسول الله ﷺ منزلاً فقال : مَن رجلٌ يكلؤنا ليلتنا هذه ؟ فانتدَب

---

(١) صرار ، بالكسر : موضع على ثلاثة أميال من المدينة .

(٢) النمارق : جمع نمرقة ، وهي الوسادة الصغيرة .

رجلٌ من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار فقالا : نحن يا رسول الله . قال : فكونا بفم الشِّعب . فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاريُّ للمهاجري : أيَّ اللَّيل تحبُّ أن أكفِيَكه . أوّلَه أم آخره ؟ قال : بل اكفني أوّلَه . فاضطجع المهاجريُّ فنام وقام الأنصاريّ يصلِّي .

وأتى الرجل ، فلما رأى شخصَ الرجل عرف أنَّه ربيئة القوم ، فرمى بسهمٍ فوضعه فيه ، فنزعه فوضعه فثبت قائماً . ثم رماه بسهم آخر فوضعَه فيه ، فنزعه ووضعه وثبت قائماً ، ثم عاد له بالثالث فوضَعه فيه ، فنزعه فوضعَه ثم ركع وسجد ، ثم أهَبَّ صاحبه[1] فقال : اجلس فقد أُثبتُّ[2] . فوثَبَ ، فلما رآهما الرجل عَرَف أن قد نَذِرا به[3] فهرب .

ولما رأى المهاجريّ ما بالأنصاري من الدماء قال : سبحان الله ، أفلا أهْبَبْتَني أوّلَ ما رماك ؟ قال : كنتُ في سورةٍ أقرؤها فلم أُحبَّ أن أقطعَها حتَّى أُنفدَها فلما تابع عليَّ الرَّميَ ركعتُ فآذنتك . وايمُ الله لولا أن أُضيِّع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطَعَ نفسي قبل أن أقطعها أو أُنفدها .

قال ابن إسحاق : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة الرِّقاع أقام بها بقية جمادى الأولى ، وجمادَى الآخرَة ، ورجباً .

* غَزْوَةُ بَدْرٍ الآخِرَةِ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ أَرْبَع *

ثم خرج في شعبان إلى بدر ، لميعاد أبي سفيان ، حتى نزله .

فأقام عليه ثمانيَ ليال ينتظر أبا سفيان . وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مَجَنّة[4] ، من ناحية الظَّهران ، ثم بدا له في الرُّجوع فقال : يا معشرَ قريش إنه لا يُصلحكم إلا عامٌ خصيب ترَعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللَّبن ؛ وإنَّ عامكم هذا عامُ جدْب ، وإني راجعٌ فارجعوا .

---

(١) أهبه إهبابا : أيقظه .

(٢) أثبته : جرحه جرحاً لا يمكنه التحرك معه .

(٣) نذرا به : علما به فتحرزا .

(٤) واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الأنصاري .

فرجَع الناس ، فسمَّاهم أهل مكة « جيشَ السَّويق » . يقولون : إنَّما خرجتم تشربون السويق .

وأقام رسول الله ﷺ على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده . فأتاه مَخْشِيُّ بن عمرو الضَّمْريّ ، وهو الذي كان وادَعه على بني ضمرة في غزوة وَدّان ، فقال : يا محمد ، أجئتَ للقاء قريش على هذا الماء ؟ قال : نعمْ ، يا أخا بني ضَمرة ، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ، ثم جالدْناك[1] حتًى يحكم الله بيننا وبينك . قال : لا والله يا محمد ، ما لنا بذلك منك من حاجة .

فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أبا سفيان ، فمرَّ به مَعبد بن أبي معبدٍ الخزاعي ، فقال وقد رأى مكانَ رسول الله ﷺ وناقته تَهوي به[2] :

قد نفرتْ من رُفْقَتَيْ محمدِ وعَجوةٍ من يثربٍ كالعَنجَد[3]
تَهوِي على دين أبيها الأتلد[4] قد جَعَلتْ ماءَ قُدَيدِ موعدي[5]
وماءَ ضَجْنانَ لها ضُحَى الغَدِ

وقال عبد الله بن رواحة في ذلك[6] :

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد لميعاده صدقاً وما كان وافيا
فأُقسِم لو وافيتنا فلقيتَنا لأبت ذميماً وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عُتبة وابنِه وعمراً أبا جهلٍ تركناه ثاويا[7]
عصَيتُم رسولَ الله أُفٍّ لدينكم وأمرِكم السَّيِّءِ الذي كان غاويا
فإني وإن عنّفتموني لقائلٌ فدًى لرسول الله أهلي وماليا
أطعناه لم نَعدِلْه فينا بغيره شِهاباً لنا في ظُلمة الليل هاديا

---

(١) المجالدة : المضاربة بالسيوف .
(٢) تهوي به : تسرع .
(٣) العنجد : الزبيب الأسود .
(٤) الدين : الدأب والعادة . الأتلد : الأقدم .
(٥) قديد : موضع قرب مكة .
(٦) قال ابن هشام : أنشدنيها أبو زيد الأنصاري ، لكعب بن مالك .
(٧) ثاوياً : مقيماً .

* غَزْوَةُ دَوْمَةِ الجَنْدَل *
في شَهْرِ رَبِيعٍ الأوَّلِ سَنَةَ خَمْسٍ

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها شهراً حتّى مضى ذو الحِجَّة ، ووليَ تلك الحَجَّة المشركون ، وهي سنة أربع من مَقْدم رسول الله ﷺ المدينة .

ثم غزا رسول الله ﷺ دُومة الجندل[1] ، ثم رجع قبل أن يصل إليها ، ولم يلق كيداً ، فأقام بالمدينة بقية سنته .

* غَزْوَةُ الخَنْدَقِ في شَوَّالٍ سَنَةَ خَمْس *

ثم كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس .

إنه كان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود ، منهم سلاَّم بن أبي الحُقَيق النَّضريّ ، وحُيَيّ بن أخطَبَ النَّضري ، وكِنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النَّضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمّار الوائليّ ، في نفرٍ من بني النَّضير ونفرٍ من بني وائل ـ وهم الذي حزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ـ خرجوا حتى قدمُوا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنَّا سنكون معكم عليه حتى نستأصلَه . فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأوّل ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفدينُنا خيرٌ أم دينُه ؟ قالوا : بل دينكم خيرٌ من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

فهُم الذين أنزل الله تعالى فيهم : ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين أُوتوا نصيباً من الكِتاب يُؤمِنون بالجِبتِ والطاغوت ، ويَقُولونَ لِلذِين كفروا هؤلاء أهْدَى من الذين آمَنُوا سَبيلاً * أُولئك الَّذِينَ لَعَنَهُم اللَّهُ ومَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ إلى قوله : ﴿أَمْ يَحسُدُون النَّاسَ عَلَى ما آتاهُم اللَّهُ مِنْ فَضْلِه﴾ أي النبـوّة ﴿فقد آتَينا آلَ إبْراهيمَ الكتَاب والحِكمَةَ وآتيناهم مُلْكاً عَظيماً * فمِنهم من آمن به ومِنْهُمْ مَن صَدَّ عَنه وكَفَى بجهنَّم سَعيرا﴾ .

فلمَّا قالوا ذلك لقريشٍ ، سَرَّهم ونشِطوا لما دَعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا لذلك واتّعدوا له ، ثم خرج أُولئك النَّفر من يهودَ حتى جاءُوا

---

(١) بضم الدال ، وتفتح : من أعمال المدينة ، بينها وبينها خمس عشرة ليلة . وقد استعمل رسول الله ﷺ على المدينة في هذه الغزوة سباع بن عرفطة .

غطفان ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأنَّ قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه .

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة ، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة ، ومِسعَر بن رُخَيلة فيمن تابعه من أشجع .

فلما سمِع بهم رسول الله ﷺ ، وما أجمعوا له من الأمر ، ضربَ الخندق على المدينة ، فعمِل فيه رسول الله ﷺ ، ترغيباً للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه ، فدأبَ فيه ودأبوا ، وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجالُ من المنافقين ، وجعلوا يُورُّون(١) بالضَّعِيف من العمل ، ويتسلَّلون إلى أهليهم بغير علمٍ من رسُول الله ﷺ ولا إذن . وجعلَ الرجلُ من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بدَّ له منها ، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، ويستأذنُه في اللُّحوق بحاجته . فيأذن له ، فإذا قَضَى حاجته رجَع إلى ما كان فيه من عمله ، رغبة في الخير واحتساباً له ، فأنزل الله تعالى في أولئك من المؤمنين : ﴿إنَّمَا المؤمنونَ الذين آمَنوا بالله ورسَولِه وإذا كانوا مَعَه على أمرٍ جامعٍ لم يَذْهَبوا حَتَّى يستأذِنوه ، إنَّ الذين يَستأذنونَكَ أُولئكَ الذين يؤمِنون بالله ورسوله ، فإذا استأذنوكَ لبَعْضِ شأنِهم فأذن لمنْ شئتَ مِنهُمْ ، واستغفِرْ لهم الله إنَّ الله غَفورٌ رَحِيمٌ﴾ فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحِسبة والرَّغبة في الخير ، والطاعةِ لله ولرسوله ﷺ .

ثم قال تعالى ، يعني المنافقين الذين كانوا يتسللُون من العمل ، ويذهبون بغير إذنٍ من النبي ﷺ : ﴿لا تَجعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بينكم كدُعاءِ بَعضِكم بَعضاً ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الذين يتسلَّلُون مِنكم لِوَاذاً فليَحْذَرِ الذين يخالِفُون عَن أمرِه أنْ تُصيبَهُمْ فِتنةٌ أو يُصِيبَهُمْ عذابٌ أليم﴾ ـ قال ابن هشام : اللواذ : الاستتار بالشيء عند الهرب ـ ﴿ألاَ إنَّ للَّهِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ قد يَعْلَمُ ما أنتُمْ عليه﴾ مِن صدق أو كذب ﴿ويَوْمَ يُرْجَعُون إليه فينبِّئُهُمْ بما عَمِلُوا والله بكلِّ شَيء عَليمٌ﴾ .

ولمَّا فرغَ رسولُ الله ﷺ من الخندق أقبلَتْ قريشٌ حتَّى نزلت بمجتمع الأسيال من رُومة ، بين الجُرُف وزُغابة . في عشرة آلافٍ من أحابيشهم ومن تَبِعهم من بني كنانة

---

(١) التورية : أن يستر شيئاً ويظهر غيره .

وأهل تِهامة ، وأقبلتْ غطفانُ ومَن تبعهم من أهل نجد ، حتى نزلوا بذنب نَقَمَى إلى جانب أُحد ، وخرج رسولُ الله ﷺ والمسلمون ، حتى جعلوا ظهورَهم إلى سَلْع في ثلاثة آلافٍ مِن المسلمين ، فضرب هنالك عَسكرَه ، والخندق بينه وبين القوم ، وأمَر بالذراريّ والنِّساء فجُعلُوا في الآطام(١) .

وخرج عدوُّ الله حُيَيّ بن أخطب النَّضريّ حتَّى أتى كعب بن أسد القُرظيّ ، صاحبَ عقدِ بني قريظة وعهدهم . وكان قد وادَعَ رسول الله ﷺ على قومه وعاقَده على ذلك وعاهَده ، فلمَّا سمع كعبٌ بحيي بن أخطبَ أغلقَ دونَه بابَ حصنه ، فاستأذنَ عليه فأبَى أن يفتحَ له ، فناداه حييّ : ويحكَ يا كعب ! افتَحْ لي . قال : ويحك يا حييّ ، إنك امرؤٌ مشئوم ، وإنِّي قد عاهدت محمداً فلستُ بناقضٍ ما بيني وبينه ، ولم أرَ منه إلا وفاءً وصدقاً . قال : ويحك ! افتحْ لي أُكلِّمك . قال : ما أنا بفاعل . قال : والله إنْ أغلقْتَ الحصنَ دوني إلَّا على جَشِيشتك(٢) أن آكلَ منها معك ! فأحفَظ الرجلَ ففتحَ له ، فقال : ويحَك يا كعب ! جئتك بعزِّ الدهر وببحرٍ طام(٣) ، جئتكَ بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتُهم بمجتمع الأسيال من رُومة ، وبغَطفَانَ على قادتها وسادتها حتى أنزلتُهم بذنَب نَقَمَى إلى جانب أُحد ، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبارحوا حتى نَستأصل محمداً ومن معه . فقال له كعب : جئتَني والله بذلّ الدَّهر ، وبجَهام قد هراقَ ماءه ، فهو يُرعد ويُبرق ليس فيه شيء ، ويْحك يا حُييّ ! فدعْني وما أنا عليه فإني لم أرَ من محمدٍ إلا صدقاً ووفاءً . فلم يزلْ حييّ بكعب يَفتِله في الذِّروة والغارب(٤) حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً ، لئن رجَعتْ قريشٌ وغطَفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخلَ معك في حِصنك حتى يُصيبني ما أصابك . فنقض كعب بن أسدٍ عهدَه ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ .

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبرُ وإلى المسلمين ، بعثَ رسول الله ﷺ سعدَ بن مُعاذ بن النعمان ، وهو يومئذٍ سيد الأوس ، وسعد بن عُبادة بن دُليم ، وهو

---

(١) الآطام : الحصون ، جمع أطـم ، بضمة وبضمتين .

(٢) الجشيشة : طعام من البر يطحن غليظاً .

(٣) طام : ممتلىء مرتفع الأمواج .

(٤) أي يخاتله ويراوغه . وأصل المثل في البعير ، يفعل به ذلك ليسكن ويأنس . الذروة : أعلى السنام . والغارب : الكاهل ، وهو ما بين السنام إلى العنق .

يومئذ سيّد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوَّات بن جبير ، فقال : انطلقوا حتى تنظروا ، أحقٌّ ما بلَغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقًا فالحنوا[1] لي لحناً أعرفُه ، ولا تفتُّوا في أعضادِ الناس[2] ؛ وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهَرُوا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا من رسول الله ﷺ . وقالوا : مَن رسولُ الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمدٍ ولا عقد ! فشاتمهم سعد بن مُعاذٍ وشاتموه ، وكان رجلاً فيه حِدّة . فقال له سعد بن عُبادة : دعْ عنك مشاتمَتهم ، فما بيننا وبينهم أرْبَى[3] من المشاتمة . ثم أقبل سعدٌ وسعدُ ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلّموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة[4] ! أي كغدر عَضَل والقارة بأصحاب الرجيع : خُبيبٍ وأصحابه ـ فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين !

وعظم عند ذلك البلاءُ واشتدَّ الخوف ، وأتاهم عِدوّهم مِن فوقهم ومن أسفَلَ منهم ، حتّى ظن المؤمنون كلَّ ظنّ ، ونجم النِّفاق من بعض المنافقين ، حتى قال معتّب بن قُشَير : كان محمَّدٌ يعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدُنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وحتى قال أوس بن قَيظيّ : يا رسول الله إن بيوتنا عَورة من العدوّ ـ وذلك عن مَلإٍ من رجال قومه ـ فأذنْ لنا أن نخرجَ فنرجعَ إلى دارنا فإنّها خارجٌ من المدينة . فأقام رسولُ الله ﷺ ، وأقام عليه المشركون بِضعاً وعشرين ليلةً ، قريباً من شهر ، لم تكن بينهم حربٌ إلا الرِّمِّيّا[5] بالنبل ، والحِصارُ .

فلما اشتدّ عَلَى الناس البلاءُ بعث رسولُ الله ﷺ إلى عُيينة بن حصن ، وإلى الحارث بن عوف المري ، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلثَ ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه . فجرَى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتابَ ، ولم تقع الشهادةُ ولا عزيمةُ الصلح ، إلاَّ المراوضة في ذلك . فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعلَ بعثَ إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله ، أمراً تحبُّه فنصنَعه ، أَم شيئاً أمَرَكَ الله به لا بدَّ لنا من العمل به ، أم شيئاً

---

(١) اللحن : التعريض والإشارة في الكلام .
(٢) فت في عضده : أوهنه وأضعفه .
(٣) أربى : أزيد وأكثر .
(٤) أنظر ما سبق في ص ١٥٤ .
(٥) الرميا : المراماة بالسهام .

تصنعهُ لنا ؟ قال : بل شيءٌ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلَّا لأنَّني رأيت العَرَب قد رمَتكم عن قوسٍ واحدة ، وكالَبوكم[١] من كلِّ جانب ، فأردت أن أكسِر عنكم مِن شوكتهم إلى أمرٍ ما . فقال له سعدُ بن مُعاذ : يا رسولَ الله ، قد كنَّا نحن وهؤلاء القومُ على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد اللَّهَ ولا نعرِفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلَّا قِرًى[٢] أو بيعاً ، أفَحِين أكرمَنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك وبه نعطيهم أموالنا ، والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيفَ حتى يحكم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله ﷺ : فأنتَ وذاك . فتناولَ سعد بن مُعاذ الصحيفة ، فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال : ليَجْهدوا علينا .

فأقام رسولُ الله ﷺ والمسلمون ، وعدوُّهم محاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال ، إلَّا أنَّ فوارسَ من قريش منهم عمرو بن عبد وُدّ ، وعكرمة بن أبي جهلٍ ، وهبيرة بن أبي وهب المخزوميان ، وضرار بن الخطَّاب الشاعر ، تلبَّسوا[٣] للقتال ثم خرجوا على خيلهم ، حتى مرُّوا بمنازل بني كنانة فقالوا : تهيئوايا بني كنانة للحرب ، فستعلمون مَن الفُرسانُ اليومِ . ثم أقبلوا تُعنِق[٤] بهم خيْلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلمَّا رأوه قالوا : والله إنَّ هذه لمكيدةٌ ما كانت العربُ تكيدُها[٥] !

ثم تيمَّموا مكاناً ضيِّقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم في السَّبخَة بين الخندق وسَلْع ، وخرج عليُّ بن أبي طالب عليه السلام في نفرٍ معه من المسلمين ، حتى أخذُوا عليهم الثَّغرةَ التي أقحموا منها خيلهم ؛ وأقبلت الفُرسانُ تُعنِق نحوهم .

وكان عمرو بن عبد وُدّ قد قاتلَ يومَ بدر حتَّى أثبتته الجراحة فلم يشهدْ يومَ أُحد . فلما كان يوم الخندق خرجَ مُعلِما[٦] ليُرى مكانهُ ، فلمَّا وقف هو وخيله قال : مَن يُبارز ؟ فبرز له علي بن أبي طالبٍ فقال له : يا عمرو ، إنَّك كنت قد عاهدتَ الله ألَّا يدعوكَ رجُلٌ من قريشٍ إلى إحدى خلَّتين إلَّا أخذتَها منه . قال له : أجلْ ! قال : فإني أدعوك

---

(١) المكالبة : المضايقة والتشديد .

(٢) القرى : طعام الضيف .

(٣) أي تهيئوا له .

(٤) تعنق : تسرع .

(٥) قال ابن هشام : يقال إن سلمان الفارسي أشار به على رسول الله ﷺ .

(٦) المعلم : الذي يجعل لنفسه علامة في الحرب يعرف بها .

إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام . قال : لا حاجة لي بذلك قال : فإنّي أدعوكَ إلى النزال ، فقال له : لِمَ يا ابنَ أخي ؟ فوالله ما أُحبُّ أن أقتلك . قال له عليّ : لكنّي والله أُحبُّ أن أقتلَك ! فحَميَ عمرو عند ذلك فاقتحمَ عن فرسه ، فعقَره وضرب وجهه ، ثم أقبلَ على عليٍّ ، فتنازَلا وتجاوَلا ، فقتله عليٌّ رضي الله عنه .

وخرجت خيلُهم منهزمةً حتى اقتحمت مِن الخندق هاربة .

وألقَى عِكرمةُ بن أبي جهلٍ رُمحَه يومئذ وهو منهزم عن عمرو ، فقال حسان بن ثابت في هذا :

فرَّ وألقى لَنا رمحَه لعلَّك عكرم لم تَفْعل
وولَّيت تَعدو كَعدْو الظَّليـ ـم ما إنْ تَجور عن المَعدِل[1]
ولم تَلوِ ظهرَك مستأنساً كأنَّ قفاكَ قفا فُرعُل[2]

وكان شعار[3] أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبني قريظة : «حمّ لا ينصرون» .

وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصفَ اللَّهُ من الخوف والشدَّة ، لتظاهُرِ عدوِّهم عليهم ، وإتيانهم من فوقهم ومن أسفَلَ منهم .

ثم إنَّ نُعيم بنَ مسعود أتى رسولَ الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني قد أسلمت ، وإنَّ قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمُرني بما شئت . فقال رسول الله ﷺ : إنما أنت فينا رجلٌ واحد ، فخذِّل عنّا[4] إن استطعت ، فإنَّ الحربَ خُدعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديماً في الجاهلية ، فقال : يا بني قريظة ، قد عرفتم ودِّي إياكم ، وخاصّةَ ما بيني وبينكم . قالوا : صدقت ، لستَ عندنا بمتَّهم . فقال لهم : إنَّ قريشاً وغطفانَ ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم . لا تقدرُون على أن تَحَوَّلوا منه إلى غيره ، وإنّ قريشاً وغطفانَ قد جاءُوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدُهم

---

(١) الظليم : ذكر النعام ، وهو المثل في الجبن . تجور : تحيد . المعدل : الطريق .

(٢) الفرعل : الصغير من الضباع .

(٣) الشعار : العلامة التي كانوا يتعارفون بها في الحرب .

(٤) أي ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضاً .

وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نُهزَةً أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلَّوْا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقَة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ، ثقةً لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه . فقالوا له : لقد أشرتَ بالرأي !

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً ، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيت عليَّ حقًّا أن أُبلغَكموه ، نصحاً لكم ، فاكتموا عني . فقالوا : نفعل . قال : تعلَّموا أنَّ معشر يهودَ قد ندِموا عَلَى ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا عَلَى ما فعلْنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيَكهُم فتضربَ أعناقهم ، ثم نكون معك على مَن بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : أن نعَم . فإن بعثَتْ إليكم يهودُ يلتمسون منكم رُهُنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً .

ثم خرج حتَّى أتَى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، إنكم أصلي وعشيرتي ، وأحبُّ الناسِ إليّ ، ولا أراكم تتَّهموني . قالوا : صدقت ، ما أنتَ عندنا بمتَّهم . قال : فاكتموا عني . قالوا : نفعل . ثم قال لهم مثلَ ما قال لقريش ، وحذَّرهم ما حذَّرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوّال سنة خمس ، وكان من صنع الله لرسوله ﷺ أنْ أرسل أبو سفيان بنُ حرب ورءُوسُ غطفانَ إلى بني قريظة عِكرمَة بنَ أبي جهل ، في نفرٍ من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنَّا لسنا بدار مُقام ، قد هلك الخفُّ والحافر(١) ، فاغدُوا للقتال حتى نناجزَ محمداً ، ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم : إنّ اليوم يوم السبت ، وهو يومٌ لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدثَ فيه بعضُنا حَدَثاً فأصابَه ما لم يَخْفَ عليكم ، ولسنا معَ ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تُعطونا رهُناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا حتى نناجزَ محمداً ؛ فإنَّا نخشى إنْ ضَرَستكم(٢) الحربُ واشتدَّ عليكم القتالُ أن تَنْشمروا(٣) إلى بلادكم ، وتتركونا والرجلَ في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه !

---

(١) الخف : الإبل . والحافر : الخيل .

(٢) ضرستكم : نالت منكم .

(٣) انشمروا : انقبضوا وأسرعوا إلى بلادهم .

فلمَّا رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريشٌ وغطَفان : والله إنّ الذي حدَّثكم نُعيم بن مسعودٍ لحقٌّ ، فأرسِلوا إلى بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة ، حين انتهت الرسلُ إليهم بهذا : إنَّ الذي ذكر لكم نُعيم لحقٌّ ! ما يريد القوم إلا أن تُقاتلوا ، فإن رأوا فرصةً انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلَّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم . فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنَّا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تُعطونا رُهناً ، فأبَوا عليهم ، وخذَّل الله بينهم ، وبعث الله عليهم الرِّيحَ في ليالٍ شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تكفأُ قدورهم ، وتطرح آنيتهم .

فلمَّا انتهى إلى رسول اللهِ ﷺ ما اختلف من أمرهم ، وما فرَّق الله من جماعتهم ، دعا حذيفةَ بنَ اليمانِ ، فبعثَه إليهم لينظر ما فعل القومُ ليلا .

عن محمد بن كعب القرظي قال :

قال رجلٌ من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله ، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم ، يا ابن أخي . قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنَّا نُجْهَد . فقال : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . فقال حذيفة : يا ابن أخي ، والله لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هَوِيًّا من الليل[1] ، ثمَّ التفتَ الينا فقال : مَن رجلٌ يقوم فينظر ما فعل القوم ثم يرجع ـ يَشرط له رسول الله ﷺ الرَّجعة ـ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة ؟ فما قام رجلٌ من القوم ، من شدَّة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يقم أحدٌ دعاني رسول الله ﷺ ، فلم يكن لي بدٌّ من القيام حين دعاني ، فقال : يا حذيفة ، اذهبْ فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تُحْدثنَّ شيئاً حتى تأتينا ! فذهبت فدخلت في القوم والريحُ وجنودُ الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقرُّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً . فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر امرؤٌ مَن جليسه ؟ قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ قال : فلانُ ابن فلان[2] .

---

(١) هويا من الليل : قطعة منه .

(٢) في شرح المواهب : «فضربت بيدي على يد الذي عن يميني فأخذت بيده فقلت : من أنت ؟ قال معاوية بن أبي سفيان . ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي ، فقلت : من أنت ؟ قال : عمرو بن العاص» .

ثم قال أبو سفيان : يا معشرَ قريش ، إنَّكم والله ما أصبحتم بدارِ مُقام ، لقد هلَك الكُراعُ والخفّ ، وأخلفَتْنا بنو قريظة ، وبلَغنا عنهم الذي نكرَهُ ولقينا من شدَّة الرِّيح ما ترون ، ما تطمئنُّ لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ؛ فارتحلوا فإني مرتحِل .

ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فوالله ما أُطلِقَ عِقالُه إلَّا وهو قائم ، ولولا عهدُ رسول الله ﷺ إليَّ : « أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني » ، ثم شئتُ لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجَعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائمٌ يصلي في مِرطٍ[1] لبعض نسائه مَراحِلَ[2] ، فلما رآني أدخلني إلى رجليه ، وطرحَ عليَّ طرفَ المرط ، ثم ركع وسجد وإني لَفيه . فلما سلَّم أخبرتُه الخبر .

وسمعَتْ غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم .

ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرفَ عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمون ، ووضعوا السلاح .

* غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ في سَنَةِ خَمْس *

فلما كانت الظُّهر ، أتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ ، معتجراً بعمامة من إستَبْرَق[3] ، على بغلةٍ عليها رِحالةٌ[4] ، عليها قطيفة من ديباج ، فقال : أو قد وضعتَ السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال جبريل : فما وضعت الملائكةُ السلاحَ بعد ، وما رجعتُ الآن إلا من طلب القوم . إنَّ الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة ، فإنِّي عامد إليهم فمزلزلٌ بهم .

فأمرَ رسولُ الله ﷺ مؤذِّناً فأذَّن في الناس : من كان سامعاً مُطيعاً فلا يصلِّينَّ العصر إلَّا ببني قريظة .

وقدَّمَ رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب برايته إلى بني قُريظة وابتدرها الناس ، فسار علي بن أبي طالب حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالةً قبيحة لرسول

---

(١) المرط : الكساء .
(٢) المراجل : ضرب من وشي اليمن .
(٣) الإستبرق : ديباج غليظ .
(٤) الرحالة : السرج .

الله ﷺ ، فرجع حتى لقيَ رسول الله ﷺ بالطريق فقال : يا رسول الله ، لا عليك أن لا ندنو من هؤلاء الأخابث . قال : لِمَ ؟ أظنُّك سمعت منهم لي أذًى . قال : نَعم ، يا رسول الله . قال : لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً . فلمَّا دنَا رسول الله ﷺ من حصونهم قال : يَا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزلَ بكم نقمته ؟ قالوا : يا أبا القاسم ما كنتَ جهولا .

ولما أتى رسولُ الله ﷺ بني قريظة نزل على بئر من آبارها من ناحية أموالهم يقال لها : بئر أنًا .

وتلاحق به الناس ، فأتى رجالٌ منهم من العشاء الآخرة ولم يصلُّوا العصر ، لقول رسول الله ﷺ : « لا يصلينَّ أحدٌ العصرَ إلا ببني قريظة » فشغلهم ما لم يكن لهم منه بُدٌّ في حربهم ، وأبَوا أن يصلوا ، لقول رسول الله ﷺ : « حتى تأتوا بني قريظة » . فصلَّوا العصر بها بعد العِشاء الآخرة ، فما عابهم الله بذلك في كتابه ، ولا عنَّفهم به رسول الله ﷺ .

وحاصرهم رسولُ الله ﷺ ، خمساً وعشرين ليلةً حتى جَهدهم الحصار ، وقذفَ الله في قلوبهم الرعب .

وقد كان حُيَيّ بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعتْ عنهم قريش وغطفان ، وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه . فلما أيقنوا بأنَّ رسولَ الله ﷺ غير منصرفٍ عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم : يَا معشرَ يهود ، قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإني عارضٌ عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم . قالوا : وما هي ؟ قال : نتابع هذا الرجلَ ونصدِّقه ، فوالله لقد تبيَّن لكم أنه لنبي مرسل ، وأنه لَلذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارقُ حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره . قال : فإذا أبيتم عليَّ هذه فهلمَّ فلنقتلْ أبناءنا ونساءنا ، ثم نَخرُج إلى محمد وأصحابه رجالا مُصْلتين السيوف ، لم نترك وراءنَا ثَقَلا ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنَا نسلاً نخشَى عليه ، وإن نظهر فلعمري لنجدَنَّ النساء والأبناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ! فما خير العيش بعدهم ؟ قال : فإن أبيتم عليَّ هذه الليلةَ ليلةُ السبت ، وإنَّه عسى أن يكون محمدٌ وأصحابه قد أمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غِرَّة . قالوا : نُفسِد سبتنا عليه ، ونُحدث فيه ما لم يُحدث مَن كان قبلنا إلَّا من قد علمت ، فأصابه ما

لم يَخْفَ عليك من المسخ ! قال : ما بات رجلٌ منكم منذ ولدته أُمُّه ليلةً واحدةً من الدهر حازماً !

ثم إنَّهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ : ابعثْ إلينا أبا لُبابة بن عبد المنذر ، لنستشيره في أمرنا . فأرسله رسول الله ﷺ إليهم ؛ فلمّا رأوه قام إليه الرجال ، وجَهَشَ إليه النساءُ والصِّبيانُ يبكون في وجهه ، فرقّ لهم وقالوا له : يا أبا لُبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد[١] ؟ قال : نعم ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ إنه الذَّبح[٢] .

قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي عن مكانهما حتّى عرفت أنّي قد خُنت الله ورسوله ﷺ .

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت رسولَ الله ﷺ حتى ارتبطَ في المسجد إلى عَمود من عَمَده ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب عليّ مما صنعت . وعاهدتُ الله : ألاَّ أطأ بني قريظة أبداً ، ولا أرى في بلدٍ خنتُ الله ورسولَه فيه أبداً .

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبرُه ، وكان قد استبطأه قال : أما إنه لو جاءني لاستغفرت له ، فأمَّا إذْ فعلَ ما فعلَ فما أنا بالذي أُطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .

عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : تِيبَ على أبي لبابة . قلت : أفلا أُبشِّره يا رسول الله ؟ قال : بلى إن شئت . فقامت على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يضرب عليهنّ الحجاب ـ فقالت : يَا أبا لبابة ، أبشِرْ فقد تاب الله عليك !

قالت : فثار الناس إليه ليطلقوه ، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُطلقني بيده . فلما مرّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

قال ابن هشام : أقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ست ليال ، تأتيه امرأته في كل وقتِ صلاة فتحُلُّه للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع .

---

(١) وذلك أنهم لما حوصروا حتى أيقنوا بالهلكة ، أنزلوا شاس بن قيس ، فكلمه رسول الله ﷺ أن ينزلوا على ما نزل بنو النضير ، من ترك الأموال والحلقة ، والخروج بالنساء والذراري وما حملت الإبل إلا الحلقة . فأبى رسول الله ﷺ : فقال : « تحقن دماءنا وتسلم لنا النساء والذرية ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل . فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه . فعاد شاس إليهم بذلك » . « عن شرح المواهب للزرقاني » .

(٢) في شرح المواهب : كأن أبا لبابة فهم ذلك من عدم إجابة الرسول ﷺ لهم بحقن دمائهم ، وعرف أن رسول الله سيذبحهم إن نزلوا على حكمه . وبهذا أشار إلى بني قريظة .

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسولِ الله ﷺ . فتواثبت الأوس فقالوا : يَا رسول الله ، إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلتَ في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت ـ وقد كان رسول الله ﷺ قَبْلَ بني قريظة قد حاصر بني قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله إياهم عبد الله بن أبيّ بن سلول فوهبهم له ـ فلمَّا كلَّمته الأوس قال رسول الله ﷺ : « ألا ترضون يَا معشَر الأوس أن يحكم فيكم رجلٌ منكم ؟ قالوا : بلى . قال رسول الله ﷺ : فذاك إلى سعد بن معاذ » .

وكان رسول الله قد جعل سعد بن مُعاذٍ في خيمةٍ لامرأةٍ من أسلَم ، يقال لها رُفيدة ، في مسجده ، كانت تداوِي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمةِ مَن كانت بِهِ ضيعة من المسلمين ، وكان رسول الله قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق : اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعودَه من قريب . فلما حكَّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومُه فحملوه على حمارٍ قد وطَّئوا له بوسادة من أدم ، وكان رجلاً جسيماً جميلا ، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون : يا أبا عمرو ، أحسنْ في مواليك ، فإنّ رسول الله ﷺ إنَّما ولاَّك ذلك لتحسنَ فيهم ! فلمَّا أكثروا عليه قال : لقد أنَى لسعد ألا تأخذَه في الله لومةُ لائم . فرجع بعضُ من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل فنَعى لهم رجالَ بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد ، عن كلمته التي سمع منه(١) .

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين ، قال رسول الله ﷺ : قوموا إلى سيدكم ـ فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد رسولُ الله ﷺ الأنصار . وأما الأنصار فيقولون : قدْ عمَّ بها رسول الله ﷺ ـ فقاموا إليه ـ فقالوا : يا أبا عمرٍو ، إن رسول الله ﷺ قد ولاَّك أمر مواليك لتحكم فيهم . فقال سعد بن مُعاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أنَّ الحُكمَ فيهم لَمَا حكمتُ ؟ قالوا : نعم . قال : وعلى مَن ها هنا ؟ ـ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ ، وهو مُعرضٌ عن رسول الله ﷺ إجلالاً ـ فقال رسولُ الله ﷺ : نعم . قال سَعد : فإني أحكم فيهم ، أن تُقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراريُّ والنساءُ .

قال رسول الله ﷺ لسعد : « لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة(٢) » .

---

(١) أي ما فهمه من قوله : « أنى لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم » ، أن سعداً رأى قتلهم ، فنعاهم قبل موتهم .

(٢) جمع رقيع : وهي السماء .

ثم استُنزِلوا ، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث[1] ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سُوق المدينة ـ التي هي سوقُها اليوم ـ فخندق بها خنادقَ ثم بعث إليهم فضرَب أعناقهم في تلك الخنادق يُخرَج بهم إليه أرسالا[2] ، وفيهم عدو الله حُيَيّ بن أخطب ، وكعب بن أسد رأس القوم ، وهم ستمائة أو سبعمائة ، والمكثِر لهم يقول : كانوا بين الثمانمائة والتِّسعمائة ، وقد قالوا لكعب بن أسدٍ وهم يُذهَب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالا : يا كعب ، ما تراهُ يصنع بنا ؟ قال : أفي كل موطن لا تَعقِلُون ؟ ألا ترون الداعيَ لا ينزِع ، وإنَّه من ذهب منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل ! فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسولُ الله ﷺ .

وأُتي بِحُيَيٍّ بن أخطبَ عدوِّ الله ، وعليه حُلَّة له فُقَّاحيّة[3] قد شقَّها عليه من كل ناحية قدرَ أنملةٍ ، لئلا يُسلَبَها ، مجموعةً يداه إلى عُنقه بحبل . فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال : أما والله ما لمْتُ نفسي في عداوتك ، ولكنَّه من يَخذل الله يُخْذَل ! ثم أقبَل على الناس فقال : يا أيُّها الناس ، إنَّه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقَدَر ، ومَلحَمة[4] كتبها الله على بني إسرائيل . ثم جلس فضُرب عنقه .

عن عائشة أم المؤمنين قالت : لم يقتل من نسائِهم إلاَّ امرأة واحدة . قالت : والله إنَّها لعندي تَحدَّثُ معي وتضحك ظَهْراً وبطناً ، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق إذ هتف هاتف باسمها : أين فلانة ؟ قالت : أنا والله . قلت لها : ويلك ! ما لك ؟ قالت : أُقتل . قلت : ولم ؟ قالت : لحدَثٍ أحدثته[5] قالت : فانطُلِق بها فضربت عنقُها .

فكانت عائشة تقول : فوالله ما أنسى ، عجباً منها ، طيبَ نفسها ، وكثرةَ ضحكها وقد عرفَتْ أنها تُقتَل .

وكان رسول الله ﷺ قد أمر بقتل كلِّ من أنْبت منهم .

عن عطية القُرظي قال : كان رسول الله ﷺ قد أمر أن يقتل من بني قريظة كل من أنبتَ منهم ، وكنت غلاماً فوجدوني لم أُنبِت ، فخلَّوا سبيلي .

---

(١) اسمها كيسة بنت الحارث .

(٢) أرسالا : جماعات .

(٣) فقاحية : على لون الورد هم أن يتفتح .

(٤) الملحمة : الوقعة العظيمة القتل .

(٥) قال ابن هشام : هي التي طرحت الرحى على خلاد بن سويد فقتلته .

وعن أيوب بن عبد الرحمن ، أنٍ سلمى بنت قيس ـ وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلَّت معه القبلتين ، وبايعته بيعة النساء ـ سألته رفاعَة بن سموءَل القرظي ، وكان رجلاً قد بلغ ، فلاذ بها[1] ، وكان يعرفهم قبل ذلك ، فقالت : يا نبيّ الله ، بأبي أنت وأمِّي ، هبْ لي رفاعة ، فإنَّه قد زعم أنه سيصلِّي ويأكل لحم الجمل . فوهبه الله فاستحيته .

ثم إنّ رسول الله ﷺ قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين .

ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل ، بسبايا بني قريظة إلى نجد ، فابتاع لهم بها خيلا وسلاحا .

وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خُنافة ، فكانت عند رسول الله ﷺ حتى تُوفِّيَ عنها وهي في مِلكه . وقد كان رسول الله ﷺ عرض عليها أن يتزوّجها ويضرب عليها الحجاب ، فقالت : يا رسول الله ، بل تتركني في ملكك فهو أخفُّ عليّ وعليك . فتركها . وقد كانت حين سباها قد تعصَّت بالإسلام وأبت إلّا اليهوديّة ، فعزلها رسول الله ﷺ ووجَد في نفسه لذلك من أمرها ، فبينا هو مع أصحابه إذْ سمع وقَع نعلين خلفَه ، فقال : إنّ هذا لَثعلبةُ بن سعية يُبشِّرني بإسلام ريحانة . فجاءه فقال : يا رسول الله ، قد أسلمَتْ ريحانة ! فسرَّه ذلك من أمرها .

وأنزل الله تعالى في أمر الخندق وأمر بني قريظة من القرآن القصة في سورة الأحزاب ، يذكر فيها ما نزل من البلاء ، ونعمتَه عليهم ، وكفايته إياهم ، حين فرَّج ذلك عنهم ، بعد مقالةِ من قال من أهل النفاق : ﴿يأيها الذين آمَنُوا اذكروا نعمةَ الله علَيكم إذْ جاءتكم جُنودٌ فأرسلنا عَلَيهم رِيحاً وجُنوداً لم تَرَوْها وكان الله بما تَعْمَلونَ بَصيرا﴾ . والجنود قريش وغطفان وبنو قريظة . وكانت الجنودُ التي أرسلَ الله عليهم مع الريح الملائكة . يقول الله تعالى : ﴿إذ جاءُوكم من فوقِكم ومِن أسفَلَ منكم ، وإذْ زاغت الأبصارُ وبَلغت القُلوبُ الحناجِرَ وتَظُنُّونَ بالله الظُّنونا﴾ . فالذين جاءُوهم من فوقهم : بنو قريظة ، والذين جاءُوهم من أسفلَ منهم : قريش وغطفان . يقول الله تبارك وتعالى : ﴿هُنالك ابتُلِيَ المؤمنونَ وزُلزِلوا زِلزالاً شديداً * وإذْ يقول المنافِقونَ والذينَ في قلوبهم مَرَضٌ ما وَعَدَنا الله ورسولُه إلّا غُرورا﴾ ، لقول معتِّب بن قشير[2] إذ يقول ما

(١) لاذ بها : التجأ إليها .

(٢) أنظر ما مضى في صفحة ١٧٠ .

قال : ﴿وإذْ قالت طائفة مِنْهم يا أهل يثربَ لا مُقَامَ لكم فارجِعُوا ويَستأذنُ فريقٌ منهم النبيَّ يَقولونَ إنَّ بيوتَنا عورةٌ ، وما هي بِعورةٍ إنْ يُريدونَ إلَّا فِراراً﴾ لقول أوس بن قَيظي ومَن كان على رأيه من قومه . ﴿ولو دُخلتْ عَلَيهم مِن أقطارها﴾ أي المدينة ﴿ثم سُئِلوا الفِتنَةَ﴾ أي الرجوع إلى الشرك ﴿لآتَوْها وما تلَبَّثُوا بها إلَّا يسيراً * ولقد كانواْ عاهَدُوا الله مَنْ قَبْلُ لا يُوَلُّون الأدبارَ وكان عَهْدُ الله مسْئُولاً﴾ فهُم بنو حارثة ، وهم الذين همُّوا أن يفشَلوا يوم أُحدٍ مع بني سلمة حينَ همَّتَا بالفشل يومَ أُحد ثم عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها أبداً ، فذكر لهم الذي أعطوا من أنفسهم . ثم قال تعالى : ﴿قُلْ لن ينفعكم الفِرارُ إنْ فررتم من الموتِ أو القتل وإذاً لا تُمَتَّعونَ إلَّا قليلاً * قُلْ مَن ذا الذي يَعصمكمْ مِن الله إنْ أراد بكم سوءاً أو أرادَ بكم رحمةً ولا يجدون لهم من دُون الله وليًّا ولا نصيرا * قد يَعلم الله المعوِّقين منكم﴾ أي من أهل النفاق ﴿والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا ولا يأتونَ البأسَ إلا قليلاً﴾ أي إلا دفعاً وتعذيراً[1] ، ﴿أشِحَّةً عليكم﴾ أي للضِغْن الذي في أنفسهم ﴿فإذا جاء الخوفُ رأيتَهُمْ يَنظُرون إليك تَدُورُ أعينُهم كالذي يُغْشى عَلَيه من المَوْت﴾ ، أي إعظاماً له وفَرقاً منه ﴿فإذا ذَهب الخوفُ سلَقُوكم بألْسِنةٍ حِدادٍ﴾ أي في القول بما لا تحبُّون ، لأنَّهم لا يرجون آخرة ، ولا تحملهم حِسْبة[2] ، فهم يهابون الموت هيبةَ من لا يرجو ما بعده . ﴿يَحسَبونَ الأحزاب لم يذهبوا﴾ قريش وغطفان ﴿وإن يأتِ الأحزابُ يَوَدُّوا لو أنَّهم بادُونَ في الأعراب يَسْئَلونَ عَنْ أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتَلُوا إلَّا قليلا﴾ .

ثم أقبلَ على المؤمنين فقال : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنةٌ لمن كانَ يَرجُو الله واليومَ الآخِر﴾ أي لئلا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ولا عن مكانٍ هُوَ به .

ثم ذكرَ المؤمنين وصدقَهم وتصديقهم بما وعدَهم الله من البلاء يختبرهم به ، فقال : ﴿ولما رأى المؤمنونَ الأحزابَ قالوا هذا ما وعَدَنا الله ورسُولُهُ وصَدَق الله ورسولُه وما زادُوهم إلَّا إيماناً وتسليماً﴾ ، أي صبراً على البلاء ، وتسليماً للقضاء وتصديقاً للحق ، لمَا كان الله تعالى وعدهم ورسولُه ﷺ . ثم قال : ﴿مِن المؤمنينَ رجالٌ صدَقوا ما عاهَدُوا الله عليه فمِنْهم مَن قَضَى نَحْبَهُ﴾ أي فرغَ من عمله ورجَع إلى ربّه كمن استُشهِد يوم بدر ويوم أُحد ﴿ومنهم مَنْ ينتظر﴾ أي ما وعدَ الله به من نصره والشهادة على

---

(١) التعذير : أن يفعل الشيء إنما يريد أن يقيم به العذر عند من يراه .

(٢) الحسبة : الأجر .

ما مضى عليه أصحابه ، يقول الله تعالى : ﴿وما بَدَّلوا تبديلا﴾ أي ما شكُّوا وما تردَّدُوا في دينهم ، وما استبدلوا به غيره ﴿ليجزيَ اللهِ الصَّادقين بِصِدْقهم ويعذِّبَ المنافقين إن شاء أو يتوبَ عليهم إنَّ الله كان غفوراً رحيماً * وردَّ اللَّهُ الذين كفروا بِغَيظِهم﴾ ، أي قريشاً وغطفان ﴿لم ينالوا خَيراً وكَفى الله المؤمِنين القتالَ وكانَ اللَّهُ قويًّا عزيزاً * وأنزلَ الذين ظاهَرُوهم مِن أهل الكتاب﴾ أي بني قُريظة ﴿من صَيَاصِيهمْ﴾ والصياصي : الحصون والآطام التي كانوا فيها ﴿وقَذَف في قُلوبِهم الرُّعْبَ فريقاً تَقتُلونَ وتأسِرون فريقاً﴾ أي قتل الرجال وسَبْيَ الذَّراريِّ والنساء ، ﴿وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالهم وأرضاً لم تَطَئُوها﴾ يعني خيبر ﴿وكانَ الله على كلِّ شيء قديراً﴾ .

فلما انقضى شأن بني قريظة انفجر بسعد بن مُعاذِ جُرحه فمات منه شهيداً .

عن الحسن البصري قال : كان سعدٌ رجلاً بادناً ، فلمَّا حمله الناس وجدوا له خِفَّة ، فقال رجالٌ من المنافقين : والله إن كان لَبادنا ، وما حملنا من جِنازة أخفَّ منه ! فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال : « إنَّ له حَمَلةً غيرَكم ، والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكةُ بروح سعد ، واهتزَّ له العرش » .

وقتل من المشركين ثلاثة نفر : منبِّه بن عثمان بن عبيد ، أصابه سهم فمات منه بمكة . ومن بني مخزوم بن يقظة : نوفل بن عبد الله بن المغيرة ، سألوا رسول الله ﷺ أن يبيعهم جسدَه ، وكان اقتحم الخندق ، فتورَّط فيه فقتل ، فغَلب المسلمون على جسده ، فقال رسول الله ﷺ : « لا حاجة لنا في جَسَده ولا بثمنه » ، فخلَّى بينهم وبينه .

ومن بني عامر بن لؤي : عمرو بن عبد وُدٍّ ، قتله علي بن أبي طالب .

واستُشهد يوم بني قريظة من المسلمين : خلَّاد بن سُوَيد ، طرحت عليه رحى فشدخته شدْخاً شديداً . فزعموا أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ له لأجرَ شهيدين » .

ومات أبو سنان بنِ مِحْصَن بن حُرثان ، ورسولُ الله ﷺ محاصرٌ بني قريظة ، فدفن في مقبرة بني قريظة .

ولما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغني : « لن تغزوَكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنَّكم تغزُونهم » .

فلم تغْزهم قريشٌ بعد ذلك ، وكان هو الذي يغزوها ، حتى فتح الله عليه مكَّة .

* غَزْوَةُ بَنِي لِحْيَان *

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفراً وشهرَيْ ربيع ، وخرج في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة ، إلى بني لِحيان ، يَطلُب بأصحاب الرجيع : خُبيب بن عديٍّ وأصحابه ، وأظهر أنه يريد الشامَ ؛ ليصيبَ من القوم غِرَّة[1] .

فخرج من المدينة[2] فسلك على غُراب : جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشام ، ثم على مَخِيض ، ثم على البتراء ، ثم صفَقَ[3] ذاتَ اليسار فخرج على بِين[4] ثم على صُخَيرات اليمام ، ثم استقام به الطريقُ على المحجَّة من طريق مكة فأغذَّ السيرَ سريعاً حتى نزل على غُرَان ، وهي منازل بني لحيان ـ وغُرَان : واد بين أمَج وعُسفان ، إلى بلد يقال له ساية ـ فوجدهم قد حَذِروا وتمنَّعوا في رءُوس الجبال ، فلما نزلها رسول الله ﷺ وأخطأه من غِرّتهم ما أراد قال : لو أنَّا هبطنا عُسفان لرأى أهلُ مكَّة أنَّا قد جئنا مكة . فخرج في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عُسفان ، ثم بعث فارسَين من أصحابه حتى بلغا كُراعَ الغُميم ، ثم كرَّ وراح رسولُ الله ﷺ قافلا .

فكان جابر بن عبد الله يقول :

سمعت رسولَ الله ﷺ يقول حين وَجَّهَ راجعاً :

آيبون تائبون إن شاء الله ، لربنا حامدون . أعوذ بالله من وَعْثاء السَّفر[5] وكآبة المنقلَب ، وسوء المنظر في الأهل والمال .

* غَزْوَةُ ذِي قَرَدٍ *

ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلم يُقم بها إلَّا لياليَ قلائل حتى أغار عُيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، في خيل من غطفان على لِقاح[6] لرسول الله ﷺ بالغابة[7] وفيها رجل من بني غِفار[8] وامرأةٌ له ، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأةَ في اللِّقاح .

---

(١) الغرة : الغفلة .

(٢) واستعمل عليها ابن أم مكتوم .

(٣) صفق : عدل وانصرف .

(٤) بين ، بالكسر : واد قرب المدينة .

(٥) أي مشقته وشدته .

(٦) اللقاح ، بكسر اللام : الإبل الحوامل ذوات الألبان .

(٧) الغابة : موقع قرب المدينة من ناحية الشام .

(٨) هو ابن أبي ذر .

وكان أوّلَ من نَذِر بهم[1] سلمةُ بن عمرو بن الأكوع السُّلَمي ، غدا يريد الغابَة متوشِّحاً قوسَه ونبله ، ومعه غلامٌ لطلحة بن عبيد الله ، معه فرس له يقوده . حتى إذا علا ثنيّة الوَداع نظر إلى بعض خيولهم ، فأشرفَ في ناحية سلع ثم صرخ : واصُبْحاه ! ثم خرج يشتدُّ في آثار القوم ، وكان مثلَ السبُع ، حتّى لحق بالقوم ، فجعل يردُّهم بالنَّبل ، ويقول إذا رمى : « خذها وأنا ابن الأكوع ، اليومَ يومُ الرُّضَّع »[2] ، فإذا وجِّهَت الخيلُ نحوه انطلق هارباً ثم عارَضهم ، فإذا أمكنه الرميُ رَمى ثم قال : خذها وأنا ابن الأكوع ، اليوم يوم الرضَّع » . فيقول قائلهم : أُوَيْكِعُنا هو أوّلَ النهار .

وبلغ رسولَ الله ﷺ ، صياحُ ابن الأكوع ، فصرخ بالمدينة : الفزع الفزع ! فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ .

وكان أول من انتهى إلى رسول الله ﷺ من الفُرسان المقداد بن عمرو ، ثم عبَّاد بن بشر بن وَقْش ، وسعد بن زيد ، وأُسَيد بن ظُهير ، وعُكَّاشة بن مِحصن ، ومُحرز بن نضلة ، وأبو قَتادة الحَارث بن رِبعيّ ، وأبو عيَّاش عُبَيد بن زيد . فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمَّر عليهم سعدَ بن زيد ، ثم قال : اخرجْ في طلب القوم حتى ألحقَك بالناس .

ولما تلاحقت الخيل قَتل أبو قتادة الحارثُ بنُ رِبعيّ ، حَبيبَ بن عيينة بن حصن ، وغشَّاه ببردِه ثم لحق بالناس .

وأقبل رسول الله ﷺ في المسلمين ، فإذا حبيبٌ مسجًّى ببرد أبي قَتادة ، فاسترجع الناس وقالوا : قُتِل أبو قتادة ! فقال رسول الله ﷺ : « ليس بأبي قتادة ، ولكنَّه قتيل لأبي قتادة وضَع عليه بردَه لتعرفوا أنَّه صاحبه » .

وأدرك عُكَّاشةُ بن مِحصن أوباراً وابنه عمرو بنِ أوبار ، وهما على بعيرٍ واحد ، فانتظمها بالرمح فقتلهما جميعاً ، واستنقذوا بعض اللِّقاح ، وسارَ رسولُ الله ﷺ حتَّى نزل بالجبَل من ذي قَرَد ، وتلاحق به الناس ، فنزل رسول الله ﷺ به وأقام عليه يوماً وليلة . وقال سلمة بن الأكوع : يا رسول الله ، لو سرَّحتَني في مائة رجُل لاستنقذتُ بقية

---

(١) نذر بهم : علم بهم .

(٢) جمع راضع ، والراضع : اللئيم . والمعنى : اليوم يهلك اللئام .

السَّرح ، وأخذتُ بأعناق القوم . فقال رسول الله ﷺ : « إنهم الآن ليُغبَقون في غطفان[1] .

فقسم رسول الله ﷺ في أصحابه ، في كل مائة رجل جزوراً ، وأقاموا عليها . ثم رجع رسول الله ﷺ قافلا حتى قدم المدينة .

وأقبلت امرأة الغِفاريّ على ناقةٍ من إبل رسول الله ﷺ حتى قدمت عليه ، فأخبرته الخبر ، فلما فرغت قالت : يا رسولَ الله ، إنّي قد نذرت لله أن أنحَرها إنْ نجَّاني الله عليها ! فتبسَّم رسول الله ﷺ ثم قال : « بئس ما جَزيْتِيها أن حَملكِ الله عليها ونجَّاك بها ثم تنحرينها ! إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين ، إنما هي ناقةٌ من إبلي ، فارجعي إلى أهلك على بركة الله » .

* غَزْوَةُ بَنِي المُصْطَلِق[2] *

فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعضُ جمادى الآخرة ورجباً ، ثم غزا بني المصطلِق من خزاعة ، في شعبان سنة ست .

بلغ رسولَ الله ﷺ أن بني المصطلق يجمعون له ، وقائدهم الحارثُ بن أبي ضرار ، أبو جُويرِيَة بنت الحارث زوج رسول الله ، فلما سمع رسول الله ﷺ بهم خرج إليهم حتى لقيَهُم على ماء يقال له : المُرَيْسيع ، من ناحية قديد إلى الساحل ، فتزاحفَ الناسُ واقتتلوا ، فهزمَ الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم ، ونفَّلَ رسولُ الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه .

وقد أُصيب رجلٌ من المسلمين من بني كعب بن عوف ، يقال له هشام بن صُبابة ، أصابه رجلٌ من الأنصار رهط عُبادة بن الصامت ، وهو يرى أنه من العدوّ فقتله خطأ .

فبينما رسولُ الله ﷺ على ذلك الماء ، وردت واردةُ الناس ، ومع عمر بنُ الخطاب أجيرٌ له من بني غِفار يقال له : جهجاه بن مسعود ، يقود فرسَه ، فازدحم جهجاه وسنان بن وَبْر الجهني على الماء ، فاقتتلا ، فصرخَ الجهنيُّ : يا معشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ! فغضب عبد الله بن أبيّ بن

(١) يغبقون : يسقون الغبوق ، وهو اللبن يشرب في العشي .

(٢) وتسمى أيضاً غزوة المريسيع .

سَلول ـ وعندَه رهطٌ من قومه فيهم زيد بن أرقم ، غلامٌ حدَث ـ فقال : أوَ قدْ فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعُدُّنا وجَلابيبَ قريش[1] إلا كما قال الأوّل : « سمِّنْ كلبَك يأكلْكَ ! » . أمَا والله لئن رجَعنا إلى المدينة ليُخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلّ ! ثم أقبلَ على مَن حضَره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادَكم ! وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم !

فسمع ذلك زيدُ بن أرقمَ فمشَى به إلى رسول الله ﷺ ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوّه ، فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مُرْ به عَبَّادَ بن بشر فليقتلْه . فقال رسول الله ﷺ : « فكيف يا عمر إذا تحدَّثَ الناسُ أنَّ محمداً يقتل أصحابه ! لا ولكن أذِّنْ بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها . فارتحل الناس .

وقد مشى عبد الله بن أبيّ بن سَلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أنَّ زيد بن أرقم قد بلَّغه ما سمع منه ، فحلف بالله : ما قلت ما قال ولا تكلَّمت به ! وكان في قومه شريفاً عظيما ، فقال من حضر رسولَ الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلامُ قد أوهَم في حديثه ولم يحفظْ ما قال الرجل ! حدَباً على ابن أُبيّ بن سلول ، ودفْعاً عنه .

فلما استقلَّ رسول الله ﷺ وسار ، لقيه أُسَيد بن حُضَير ، فحيّاه بتحية النبوّة وسلم عليه ثم قال : يا نبيّ الله ، والله لقد رُحتَ في ساعةٍ منكرة ما كنتَ تروح في مثلها ! فقال له رسول الله ﷺ : « أو مَا بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : وأيّ صاحبٍ يا رسولَ الله ؟ قال : عبد الله بن أُبيّ . قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إنْ رَجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذلّ . قال : فأنت يا رسول الله والله تخرجُه منها إن شئت ، هو والله الذليلُ وأنت العزيز ! ثم قال : يا رسول الله ، ارفقْ به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنَّ قومه لينظمون له الخَرزَ ليتوِّجُوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكاً .

ثم مشى رسولُ الله ﷺ بالناس يومَهم ذلك حتَّى أمسى ، وليلَتهم حتى أصبح ، وصَدْرَ يومِهم ذلك ، حتى آذتهم الشمس ، ثم نزلَ بالناس فلم يلبثوا أن وجَدوا مَسَّ الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليَشغل الناسَ عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبيّ .

---

(١) لقب كان المشركون يلقبون به من أسلم من المهاجرين .

ثم راح رسول الله ﷺ بالناس وسلك الحجازَ حتى نزلَ على ماء بالحجازِ فُويق النَّقيع يقال له بَقعاءُ ، فلما راح رسول الله ﷺ هبّت على الناس ريحٌ آذتهم وتخوَّفوها ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تخافوها ، فإنَّما هبّت لموتِ عظيم من عظماء الكفار » . فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت ، أحد بني قينُقاع ـ وكان عظيماً من عظماء يهود ، وكهفاً للمنافقين ـ مات في ذلك اليوم .

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أُبيٍّ ومَن كان على مثل أمره ، فلما نزلت أخذَ رسولُ الله ﷺ بأُذُن زيد بن أرقم ، ثم قال : هذا الذي أوفَى لله بأُذنه . وبلغ عبدَ الله بنَ عبد الله بن أُبيّ الذي كان من أمر أبيه فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغَك عنه ، فإن كنتَ لا بد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمتِ الخزرجُ ما كان لها من رجُل أبرَّ بوالده منِّي ، وإنِّي أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعُني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيّ يمشي في النَّاس ، فأقتلَه فأقتل رجُلًا مؤمناً بكافر فأدخلَ النارَ . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفَّق به ونُحْسِن صحبتَهُ ما بقي معنا » .

وجعل بعد ذلك إذا أحدثَ الحدثَ كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنِّفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطَّاب ، حين بلغَه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلتُه يوم قلت لي اقتلْه لأرعدَت له آنفٌ ولو أمرتها اليومَ بقتله لقتلَتْهُ » . قال عمر : قد والله علمتُ لأمرُ رسول الله ﷺ أعظمُ بركةً من أمري .

وقدم مِقْيس بن صُبابة من مكة مسلماً فيما يُظْهر ، فقال : يا رسول الله ، جئتك مسلماً ، وجئتك أطلب ديةَ أخي ، قُتل خطأً ! فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام بن صُبابة ، فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير ، ثم غدا عَلَى قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكة مرتدًّا .

وأُصيب من بني المصطلق يومئذ ناس(١) ، وقَتل عليٌّ بن أبي طالب منهم رجلين : مالكاً وابنه . وقتل عبد الرحمن بن عوف رجلًا من فرسانهم يقال له أحمر ، أو أُحيْمِر .

---

(١) قال ابن هشام : « وكان شعار المسلمين يوم بني المصطلق : يا منصور ، أمت أمت » .

وكان رسول الله ﷺ قد أصاب منهم سبياً كثيراً ، فَشَا قَسْمُه في المسلمين ، وكان فيمن أُصيب يومئذ من السبايا جُويرية بنت الحارث بن أبي ضِرار ، زَوْج رسول الله ﷺ .

قالت عائشة : لما قسم رسولُ الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشَّماس ، أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة مُلَّاحة[1] ، ولا يراها أحدٌ إلا أخذَتْ بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها ، وعرفت أنه سيرى منها رسولُ الله ﷺ ما رأيت ، فدخلتْ عليه فقالت : يا رسولَ الله ، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك ، فوقَعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشمَّاس ـ أو لابن عم له ـ فكاتبته على نفسي ، فجئتك أستعينك على كتابتي . قال : فهل لك في خيرٍ من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أقضي عنك كتابتَك وأتزوّجك . قالت : نعم يا رسول الله . قال : قد فعلت » .

وخرج الخبر إلى الناس أنَّ رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار ، فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ . وأرسلوا ما بأيديهم .

قالت : فلقد أُعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظمَ عَلَى قومها بركةً منها .

وعن يزيد بن رُومان : أن رسول الله ﷺ بعث إليهم بعد إسلامهم الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط ، فلما سمِعوا به ركبوا إليه ، فلما سمِع بهم هابهم ، فرجَع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أنَّ القومَ قد همُّوا بقتله ومنعوه ما قِبَلهم من صدقتهم ، فأكثرَ المسلمون في ذكر غزوهم حتى همَّ رسولُ الله ﷺ بأن يغزوهم ، فبينما هم عَلَى ذلك قدِم وفدُهم عَلَى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسولَ الله ، سمعنا برسولك حين بعثتَه إلينا ، فخرجنا إليه لنكرمه ، ونؤدّيَ إليه ما قبلنا من الصدقة ، فانشمَرَ راجعاً[2] ، فبلغنا أنه زعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا إليه لنقتله ، ووالله ما جئنا لذلك .

---

(١) أي شديدة الملاحة .

(٢) انشمر : جد وأسرع .

فأنزل الله تعالى فيه وفيهم : ﴿يأيُّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبإٍ فتبيَّنوا أن تُصيبوا قَوْماً بجَهَالةٍ فتُصبحوا على ما فَعلتُمْ نادِمِين * واعْلَموا أنّ فيكم رسولَ الله لو يُطيعُكُم في كَثيرٍ من الأمر لَعنِتّمْ﴾ إلى آخر الآية .

وقد أقبل رسولُ الله ﷺ من سفره ذلك حتى إذا كان قريباً من المدينة ، وكانت معه عائشة في سفرِه ذلك ، قال فيها أهل الإفك ما قالوا .

* خبَرُ الإفْكِ في غزْوَةِ بني المُصْطَلِقِ سَنَةَ سِتّ *

عن عائشة قالت :

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرعَ بين نسائه ، فأيَّتُهُنَّ خرج سهمُها خرجَ بها معه ، فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نِسائه كما كان يصنع ، فخرج سهمي عليهنَّ معه ، فخرج بي رسول الله ﷺ .

وكان النساءُ إذ ذاك إنما يأكلن العُلَقَ(١) لمْ يُهَبِّجْهنَّ اللحمُ فيثقُلن(٢) ، وكنت إذا رُحل لي بعيري جلست في هَودَجي ، ثم يأتي القوم الذين يرحَلون لي ويحملونني ، فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحبالِه ، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به .

فلمَّا فرغَ رسول الله ﷺ من سفره ذلك وجَّه قافلا ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلا فبات به بعضَ الليل ، ثم أذَّنَ في الناس بالرحيل فارتحل الناس ، وخرجتُ لبعض حاجتي وفي عنقي عِقدٌ لي ، فيه جَزْعُ ظَفَار(٣) ، فلما فرغتُ انسلَّ من عنقي ولا أدري ، فلما رجعتُ إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجدْه ، وقد أخذ الناس في الرحيل ، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم خِلافي ، الذين كانوا يَرحلون لي البعير(٤) ، وقد فرغوا من رَحلته ، فأخذوا الهودجَ وهم يظنُّون أنِّي فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدُّوه على البعير ، ولم يشُكُّوا أنِّي فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعتُ إلى العسكر وما فيه من داعٍ ولا مجيب ، قد

---

(١) العلق : جمع علقة ، بالضم ، وهو ما يتبلغ به من الطعام .

(٢) الهبج : الورم . هبجه تهبيجاً : ورمه .

(٣) الجزع : الحرز . وظفار : مدينة باليمن قرب صنعاء .

(٤) رحل البعير : وضع عليه الرحل .

انطلق الناس ، فتلفَّفتُ بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني ، وعرفت أن لو قد افتُقدتُ لرُجع إليّ ، فوالله إنِّي لمضطجعةٌ إذ مرَّ بي صفوان بن المعطَّل السلميّ ، وقد كان تخلَّف عن العسكر لبعض حاجته ، فلم يَبِتْ مع الناس ، فرأى سوادي فأقبلَ حتى وقفَ عليّ ، وقد كان يراني قبل أن يُضربَ علينا الحجاب ، فلما رآني قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، ظعينة رسولِ الله ﷺ ! وأنا ملتفِّفة في ثيابي . قال : ما خلَّفكِ يرحمكِ الله ؟ فما كلَّمته . ثم قرّب البعيرَ فقال : اركبي واستأخَرَ عني . فركبتُ وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلبِ الناس ، فوالله ما أدركنا الناس وما افتُقدت حتى أصبحت ، ونزل الناس ، فلما اطمأنُّوا طلع الرجلُ يقودُ بي ، فقال أهل الإفك ما قالوا . فارتعج[1] العسكر ، ووالله ما أعلم بشيءٍ من ذلك .

ثم قدِمنا المدينة ، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة[2] ، ولا يبلُغني من ذلك شيءٌ ، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبويّ لا يذكرون لي منه قليلا ولا كثيراً ، إلاَّ أنِّي قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعضَ لطفه بي ، كنت إذا اشتكيت رحمني ولَطَف بي ، فلم يفعل ذلك بي في شكوايَ تلك ، فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دَخل عليَّ وعندي أُمي[3] تمرّضني قال : كيف تيكم ؟ لا يزيد على ذلك ، حتى وَجدتُ[4] في نفسي فقلت : يا رسول الله ـ حين رأيتُ ما رأيتُ من جفائه لي ـ لو أذِنْتَ لي فانتقلتُ إلى أُمِّي فمرّضَتْني ؟ قال : لا عليك .

قالت : فانتقلت إلى أمِّي ولا علمَ لي بشيء مما كان ، حتى نَقِهتُ من وجَعي بعد بضع وعشرين ليلة .

وكنَّا قوماً عرباً لا نتَّخذ في بيوتنا هذه الكُنُفَ التي تتَّخذها الأعاجمُ ، نعافها ونكرهها ، إنما كنا نذهب في فُسَح المدينة ، وإنما كانت النساء يخرجن كلَّ ليلة في حوائجهنّ ، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أُمُّ مِسطح بنت أبي رُهم بن المطلب بن عبد مناف : فوالله إنها لتمشي معي إذْ عثرتْ في مِرْطها[5] ، فقالت تَعِسَ مِسْطح ! قالت : فقلتُ : بئس لعمرُ الله ما قلتِ لرجلٍ من المهاجرين قد شهد بدراً ! قالت : أو

---

(١) ارتعج ، تحرك واضطرب .
(٢) الشكوى : المرض .
(٣) اسمها زينب بنت عبد دهمان ، فيما قال ابن هشام .
(٤) الوجد : الحزن .
(٥) المرط : الكساء .

ما بلَغك الخبر يا بنت أبي بكر ؟ قلت : وما الخبر ؟ فأخبرتْني بالذي كان من قول أهل الإفك . قلت : أوَ قد كان هذا ؟ قالت : نعم والله لقد كان .

قالت : فوالله ما قَدَرت على أن أقضيَ حاجتي ، ورجعت ، فوالله ما زلتُ أبكي حتى ظننتُ أنَّ البكاء سَيصدَع[١] كبدي ، وقلت لأمي : يغفر الله لكِ ، تحدَّث الناس بما تحدّثُوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً ! قالت : أي بنيةُ ، خفِّضي عليك الشأن[٢] ، فوالله لقلَّما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبُّها ، لها ضرائر ، إلا كثَّرن وكثَّر الناس عليها[٣] .

قالت : وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم ـ ولا أعلم بذلك ـ فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيُّها الناس ، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غيرَ الحق ، والله ما علمت منهم إلاَّ خيراً ، ويقولون ذلك لرجلٍ والله ما علمت منه إلاَّ خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلاَّ وهو معي » .

قالت : وكان كِبْرُ ذلك[٤] عند عبد الله بن أُبيٍّ بن سَلول في رجالٍ من الخزرج ، مع الذي قال مِسطح وحَمْنة بنت جحش . وذلك أنَّ أُختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ ، ولم تكن من نسائه امرأةٌ تناصيني[٥] في المنزلة عنده غيرُها . فأما زينب فعصَمها الله بدينها فلم تقلْ إلاَّ خيراً . وأمّا حَمْنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت ، تضادُّني لأختها ، فشقيتُ بذلك .

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة قال أسيد بن حُضير : يا رسولَ الله ، إن يكونوا من الأوس نكفيكَهم ، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهلٌ أن تضربَ أعناقهم ! فقام سعد بن عُبادة ، وكان قبل ذلك يُرَى رجلاً صالحاً ، فقال : كَذبتَ لعمر الله ، لا نضرب أعناقهم ، أمَا والله ما قلتَ هذه المقالةَ إلاَّ أنك قد عرفتَ أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلتَ هذا فقال أُسَيد : كذبتَ لعمر الله ، ولكنَّك منافق تجادلُ عن المنافقين !

---

(١) يصدع : يشق .

(٢) أي هوّني عليك الأمر .

(٣) أي كثروا القول فيها والعنتِ عليها . ويروى : « كبرن » من الكبر وهو الإثم .

(٤) كبر ذلك ، أي معظم ذلك الإثم .

(٥) المناصاة : المساواة .

قالت : وتساوَرَ الناس[١] حتَّى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شرّ ، ونزل رسول الله ﷺ[٢] فدخل عليّ ، فدعا عليّ بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد ، فاستشارهما ، فأمّا أسامةُ فأثنى عَلَيَّ خيراً وقاله ثم قال : يا رسول الله ، أهلُك ولا نعلم إلَّا خيراً ، وهذا الكذبُ والباطل ! وأما عليّ فإنه قال : يا رسولَ الله ، إنَّ النساء لكثير ، وإنك لقادرٌ عَلَى أن تَستخلف ، وسلِ الجارية فإنها تَصدُقك .

فدعا رسولُ الله ﷺ بُريرَة[٣] ليسألها ، فقام إليها علي بن أبي طالب فضربَها ضرباً ويقول : اصدُقِي رسول الله ﷺ . فتقول : والله ما أعلم إلَّا خيراً ، وما كنت أعيب عَلَى عائشة شيئاً إلَّا أنِّي كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظَه ، فتنام عنه فتأتي الشاةُ فتأكله !

قالت : ثم دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي أبواي ، وعندي امرأة من الأنصار ، وأنا أبكي وهي تبكي معي ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا عائشة ، إنه كان ما بلغك من قول الناس فاتَّقي الله ، وإن كنت قد قارفْتِ سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله ، فإنَّ الله يقبل التوبة من عباده ! فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك فقلَصَ دمعي[٤] حتى ما أُحسُّ منه شيئاً ، وانتظرت أبَويَّ أن يجيبا عنِّي رسولَ الله ﷺ ، فلم يتكلَّما ! وايمُ الله لأنَا كنت أحقَرَ في نفسي وأصغرَ شأناً مِن أن يُنزلَ الله فيَّ قرآناً يُقرأ به في المساجدِ ويصلَّى به ، ولكني قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئاً يكذِّبُ به الله عنِّي ، لما يَعلم من براءتي ، أو يُخْبِرَ خبَرا ؛ فأمَّا قرآن يُنْزلُ فيّ فوالله لنَفسي كانت أحقرَ عندي من ذلك !

فلمَّا لم أر أبويَّ يتكلمان قلتُ لهما : ألا تجيبان رسول الله ﷺ ؟ فقالا : والله ما ندري بماذا نجيبه . ووالله ما أعلم أهلَ بيتٍ دخل عليهم ما دخلَ على آل أبي بكر في تلك الأيام !

فلما أن استعجما عليَّ[٥] استعبرتُ فبكيت ، ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله ممَّا ذكرتَ أبداً ! والله إنِّي لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناسُ والله يعلم أنِّي منه بريئة لأقولنَّ ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني .

---

(١) تساوروا : تواثبوا .

(٢) أي من على المنبر .

(٣) بريرة : مولاة عائشة .

(٤) قلص : ارتفع وأمسك .

(٥) استعجم : لم ينطق .

قالت : ثم التمست اسم يعقوبَ فما أذكره ، فقلت ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : ﴿فصَبرٌ جميلٌ والله المستعانُ على ما تَصِفُونَ﴾ . فوالله ما برحَ رسولُ الله ﷺ مجلسَه حتى تغشّاه من الله ما كان يتغشّاه ، فسُجّيَ بثوبه ووُضعتْ له وسادةٌ من أدَم تحت رأسه ، فأمَّا أنا حين رأيتُ من ذلك ما رأيتُ فوالله ما فزِعتُ ولا باليت ، قد عرَفْتُ أني بريئة ، وأن الله عزَّ وجلَّ غيرُ ظالمي . وأمَّا أبوايَ فوالذي نفسُ عائشةَ بيده ما سُرِّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننتُ لتخرجنَّ أنفسُهما ، فَرقاً من أن يأتيَ من الله تحقيقُ ما قال الناس .

قالت : ثم سُرِّي عن رسول الله ﷺ فجلسَ وإنَّه ليتحدَّر منه مثل الجُمَان[1] في يومٍ شاتٍ ، فجعل يمسح العرقَ عن جبينه ويقول : أبشري يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك . قلت : بِحمدِ الله !

ثم خرجَ إلى الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ، ثم أمر بِمسطحٍ بن أثاثة ، وحسَّانَ بن ثابت ، وحَمْنَة بنت جحش ، وكانوا ممن أفصحَ بالفاحشة ، فضربوا حدَّهم .

قال ابن إسحاق : عن بعض رجالِ بني النجار ، أن أبا أيوب خالدَ بن زيد قالت له امرأته أم أيوب ، أتسمع ما يقول الناسُ في عائشة ؟ قال : بلى ، وذلك الكذبُ ، أكنتِ يا أم أيوب فاعلة ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك !

قالت : فلما نزلَ القرآن ذَكر من قال من أهلِ الفاحشة ما قال من أهل الإفك فقال تعالى : ﴿إنَّ الذين جـاءُو بالإفكِ عُصْبةٌ منكم لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لكم بلْ هو خيرٌ لكم لكُلِّ امرىءٍ منهم ما اكتسبَ مِن الإثم والذي تَولى كِبْرَه منهم له عذابٌ عظيم﴾ ـ وذلك حسانُ بن ثابت وأصحابه الذين قالوا ما قالوا ـ ثم قال تعالى : ﴿لولا إذْ سَمعتموه ظَنَّ المؤمنون والمؤمناتُ بأنفُسهم خيراً﴾ ، أي فقالوا كما قال أبو أيوب وصاحبته .

ثم قال : ﴿إذْ تَلَقَّونَهُ بألسِنَتكم وتَقُولون بأفواهكم ما ليس لكم به عِلمٌ وتَحسَبونَه هيِّناً وهو عندَ الله عَظيمٌ﴾ .

فلما نزل هذا في عائشة وفيمن قال لها ما قال ، قال أبو بكر ، وكان يُنفق على مِسطح لقرابته وحاجته : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً ، ولا أنفعه بنفع أبداً بعد الذي قال لعائشة وأدخلَ علينا .

---

(١) الجمان : حب كالدر يصنع من الفضة .

قالت : فأنزل الله في ذلك : ﴿ولا يَأتلِ أُولوا الفضل منكم والسَّعةِ أن يُؤتوا أُولِي القُربَى والمساكينَ والمُهاجِرينَ في سَبيلِ الله ولْيَعْفُوا ولْيَصْفَحوا ألاَ تُحبُّون أنْ يَغفرَ الله لكم والله غفورٌ رحيم﴾ . فقال أبو بكر : بَلى والله إنّي لأحبُّ أن يَغفر الله لي . فرجع إلى مسطحٍ نفَقَتَه التي كان يُنفق عليه ، وقال : والله لا أنزِعها منه أبداً .

قال ابن إسحاق : وقال قائلٌ من المسلمين في ضرب حسَّان وأصحابه في فِريتهم على عائشة :

لقد ذاقَ حسَّانُ الذي كان أهلَه ... وحَمنةُ إذ قالوا هَجيراً ، ومسطحُ[1]
تعاطَوا برجم الغيب زوجَ نبيِّهم ... وسَخطةِ ذي العرش الكريم فأترحوا[2]
وآذَوا رسول الله فيها فجُلِّلوا ... مَخازيَ تَبقَى عُمِّموها وفُضِّحوا
وصُبَّت عليهم مُحْصَداتٌ كأنها ... شآبيبُ قَطرٍ من ذُرى المزن تَسفَحُ[3]

أمْرُ الحُدَيْبِيَةِ فِي آخِرِ سَنَةِ سِتٍّ

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهري رمضان وشوالا ، وخرج في ذي القعدة معتمراً لا يريد حرباً[4] واستنفر العربَ ومَن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريشٍ الذين صنعوا : أن يَعرِضوا له بحربٍ أو يصدُّوه عن البيت . فأبطأ عليه كثيرٌ من الأعراب ، وخرج رسولُ الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومَن لحقَ به من العرب ، وساقَ معه الهَدْي[5] ، وأحرم بالعمرة ، ليأمَن الناسُ مِن حربه ، وليعلم الناسُ أنَّه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظِّماً له .

وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعُسْفان[6] لقيه بِشر بن سفيان الكعبيُّ ، فقال : يا رسولَ الله ، هذه قريشٌ قد سمعتْ بمسيرك ، فخرجوا معهم العُوذ

---

(١) الهجير : الهجر ، والقول الفاحش القبيح .
(٢) الرجم : القول بالظن . أترحوا : أحزنوا . الترح : الحزن .
(٣) المحصدات : السياط المحكمة الفتل الشديدة . الشآبيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر . الذرى : الأعالي . المزن : السحاب . تسفح : تسيل .
(٤) قال ابن هشام : واستعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي .
(٥) كان سبعين بدنة ، وكان الناس سبعمائة رجل ، فكانت كل بدنة عن عشرة نفر .
(٦) عسفان : منهل من مكة على مرحلتين .

المطافيل[1] ، وقد نزلوا بذي طُوًى[2] يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالدُ بن الوليد في خيلهم قد قدَّموها إلى كُراع الغَميم[3] . فقال رسول الله ﷺ : « يا ويحَ قريش ! لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خَلَّوا بيني وبين سائر العرب ، فإنْ هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافِرين ، وإن لم يفعلوا قاتَلوا وبهم قوة ، فما تظنُّ قريش ؟ فوالله لا أزال أُجاهد على الذي بعثني به حتى يُظهره الله أو تنفردَ هذه السالفة »[4] !

ثم قال : « مَن رجلٌ يخرجِ بنا عَلَى طريق غيرِ طريقهم التي هم بها ؟ » وإنَّ رجلاً من بني أسلم قال : أنا يا رسولَ الله . فسلك بهم طريقاً وعراً أجرَلَ[5] بين شِعاب ، فلما خرجوا منه وقد شقَّ ذلك على المسلمين وأفضَوا إلى أرضٍ سهلة عند منقطَع الوادي قال رسول الله ﷺ للناس : «قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه . فقالوا ذلك . فقال : والله إنها للحِطَّة[6] التي عُرضَتْ عَلَى بني إسرائيل فلم يقولوها » .

فأمر رسول الله ﷺ الناسَ فقال : « اسلكوا ذات اليمين بين ظَهْرَي الحمض ، في طريقٍ تخرجهم على ثَنِيَّة المُرار ، مَهبِط الحديبية من أسفل مكة .

فسلك الجيشُ ذلك الطريق ، فلما رأتْ خيلُ قريشٍ قَتَرةَ الجيش[7] ، قد خالفوا عن طريقهم ، رَجعوا راكضين إلى قريش . وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنيّة المُرار بركت ناقتُه ، فقالت الناس : خَلأت[8] الناقة . قال : ما خلأتْ ، وما هو لها بخُلق ، ولكن حبسها حابسُ الفيل عن مكة لا تدعوني قريشٌ اليومَ إلى خُطَّةٍ يسألونني فيها صلَة الرحم إلَّا أعطيتُهم إياها . ثم قال للناس : انزلوا . قيل له : يَا رسولَ الله ، ما

---

(١) العوذ : جمع عائذ ، وهي الحديثة النتاج من الإبل . المطافيل : التي معها أولادها . يريد أنهم خرجوا بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا ألبانها ولا يرجعوا حتى يناجزوا محمداً .

(٢) ذو طوى : موضع قرب مكة .

(٣) كراع الغميم : واد أمام عسفان بثمانية أميال .

(٤) السالفة : صفحة العنق .

(٥) الأجرل : الكثير الحجارة .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وقولوا حطة﴾ ، ومعناه : اللهم حط عنا ذنوبنا .

(٧) القترة : الغبار .

(٨) خلأت : بركت ولم تنبض .

بالوادي ماء نَنْزل عليه . فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به في قليب من تـلك القُلُب[1] فغرزه في جوفه ، فجاش بالرَّواء[2] حتَّى ضرب الناس عنه بعَطَن[3] .

فلما اطمأنَّ رسول الله ﷺ أتاه بُدَيل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة ، فكلَّموه وسألوه : ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم أنَّه لم يأتِ يريد حرباً ، وإنَّما جاء زائراً للبيت ، ومعظماً لحرمته ، ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بـن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش ، إنكم تَعجلون على محمد ، إن محمداً لم يأت لقتالٍ وإنَّما جاء زائراً هذا البيت .

فاتَّهموهم وجبَّهوهم[4] وقالوا : وإن كان جاء لا يريد قتالا ، فوالله لا يدخلها عَلينا عنوةً أبداً ، ولا تَحدَّثُ بذلك عنّا العرب .

وكانت خزاعة عَيبةَ نصحٍ[5] رسول الله ﷺ ، مسلمُها ومشركها لا يُخْفون عنه شيئاً كان بمكة .

ثم بعثوا إليه مِكرز بن حفص بن الأخيف ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : هذا رجلٌ غادر . فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلّمه قال له رسول الله ﷺ نحواً مما قال لبديل وأصحابه فرجَع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ .

ثم بعثوا إليه الحُلَيسَ بن علقمة ـ أو ابن زبان ـ وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « إنَّ هذا من قوم يتألَّهون[6] ، فابعثوا الهَدْيَ في وجهه حتى يراه » ، فلمَّا رأى الهدي يسيل عليه من عُرض الوادي[7] في قلائده[8] ، وقد أكل أوبَارُه من طول الحبس عن مَحِلِّه[9] ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ ، إعظاماً لما رأى . فقال لهم ذلك ، فقالوا له : اجلس فإنَّما أنت أعرابيٌّ لا علمَ لك . فغضب عند ذلك وقال : يا معشرَ قريش ، والله ما على هذا حالفناكم ، ولا عَلَى هذا

---

(١) القليب : البئر .
(٢) جاش : ارتفع ، الرواء : الكثير .
(٣) العطن : مبرك الإبل حول الماء .
(٤) جبهه : خاطبه بما يكره .
(٥) أي خاصته وأصحاب سره .
(٦) يتألهون : يتعبدون ويعظمون الله .
(٧) عرض الوادي : جانبه .
(٨) القلادة : ما يعلق في عنق الهدي إعلاماً له .
(٩) المحل : الموضع الذي ينحر فيه من الحرم .

عاقدناكم ، أيُصَدُّ عن بيت الله مَن جاء معظِّماً له ! والذي نفسُ الحُلَيس بيده لتُخلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفِرنَّ بالأحابيش نَفْرةَ رجل واحد ! فقالوا له : مَهْ ، كفَّ عنّا يا حُلَيس حتّى نأخذَ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي ، فخرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد ، أجَمَعتَ أوشابَ[1] الناس ثمَّ جئت بِهمْ إلى بيضتك[2] لتَنُضَّها بهم[3]. إنها قريشٌ قد خرجت معها العُوذ المطافيل[4] ، قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عَنوةً أبداً ، وايمُ الله لكَأنِّي بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ! وأبو بكر الصدّيق خلفَ رسول الله ﷺ قاعد ، فقال : امصَصْ بظر اللات ، أنَحن ننكشف عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أبي قحافة . قال : أما والله لولا يدٌ كانت لك عندي لكافأتك بها ، ولكن هذه بها .

ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلِّمه ، والمغيرة بن شعبة واقفٌ على رأس رسول الله ﷺ في الحديد ، فجعل يَقْرَع يدَه إذا تناولَ لحية رسول الله ﷺ ويقول : اكفف يدَك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك ! فيقول عروة : ويحك ! ما أفظَّك وأغلظَك ! فتبسَّم رسول الله ﷺ ، فقال له عروة : مَن هذا يا محمد ؟ قال هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة . قال : أيْ غُدَر ، وهل غسلتَ سوءتَك إلَّا بالأمس[5] ! فكلمه رسول الله ﷺ بنحوٍ مما كلَّم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً .

فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضّأ إلا ابتدروا وَضوءه ، ولا يبصُق بصاقاً إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيءٌ إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشرَ قريش ، إنِّي قد جئتُ كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشيَّ في ملكه ، وإنِّي والله ما رأيتُ ملكاً في قومٍ قطُّ مثل محمد في أصحابه ! ولقد رأيت قوماً لا يُسْلمونه لشيء أبداً ، فَرَوْا رأيكم .

---

(١) الأوشاب : الأخلاط .
(٢) بيضة الرجل : قبيلته وعشيرته .
(٣) تفضها : تكسرها .
(٤) أنظر ما سبق في صفحة ١٩٤ .
(٥) قال ابن هشام : أراد عروة بهذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف ، فتهايج الحيان من ثقيف : بنو مالك رهط المقتولين ، والأحلاف رهط المغيرة ، فودي عروة المقتولين ثلاث عشرة دية ، وأصلح ذلك الأمر .

وإن رسول الله ﷺ دعا خِراشَ بن أمية الخُزَاعي ، فبعثه إلى قريشٍ بمكَّة ، وحمله على بعيرٍ له يقال له : « الثعلب » ، ليبلِّغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقروا به جملَ رسول الله ﷺ وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش فخلَّوا سبيله ، حتى أتى رسول الله ﷺ .

ثم دعا عمرَ بن الخطاب ليبعثه إلى مكَّة فيبلِّغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال : يا رسول الله ، إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عديّ بن كعب أحدٌ يمنعني ، وقد عرَفَتْ قريشٌ عداوتي إيَّاها ، وغلظتي عليها ، ولكني أدلُّك على رجل أعزَّ بها منِّي : عثمان بن عفان .

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفَّان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنَّه لم يأتِ لحربٍ ، وأنَّه إنَّما جاء زائراً لهذا البيت ومعظِّماً لحرمته .

فخرج عثمان إلى مكة فلقيهُ أبان بن سعيد بن العاص ، حين دخل مكَّة ، أو قبل أن يدخلها ، فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلَّغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلَّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تَطوف بالبيت فطُفْ . فقال : ما كنتُ لأفعل حتَّى يطوف به رسول الله ﷺ . واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسولَ الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قُتِل .

* بَيْعَةُ الرِّضْوَان *

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر :

أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قُتل : لا نَبرحْ حتى نناجز القوم . فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة . فكَانت بَيعة الرِّضوان تحت الشجرة .

فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ عَلَى الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إنَّ رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايَعنا على ألَّا نفر .

فبايع رسولَ الله ﷺ الناسُ[1] ، ولم يتخلَّفْ عنه أحدٌ من المسلمين حضرها ، إلا الجدُّ بن قيس ، أخو بني سلمة ، فكان جابر بن عبد الله يقول والله لكأني أنظر إليه

---

(١) ذكر ابن هشام أن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدي .

لاصقاً بإبط ناقته ، قد ضبأ إليها[1] يستتر بها من الناس .

ثم أتى رسولَ الله ﷺ أن الذي ذُكر من أمر عثمان باطل .

* أمْرُ الهُدْنةِ (صُلْحُ الحُدَيْبِيَة) *

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو ، أخا بني عامرِ بن لؤي ، إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : ائت محمداً فصالحْه ، ولا يكن في صلحه إلَّا أن يرجع عنّا عامَهُ هذا ، فوالله لا تحَدَّثُ العربُ عنَّا أنه دخلها علينا عَنوةً أبداً .

فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : قد أراد القومُ الصلح حين بعثوا هذا الرجل . فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام ، وتَراجَعا ، ثم جَرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر ولم يبق إلَّا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ، قال : بلى . قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعَلامَ نُعطِي الدنيَّة[2] في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عُمر ، الزم غَرْزَه[3] فإني أشهد أنَّه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى رسولَ الله ﷺ فقال : يا رسولَ الله ألستَ برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أوَ لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلامَ نُعطِي الدنيّة في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسولُه ، لن أخالفَ أمرَه ولن يُضِيعني .

فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق مِن الذي صنعتُ يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمتُ به ، حتى رجوتُ أن يكون خيراً .

ثم دعا رسول الله ﷺ عَلِيّ بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال : اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب « باسمك اللهم » . فكتبها .

---

(١) ضبأ إليها : لصق بها واستتر .

(٢) الدنية : الذل والأمر الخسيس .

(٣) أي الزم أمره . والغرز للرحل ، بمنزلة الركاب للسرج .

ثم قال : اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد رسولُ الله سُهيلَ بن عمرو». فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلْك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله ﷺ : اكتب :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سُهيلَ بن عَمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضُهم عن بعض ، على أنه مَن أتى محمداً من قريش بغير إذْن وليِّه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردَّه عليه . وإن بيننا عَيبةً مكفوفة[١] . وإنه لا إسلال ولا إغلال[٢] وإنه مَن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم ، وإنك ترجع عنّا عامَك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وإنه إذا كان عامٌ قابلٌ خرجنا عنها فدخلتَها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ، معك سِلاح الرَّاكب ، السيوف في القُرُب ، لا تَدخلها بغيرها .

فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، يرسُفُ في الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا ، وهم يشكون في الفتح ، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمَّل عليه رسول الله ﷺ في نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمرٌ عظيم حتى كادوا يَهلِكون . فلما رأى سهيلُ أبا جندل قام إليه فضربَ وجهه وأخذ بتلبيبه[٣] ، ثم قال : يا محمد ، قد لَجّت القضية[٤] بيني وبينك قبل أن يأتَيك هذا . قال : صدقت . فجعل يَنتُره[٥] بتلبيبه ويجرُّه ليردَّه إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟! فزادَ ذلك الناسَ إلى ما بهم ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا جندل ، اصبر

---

(١) أصل العيبة وعاء من جلد يكون فيه المتاع . مكفوفة : أشرجت على ما فيها وأقفلت . ضرب ذلك مثلاً للقلوب التي طويت على ما تعاقدوا عليه .
(٢) الإسلال : السرقة الخفيفة . والإغلال : الخيانة .
(٣) التلبيب : مجمع الثياب عند الصدر والنحر ، أخذ بتلبيبه : جمع عليه ثوبه عند صدره وقبض عليه يجره .
(٤) لجت القضية : تم الحكم .
(٥) نتره : جذبه جذباً شديداً .

واحتسب ، فإنّ الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعَفِين فرجاً ومخرجاً ! إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنّا لا نغدر بهم » .

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل فإنهم المشركون ، وإنّما دمُ أحدهم دمُ كلب ! ويدني عمر قائمَ السيف منه ، يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيفَ فيضرب به أباه ! فضنّ الرّجل بأبيه ، ونفذت القضية .

فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالا من المشركين : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود بن مَسلمة ، ومِكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك ، وعلي بن أبي طالب وكتَبَ ، وكان هو كاتبَ الصحيفة .

وكان رسول الله ﷺ مضطرباً في الحِلّ ، وكان يصلِّي في الحرمِ فلمَّا فرغ من الصُّلح قام إلى هديه فنحره ، ثم جلس فحلق رأسه ، فلما رأى الناسُ أنّ رسول الله ﷺ قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون .

ثمّ انصرف رسول الله ﷺ من وجههِ ذلك قافلا ، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح : ﴿إنا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً * لِيغفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّم مِنْ ذَنْبك وما تأخَّر ، ويُتِمَّ نعمتَه عليكَ ويَهدِيَك صراطاً مستقيماً﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿لقد صدَقَ اللَّهُ رسولَه الرؤيا بالحقِّ لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء اللَّهُ آمنينَ ، محلِّقينَ رُءُوسَكم ومُقَصِّرين لا تَخافون ، فعَلِم ما لم تعلموا﴾ أي لرؤيا رسول الله ﷺ التي رأى ، أنه سيدخل مكة آمناً لا يخاف . يقول : محلقين رءُوسكم ومقصّرين معه لا تخافون ، فعلم من ذلك ما لم تعلموا ﴿فَجَعَلَ من دُون ذلك فتحاً قريباً﴾ : صلح الحديبية .

يقول الزُّهري : فما فتح في الإسلام فتحٌ قبلَه كان أعظمَ منه ، إنّما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهُدنة ووُضعت الحَرب ، وأمِن الناس بعضُهم بعضاً ، والتقَوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلِّمْ أحدٌ بالإسلام يَعقِل شيئاً إلاّ دخلَ فيه . ولقد دخل في تينك السنتين مثلُ من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر[1] .

---

(١) قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مائة ، في قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف .

* ذِكْرُ المَسِيرِ إِلَىٰ خَيْبَرَ فِي المُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ *

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعضَ المحرّم ، وولِيَ تلك الحجة المشركون ، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر .

عن أبي معتِّب بن عمرو :

أن رسول الله ﷺ لما أشرفَ على خيبر قال لأصحابه وأنا فيهم : قِفوا . ثم قال :

« اللهمَّ ربَّ السَّمواتِ وما أظْلَلْنَ ، وربَّ الأرضين وما أقْلَلْنَ ، وربَّ الشياطينِ وما أضْلَلْنَ ، ورب الرِّياح وما أذرَيْنَ ، فإنَّا نسألك خيرَ هذه القرية وخيرَ أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرِّها وشرِّ أهلها وشرِّ ما فيها . أقدِموا باسم الله » .

قال : وكان يقولها عليه السلام لكل قريةٍ دخلها .

وعن أنس بن مالك قال :

كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً لم يُغِرْ عليهم حتَّى يصبح ، فإن سَمِعَ أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذاناً أغار . فنزلنا خيبر ليلا ، فبات رسولُ الله ﷺ ، حتى إذا أصبح لم يَسمع أذاناً ، فركب وركبنا معه ، فركبتُ خلفَ أبي طلحة وإنَّ قدمي لَتمسُّ قدمَ رسول الله ﷺ ، واستقبلنا عُمَّال خيبر غادين ، قد خرجوا بمساحيهم ومَكاتلهم[١] ! فلما رأوا رسولَ الله ﷺ والجيشَ قالوا : محمد والخميس[٢] ! فأدبروا هُرَّابا ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، خرِبت خيبر ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباحُ المنذَرين .

قال ابن إسحاق : وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر سلك على عِصْر[٣] ، فبُني له فيها مسجد ، ثم على الصَّهباء[٤] . ثم أقبلَ رسول الله ﷺ بجيشه حتى نزل بوادٍ يقال له الرجيع ، فنزل بينهم وبين غطَفان ، ليحُولَ بينهم وبين أن يُمدُّوا أهل خيبر ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ .

---

(١) المساحي : جمع مسحاة ، وهي مجرفة من حديد . والمكتل : قفة كبيرة .

(٢) الخميس : الجيش ، لانتظامه خمس فرق : الميمنة ، والميسرة ، والمقدمة ، والمؤخرة ، والقلب

(٣) جبل بين المدينة ووادي الفرع .

(٤) موضع بينه وبين خيبر روحة .

فبلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل الرسول ﷺ من خيبر جَمَعوا له ، ثم خرجوا لِيُظاهروا[1] يهود عليه ، حتى إذا ساروا مَنْقلةً[2] سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حِسا ، ظنُّوا أن القوم قد خالفوا إليهم ، فرجعوا عَلَى أعقابهم ، فأقاموا في أهليهم وأموالهم ، وخلَّوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر .

وتدنَّى[3] رسول الله ﷺ الأموالَ يأخذها مالاً مالاً ، ويفتحها حصناً حصناً . فكان أوّلَ حصونهم افتُتح حصن ناعم ، وعندَه قُتِل محمود بن مسلمة ، ألقيت عليه منه رحى فقتلته . ثم القَموص حصن بني أبي الحُقيق ، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا ، منهنّ صفية بنت حُييّ بن أخطب ـ وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحُقيق ـ وبنتَيْ عمٍّ لها ، فاصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه .

وكان دحية بن خليفة الكلبي قد سأل رسول الله ﷺ صفية ، فلما اصطفاها لنفسه أعطاه ابنتَيْ عمِّها . وفشت السبايا من خيبر في المسلمين .

ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح ، وحاز من الأموال ما حاز ، انتَهوا إلى حصنيهم : الوطيح والسُّلالم ، وكان آخر حصون خيبر افتتاحاً . فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة .

وخرجَ مَرحبُ اليهوديُّ من حصنهم قد جمع سلاحَه ، يرتجز ويقول :

قد علمتْ خيبرُ أني مَرحبُ   شاكي السلاح بطلٌ مجرَّبُ[4]
أطعن أحياناً وحيناً أضربُ   إذا الليوث أقبلت تَحرَّبُ[5]
إنَّ حمايَ لَلْحِمَى لا يُقرَبُ

وهو يقول : مَن يُبارِز ؟ فأجابه كعب بن مالك :

قد علمت خيبر أنّي كعبُ   مفرِّج الغُمَّى جريءٌ صُلبُ[6]
إذْ شبَّت الحرب تلتها الحربُ   معي حسامٌ كالعقيق عضبُ[7]
نطؤكم حتّى يذِلَّ الصعبُ   نُعْطِي الجزاء أو يفيءَ النَّهبُ
بكفِّ ماضٍ ليس فيه عتبُ

---

(١) ليظاهروا : ليعاونوا وينصروا .
(٢) منقلة : مرحلة .
(٣) تدنى : أخذ الأدنى فالأدنى .
(٤) الشاكي السلاح : التام السلاح الحديده .
(٥) تحرب : أي مغضبة .
(٦) الغمى : الشدة والكرب .
(٧) العقيق : شعاع البرق .

فقال رسول الله ﷺ : من لهذا ؟ قال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الثائر . قُتل أخي بالأمس . قال : فقُم إليه . اللَّهمَّ أعنْه عليه .

فلمّا دنا أحَدُهُما من صاحبه دخلت بينهما شجرةٌ عُمْريّة[١] من شجر العُشَر[٢] فجعل أحَدُهُما يلوذ بها من صاحبه ، كلما لاذ بها اقتطع صاحبُه بسيفه ما دونه منها ، حتّى برز كل واحد منهما لصاحبه ، وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها فَنن . ثم حَمل مرحبٌ عَلى محمد بن مَسلمة ، فضربه به فاتّقَاه بالدَّرقة ، فوقع سيفُه فيها ، فعضت به فأمسكته . وضربه محمد بن مسلمة حتّى قتله .

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول : من يبارز ؟ فزعم هشام بن عُروة أن الزُّبير بن العوام قد خرج إلى ياسر فقالت أُمُّه صفيَّة بنتُ عبد المطَّلب : يَقتل ابني يا رسول الله ! قال : بل ابنك يَقتله إن شاء الله ! فخرج الزبير فالتقيا ، فقتله الزبير .

وعن سلمة بن عمرو بن الأكوع قال :

بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه برايته ، إلى بعض حصون خيبر ، فقاتل فرجع ولم يَكُ فَتح وقد جُهد . ثم بعث عمر بنَ الخطاب ، فقاتلَ ثم رجع ولم يك فتحٌ وقد جُهد . فقال رسولُ الله ﷺ : لأعطيَنَّ الرايةَ غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، ليس بفَرَّار . فدعا رسول الله ﷺ عليًّا رضوانُ الله عليه ، وهو أرْمَد ، فتفَلَ في عينه ثم قال : خذْ هذه الراية فامضِ بها حتى يفتح الله عليك !

يقول سلمة : فخرجَ والله بها يأنِح[٣] ، يُهرول هَرولةً ، وإنَّا لخلفَه نتَّبع أثره ، حتى ركز رايتَه في رَضْم[٤] من حجارة تحت الحِصن ، فاطَّلع إليه يهوديٌّ من رأس الحصن فقال : من أنتَ ؟ قال : أنا عليّ بن أبي طالب . يقول اليهوديُّ : عَلوتُم وما أنزِل عَلَى موسى !

فما رجَع حتّى فتح الله عَلى يديه .

وحاصر رسول الله ﷺ أهلَ خيبر في حصنَيْهم : الوَطيح والسُّلالم ، حتى إذا أيقَنُوا بالهلكة سألوه إن يسيِّرهم[٥] وأن يحقِن لهم دماءهم . ففعل ـ وكان رسول الله ﷺ

---

(١) عمرية : قديمة .

(٢) العشر : شجر أملس ضعيف العود .

(٣) يأنح : أي به نفس شديد من الإعياء في العدو .

(٤) الرضم : الحجارة المجتمعة .

(٥) يسيرهم : يخرجهم ويجليهم عن بلدهم .

قد حاز الأموال كلها : الشَّقّ ، ونَطاةَ والكتيبة ، وجميعَ حصونهم إلَّا ما كان من ذينك الحصنين ـ فلمَّا سمع بهم أهل فَدَك قد صنعوا ما صنعوا ؟ بعثوا إلى رسول الله ﷺ أنْ يسيِّرهم وأن يحقن دماءهم ويخلُّوا له الأموال ، ففعل .

وكان فيمن مشى بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك مُحَيْصة[1] بـن مسعودٍ ، أخو بني حارثة ، فلما نزلَ أهل خيبر على ذلك سألوا رسولَ الله ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف . وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعْمَرُ لها . فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف ، على أنَّا إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم . فصالحه أهلُ فدك على مثل ذلك ، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين ، وكانت فدَك خالصة لرسول الله ﷺ ، لأنهم لم يُجلبوا عليها بخيلٍ ولا ركاب .

فلما اطمأنَّ رسول الله ﷺ أهدت له زينب ابنة الحارث ، امرأة سَلَّام بن مِشْكم ، شاةً مصليَّةً[2] ، وقد سألت : أيُّ عضوٍ من الشاة أحبُّ إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع . فأكثرت فيها من السمّ ثم سمَّت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعتْها بين يَدي رسولِ الله ﷺ تناولَ الذراع فلاكَ منها مُضْغةً فلم يُسِغْها ، ومعه بشرُ بن البَراء بن معرور ، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ . فأمّا بشرٌ فأساغها ، وأما رسولُ الله ﷺ فلفظها ثم قال : إنَّ هذا العظم ليُخبرني أنه مسموم ، ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : ما حملكِ على ذلك ؟ قالت : بلغتَ من قومي ما لم يَخْفَ عليك ، فقلتُ : إن كان ملكاً استرحتُ منه ، وإن كان نبيًّا فسيُخبَرُ . فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ، ومات بشرٌ من أكلته التي أكل .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادي القُرى ، فحاصَرَ أهلَه لياليَ ، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة .

ولما أعرسَ رسول الله ﷺ بصفيَّةَ ، بخيبر أو ببعض الطريق ، وكانت التي جمَّلتها لرسول الله ﷺ ومشَّطتها وأصلحت من أمرها ، أمَّ سُليم بنتَ مِلحان ، أمّ أنَس بن مالك ، فبات بها رسولُ الله ﷺ في قبة له ، وبات أبو أيوب خالد بن زيد متوشحاً سيفَه ، يحرس رسول الله ﷺ ويُطيف بالقُبّة ، حتَّى أصبحَ رسولُ الله ﷺ ، فلمّا رأى مكانَه قال : ما لك يا أبا أيوب ؟ قال : يا رسولَ الله ، خِفتُ عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأةً قد قَتلْتَ أباها وزوجَها وقومها ، وكانت حديثةَ عهدٍ بكفر ، فخفتُها عليك .

---

(١) أنظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٤٢ .   (٢) المصلية : المشوية .

فزعموا أنّ رسول الله ﷺ قال : اللهم احفظ أبا أيوبَ كما بات يحفظني !

ولما انصرف رسولُ الله ﷺ من خيبر فكان ببعض الطريق قال مِن آخر الليل : مَن رجلٌ يحفظُ علينا الفجرَ لعلَّنا ننام ؟ قال بلال : أنا يا رسول الله أحفظه عليك . فنزل رسول الله ﷺ ونزل الناس فناموا ، وقام بلالٌ يصلِّي فصلَّى ما شاء الله عزَّ وجلَّ أن يصلِّيَ ، ثم استند إلى بعيره واستقبلَ الفجرَ يرمُقه ، فغلبته عينُه فنام ، فلم يوقظْهم إلاَّ مَسُّ الشمس . وكان رسول الله ﷺ أوّلَ أصحابه هبَّ فقال : ماذا صنعتَ بنا يا بلال ؟ قال : يا رسولَ الله ، أخذَ بنفْسي الذي أخذَ بنفسك . قال : صدقْت . ثم اقتاد رسولُ الله ﷺ بعيرَه غير كَثير ، ثم أناخ فتوضَّأ وتوضأ الناس ، ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة ، فصلَّى رسول الله ﷺ بالناس ، فلمّا سلَّم أقبلَ على الناس فقال : إذا نسيتم الصَّلاةَ فصلُّوها إذا ذكرتموها ، فإنَّ الله تبارك وتعالى يقول : ﴿أقِم الصَّلاةَ لذِكرِي﴾ .

وكان رسولُ الله ﷺ ، فيما بلغني قد أعطى ابن لُقَيم العَبْسيّ حين افتتح خَيبر ، ما بها من دَجاجة أو داجنٍ[1] ، وكان فتحُ خيبر في صفر ، فقال ابن لُقَيم العبسيُّ في خيبر :

رُميتْ نَطَاةُ منِ النبيِّ بفَيلقٍ ... شهباء ذاتِ مناكبٍ وفَقَارِ[2]
واستيقَنتْ بالذُّلِّ لمَّا شُيِّعتْ ... ورِجالُ أسلَم وسْطَها وغِفارُ[3]
صَبَحتْ بني عمرو بن زُرعة غُدوةً ... والشَّقُّ أظْلَمَ أهلُه بنهارِ[4]
جَرَّتْ بأبطَحِها الذُّيولَ فلم تدع ... إلاَّ الدّجاج تَصيح في الأسحارِ[5]
ولكلِّ حصنٍ شاغلٌ من خيلهم ... مِن عبد أشهَلَ أو بني النجارِ[6]
ومُهاجِرين قَدَ اَعلموا سِيماهُمُ ... فوقَ المغافر لم يَنُوا لِفرار[7]
ولقد علمت ليغلِبنَّ محمَّدٌ ... وليَثْوِيَنَّ بها إلى أصفار[8]
فَرَّت يهودٌ يوم ذلك في الوغى ... تحت العجاج غمائم الأبصارِ[9]

---

(١) الداجن : ما يألف بيوت الناس ، كالشاة والحمامة .
(٢) نطاة : حصن بخيبر ، الفيلق : الكتيبة . الشهباء : البيضاء ، الكثيرة السلاح .
(٣) شيعت : فرقت . أسلم وغفار : قبيلتان .
(٤) الشق : حصن بخيبر .
(٥) الأبطح : المكان السهل .
(٦) قبيلتان من الأنصار . وفي البيت إقواء .
(٧) المغفر : ما يكون على الرأس وقاية لها في الحرب .
(٨) ليثوين : ليقيمن . أصفار : جمع صِفر ، وهو اسم الشهر الذي فتحت فيه خيبر .
(٩) فرت : كشفت ، كما تفر الدابة عن أسنانها . وغمائم الأبصار ، أراد بها الجفون .

* قُدُومُ جعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِنَ الحَبَشَةِ *

وَحَدِيثُ المُهَاجِرِينَ إِلَى الحَبَشَةِ

قال ابن هشام :

عن الشعبيّ : أنَّ جعفر بن أبي طالب قدِم على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر ، فقبَّل رسولُ الله ﷺ بين عينيه والتزَمه وقال : ما أدري بأيِّهما أنا أسَرُّ ، بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر ؟

قال ابن إسحاق :

وكان من أقام بأرضِ الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ حتى بعث فيهم إلى النجاشيِّ عَمرو بنَ أمية الضَّمْريَّ ، فحملهم في سفينتين فقدم بهم عليه وهو بخيبر ، بعد الحديبية :

من بني هاشم بن عبد مناف : جعفر بن أبي طالب بن عبد المطَّلب ، معه امرأته أسماء بنت عُميس الخثعمية ، وابنُه عبد الله بن جعفر ، وكانت ولدته بأرض الحبشة .

ومن بني عبد شمس بن عبد مناف : خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، معه امرأته أمينة بنت خلف بن أسعد ، وابناه سعيد بن خالد ، وأَمَةُ بنت خالد ، ولدتهما بأرض الحبشة ، وأخوه عمرو بن سعيد بن العاص ؛ ومعيقب بن أبي فاطمة ، خازن عمر بن الخطَّاب على مال المسلمين ؛ وأبو موسى الأشعريّ .

ومن بني أسد بن عبد العزى : الأسود بن نوفل بن خويلد .

ومن بني عبد الدار بن قصَيّ : جهم بن قيس .

ومن بني زُهرة بن كلاب : عامر بن أبي وقَّاص ، وعتبة بن مسعود .

ومن بني تميم بن مر : الحارث بن خالد بن صخر .

ومن بني جُمح بن عمرو : عثمان بن ربيعة بن أهبان .

ومن بني سهم بن عمرو : مَحمِيَة بن الجَزْء .

ومن بني عدي بن كعب : مَعْمر بن عبد الله بن نَضْلة .

ومن بني عامر بن لؤي : أبو حاطب بن عمرو ، ومالك بن ربيعة .

ومن بني الحارث بن فهر بن مالك : الحارث بن عبد قيس بن لقيط .

وقد كان حُمل معهم في السفينتين نساء من نساء مَن هلك هنالك من المسلمين .

فهؤلاء الذين حَمل النجاشيُّ مع عمرو بن أمية الضَّمريِّ في السفينتين . فجميع من قدِم في السفينتين إلى رسول الله ﷺ ستة عشر رجلا . وجميع من تخلف عن بدر ولم يقْدَم على رسول الله ﷺ مكة ومن قدم بعد ذلك ، ومن لم يحمل النجاشيُّ في السفينتين - أربعة وثلاثون رجلا .

* عُمْرَةُ القَضَاءِ فِي ذِي القِعْدَةِ سَنَةَ سَبْع *

فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خيبر أقام بها شهري ربيع وجُماديَين ، ورجباً وشعبان ، ورمضان وشوالا ، يبعث فيما بين ذلك من غزوِهِ سراياه .

ثم خرجَ في ذي القعدة في الشهر الذي صدّه فيه المشركون معتمراً عمرة القضاء ، مكانَ عمرته التي صدُّوه عنها ، وخرج معه المسلمون ممن كان صُدَّ معه في عمرته تلك ، وهي سنة سبع . فلما سمع به أهل مكة خرجوا ، وتحدَّثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه في عُسرة وجَهدٍ وشدة .

قال ابن عباس :

صَفُّوا له عند دار النَّدوة ، لينظروا إليه وإلى أصحابه ، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبعَ بردائه[1] وأخرج عضده اليمنى ثم قال : رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ! ثم استلم الركن ، وخرج يُهروِل ويهرول أصحابُه معه ، حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الرُّكن اليمانيَّ ، مشى حتَّى يستلم الركن الأسود . ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرَها .

وعنه أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة بنت الحارث في سفره ذلك وهو حرام . وكان الذي زوّجه إياها العباس بن عبد المطلب .

فأقام رسول الله ﷺ بمكَّة ثلاثاً ، فأتاه حُويطب بن عبد العُزَّى في نفر من قريش ، في اليوم الثالث ، وكانت قريش قد وكَّلته بإخراج رسول الله ﷺ من مكة ، فقالوا له : إنه

---

(١) اضطبع : أدخل رداءه من تحت إبطه الأيمن ، وجعل طرفه على منكبه الأيسر فبدا بذلك أحد ضبعيه . والضبع بسكون الباء : وسط العضد بلحمه .

قد انقضى أجلك[1] فاخرجْ عنَّا . فقال النبي ﷺ : وما عليكم لو تركتموني فأعرسْتُ بين أظهركم وصنعت لكم طعاماً فحضرتموه ! قالوا : لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرجْ عنا .

فخرج رسول الله ﷺ وخلَّف أبا رافع مولاه على ميمونة ، حتى أتاه بها بِسَرِف[2] فبنى بها رسولُ الله ﷺ هنالك ، ثم انصرف إلى المدينة .

قال ابن هشام : فأنزل الله عز وجل ـ فيما حدثني أبو عبيدة :

﴿لقد صَدَق اللَّهُ رسولَه الرؤيا بالحقِّ لتدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاء الله آمِنينَ محلِّقين رءُوسَكم ومقصِّرين لا تخافون ، فعَلم ما لم تعلموا . فَجَعَل مِن دونِ ذلك فتحاً قريباً﴾ .

* غَزْوَةُ مُؤْتَةَ[3] فِي جُمَادَىٰ الأولَىٰ سَنَةَ ثَمَانٍ *

فأقام بها[4] بقيةَ ذي الحجة ـ ووليَ تلك الحجةَ المشركون ـ والمحرَّم وصفراً وشهرَي ربيع . وبعث في جمادى الأولى بعثَهُ إلى الشام ، الذين أُصيبوا بمُؤتة ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وقال : إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس .

فَتجهَّز الناس ثم تهيئوا للخروج ، وهم ثلاثة آلاف ، فلما حضَرَ خُروجُهم ودَّع الناسُ أُمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم ، فلمّا وُدِّع عبدُ الله بن رواحة مع مَن وُدِّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى ، فقالوا له : ما يُبكيك يا ابن رواحة ؟ فقال : أمَا والله ما بي حبُّ الدنيا . ولا صَبَابةٌ بكم ، ولكني سمعت رسول الله يقرأ آية من كتاب الله عزَّ وجلّ ، يذكر فيها النار : ﴿وإن مِنْكُمْ إلاَّ وَارِدُها كان عَلَى ربِّك حَتْماً مَقْضِيًّا﴾ ، فلستُ أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود ! .

فقال المسلمون : صحبكم الله ودَفَع عنكم ، وردّكم إلينا صالحين !

---

(١) أي الأجل الذي اتفق عليه في صلح الحديبية ، وهو ثلاثة أيام .

(٢) سرف : موضع قرب التنعيم .

(٣) مؤتة : قرية من أرض البلقاء بالشام .

(٤) أي بالمدينة .

فقال عبد الله بن رواحة :

لكنَّني أسأل الرحمن مغفرةً وضربةً ذات فَرْغٍ تقذف الزَّبَدا[١]
أو طعنةً بيدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزةً بحَربةٍ تُنفِذ الأحشاء والكبدا[٢]
حتَّى يقَالَ إذا مرَّوا على جَدَثي أرشَدَه الله مِن غازٍ وقد رشَدا[٣]

ثم خرج القوم وخرج رسولُ الله ﷺ ، حتى إذا ودّعهم وانصرف عنهم قال عبد الله بن رواحة :

خلَفَ السَّلامُ على امرئٍ ودَّعته في النخل خيرَ مشيَّع وخليلِ[٤]

ثم مضوا حتى نزلوا مَعان من أرض الشام ، فبلغ الناسَ أنَّ هِرَقْلَ قد نزل مآب من أرض البلقاء في ألفٍ من الروم ، وانضمَّ إليهم من لخمٍ وجُذام والقَين وبَهراء وبَليٍّ مائة ألفٍ منهم ، عليهم رجلٌ من بلي ثم أحَد إراشة ، يقال له مالك بن رافلة ، فلمَّا بلغ ذلك المسلمين أقاموا على مَعان ليلتين يفكرون في أمرهم وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدوّنا ، فإمّا أن يُمِدَّنا بالرجال ، وإمَّا أن يأمرَنا بأمره فنمضيَ له .

فشجَّع الناسَ عبدُ اللَّهِ بنُ رواحة وقال : يا قوم ، واللَّهِ إنَّ التي تكرهون لَلَّتِي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نُقاتل النَّاس بعددٍ ولا قُوَّة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلاَّ بهذا الدين الذي أكرمَنا الله به ، فانطلِقوا فإنما هي إحدى الحُسْنَيين : إما ظُهورٌ ، وإمّا شهادة .

فقال الناس : قد واللَّهِ صدق ابنُ رواحة .

فمضى الناس حتى إذا كانوا بتُخوم[٥] البلقاء لَقِيَتْهُم جموع هِرقلَ من الروم والعرب ، بقريةٍ من قرى البلقاء يقال لها : مَشَارف ، ثم دنا العدوُّ وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مُؤتة ، فالتقى الناس عندَها ، فتعَبَّأ لهم المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عُذْرة يقال له قُطبة بن قَتادة ، وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له عَباية بن مالك .

---

(١) الفرغ : السعة . والزبد : رغوة الدم .
(٢) مجهزة : سريعة القتل . تنفذها : تخترقها
(٣) الجدث : القبر . ويروى : « يا أرشد الله » .
(٤) خلف السلام ، أي كان السلام خلفاً .
(٥) التخوم : الحدود الفاصلة بين أرض وأرض ، واحدها تخم .

ثم التقى الناسُ واقتتلوا ، فقاتلَ زيد بن حارثة برايةِ لرسولِ الله ﷺ حتى شاط[1] في رماح القوم .

ثم أخذها جعفر فقاتل بها ، حتى إذا ألحَمهُ القتال[2] اقتحم عن فرس له شقراء فعقَرها[3] ، ثم قاتلَ القومَ حتى قُتِل وهو يقول :

يا حبّذا الجنةُ وَاقترابُها طيّبةً وبارداً شرابُها
والرُّوم رومٌ قد دنا عذابُها كافرةٌ بعيدةٌ أنسابها
عليَّ إذْ لاقيتُها ضِرابُها

قال ابن هشام : وحدَّثني من أثق به من أهل العلم :

أنَّ جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقُطعت ، فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضُديه حتى قُتِل ، رضي الله عنه ، وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة ، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهِما حيث شاء . ويقال : إن رجلاً من الرُّوم ضربه يومئذ ضربةً فقطعه بنصفين .

قال ابنُ إسحاق :

فلما قُتل جعفرُ أخذ عبد الله بنُ رواحة الراية ، ثم تقدَّم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردّد بعضَ التردّد ، ثم قال :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلِنّه لَتنزِلِنَّ أو لتُكْرهِنَّه
إن أجلبَ الناس وشدُّوا الرَّنَّهْ[4] مالي أراكِ تكرهين الجنَّه
قد طال ما قد كنتِ مطمئنَّة هل أنتِ إلَّا نُطفةٌ في شَنَّه[5]

وقال أيضاً :

يا نفسُ إلَّا تُقتَلي تموتي هذا حِمامُ الموت قد صَلِيتِ
وما تمنَّيتِ فقد أعطيتِ إنَّ تفعَلي فِعلَهما هُديتِ

---

(١) شاط : سال دمه فهلك .

(٢) ألحمه القتال : نشب فيه فلم يجد مخلصاً .

(٣) اقتحم عنها : رمى بنفسه عنها . عقرها : ضرب قوائمها بالسيف وهي قائمة .

(٤) أجلبوا : صاحوا واجتمعوا . الرنة : صوت فيه ترجيع شبيه بالبكاء .

(٥) النطفة : الماء القليل الصافي . الشنة : السقاء البالي .

ثمَّ نزل . فلما نزل أتاه ابنٌ عمٍّ له بعَرْقٍ من لحم(١) فقال : شُدَّ بهذا صُلبَك ، فإنك قد لقيتَ في أيامكَ هذه ما لقيت ! فأخذه من يده ثم انتَهسَ منه نَهسةً(٢) ثم سمعَ الحَطْمَةَ(٣) في ناحيةِ الناس فقال : وأنتِ في الدُّنيا ! ! ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفَه فتقدّم ، فقاتلَ حتَّى قُتِل .

ثم أخذ الرايةَ ثابت بن أقرم ، أخو بني العَجْلان ، فقال : يا معشر المسلمين ، اصطلِحوا على رجلٍ منكم . قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل . فاصطلح الناسُ على خالد بن الوليد . فلما أخذ الرايةَ دافعَ القومَ وحاشَى بهم(٤) ، ثم انحاز وانحِيزَ عنه حتى انصرف بالناس .

ولما أُصيب القوم قال رسولُ الله ﷺ فيما بلغني : « أخذ الرايَة زيد بن حارثة فقاتل بها حتَّى قُتِل شهيداً ، ثم أخذها جعفرٌ فقاتل بها حتَّى قُتِل شهيداً » ثم صمَت رسول الله ﷺ حتَّى تغيَّرت وجوه الأنصار ، وظنّوا أنه قد كان في عبد الله بن رواحة بعضُ ما يكرهون. ثم قال : « ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتلَ بها حتَّى قُتِل شهيداً » . ثم قال : « لقد رُفِعوا إليّ في الجنّة فيما يرى النائم على سُرُرٍ من ذهب ، فرأيت في سَرير عبد الله بن رواحةَ ازوراراً(٥) عن سريرَيْ صاحبيه ، فقلت : عمَّ هذا ؟ فقيل لي : مضيَا ، وتردّد عبدُ الله بعضَ التردُّد ثم مضى » .

فلما انصرف خالد بالناس أقبلَ بهم قافلا .

ولما دَنوْا من المدينة تلقَّاهم رسول الله ﷺ والمسلمون ، ولقيهم الصِّبيان يشتدُّون(٦) ، ورسولُ الله ﷺ مقبلٌ مع القوم على دابّة ، فقال : خذوا الصبيانَ فاحملوهم وأعطوني ابنَ جعفر . فأُتي بعبد الله بن جعفر فأخذَه فحملَه بين يديه .

وجعل الناس يَحْثُون على الجيش التُّراب ويقولون : يا فُرّار ! فررتم في سبيل الله !

فيقول رسول الله ﷺ : ليسوا بالفُرّار ، ولكنَّهم الكُرّار إنْ شاء الله تعالى .

---

(١) العرق ، بالفتح : العظم عليه بعض اللحم .
(٢) انتهس : أخذ منه بفمه يسيراً .
(٣) الحطمة : زحام الناس وحطم بعضهم بعضاً .
(٤) حاشى بهم : انحاز .
(٥) ازوراراً : ميلاً وعوجاً .
(٦) يشتدون : يسرعون في العدو .

وكان ممّا بُكي به أصحاب مؤتة من أصحاب رسول الله ﷺ قول حسّان بن ثابت :

تَأوّبَنِي ليلٌ بيثْربَ أعسَرُ ... وهَمٌّ إذا ما نوّمَ الناسُ مُسْهِرُ (١)
لذكرى حبيبٍ هيَّجتْ ليَ عبرةً ... سَفوحاً ، وأسبابُ البكاء التذكُّر (٢)
بلى ، إنَّ فِقدانَ الحبيبِ بليّةٌ ... وكم مِن كريمٍ يُبتلَى ثم يَصبر (٣)
رأيتُ خيارَ المسلمين تواردُوا ... شَعوبَ ، وخَلْفاً بعدهم يتأخَّرُ
فلا يُبعِدنَّ الله قتلَى تتابَعوا ... بمؤتَةَ منهم ذو الجَناحين جعفرُ
وزيدٌ وعبد الله حين تتابَعوا ... جميعاً وأسبابُ المنية تخطِرُ (٤)
غداةَ مَضَوا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمونُ النقيبة أزهرُ (٥)
أغرُّ كضوءِ البدر من آل هاشم ... أبيٌّ إذا سِيمَ الظُّلامةَ مِجْسَر (٦)
فطاعنَ حتَّى مالَ غيرَ مُوَسَّدٍ ... بمعترك فيه قناً متكسِّرُ (٧)
فصار مع المسْتَشْهدين ، ثوابُه ... جِنانٌ وملتفُّ الحدائق أخضرُ
وكنّا نرى في جعفر من محمد ... وفَاءً وأمراً حازماً حين يأمرُ
فما زال في الإسلام من آل هاشم ... دعائمُ عزٍّ لا يزُلْنَ ومَفخر
همُ جبلُ الإسلام والناسُ حولهم ... رِضامٌ إلى طَودٍ يروق ويَبهَرُ (٨)
بهَاليلُ منهم جعفرٌ وابن أُمِّه ... عليٌّ ومنهم أحمدُ المتخيَّرُ (٩)
وحمزة والعباس منهم ومنهمُ ... عَقِيلٌ وماءُ العود من حيث يعصرُ (١٠)
بهم تُفرَج اللأواءُ في كل مأزِق ... عَمَاسٍ إذا ما ضاق بالناس مصدَر (١١)
هُمُ أولياءُ الله أنزل حكمه ... عليهم وفيهم ذا الكتابُ المطهَّرُ

---

(١) تأوبني : عادني . أعسر : عسير . نوم الناس : ناموا .
(٢) سفوح : سائلة غزيرة .
(٣) ويروى : « بلاء وفقدان » .
(٤) تخطر : أصل معناه تختال وتهتز .
(٥) ميمون النقيبة : مسعود الجد . أزهر : أبيض .
(٦) سيم الظلامة : حمل على قبول الظلم . المجسر : المقدام الجسور .
(٧) المعترك : موضع الحرب .
(٨) الرضام : الحجارة . الطود : الجبل . يروق : يعلو .
(٩) البهلول : السيد الوضيء الوجه .
(١٠) يعصر : يمطر .
(١١) اللأواء : الشدة . العماس : المظلم ، يريد الظلام من كثرة النقع المثار في الحرب .

* فَتْحُ مَكَّةَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ *

ثم أقام رسولُ الله ﷺ بعد بَعثِه إلى مؤتة ، جمادى الآخرة ورجباً .

ثم إن بني بكر بن عبد مناة بن كنانة عَدتْ على خزاعة ، وكان الذي هاج ما بين بكرٍ وخزاعة أنّ رجلاً من بني الحضرميّ ، واسمه مالك بن عبَّاد - وحِلف الحضرميّ يومئذ إلى الأسود بن رَزْن - خرج تاجراً ، فلما توسَّط أرضَ خزاعة عدَوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله ، فعدت بنو بكر على رجلٍ من خزاعة فقتلوه ، فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بني الأسود بن رزْن الدِّيلي : سلمى ، وكلثوم ، وذؤيب ، فقتلوهم عند أنصاب الحرم[1] .

فبينا بنو بكر وخُزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام ، وتشاغل الناس به . فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش ، كان فيما شرطوا لرسول الله ﷺ وشرطَ لهم : أنَّه من أحب أن يدخل في عَقد رسول الله ﷺ وعهده فليدخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده .

فلما كانت الهدنةُ اغتنمها بنو الدِّيل من بني بكر ، من خزاعة ، وأرادوا أن يصيبوا منهم ثأراً بأولئك النفر الذين أصابوا منهم ببني الأسود بن رزْن .

فخرج نَوفل بن معاوية الدِّيليّ ، في بني الدِّيل ، وهو يومئذٍ قائدُهم وليس كلُّ بني بكرٍ تابِعَه ، حتى بيَّتَ خُزاعةَ وهم على الوتير : ماءٌ لهم ، فأصابوا منهم رجلاً ، وتحاوزوا[2] واقتتلوا ، ورفدت بني بكر قريشٌ بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش مَن قاتل بالليل مستخفياً ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر : يا نوفل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إلَهكَ إلَهكَ ! فقال كلمةً عظيمة : لا إلَه له اليوم[3] ! يا بني بكر أصيبوا ثأركم ، فلعمري إنكم لتسرِقون[4] في الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟ !

وقد أصابوا منهم ليلة بيّتوهم بالوتير رجلا يقال له « منبّه » ، وكان منبّه رجلاً مفئوداً[5] ، خرج هو ورجل من قومه يقال له تميم بن أسد ، فقال له منبَّه : يا تميم ،

---

(١) أنصاب الحرم : حجارة تجعل علامة بين الحل والحرم .

(٢) تحاوزوا ، يعني انحاز كل منهم إلى قبيلة .

(٣) أي لا إلَه لنوفل ، نطق بها كفراً .

(٤) ويروى : « لتسرفون » بالفاء .

(٥) المفئود : الضعيف الفؤاد .

انج بنفسك ، فأمّا أنا فوالله إني لميت ، قتلوني أو تركوني ؛ لقد انبتّ فؤادي[1] !

وانطلق تميم فأفلت ، وأدركوا منبِّهاً فقتلوه .

فلما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بُديل بن ورقاء ، ودار مولى لهم يقال له رافع .

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق ، بما استحلُّوا من خزاعة وكانوا في عهده وعقده ، خرج عمرو بن سالمٍ الخزاعيّ ثم أحد بني كعب ، حتّى قدم على رسول الله ﷺ المدينة ، وكان ذلك ممّا هاج فتحَ مكة ، فوقف عليه وهو جالسٌ في المسجد بين ظهرانَي الناس ، فقال :

يا ربِّ إني ناشدٌ محمدَا ... حِلفَ أبينا وأبيه الأتلدا[2]
قد كنتم وُلداً وكنَّا والدا ... ثُمَّتَ أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصُر هداك الله نصراً أعتَدا[3] ... وادعُ عبادَ الله يأتوا مَددا
فيهم رسولُ الله قد تجرَّدا ... إن سِيمَ خسفاً وجهُهُ تربَّدا[4]
في فَيْلق كالبحر يَجرِي مُزْبدا ... إنَّ قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقَك المؤكَّدا ... وجعلوا لي في كَدَاء رُصّدا[5]
وزعموا أنْ لستُ أدعو أحداً ... وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
همْ بيَّتونا بالوَتير هُجَّداً ... وقتلونا رُكَّعاً وسجَّدا

فقال رسول الله ﷺ : نُصرتَ يا عمرو بنَ سالم !

ثم عَرض لرسول الله ﷺ عَنانٌ[6] من السماء فقال : إنَّ هذه السحابةَ لَتستهلُّ بنصر بني كعب .

ثم خرج بُديل بن ورقاء في نفر من خُزاعةَ حتَّى قدموا على رسول الله ﷺ

---

(١) انبت إنبتاتاً : انقطع .
(٢) ناشد : طالب ومذكر . الأتلد : القديم .
(٣) أعتد ، من العتيد ، وهو الحاضر .
(٤) سيم الخسف : كلف الذل .
تربد : تغير إلى السواد .
(٥) كداء : موضع بأعلى مكة .
رصداً : جمع راصد ، وهو المرتقب .
(٦) العنان : السحاب .

المدينة ، فأخبروه بما أُصيب منهم ، وبمظاهرة قريشٍ بني بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكَّة . وقد قال رسول الله ﷺ للناس : « كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشدَّ العَقد ويزيدَ في المدّة » .

ومضى بُدَيل بن ورقاء وأصحابه ، حتى لقُوا أبا سفيان بن حرب بعُسْفان[1] قد بعثْته قريشٌ إلى رسول الله ﷺ ليشدَّ العقد ويزيد في المدّة ، وقد رَهِبوا الذي صنعوا . فلمّا لقيَ أبو سفيانُ بُديلَ بن ورقاء قال : من أين أقبلتَ يا بديل ؟ وظنَّ أنَّه قد أتى رسولَ الله ﷺ . قال : تسَيَّرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادِي . قال : أوَ ما جئتَ محمداً ؟ قال : لا . فلما راح بُديلٌ إلى مكَّة قال أبو سفيان : لئن جاء بُديلُ المدينةَ لقد علفَ بها النَّوى ! فأتى مَبْرَك راحلته فأخذ من بعرِها ففتَّه فوجَد فيه النوى ، فقالِ : أحلف بالله لقد جاء بديلٌ محمداً !

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخل على ابنته أمّ حبيبة بنتِ أبي سفيان ، فلما جلسَ على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بُنيَّة ، ما أدري ، أرَغبتِ بي عن هذا الفراش ، أم رغبتِ به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجلٌ مشرك نجس ، ولم أُحبَّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ . قال : والله لقد أصابكِ يا بُنية بعدي شرّ !

ثم خرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ فكلَّمه فلم يردَّ عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلَّمه أن يكلِّم له رسول الله ﷺ فقال : ما أنا بفاعل !

ثم أتى عمر بن الخطَّاب فكلَّمه فقال : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ، فوالله لو لم أجد إلاّ الذَّرّ[2] لجاهدتكم به !

ثم خرج فدخل على عليٍّ بن أبي طالب رضوانُ الله عليه ، وعنده فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ ورضي عنها ، وعندها حسنُ بن عليّ غلامٌ يدِبُّ بين يديها ، فقال : يا عليّ ، إنك أمسُّ القوم بي رحِماً ، وإني قد جئت في حاجةٍ فلا أرجعنَّ كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى رَسول الله . فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزمَ رسول الله ﷺ على أمرٍ ما نستطيع أن نكلِّمه فيه .

(١) عسفان : موضع على مرحلتين من مكة .

(٢) الذر : صغار النمل .

فالتفتَ إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمري بُنيَّكِ هذا فيُجيرَ بين الناس ، فيكونَ سيدَ العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ بُنَيَّ ذاك : أن يُجِير بين الناس ، وما يُجير أحدٌ على رسول الله ﷺ .

قال : يا أبا الحسن ، إنِّي أَرَى الأُمور قد اشتدَّت عليّ فانصحني . قال : والله ما أعلم لك شيئاً يُغني عنك شيئاً ، ولكنَّك سيِّد بني كنانة ، فقمْ فأجِرْ بين الناس ، ثم الحقْ بأرضك . قال : أوَ ترى ذلك مُغْنياً عنِّي شيئاً ؟ ! قال : لا والله ما أظن ، ولكني لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيُّها الناس ، إنِّي قد أجَرتُ بين الناس .

ثم ركب بعيره فانطلق ، فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك ؟

قال : جئت محمداً فكلَّمته ، فوالله ما ردَّ عليَّ شيئاً ؛ ثم جئت ابنَ أبي قُحافة فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت ابنَ الخطَّاب فوجدته أدنَى العدوِّ ، ثم جئت علياً فوجدته ألينَ القوم ، وقد أشار عليَّ بشيءٍ صنعته ، فوالله ما أدري هل يُغني ذلك شيئاً أم لا ؟

قالوا : وبمَ أمرك ؟ قال : أمَرني أن أُجِيرَ بين الناس ، ففعلت . قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : ويلك ! والله إنْ زادَ الرجلُ على أنْ لعِب بك ، فما يُغْني عنك ما قلت ؟ قال : لا والله ما وجدتُ غيرَ ذلك .

وأمر رسولُ الله ﷺ بالجَهاز ، وأمر أهلَه أن يجهِّزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها ، وهي تحرِّك جهَاز رسول الله ﷺ ، فقال : أي بُنَيَّة ، أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهِّزوه ؟ قالت : نعم ، فتجهَّز . قال : فأين تَرَينَه يُريد ؟ قالت : لا والله ما أدري .

ثم إنَّ رسول الله ﷺ أعلمَ الناس أنه سائرٌ إلى مكَّة ، وأمرهم بالجِدّ والتهيُّؤ ، وقال : « اللهمَّ خُذ العيون والأخبارَ عن قريش حتَّى نَبْغتَها[1] في بلادها » . فتجهَّز الناس .

ولما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطبُ بن أبي بَلْتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم ، ثم أعطاه

---

(١) نبغتها : أي نفجؤها .

امرأةً ، وجعل لها جُعْلا على أن تبلِّغه قريشاً ، فجعلته في رأسها ثم فَتلت عليه قرونَها[1] ثم خرجت به .

وأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطب ، فبعث عليّ بن أبي طالب والزبيرَ بن العوَّام رضي الله عنهما ، فقال : أدركا امرأةً قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتابٍ إلى قريش يُحذِّرهم ما أجمعنا عليه في أمرهم .

فخرجا حتى أدركاها بالخلِيفة ، خَليفة بني أبي أحمد ، فاستنزلاها ، فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال لها علي بن أبي طالب : إني أحلف بالله ما كُذِب رسول الله ﷺ ولا كُذِبْنا ، ولتُخرِجِنّ لنا هذا الكتابَ أو لنكشفَنَّك !

فلمَّا رأت الجِدّ منه قالت : أعرضْ ، فأعرض فحلَّت قرونَها ، فاستخرَجتِ الكتابَ منها . فدفعته إليه فأتى به رسول الله ﷺ .

فدعا رسول الله ﷺ حاطباً فقال : يا حاطب، ما حملك على هذا ؟ فقال : أمَا والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيَّرت ولا بدّلت ، ولكنِّي كنت امرأً ليس لي في القوم من أصلٍ ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهل ، فصانعتُهم عليه . فقال عمر بن الخطاب : يَا رسول الله ، دعْني فلأضربْ عنقَه ، فإنَّ الرجلَ قد نافق ! فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك يَا عمر ، لعل الله قد اطَّلع إلى أصحاب بدر يومَ بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم .

فأنزل الله تعالى في حاطب : ﴿يأيُّها الذين آمَنُوا لا تتَّخِذُوا عدُوِّي وعدوّكم أولياء تُلقُون إليهمْ بالمودّة﴾ إلى قوله : ﴿قد كانت لكم أُسوةٌ حَسَنةٌ في إبراهيمَ والذينَ مَعَهُ إذ قالوا لِقَومهمْ إنَّا بُرَآءُ مِنكم ومِمَّا تَعبدُونَ مِن دون الله كَفرنا بكم ، وَبَدَا بيننَا وبينكم العَداوةُ والبَغْضاءُ أبداً حتى تُؤمنوا بالله وَحْدَه﴾ إلى آخر القصة .

ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره ، واستخلف على المدينة أبا ذرٍّ الغِفاري ، وخرج لعشرٍ مضين من رَمضان ، فصام رسول الله ﷺ وصام الناسُ معه ، حتى إذا كانوا بالكُدَيد ، بين عُسفان وأمَج ، أفطَر .

ثم مضى حتى نزلَ مرَّ الظَّهران في عشرة آلاف من المسلمين ، فسبَّعت سُليم ، وبعضهم يقول : ألَّفت[2] سليم ، وألَّفت مُزينة ، وفي كل القبائل عددٌ وإسلام .

---

(١) القرون : الضفائر .

(٢) سبعت : بلغت سبعمائة ، وألفت : بلغت ألفاً .

وأوعبَ مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار ، فلم يتخلَّف عنه منهم أحد .

فلما نزل رسول الله ﷺ مَرَّ الظهران وقد عُمِّيت الأخبار عن قريش فلم يأتهم خبرٌ عن رسول الله ﷺ ، ولا يدرون ما هو فاعل .

وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبُديل بن ورقاء ، يتحسَّسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً أوْ يسمعون به . وقد كان العبّاس بن عبد المطَّلب لقيَ رسول الله ببعض الطَّريق ، وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة قد لقيَا رسول الله ﷺ أيضاً بنِيق العُقَابِ ، فيما بين مكَّة والمدينة ، فالتمسا الدخولَ عليه ، فكَلَّمَته أم سلمَةَ فيهما فقالت : يَا رسول الله ، ابن عمك وابن عمّتك وصهرك . قال : لا حاجة لي بهما . أما ابن عمي فهتَكَ عِرضي ، وأما ابنُ عمَّتي وصهري فهو الذي قال بمكَّة ما قال .

فلمَّا خرج الخبرُ إليهما بذلك ، ومع أبي سفيانُ بُنَيٌّ له ، فقال : والله ليأذننَّ لي أو لآخذنَّ بُنَيَّ هذا ثم لنذهبنَّ في الأرض حتى نموتَ جوعاً وعطشاً !

فلما بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ رقَّ لهما ، ثم أذِن لهما فدخلا عليه فأسلما ، وأنشد أبو سفيان بن الحارث قوله في إسلامه ، واعتذر إليه مما كان مضى منه ، فقال :

لعمرك إني يومَ أحملُ رايةً ... لِتغلِبَ خَيلُ اللات خيلَ محمدَ(1)
لكالمُدلج الحيرانِ أظلَم ليلُه ... فهذا أواني حين أُهدى وأهتدي(2)
هدى بيَ هَادٍ غيرُ نفسي ونالني ... معَ الله من طَرَّدت كلَّ مطرَّدِ
أصُدُّ وأنأى جاهداً عن محمد ... وأُدعى وإن لم أنتسب من محمد(3)
هُمُ ما هُم مَن لم يقلِ بهواهمُ ... وإن كان ذا رأيٍ يُلَمْ ويفنَّدِ(4)
أُريدُ لأرضيهمْ ولستُ بلائطٍ ... مع القوم ما لم أُهدَ في كلِّ مقعد(5)
فقل لثقيف لا أُريد قتالها ... وقل لثقيف تلك : غَيريَ أوعِدي(6)
فما كنتُ في الجيش الذي نال عامراً ... وما كان عن جَرًّا لساني ولا يدي(7)
قبائل جاءت من بلادٍ بعيدةٍ ... نزائعَ جاءت من سَهَامٍ وسُردَدِ(8)

(1) أحمل راية : أي أقود الناس للحرب . خيل اللات : يعني جيوش الكفر والوثنية .

(2) المدلج : الذي يسير ليلاً .

(3) أنأى : أبعد .

(4) يفند : يكذب .

(5) لائط : ملتصق .

(6) أوعدي ، من الإيعاد .

(7) عن جرا : أي من جراء ذلك .

(8) سهام وسردد : موضعان في بلاد عك .

فزعموا أنه حين أنشد رسولَ الله ﷺ قولَه : « ونالني مع الله من طرَّدت كلَّ مطرَّد » ضربَ رسولُ الله ﷺ في صدره وقال : أنت طرَّدتني كل مطرَّد !

فلما نزل رسولُ الله ﷺ مرَّ الظهران قال العباس بن عبد المطلب واصباحَ قريش ! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنوةً قبْلَ أن يأتوه فيستأمنوه إنَّه لَهلاكُ قريش إلى آخر الدهر !

قال العباس : فجلستُ على بغلة رسول الله ﷺ : البيضاء ، فخرجت عليها حتّى جئت الأراك ، فقلت : لعلّي أجد بعض الحطَّابة ، أو صاحب لبن ، أو ذا حاجة ، يأتي مَكَّة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخُلَها عليهم عَنوةً .

قال : فوالله إنِّي لأسيرُ عليها وألتمس ما خرجتُ له إذْ سمعتُ كلام أبي سفيان وبُديل بن ورقاء وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نِيراناً قط ولا عسكراً ، ويقول بُديل : هذه والله خُزاعَة حَمشَتها الحرب[1] ! ويقول أبو سفيان : خزاعَة أذلُّ وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانَها وعسكرها !

قال : فعرفت صوته فقلت : يا أبا حنظلة ! فعرفَ صوتي فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم . قال : ما لكَ فداكَ أبي وأمي ؟ قلتُ : ويْحكَ يا أبا سفيان ! هذا رسولُ الله ﷺ في الناس . واصَبَاحَ قريشٍ والله ! قال : فما الحيلة ، فداك أبي وأمي ؟ قلتُ : والله لئن ظفر بك ليضربَنَّ عنقك ، فاركبْ في عجز هذه البغلة حتى آتيَ بك رسولَ الله ﷺ ، فأستأمِنَه لك .

فركبَ خلفي ورجع صاحباه . فجئت به كلَّما مررتُ بنارٍ من نيران المسلمين قالوا : مَن هذا ! فإذا رأوا بغلةَ رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عمُّ رسول الله ﷺ على بغلته .

حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : من هذا ؟ وقام إليَّ ، فلمَّا رأى أبا سفيان على عجُز الدابَّة قال : أبو سفيان عدوُّ الله ! الحمدُ لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد .

---

(١) حمشتها الحرب : أحرقتها وصليت بنارها .

ثم خرج يشتدُّ نحو رسول الله ﷺ ، وركضْتُ البغلة فسبقته بما تسبق الدابةُ البطيئةُ الرجلَ البطيءَ ، فاقتحمتُ عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر فقال : يا رسولَ الله ، هذا أبو سفيان قد أمكنَ اللَّهُ منه بغير عقد ولا عهد ، فدعْني فلأضربْ عنقَه .

قلتُ : يا رسول الله ، إنِّي قد أجرته ! ثم جلستُ إلى رسول الله ﷺ فأخذتُ برأسه فقلت : والله لا يناجيه الليلةَ دوني رجل !

فلما أكثر عمرُ في شأنه قلت : مهلاً يا عمر ، فوالله أنْ لو كان من بني عديٍّ بن كعب ما قلتَ هذا ، ولكنَّك قد عرفتَ أنه من رجال بني عبد مناف .

فقال : مهلاً يا عباس ، فلإسلامُك يومَ أسلمتَ كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطَّاب لو أسلم . قال رسول الله ﷺ : اذهبْ به يَا عبَّاسُ إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتني به .

فذهبتُ به إلى رحلي فبات عندي ، فلما أصبحَ غدوتُ به إلى رسول الله ﷺ قال : ويحك يَا أبا سفيان ، ألم يأنِ لك[1] أن تعلم أنَّه لا إلّه إلَّا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمِّي ، ما أحلَمَكَ وأكرَمَك وأوصلَك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلّه غيره لقد أغنى عنِّي شيئاً بعدُ ! قال : ويحك يَا أبا سفيان ألم يأنِ لك أن تعلم أنِّي رسول الله ؟ قال : بأبي أنت وأمِّي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أمَّا هذه والله فإنَّ في النفس منها حتى الآن شيئاً ! فقال له العبَّاس : ويحك ؟ أسلمْ واشهدْ أن لا إلّه إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، قبل أن تُضرب عنقُك .

قال : فشهد شهادةَ الحق فأسلم .

قال العباس : قلتُ يا رسول الله ، إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ يحبُّ هذا الفخرَ فاجعلْ له شيئاً . قال : « نعمْ ، مَن دخَلَ دارَ أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ : « يا عبَّاس احبسه بمضِيق الوادي عند خَطْم الجبل[2] حتَّى تمرّ به جنودُ الله فيراها » .

---

(١) ألم يأن لك . أي ألم يحن لك .

(٢) خطم الجبل : أنف يخرج منه يضيق به الطريق .

قال : فخرجتُ حتَّى حَبستُه بمضيق الوادي حيث أمرني رسولُ الله ﷺ أن أحبسه .

ومرَّت القبائل على راياتها ، كلما مرَّت قبيلة قال : يا عباس ، من هذه ؟ فأقول : سُليم . فيقول : ما لي ولسُليم . ثم تمرُّ القبيلة فيقول : يا عباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : مُزَينة . فيقول : ما لي ولمزينة . حتى نَفَذت القبائل ، ما تمرُّ به قبيلةٌ إلَّا يسألُني عنها ، فإذا أخبرتُه بهم قال : ما لي ولبني فلان ، حتَّى مرَّ به رسول الله ﷺ في كتيبته « الخضراء »[1] ، فيها المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم ، ولا يُرى منهم إلا الحَدَق من الحديد ، فقال : سبحانَ الله يا عباس ، مَنْ هؤلاء ؟ قلت : هذا رسولُ الله ﷺ في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ! والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابنِ أخيك الغداةَ عظيما ! ! قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوَّة . قال : فنعمَ إذن . قلت : النَّجاء[2] إلى قومك !

حتَّى إذا جاءهم صرخَ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمدٌ قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن !

فقامت إليه هند بنتُ عتبة ، فأخذت بشاربِه فقالت : اقتلوا الحَمِيت الدَّسِم الأحمس[3] ، قُبِّح من طليعة قَوم[4] !

قال : ويلكم ، لا تغرَّنَّكم هذه من أنفسكم ، فإنَّه قد جاءكم ما لا قِبل لكم به ، فمن دخلَ دار أبي سفيان فهو آمن !

قالوا : قاتلك الله ، وما تُغني عنَّا دارُك ؟

قال : ومن أغلقَ بابَه فهو آمن ، ومن دَخل المسجدَ فهو آمن ! فتفرَّق الناسُ إلى دُورهم وإلى المسجد .

عن عبد الله بن أبي بكر : أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طوى وقف على

---

(١) ابن هشام : إنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .

(٢) النجاء : الإسراع .

(٣) الحميت : زق السمن . الدسم : الكثير الودك . الأحمس : الشديد اللحم . شبهته بالزق لضخمه وسمنه .

(٤) الطليعة : الذي يحرس القوم .

راحلته معتجراً[1] بشُقَّة بُرد حِبرةٍ[2] حمراء ، وإنَّ رسول الله ﷺ ليضعُ رأسَه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إنَّ عُثنونَه ليكاد يمسُّ واسطةَ الرحل .

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت :

لما وقف رسول الله ﷺ بذي طوى قال أبو قحافة لابنة من أصغر ولده : أيْ بنيّةُ اظهَري بي على أبي قُبيس[3] ـ وقد كُفَّ بصره ـ فأشرفَتْ به عليه فقال : أي بنيَّة ماذا ترين ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً . قال : تلك الخيل . قالت : وأرى رجلاً يسعى بين يَدَيْ ذلك مُقبلاً ومدبراً . قال : أيْ بُنيَّة ، ذلك الوازع ـ يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها ـ ثم قالت : قد والله انتشر السَّواد . فقال : قد والله إذن دُفعت الخيل ، فأسرعي بي إلي بيتي .

فانحطَّت به ، وتَلْقاه الخيل قبل أن يصلَ إلى بيته ، وفي عُنق الجارية طَوقٌ من وَرِق[4] ، فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقِهَا .

قالت : فلما دخل رسولُ اللهْ ﷺ مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال : هلاَّ تركتَ الشيخَ في بيته حتَّى أكونَ أنا آتيه فيه ؟ قال أبو بكر : يا رسول الله ، هو أحقُّ أن يمشيَ إليك من أن تمشيَ إليه أنت .

فأجلسَه بين يديه ، ثم مسحَ صدره ثم قال له : أسلم . فأسلم .

فدخل به أبو بكرٍ وكأنَّ رأسَه ثَغامة[5] فقال رسول الله ﷺ غيِّروا هذا من شَعره .

ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال : أنشُد الله والإسلامَ طوقَ أختي ! فلم يجبْه أحد ، فقال : أي أُخَيَّةُ ، احتسبي طوقـكِ ، فوالله إنَّ الأمانة في الناس اليومَ لقليل .

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وحنين والطائف : شعارُ المهاجرين : يا بني عبد الرحمن ، وشعار الخزرج : يا بني عبد الله وشعار الأوس : يَا بني عُبيد الله .

---

(١) الاعتجار : التعمم بغير ذؤابة .

(٢) الشقة : النصف .

والحبرة : ضرب من برود اليمن .

(٣) أظهري بي : اصعدي . أبو قبيس : جبل بمكة .

(٤) الطوق : القلادة . الورق : الفضة .

(٥) الثغامة : واحدة الثغام ، نبت أشد ما يكون بياضاً إذا أمحل ، يشبهون به الشيب .

وكان رسولُ الله ﷺ قد عهد إلى أُمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلُوا مكة ألاَّ يقاتلوا ، إلا أنَّه قد عهِد في نفرٍ سمَّاهم ، أمَرَ بقتلهم وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد أخو بني عامر بن لؤي . وإنَّما أمر رسولُ الله ﷺ بقتله لأنه كان أسلم وكان يكتب لرسوله ﷺ الوحيَ ، فارتدَّ مشركاً راجعاً إلى قريش ، ففرَّ إلى عثمان بن عفان ، وكان أخاه للرضاعة ، فغيَّبه حتى أتَى به رسولَ الله ﷺ بعد أن اطمأنَّ الناس وأهل مكة فاستأمن له . فزعموا أن رسول الله ﷺ صمت طويلا ثم قال : نعم . فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله من أصحابه : « لقد صمتُّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه » . فقال رجلٌ من الأنصار : فهلاَّ أومأت إليَّ يا رسول الله ؟ قال : « إنَّ النبي لا يقتُل بالإشارة »[1].

و « عبد الله بن خَطَل » : رجل من بني تيم بن غالب . إنَّما أمر بقتله أنَّه كان مُسلِماً ، فبعثه رسول الله مصدِّقاً[2] وبعثَ معه رجلا ، وكان معه مولى له يخدُمه ، وكان مسلماً ، فنزل منزلا وأمر المولى أن يذبحَ له تيساً فيصنَع طعاما ، فنامَ فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً . فغدا عليه فقتله ثم ارتدَّ مشركا .

وكانت له قينتان : فَرْتنى وصاحبتُها ، وكانتا تغنِّيان بهجاء رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما معه .

و « الحويرث بن نُقَيذ » ، وكان ممن يؤذيه بمكَّة .

و « مِقيس بن صُبابة[3] » ، وإنَّما أمر رسول الله ﷺ بقتله لقتل الأنصاريِّ الذي كان قد قتل أخاه خطأً ، ورجوعِه إلى قريش مشركاً .

و « سارة » : مولاة لبني عبد المطلب .

و « عِكرمة بن أبي جهل » .

وكانت سارة ممن يؤذيه بمكة .

فأمَا عِكرمة فهربَ إلى اليمن ، وأسلمت امرأتُه أُمُّ حكيم بنت الحارث بن هشام ، فاستأمنت له من رسول الله ﷺ فأمَّنه ، فخرجت في طلبه إلى اليمَن حتى أتت به رسولَ الله ﷺ ، فأسلم .

---

(١) قال ابن هشام : ثم أسلم بعد فولاه عمر بن الخطاب بعض أعماله ، ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر .
(٢) المصدق : جامع الصدقات ، وهي الزكوات . (٣) أنظر جمهرة أنساب العرب ١٨٢ .

وأما عبد الله بن خَطَل فقتله سعيد بن حُريث المخزومي ، وأبو بَرزة الأسلميّ ، اشتركا في دَمه .

وأما مِقْيَس بن صُبابة فقتله نُميلة بن عبد الله ، رجلٌ من قومه ، فقالت أختُ مِقيس في قتله :

فلله عَينَا مَن رأى مِثلَ مِقيسٍ إذا النفساءُ أصبحت لم تُخرَّسِ[1]

وأما قينتا ابن خطل فقُتلت إحداهما، وهربت الأُخرى حتى استؤمِن لها رسولُ الله ﷺ بعدُ ، فأمّنها .

وأمّا سارة فاستؤمن لها فأمّنها ، ثم بقيت حتى أوطأها رجلٌ من الناس فرساً ، في زمن عمر بن الخطاب ، بالأبطح فقتلها .

وأما الحويرث بن نُقَيذ فقتله علي بن أبي طالب .

* * *

عن أمِّ هانىء ابنة أبي طالب قالت :

لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فرَّ إليّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم ـ وكانت عند هبيرة بنِ أبي وَهب المخزومي ـ قالت : فدخل عليَّ عليُّ بن أبي طالب أخي فقال : والله لأقتلنّهما ! فأغلقت عليهما بابَ بيتي ، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جَفنة إنَّ فيها لأثرَ العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسلَ أخذ ثوبَه فتوشَّحَ به ، ثم صلَّى ثمانيَ ركعات من الضُّحَى ، ثم انصرفَ إليّ فقال: مرحباً وأهلاً يا أم هانىء ، ما جاء بكِ ، فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي . فقال قد أجَرْنا من أجرتِ ، وأمَّنَّا من أمّنت ، فلا يقتلْهما !

عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطافَ به سبعاً على راحلتِه يستلم الركن بِمحجَنٍ[2] في يده ، فلما قَضى طوافه ، دعا عثمانَ بن طَلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففُتِحت له فدخلها ، فوجد فيها حمامةً من عِيدان ، فكَسَرها بيده ثم طَرحها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكفَّ له الناس[3] في المسجد .

---

(١) لم تخرس : لم يصنع لها طعام الولادة ، واسمه الخرس والخرسة ، بضم الخاء . أرادت شدة الزمان .

(٢) المحجن : عود معوج الطرف ، يمسكه الراكب البعير في يده . (٣) استكفوا : استجمعوا .

قال ابن إسحاق :

فحدّثني بعض أهل العلم : أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال :

لا إله إلاَّ الله وحدَه لا شريك له . صدَق وَعدَه ، ونصر عبدَه ، وهزم الأحزابَ وحدَه . ألاَ كلُّ مأْثُرةٍ أو دم أو مالٍ يُدَّعى فهو تحت قدميَّ هاتين ، إلا سَدانة البيت[1] وسِقاية الحاجِّ .

ألاَ وقتيلِ الخطإِ شبهِ العمد بالسَّوط والعصا ، ففيه الدية مغلَّظةً ، مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إنَّ الله قد أذهبَ عنكم نخوةَ الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء . الناس من آدم ، وآدمُ من تراب .

ثم تلا هذه الآية : ﴿يأيُّهَا النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعوباً وقَبَائلَ لِتَعارَفُوا ، إنَّ أَكْرَمكم عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكم﴾ .

ثم قال : يا مَعشر قُريش ، ما تُرونَ إنِّي فاعلٌ فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم .

قال اذهبوا فأنتم الطلقاء .

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد . فقام إليه عليٌّ بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يا رسولَ الله ، اجمعْ لنا الحِجابة مع السِّقايا صلىٰ الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : « أين عثمانُ بن طلحة ؟» فدعِيَ له . فقال : هاكَ مفتاحَك يا عثمان ، اليوم يومُ برّ ووفاء .

قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دخل البيتَ يومَ الفتح ، فرأى فيه صُورَ الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مُصوَّراً ، في يدهِ الأزلام يَسْتَقْسِمُ بها . فقال : قَاتَلهم الله ! جعلوا شَيخنا يستقسِم بالأزلام[2] ! ما شأن إبراهيم والأزلام ! ﴿ما كان إبراهيمُ يهُودياً ولا نَصْرانياً ولَكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشرِكين﴾ .

---

(١) سدانة البيت : خدمته .

(٢) الأزلام : السهام التي كانوا يستقسمون بها ، يستشيرونها في أمورهم .

ثم أمر بتلك الصُّوَر كلِّها فطمست .

وأنَّ رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال ، فأمره أن يؤذِّن ، وأبو سفيان بن حرب وعتَّاب بن أسِيد والحارث بن هشام جلوسٌ بفناء الكعبة . فقال عتَّاب بن أسِيد : لقد أكرم الله أسِيداً ألَّا يكون سمِع هذا فيسمعَ منه ما يَغيظه ! فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنَّه محِقٌّ لاتبعته ! فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً ، لو تكلَّمت لأخبَرَتْ عنِّي هذه الحصى !

فخرج عليهم النبي ﷺ فقال : قد علمت الذي قلتم . ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنَّك رسولُ الله ، ما اطَّلع على هذا أحدٌ كان معنا فنقولَ أخبَرَك !

قال ابن هشام :

عن ابن عباس قال : دخل رسول الله ﷺ ، مكَّة يومَ الفتح على راحلته ، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودةٌ بالرَّصاص ، فجعلِ النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول : ﴿جاء الحَقُّ وزَهَقَ البَاطِل[1] إنَّ البَاطِل كان زَهُوقاً﴾ . فما أشار إلى صنَم منها في وجهه إلَّا وقَع لقَفاه ، ولا أشار إلى قفاه إلَّا وقع لوجهه ، حتَّى ما بقي منها صنَمٌ إلَّا وَقع .

وحدَّثني من أثق به من أهل الرواية أنَّ فَضالة بن عمير الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوفُ بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : أفَضالةُ ؟ قال : نَعَم ، فَضالة يا رسول الله . قال : ماذا كنْتَ تحدِّث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ! فضحك النبي ﷺ ثم قال : استغفرِ الله ! ثم وضع يده على صدره فسكن قلبُه . فكان فَضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتَّى ما مِن خلق الله شيءٌ أحبَّ إليَّ منه .

قال فَضالة : فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأةٍ كنت أتحدَّث إليها ، فقالت : هلمَّ إلى الحديث . فقلت : لا . وانبعث فضالة يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليكِ اللَّهُ والإسلامُ
لو مَا رأيتِ محمداً وقبيلَه ... بالفتح يوم تُكسَّر الأصنامُ
لرأيتِ دين الله أضحى بيِّناً ... والشركُ يغشى وجهَه الإظلامُ

---

(١) زهق : اضمحل وبطل .

قال ابن إسحاق :

وكان جميع مَن شهد فتح مكة من المسلمين عشرةَ آلاف ، من بني سُليم سَبعمائة ، ويقول بعضهم : ألف . ومن بني غِفار أربعمائة ، ومن بني مُزينة ألف وثلاثة نفر ، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائفِ العرب من تميم وقيس وأسد .

وكان مما قيل من الشعر في يوم الفتح قول حسَّان بن ثابتٍ الأنصاريّ :

عَفَت ذاتُ الأصابع فالجِواءُ ... إلي عَذْراءَ منزِلها خَلاءُ(١)
ديارٌ من بني الحسحاس قفرٌ ... تعفيها الروامسُ والسماءُ(٢)
وكانت لا يزال بها أنيسٌ ... خِلالَ مُروجها نَعَمٌ وشاءُ(٣)
فدعْ هذا ولكن مَن لِطَيْفٍ ... يؤرِّقني إذا ذهب العِشاءُ
لشعثاءَ التي قد تيَّمتْه ... فليس لقلبه منها شفاءُ
كأنَّ خبيئةً من بيت رأس ... يكون مزاجَها عسلٌ وماءُ(٤)
إذا ما الأشرِباتُ ذُكِرن يوماً ... فهنَّ لطَيب الراح الفداءُ
نُولِّيها الملامَةَ إن ألَمْنا ... إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحَاءُ(٥)
ونشربها فتتركنا ملوكاً ... وأُسداً ما ينهنهنا اللقاءُ(٦)
عَدِمنا خيلَنَا إن لم تَرَوها ... تُثِيرُ النقعَ موعدُها كَداءُ(٧)
ينازِعنَ الأعنَّةَ مُصْغِياتٍ ... علي أكتافها الأسلُ الظِّمَـاءُ(٨)
تظلّ جيادُنا متمطِّراتٍ ... يلطِّمهنَّ بالخُمر النساءُ(٩)
فإمّا تُعرِضوا عنَّا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشفَ الغِطاءُ
وإلاَّ فاصبروا لجلاد يومٍ ... يُعين اللهُ فيه من يشاءُ

(١) عفت : تغيرت ودرست . ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام ، وبالجواء ، كان منزل الحارث بن أبي شمر الغساني ، ممدوح النابغة . وعذراء : قريبة على بريد من دمشق .

(٢) بنو الحسحاس : حي من بني أسد ، الروامس : الرياح تطمس الآثار . السماء : المطر .

(٣) النعم : المال الراعي ، وأكثر ما يطلق على الإبل . والشاء : جمع شاة .

(٤) الخبيئة : الخمر المصونة المضنون بها . بيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر الجيدة .

(٥) ألمنا : فعلنا ما نستحق عليه اللوم . المغث : الضرب باليد . اللحاء : السباب .

(٦) ينهنهنا : يزجرنا ويردنا . (٧) النقع : الغبار . كداء ، كسحاب : ثنية بأعلى مكان

(٨) الأعنة : جمع عنان ، وهو اللجام . الأسل : الرماح . الظمـاء : الذوابل .

(٩) متمطرات : مسرعات . الخمر : جمع خمار .

وجبريلٌ رسول الله فينا ... وروحُ القُدْس ليس له كِفاءُ[1]
وقال الله : قد أرسلتُ عبداً ... يقول الحقَّ إنْ نفع البلاءُ
شهدتُ به فقوموا صدِّقوه ... فقلتم : لا نقوم ولا نشاءُ
وقال الله : قد سيَّرتُ جنداً ... هم الأنصارُ عُرْضتُها اللقاءُ[2]
لنا في كل يومٍ من معدٍّ ... سِبابٌ أو قتال أو هجاءُ
فَنحكمُ بالقوافي مَن هجانا ... ونضرب حينَ تختلط الدماءُ[3]
ألا أبلغْ أبا سفيانَ عنِّي ... مغَلْغَلةً فقد برِحَ الخفاءُ
بأنَّ سيوفنا تركتك عبداً ... وعبدُ الدار سادتها الإماءُ
هجوتَ محمداً وأجبتُ عنه ... وعِند الله في ذاكَ الجزاءُ
أتهجوه ولستَ له بكفءٍ ... فشـرُّكمـا لخيركما الفداءُ
هجوتَ مباركاً بَرًّا حنيفا ... أمينَ الله شيمتُه الوفاءُ[4]
أَمَن يهجو رسولَ الله منكم ... ويمدحُه وينصرُه سواءُ
فإنَّ أبي ووالدَه وعِرضي ... لعرضِ محمدٍ منكم وِقاءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيه ... وبحرِي لا تكدِّره الدِّلاءُ

* غَزْوَةُ حُنَيْنٍ فِيْ سَنَةِ ثَمانٍ بَعْدَ الْفَتْح *

ولما سمعت هوازنُ برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوفٍ النصْريّ ، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلُّها ! واجتمعت نصر وجُشَمُ كلها ، وسعد بن بكر ، وناسٌ من بني هلال وهم قليل ، ولم يشهدها من قيس عيلان إلَّا هؤلاء ، وغاب عنها فلم يحضرها من هوازنَ كعبٌ ولا كلاب ، ولم يشهدها منهم أحدٌ له اسم .

وفي بني جشم دريد بن الصِّمة ، شيخ كبير ليس فيه شيءٌ إلا التيمُّن برأيه ومعرفته بالحرب ، وكان شيخاً مجرَّباً . وفي ثقيف سيِّدان لهم . وفي الأحلاف قارب بن

---

(١) ليس له كفاء : الكفء والنظير والمثيل .
(٢) عرضتها اللقاء ، أي عادتها أن تتعرض للقاء ، فهي قادرة عليه .
(٣) نحكم : نمنع ونكف .
(٤) الحنيف : المسلم ، سمي حنيفاً لأنه مال عن الباطل إلى الحق . الشيمة : الطبيعة .

الأسود بن مسعود بن معتِّب . وفي بني مالك ذو الخمار سُبيع بن الحارث بن مالك ، وأخوه أحمر بن الحارث . وجِماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصري .

فلما أجمع السيرَ إلى رسولِ الله ﷺ حَطَّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل بأوطاس[١] اجتمع إليه الناس وفيهم دُريد بن الصمة في شِجارٍ له[٢] يُقاد به . فلما نزل قال : بأيِّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نِعم مَجالُ الخيل ، لا حَزْنٌ ضِرس[٣] ولا سهل دَهْس[٤] ، مالي أسمع رُغاءَ البعير ، ونُهاق الحمير ، وبكاءَ الصغير ، ويُعَار الشاء[٥] ؟ قالوا : ساقَ مالكُ بن عوفٍ مع الناس أموالَهم ونساءهم وأبناءهم . قال : أين مالك ؟ قيل : هذا مالك . ودُعيَ له ، فقال : يا مالك ، إنَّك قد أصبحت رئيسَ قومك ، وإنَّ هذا يومٌ كائنٌ له ما بعده من الأيام ! ما لي أسمع رغاءَ البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويُعار الشاء ؟ قال : سُقتُ مع الناس أموالهم ونساءَهم . قال : ولم ذاك ؟ قال : أردت أن أجعل خَلْفَ كلِّ رجلٍ منهم أهلَه وماله ليقاتل عنهم .

فأنقض به[٦] ثم قال : راعي ضأنٍ والله ! وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضِحتَ في أهلك ومالك .

ثم قال : ما فعلت كعبٌ وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدها منهم أحد . قال : غاب الحَدُّ[٧] والجَدُّ ، ولو كان يومَ علاءٍ ورفعة لم تَغِبْ عنه كعْب ولا كلاب ! ولوددتُ أنكم فعلتم ما فعَلتْ كعب وكلاب ، فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر . قال : ذانِك الجذَعان[٨] من عامر ، لا ينفعان ولا يضرَّان ! يا مالك ، إنك لم تصنع بتقديم البيضة[٩] بيضةِ هوازن إلى نحور الخيل شيئاً . ارفعهم إلى متمنَّعٍ بلادهم وعُليا قومهم ، ثمَّ الْقَ الصُّبَّأَ[١٠] على مُتون الخيل ، فإن كانت لك لحِق بك مَن وراءك ،

---

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن . (٢) الشجار : شبه الهودج مكشوف الأعلى

(٣) الحزن : المرتفع من الأرض . الضرس : الذي فيه حجارة محددة .

(٤) الدهس : اللين الكثير التراب . (٥) يعار الشاء : صوتها .

(٦) أنقض به ، من الإنقاض ، وهو أن يلصق لسانه بالحنك ثم يصوت في حافتيه ، يفعلون ذلك عند إنكار القول أو العمل . (٧) الحد : الشجاعة والحدة .

(٨) الجذع : الضعيف في الحرب ، كأنه الجذع من الإبل . (٩) البيضة : الجماعة .

(١٠) جمع صابىء ، كانوا يسمون المسلمين بذلك لأنهم خرجوا عن دين الوثنية إلى الإسلام .

وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزتَ أهلك ومالك . قال : والله لا أفعل ذلك ، إنَّك قد كبرتَ وكبر عقلُك ! والله لتطيعُنَّني يا معشر هَوازنَ أو لأتَّكِئَنَّ على هذا السيف حتَّى يخرجَ من ظهري ـ وكره أن يكون لدريد بن الصِّمة فيها ذِكر أو رأي ـ فقالوا : أطعناك . فقال دريد بن الصمة : هذا يومٌ لم أشهدْه ولم يفُتني :.

يا ليتَني فيها جذَعْ[1] أُخُبُّ فيها وأَضَع[2]
أَقُود وَطْفاءَ الزَّمَع[3] كأنَّها شاةٌ صدَعْ[4]

ثم قال مالكٌ للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شُدُّوا شَدَّةَ رجلٍ واحد !

ولمّا سمع بهم نبيُّ الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلميّ ، وأمره أن يدخلَ في الناس فيقيمَ فيهم حتى يعلم عِلمهم ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابنُ حَدرد فدخل فيهم فأقام فيهم ، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ ، وسمع من مالك وأمرِ هوازن ما هم عليه : ثم أقبلَ حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر .

فلما أجمع رسول الله ﷺ السيرَ إلى هوازن ليلقاهم ذُكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً له وسلاحاً ، فأرسلَ إليه وهو يومئذ مشرِكٌ فقال : يا أبا أمية ، أعِرنا سلاحَك هذا نلحق فيه عدوَّنا غداً ، فقال صفوانُ : أغَصْباً يا محمد ؟ قال : بل عاريَّةً مضمونة حتَّى نؤدِّيَها إليك . قال : ليس بهذا بأس !

فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فزعموا أنَّ رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل .

ثم خرج رسول الله ﷺ معه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم ، فكانوا اثنَيْ عشر ألفاً . واستعمل رسول الله ﷺ عتَّاب بن أَسِيد بن أبي العِيص بن أمية بن عبد شمس على مكة ، أميراً على من تخلَّف عنه من الناس . ثم مضى رسول الله ﷺ على وجهه يريد لقاء هوازن .

---

(١) الجذع : الشاب .

(٢) الخبب والوضع : ضربان من السير .

(٣) الوطفاء : الطويلة الشعر . الزمع : الشعر الذي فوق مربط القيد .

(٤) الشاة : الوعل . الصدع : الوسط بين العظيم والحقير .

عن الحارث بن مالك قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين ونحن حديثو عهدٍ بالجاهلية فسرنا معه إلى حُنين ، وكانت لكفَّار قريش ومن سِواهم من العرب شجرةٌ عظيمة خضراءُ يقال لها ذات أنواطٍ ، يأتونها كل سنةٍ فيعلِّقون أسلحتَهم عليها ، ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً ، فرأينا ، ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سِدرةً خضراء عظيمة ، فتنادَينا من جَنَبات الطريق : يَا رسولَ الله ، إجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواط . قال رسول الله ﷺ : « الله أكبر » ! قلتم ـ والذي نفسُ محمد بيده ـ كما قال قومُ موسى لموسى : ﴿اجْعَلْ لنا إلَهاً كما لَهم آلهةٌ قَال إنَّكم قومٌ تَجهَلون﴾ . إنها السُّنن ، لتركَبُن سَنَنَ من كان قبلكم .

عن جابر بن عبد الله قال :

لما استقبلْنا وادي حُنين انحدرنا في وادٍ من أودية تِهامة أجوف حَطُوط(١) إنَّما ننحدر فيه انحداراً ، وفي عَماية الصُّبح(٢) ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شِعابه وأحنائه(٣) ومضايِقه ، وقد أجمعوا وتهيّئوا وأعدُّوا ، فوالله ما راعَنا ونحن منحطُّون إلَّا الكتائبُ قد شدُّوا علينا شَدَّةَ رجلٍ واحد ، وانشمَر الناس(٤) راجعين لا يَلوِي أحدٌ على أحد .

وانحاز رسول الله ﷺ ذاتَ اليمين ثم قال : أين أيُّها الناس ؟ هلمُّوا إليّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ! فلأيٍّ شيء(٥) حملتِ الإبلُ بعضُها على بعض ؟! فانطلق الناس ، إلَّا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

قال ابن إسحاق : فلما انهزم الناسُ ورأى من كان مع رسول الله ﷺ مِن جُفاة أهل مكة الهزيمةَ ، تكلَّم رجالٌ منهم بما أنفسهم من الضِغن ، فقال أبو سفيان بنُ حرب : لا تنتهي هزيمتُهم دون البحر ! وإنَّ الأزلام(٦) لمَعه في كنانته .

---

(١) أجوف : متسع . حطوط : منحدر .

(٢) عماية الصبح : ظلامه قبل أن يتبين .

(٣) الأحناء : الجوانب .

(٤) انشمروا : انفضوا وانهزموا .

(٥) أي لشيء عظيم .

(٦) الأزلام : السهام التي كانوا يستقسمون بها ويخضعون لحكمها .

وصرخ جبلَة بن الحنبل : ألاَ بَطَلَ السحرُ اليوم !

وقال شيبة بن عثمان : قلتُ : اليومَ أُدركُ ثأري من محمد[١] ! اليوم أقتل محمداً ! فأدرتُ برسول الله ﷺ لأقتله ، فأقبل شيءٌ حتَّى تغشَّى فؤادي فلم أُطِقْ ذاك ، وعلمت أنَّه ممنوع منِّي

وحدثني بعض أهل مكَّة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال حينَ فصَلَ من مكة إلى حُنينٍ ، ورأى كثرةَ مَن معه من جنود الله : « لن نُغْلَبَ اليومَ من قلَّة » ! .

عن العباس بن عبد المطلب قال :

إني لمَع رسول الله ﷺ آخِذٌ بحكمةِ[٢] بغلته البيضاء ، قد شجرْتَها[٣] بها ، وكنت امرأ جسيماً شديد الصوت ، ورسول الله يقول حين رأى ما رأى من الناس : أين أيُّها الناس ؟ فلم أر الناس يَلوون على شيء ، فقال : يا عباس ، اصرخ : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السَّمُرَة . قال : فأجابوا : لبَّيك لبَّيك !

فيذهب الرجل لِيَثْنِيَ بعيرَه فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ويقتحِم عن بعيره ويخلِّي سبيله ، فيؤمُّ الصوت حتى ينتهيَ إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا .

وكانت الدعوى أوَّلَ ما كانت : يا للأنصار ! ثم خلَصَتْ أخيراً : يا للخزرج ! وكانوا صُبُراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه ، فنظر إلى مُجتَلَد القوم[٤] وهم يجتلدون ، فقال : الآن حَمِيَ الوطيس[٥] !

عن جابر بن عبد الله قال :

بينا ذلك الرجل من هوازن ، صاحبُ الراية ، على جمله يصنع ما يصنع ، إذْ هَوَى له علي بن أبي طالب رضوانُ الله عليه ورجلٌ من الأنصار يريدانه ، فيأتيه علي بن أبي طالب من خلفه ، فضربَ عُرقوبَي الجمل فوقَع على عجزه ، ووثَب الأنصاريّ على

---

(١) كان أبوه قد قتل يوم أحد .

(٢) الحكمة : اللجام .

(٣) شجرها بها : وضعها في شجرها ، وهو مجتمع اللحيين .

(٤) مجتلد القوم : موضع جلادهم بالسيوف ، حيث تكون المعركة .

(٥) الوطيس : المعركة . وهى كلمة لم تسمع إلا من الرسول .

الرجل فضربَه ضربةً أطنَّ قدمَه[1] بنصف ساقه ، فانجعف[2] عن رحله ، واجتهد الناسُ ، فوالله ما رجعت راجعةُ الناس من هزيمتهم حتّى وجدوا الأسارى مكتَّفين عند رسول الله ﷺ .

والتفتَ رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وكان ممن صبر يومئذ مع رسول الله ﷺ ، وكان حسنَ الإسلام حين أسلم ، وهو آخذٌ بثَفر بغلته[3] ، فقال : من هذا ؟ قال : أنا ابنُ أُمِّك يا رسول الله ! .

عن عبد الله بن أبي بكر :

أن رسول الله ﷺ التفت فرأى أمَّ سُلَيم بنتَ مِلحان ، وكانت مع زوجها أبي طلحة ، وهي حازمةٌ وسَطها ببُردٍ لها ، وإنها لحاملٌ بعبد الله بن أبي طلحة ، ومعها جملُ أبي طلحة ، وقد خشيتْ أن يَعُزَّها الجمل[4] ، فأدنَتْ رأسه منها ، فأدخلتْ يدَها في خِزامته[5] مع الخطام ، فقال لها رسول الله ﷺ : أمّ سُليم . قالت : نعم ، بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله ، اقتلْ هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك ، فإنهم لذلك أهلٌ ! فقال رسولُ الله ﷺ : أو يَكفي اللّهُ يا أمّ سليم ؟ قالت : ومعها خِنجَر فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذتُه ، إنْ دنا مني أحدٌ من المشركين بعَجْته به[6]. يقول أبو طلحة : ألا تسمعُ يا رسول الله ما تقول الرُّمَيْصاءُ[7]!

عن أبي قتادة قال :

رأيت يومَ حُنين رجلين يقتتلان : مسلماً ومشركاً ، وإذا رجلٌ من المشركين يريد أن يُعين صاحبَه المشركَ على المسلم ، فأتيتُه فضربتُ يَده فقطعتها ، واعتنقَني بيده الأخرى ، فوالله ما أرسلني حتّى وجدتُ ريح الدم ؛ وكاد يقتلنيْ ؛ فلولا أن الدم نزَفه لقتلني ، فسقط فضربته فقتلته ، وأجهضَني عنه القتال[8] ، ومرَّ به رجلٌ من أهل مكّة فسلبه . فلما وضعت الحربُ أوزارها وفرغنا من القوم ، قال رسول الله ﷺ : « مَن قَتل

---

(١) أطن قدمه : أطارها وسمع لضربه طنين أو دوي

(٢) انجعف : سقط سريعاً .

(٣) الثفر : السير في مؤخر السرج .

(٤) يعزها : يغلبها .

(٥) الخزامة : حلقة من شعر تجعل في أنف البعير .

(٦) بعج بطنه بالسكين : شقه وخضخضه فيه .

(٧) مصغر الرمصاء : من الرمص ، وهو القذى يكون في العين .

(٨) أجهضني عنه : شغلني وضيق علي وغلبني .

قتيلاً فله سَلَبُه » . فقلت : يا رسول الله ، والله لقد قتلت قتيلا ذا سلب ، فأجهضَني عنه القتال فما أدري مَن استلبه ؟ فقال رجلٌ من أهل مكّة : صدقَ يا رسول الله ، وسلَبُ ذلك القتيلِ عندي ، فأرضه عنّي مِن سلَبه . فقال أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه : لا والله ، لا يُرضيه منه ، تَعمِدُ إلى أسدٍ من أُسد الله يقاتل عن دين الله تقاسِمُه سَلبه ؟! اردُدْ عليه سلب قتيلِه . فقال رسول الله ﷺ : « صدَقَ ، اردُدْ عليه سلبَه » .

قال أبو قتادة : فأخذتُه منه فبعته فاشتريت بثمنه مَخْرَفاً(١) ، فإنه لأوَّل مالٍ اعتقدتُه(٢) .

قال ابن إسحاق :

فلما انهزَمَت هوازن استحرَّ(٣) القتل من ثقيف في بني مالك ، فقُتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم ، فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب وكانت رايتهم مع ذي الخِمار(٤) ، فلما قُتل أخذها عثمان بن عبد الله ، فقاتل بها حتّى قُتل .

ولما انهزم المشركون أَتَوا الطائف ومعهم مالك بن عوف ، وعسكَرَ بعضهم بأوطاس ، وتَوجَّه بعضهم نحو نخلة ، ولم يكن فيمن توجَّه نحو نخلة إلاَّ بنو غِيَرة من ثقيف ، وتبعت خيلُ رسول الله ﷺ من سلك في نَخْلة من الناس ، ولم تتبع من سلك الثنايا .

وبعث رسول الله ﷺ في آثار من توجَّه قِبلَ أوطاس أبا عامر الأشعريّ ، فأدرك من الناس بعضَ من انهزم ، فناوَشوه القتالَ ، فرُمي أبو عامرٍ بسهم فقُتِل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ، وهو ابن عمه ، فقاتلهم ففتح الله على يديه وهزمهم .

وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف في فوارسَ من قومه على ثنيةٍ(٥) من الطريق وقال لأصحابه : قفوا حتّى تمضيَ ضعفاؤكم ، وتلحق أخراكم . فوقف هناك حتّى مضى مَن كان لحق بهم من منهزمة الناس .

---

(١) المخرف : نخلة واحدة ، أو نخلات يسيرة إلى عشر . وما فوق ذلك فهو بستان أو حديقة .
(٢) اعتقدته : أي ملكته .
(٣) استحر : اشتد .
(٤) ذو الخمار : هو عوف بن الربيع .
(٥) الثنية : موضع مرتفع بين جبلين .

ومرّ رسول الله ﷺ بامرأة وقد قتلها خالد بن الوليد ، والناس متقصّفون[1] عليها ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد . فقال رسول الله ﷺ لبعض مَن معه : أدركْ خالداً فقلْ له : إنّ رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأةً او عسيفاً[2] .

وإنّ رسول الله ﷺ قال يومئذ : إن قدرتم على بِجاد ـ رجل من بني سعد بن بكر ـ فلا يُفلتنَّكم ، وكان قد أحدثَ حدثاً . فلمّا ظفر به المسلمون ساقوه وأهله ، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العُزَّى أختَ رسول الله ﷺ من الرضاعة ، فعنَفُوا عليها في السياق ، فقالت للمسلمين : تعلّموا والله إني لأختُ صاحبكم من الرضاعة ! فلم يصدِّقوها حتى أتَوْا بها إلى رسول الله ﷺ .

فلما انتُهي بها إلى رسول الله ﷺ قالت ، يا رسول الله ، إنِّي أختك من الرضاعة . قال : وما علامة ذلك ؟ قالت : عضَّة عضضتَنيها في ظهري وأنا متورِّكُتك[3] . فعرف رسولُ الله ﷺ العلامة ، فبسط لها رداءه فأجلَسها عليه وخيَّرها وقال : إن أحببْتِ فعندي محبَّبة مكرمة ، وإن أحببت أن أُمتِّعك[4] وترجعي إلى قومِك فعلت . فقالت : تمتِّعني وتردُّني إلى قومي . فمتَّعَها رسولُ الله ﷺ وردَّها إلى قومها .

فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاماً له يقال له مكحول ، وجاريةً ، فزوّجت أحدَهما الأخرى ، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية .

قال ابن هشام :

وأنزل الله عزّ وجلّ في يوم حنين : ﴿لقد نَصَركم الله في مواطِنَ كثيرة ويومَ حُنَينٍ إذْ أعجبتكم كثْرتُكم﴾ إلى قوله : ﴿وذلك جزاءُ الكافرينَ﴾ .

قال ابن إسحاق :

ثم جُمعت إلى رسول الله ﷺ سبايا حُنَين وأموالُها ، وكان على المغانم مسعود بن عمرو الغِفاري ، وأمر رسولُ الله ﷺ بالسبايا والأموال إلى الجِعرَانة فحُبِستْ بها .

---

(١) متقصفون : مزدحمون .

(٢) العسيف : الأجير والعبد المستعان به .

(٣) توركته : حملته على وركها .

(٤) أمتعك : أعطيك ما يكون به التمتع ، أي الإنتفاع .

* غَزْوَةُ الطَّائِفِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ *

ولمَّا قدم فَلُّ ثقيف[1] الطائف أغلقوا عليهم أبوابَ مدينتها ، وصنعوا الصنائع للقتال .

ولم يشهد حُنيناً ولا حصار الطائف عُروة بن مسعود ، ولا غَيلان بن سلمة كانا بجرَش يتعلَّمان صنعة الدَّبابات[2] والمجانيق[3] والضُّبور[4] .

ثمَّ سار رسولُ الله ﷺ إلى الطائف حين فرغ من حنين ، فقال كعب بن مالك حين أجمع رسولُ الله ﷺ السيرَ إلى الطائف :

قضينا من تِهامة كلَّ ريب ... وخيبرَ ، ثُمَّ أَجْمَمْنا السيوفا[5]
نُخَيِّرها ، ولو نطقت لقالت ... قَواطِعُهنَّ ، دَوساً أو ثقيفا
فلستُ لحاصنٍ إن لم تَرَوها ... بساحةِ داركم مِنَّا أُلوفا
وننتزعُ العُروشَ ببطن وجٍّ ... وتصبحْ دارُكم منكم خلوفا[6]

فسلك رسول الله ﷺ على نخلةَ اليمانية ، ثم على قَرْن ثم على المُلَيح ، ثم على بُحرة الرُّغاء من لِيَّة[7] فابتنى بها مسجداً فصلَّى فيه ، ثم سلك في طريق يقال له الضَّيْقة ، ثم خرج منها على نَخْب حتى نزل تحت سِدرة يقال لها : « الصادرة » قريباً من مال رجل من ثقيف ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ : إما أن تخرج وإما أن نُخْربَ عليك حائطك . فأبى أن يخرج ، فأمر رسولُ الله ﷺ بإخرابه .

ثمَّ مضى رسول الله ﷺ حتى نزل قريباً من الطائف ، فضرب به عسكرَه[8] ، فقُتِل به ناسٌ من أصحابه بالنَّبل ؛ وذلك أن العسكر اقتربَ من حائط الطائف فكانت النَّبل تنالهم ، ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم ، أغلقوهُ دونهم . فلمَّا

---

(١) الفل : الجماعة المنهزمون .
(٢) الدبابة : آلة من آلات الحرب ، يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها .
(٣) جمع منجنيق ، وهي من آلات الحصار ، يرمى بها الحجارة الثقيلة ونحوها .
(٤) الضبور : مثل رءوس الأسفاط ، يتقى بها في الحرب عند الإنصراف .
(٥) الريب : الشك . أجممنا السيوف : أرحناها .
(٦) العروش : سقوف البيوت . وج : موضع بالطائف . خلوف : تغيب عنها أهلها .
(٧) قرن ، ومليح ، وبحرة الرغاء ، ولية : مواضع بالطائف .
(٨) أي نصب الخيام للجنود .

أُصيب أُولئك النفر من أصحابه بالنّبل وضع عسكره عند مسجده الذي بالطائف اليوم ، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة ، ومعه امرأتان من نسائه ، إحداهما أم سلمة ابنة أبي أمية ، فضرب لها قبّتين ثم صلّى بين القُبّتين . ثم أقام ، فلمّا أسلمت ثقيف بَنى على مصلّى رسول الله ﷺ عمرُو بن أمية بن وهب مسجداً ، وكانت في ذلك المسجد سارية فيما يزعمون لا تطلع الشمسُ عليها يوماً من الدهر إلاّ سُمعَ لها نقيض[1] ، فحاصرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم قتالاً شديداً ، وترامَوا بالنّبل[2] .

حتّى إذا كان يومُ الشّدخة عند جدار الطائف ، دخل نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبّابة ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليَخْرقوه ، فأرسلتْ عليهم ثَقيفٌ سِكك الحديد محماةً بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون .

وقد بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق وهو محاصرٌ ثقيفاً : يا أبَا بكر ، إنني رأيت أنّي أُهديتْ لي قَعبة[3] مملوءة زبداً ، فنقرها ديكٌ فَهرَاقَ ما فيها . فقال أبو بكر : ما أظنُّ أن تدركَ منهم يومَك هذا ما تريد . فقال رسول الله ﷺ : وأنا لا أرى ذلك .

ثم إن خُويلة بنت حكيم السُّلمية ، وهي امرأة عثمان ، قالت : يا رسول الله ، أعطني إنْ فتح الله عليك الطائفَ حُليَّ باديةَ بنتِ غيلان ، أو حليَّ الفارعة بنت عقيل - وكانتا من أحلى نساء ثقيف[4] - فذُكر لي أنَّ رسول الله ﷺ قال لها : « وإنْ كان لم يؤذن لي في ثقيف يا خويلة ؟ » فخرجت خويلة فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ، فدخل على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما حديثٌ حدَّثَتْنِيهِ خويلةُ زعمَتْ أنك قُلتَه ؟ قال : قد قلتُه . قال : أوَ ما أُذِن لك فيهم يا رسول الله ؟ قال : لا . قال : أفلا أُوذِن بالرحيل ؟ قال : بلى . قال : فآذَنَ عمر بالرحيل .

فلمّا استقلَّ الناسُ نادى سعيد بن عُبيد : ألا إنَّ الحيَّ مقيم .

---

(١) النقيض : الصوت .

(٢) قال ابن هشام : « ورماهم رسول الله ﷺ بالمنجنيق . حدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق رمى أهل الطائف » .

(٣) القعبة : القدح .

(٤) أي من أكثرهن حلياً .

ويقول عيينة بن حِصن : أجَلْ والله مَجدةً كراماً . فقال له رجلٌ من المسلمين : قاتلك الله يا عيينة ، أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ ، وقد جئت تنصر رسول الله ؟ فقال : إنّي والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم ، ولكنّي أردت أن يفتح محمدٌ الطائف فأُصيبَ من ثقيف جارية أتّطئها ، لعلها تلد لي رجلاً ، فإنّ ثقيفاً قومٌ مناكير[1].

ونزل على رسول الله ﷺ في إقامته ممّن كان محاصراً بالطائف عَبيدٌ ، فأسلموا فأعتقهم رسول الله ﷺ .

ولما أسلم أهل الطائف تكلّم نفرٌ منهم في أُولئك العبيد . فقال رسول الله ﷺ : « لا ، أُولئك عتقاءُ الله » .

وكان ممن تكلم فيهم الحارث بن كَلَدة .

وجميع من استُشهد بالطائف من أصحاب رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلاً : سبعة من قريش ، وأربعة من الأنصار ، ورجلٌ من ليث .

فلما انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف بعد القِتال والحصار قال بُجَير بن زُهير بن أبي سلمى يذكر حُنَيناً والطائف :

كانت عُلالةَ يومَ بطنِ حُنيِّنٍ ... وغَداة أوطاسٍ ويوم الأبرقِ[2]
جَمَعت بإغواء هوازنُ جَمعَها ... فتبدّدوا كالطائر المتمزّقِ[3]
لم يمنعوا منّا مقاماً واحداً ... إلا جدارَهم وبطنَ الخندقِ
ولقد تعرَّضْنا لكيما يخرجوا ... فتحصّنوا منّا بباب مغْلَقِ
ترتدُّ حَسْرانَا إلى رجراجةٍ ... شهباء تلمع بالمنايا فيلقِ[4]
ململومةٍ خضراء لو قَذَفوا بها ... حَضَنا لظلَّ كأنه.. لم يخلقِ[5]
مَشْيَ الضَّراء على الهَرَاس كأننا ... قُدْرٌ تَفَرَّقُ في القياد وتلتقي[6]

---

(١) مناكير : ذوو دهاء وفطنة .

(٢) العلالة : جري بعد جري ، أي قتال بعد قتال . وحذف التنوين للضرورة . حنين : تصغير حنين .

(٣) الإغواء : الإضلال . الغي : خلاف الرشد .

(٤) حسرى : جمع حسير . الرجراجة : الكتيبة الضخمة . الشهباء : البيضاء لما فيها من لمعان الحديد .

(٥) ململومة : مجتمعة . خضراء ، لما بها من السلاح . حضن : جبل بأعلى نجد .

(٦) مشي الضراء : أي في استخفاء وختل . الهراس : نبات له شوك . قدر : جمع قدور ، وهي الخيل تجعل أرجلها في مواضع أيديها إذا مشت . ويروى : « فدر » بالفـاء ، وهي الوعول المسنة .

في كلِّ سابغة إذا ما استحصنت كالنّهي هبَّتْ ريحهُ المترقرقِ[1]
جُدْلُ تَمَسُّ فضولَهُنَّ نعالُنا مِن نسج داودٍ وآل محرِّقِ[2]

* أمْرُ أمْوالِ هَوازِنَ وَسَبَاياها *
وَعَطايَا المُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْهَا وَإِنْعَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ

ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دَحْنا[3] حتَّى نزل الجِعْرانة فيمن معه من الناس ، ومعَه من هوازنَ سبيٌ كثير ، وقد قال رجلٌ من أصحابه يوم ظعَنَ عن ثقيف : يا رسول الله ، ادع عليهم ! فقال رسول الله ﷺ : « اللهمَّ اهدِ ثقيفاً وأتِ بِهم » .

ثم أتاه وفد هوازن بالجِعرانة ، وكان مع رسول الله ﷺ مِن سبْي هوازن ستة آلاف من الذراريِّ والنساء ، ومن الإبل والشاء ما لا يُدْرى ما عِدّته . فقالوا : يَا رسول الله ، إنَّا أصلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يَخْفَ عليك ، فامننْ علينا منَّ الله عليك .

وقام رجلٌ من هوازن ثم أحد بني سعد بن بكر ، يقال له زهيرٌ ، يكنى أبا صُرَد ، فقال : يا رسول الله ، إنّما في الحظائر[4] عمَّاتك وخالاتك وحواضنك[5] اللاتي كنَّ يكفُلنك ، ولو أنَّا مَلَحْنا[6] للحارث بن أبي شَمِر ، أو للنُّعمان بن المنذر ثم نزل منَّا بمثل الذي نزلتَ به رجَونا عطفه وعائدته[7] علينا ، وأنت خير المكفولين !

فقال رسول الله ﷺ : « أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسولَ الله ، خيَّرتَنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل تردُّ إلينا نساءنا وأبناءنا ، فهو أحبُّ إلينا . فقال لهم : أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطَّلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صلَّيت الظُّهر بالناس فقوموا فقولوا · إنَّا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

---

(1) السابغة : الدرع التامة . والنهي : الغدير من الماء .

(2) الجدل : جمع جدلاء ، وهي الدرع الجيدة النسج . آل محرق : آل عمرو بن هند ملك الحيرة .

(3) دحنا : مخلاف من مخاليف الطائف .

(4) الحظائر : جمع حظيرة ، وهي الزرب يصنع للإبل والغنم ليكفها . وكان السبي يوضع في حظائر .

(5) حواضنك : اللاتي أرضعنك . وكانت حاضنة الرسول من بني سعد بن بكر ، من هوازن .

(6) ملحنا : أرضعنا . والملح : الرضاع .

(7) العائدة : الفضل العائد .

فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ بالناس الظُّهر قاموا فتكلَّموا بالذي أمرهم به ، فقال رسول الله ﷺ : « أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم » . فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو إلى رسول الله ﷺ . وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال الأقرع بن حابس : أمّا أنَا وبنو تميم فلا . وقال عيينةُ بن حصن : أما أنَا وبنو فزارة فلا . وقال عباس بن مرداس : أما أنَا وبنو سُليم فلا . فقالت بنو سليم : بلى ، ما كان لنا فهو إلى رسول الله ﷺ .

يقول عباس بن مِرداس لبني سُليم : وَهّنتموني[١] .

فقال رسول الله ﷺ : « أمّا من تمسَّك منكم بحقِّه من هذا السَّبي فله بكل إنسان ستُّ فرائض . من أول سبيٍ أُصيبه ، فرُدُّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن وسألهم عن مالك بن عوف : ما فعل ؟ فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف . فقال رسولُ الله ﷺ : « أخبروا مالكاً أنَّه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل . فأتيَ مالكٌ بذلك فخرج إليه من الطائف . وقد كان مالك خافَ ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أنَّ رسول الله ﷺ قال ما قال فيحبسوه ، فأمر براحلته فهُيئت له ، وأمر بفرسٍ له فأتيَ به إلى الطائف ، فخرج ليلاً فجلس على فرسه ، فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تُحبَس ، فركبها فلحق برسول الله ﷺ ، فأدركه بالجِعْرانة أو بمكّة ، فردَّ عليه أهلَه وماله ، وأعطاه مائةً من الإبل ، وأسلم فحسُن إسلامه ، فقال مالك بن عوفٍ حين أسلم :

مَا إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله في الناس كلِّهم بمثل محمدِ
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتُدِي ومتى تشأ يخبرك عمّا في غدٍ
وإذا الكتيبةُ عرَّدت أنيابُها بالسمهريِّ وضربِ كلِّ مهنَّد[٢]
فكأنَّه ليثٌ على أشباله وسطَ الهباءة خادرٌ في مَرصَدِ[٣]

---

(١) وهنتموني : أضعفتموني .

(٢) عردت : أحجمت وفرت . والأنياب : سادات القوم . السمهري : الرمح . المهند : السيف المنسوب إلى الهند .

(٣) الهباءة : الغبار يثور عند اشتداد الحرب . الخادر : الذي في عرينه . المرصد : المكان يرقب منه . ينعته باليقظة .

فاستعمله رسولُ الله ﷺ على مَن أسلم من قومه وتلك القبائل : ثمالة ، وسلِمة ، وفَهْم ، فكان يقاتل بهم ثقيفاً ، لا يخرج لهم سَرحُ إلاَّ أغار عليه ، حتَّى ضيَّق عليهم ، فقال أبو مِحْجن الثقفي :

هابت الأعداءُ جانبنَا ثم تغزونا بنو سلِمَهْ
وأَتانا مالكٌ بهمُ ناقضاً للعهد والحُرُمه
وأتونا في منازلنا ولقد كنَّا أُولِي نَقِمه

واتبعه الناس يقولون : يا رسول الله ، اَقسِمْ علينا فيئنا من الإبل والغنم ! حتى ألجئوه إلى شجرة فاختطفَتْ عنه رداءه ، فقال : رُدُّوا عليَّ ردائي أيُّها الناس ، فوالله أنْ لو كان لكم بعدد شجر تِهامة نَعماً لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذَّابا .

ثم قام إلى جنب بعيرٍ فأخذ وَبَرةً من سنامه فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها ثم قال : « أيُّها الناس ، والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوَبَرة إلاَّ الخُمسُ ، والخمسُ مردود عليكم ، فأدُّوا الخِياط والمِخْيط[١] ، فإن الغُلول يكون على أهله عاراً وناراً وشَناراً[٢] يوم القيامة » .

فجاء رجلٌ من الأنصار بكُبَّةٍ[٣] من خيوط شعر ، فقال : يا رسولَ الله ، أخذتُ هذه الكُبَّةَ أعمل بها بَرْذَعَة بعيرٍ لي دَبِر[٤] . فقال : أمَّا نصيبي منها فلكَ ! قال : أمَّا إذْ بلغَتْ هذا فلا حاجةَ لي بها . ثم طرَحها من يده .

وأعطى رسولُ الله ﷺ المؤلَّفةَ قلوبهم ، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس ، يتألَّفهم ويتألَّف بهم قومَهم ، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير ، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير ، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير ، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة بعير ، وأعطى سُهيل بن عمرو مائة بعير ، وأعطى حُويطب بن عبد العُزَّى مائة بعير ، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي مائة بعير ، وأعطى عيينة بن حصن مائة بعير ، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير ، وأعطى مالك بن عوفٍ النصري مائة بعير ، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير ، فهؤلاء أصحاب المِئين .

---

(١) الخياط : الخيط . والمخيط : الإبرة .

(٢) الشنار : أقبح العار .

(٣) الكبة : ما جمع من الغزل ونحوه .

(٤) الدبر : الذي به الدبر ، وهي القروح .

وأعطى دون المائة رجالاً من قريش ، منهم مَخرمة بن نوفل الزُّهري ، وعُمَير بن وهبٍ الجمحي ، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤيّ . لا أحفظ ما أعطاهم وقد عرفت أنها دون المائة . وأعطى سعيد بن يربوع بن عَنْكَثة خمسين من الإبل ، وأعطى السهميَّ خمسين من الإبل .

وأعطى عباسَ بنَ مرداسٍ أباعرَ فسخِطها ، فعاتب فيها رسولَ الله ﷺ ، فقال عباس بن مرداس يعاتب رسول الله ﷺ :

كانت نِهاباً تلافيتُها ... بكَرِّي على المُهر في الأجرع[١]
وإيقاظيَ القوم أن يرقدوا ... إذا هجعَ الناسُ لم أهجع[٢]
فأصبح نَهْبِي ونهبُ العُبَيـ ... ـدِ بينَ عيينة والأقرع[٣]
وقد كنتُ في الحرب ذا تُدرإ ... فلم أعطَ شيئاً ولم أُمنع[٤]
إلَّا أفائل أُعطيتُها ... عديدَ قوائمها الأربعِ[٥]
وما كان حصنٌ ولا حابسٌ ... يفوقان شيخيَ في المجمع[٦]
وما كنتُ دون امرىءٍ منهما ... ومَن تضعِ اليوم لا يُرفعِ

فقال رسول الله ﷺ : اذهبوا به فاقطعوا عنِّي لسانَه . فأعطوه حتَّى رضي . فكان ذلك قَطْعَ لسانه الذي أمَر به رسول الله ﷺ[٧] .

عن أبي سعيد الخُدريّ قال :

لما أعطَى رسولُ الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيءٌ ، وَجد هذا الحيُّ من الأنصار في أنفسهم ، حتى كَثُرت

---

(١) النهاب : جمع نهب ، وهو ما ينهب ويغنم . والأجرع : المكان السهل .

(٢) لم أهجع : لم أنم .

(٣) العبيد ، بالصغير : اسم فرس العباس .

(٤) ذا تدرأ : ذا دفع عن قومي . لم أعط شيئاً طائلاً .

(٥) الأفائل : جمع أفيل ، وهو الصغير من الإبل .

(٦) شيخي ، يريد به أباه مرداساً . ويروى : « شيخيّ » بتشديد الياء ، يريد أباه وجده . ويروى : « يفوقان مرداس » .

(٧) قال ابن هشام : وحدثني بعض أهل العلم أن عباس بن مرداس أتى رسول الله ﷺ فقال له : أنت القائل : فأصبح نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة ؟ فقال أبو بكر الصديق : بين عيينة والأقرع . فقال رسول الله ﷺ : « هما واحد » . فقال أبو بكر : أشهد أنك كما قال الله : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » .

منهم القَالة[1] ، حتى قال قائلهم : لقِيَ والله رسول الله ﷺ قومه ! فدخل عليه سعد بن عُبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وَجَدوا عليك في أنفسهم لِما صنعت في هذا الفيء الذي أصبتَ ؛ قَسَمت في قومك ، وأعطيتَ عطايا عِظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحيِّ من الأنصَار منهَا شيءٌ ! قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : يا رسولَ الله ، ما أنَا إلَّا من قومي . قال : فاجمعْ لي قومَك في هذه الحظيرة .

فخرج سعدُ فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ، فجاء رجالٌ من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردَّهم . فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار .

فأتاهم رسولِ الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « يا معشَر الأنصار ، ما قالَةٌ بلغَتني عنكم ، وجِدَةٌ[2] وجَدتموها عليّ في أنفسكم ألم آتكمْ ضُلَّالاً فهداكم الله ، وعالةً فأغناكم الله ، وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم ! قالوا : بلى ، والله ورسولُه أمَنُّ وأفضل[3] » !

ثم قال : ألَا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل . قال ﷺ : « أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصَدقتم ولصُدِّقتم » : أتيناكَ مكذَّباً فصدَّقْناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك[4] . أوَجَدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعةٍ[5] من الدنيا تألَّفتُ بها قوماً ليُسلموا ووَكلتَكمُ إلى إسلامكم ! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار ، ولو سلَكَ الناس شعباً[6] وسلكت الأنصار شِعباً لسلكتُ شِعب الأنصار ! اللهم ارحَم الأنصار وأبناء الأنصار ، وأبنَاء أبناء الأنصار ؟

---

(١) القالة : الكلام الرديء .
(٢) الحدة : الغضب .
(٣) أمنّ : أكثر منّة ، وهي النعمة .
(٤) آسيناك : أعطيناك حتى جعلناك كأحدنا .
(٥) اللعاعة ، بالضم : البقية اليسيرة .
(٦) الشعب : الطريق بين جبلين .

قال : فبكى القوم حتَّى أخضَلُوا لحاهم[١] ، وقالوا : رضينَا برسول الله قَسْماً وحظاً .

ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا .

*عُمْرَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الجِعْرَانَةِ *

واستخلافه عَتَّاب بن أسيد على مكة ، وحجُّ عَتَّاب بالمسلمين سنة ثمان .

قال ابن إسحاق :

ثم خرج رسول الله ﷺ من الجِعْرانة معتمراً ، وأمر ببقايا الفيء فَحُبِسَ بِمَجَنَّة بناحية مَرِّ الظَّهران ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من عُمرته انصرف راجعاً إلى المدينة واستخلف عتَّاب بن أسيد على مكة . وخَلَّفَ معه مُعاذ بن جَبَل يُفَقِّه الناس في الدين ويعلمهم القرآن ، واتُّبع رسول الله ﷺ ببقايا الفيء[٢] .

وكانت عُمرةُ رسول الله ﷺ في ذي القعدة ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة في بقية ذي القعدة ، أو في أول ذي الحجة .

قال ابن إسحاق : وحجَّ الناس في تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه ، وحج بالمسلمين تلك السنة عَتَّاب بن أسيد ، وهي سنة ثمان ، وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم في طائفهم ، ما بين ذي القعدة إذ انصرف رسول الله ﷺ ، إلى شهر رمضان من سنة تسع .

* أَمْرُ كَعْب بن زُهَيْر *

---

(١) أخضلوها : بللوها .

(٢) قال ابن هشام : وبلغني عن زيد بن أسلم أنه قال : لما استعمل النبي ﷺ عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهماً ، فقام فخطب الناس ، فقال : أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله ﷺ درهماً كل يوم ، فليست بي حاجة إلى أحد .

ويؤذيه ، وأن من بقي من شعراء قريش : ابنَ الزِّبْعَرى وهُبيرَةَ بن أبي وهب ، قد هربوا في كل وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجةٌ فطِرْ إلى رسول الله ﷺ ، فإنه لا يقتُل أحداً جاءه تائباً ، وإن أنت لم تفعل فَانْجُ إلى نجائك من الأرض .

وكان كعب قد قال :

أَلَا أَبْلِغَا عَنِّي بُجَيراً رسالةً ... فهل لك فيما قلتُ ويحكَ هَل لكا
فبيِّنْ لنا إنْ كنتَ لستَ بفاعلٍ ... عَلَى أيِّ شيءٍ غيرِ ذلك دلَّكَا
عَلَى خُلُقٍ لَم تُلفِ أُمًّا ولا أباً ... عليهِ ولم تُدركْ عليه أخاً لَكا
فإن أنتَ لَمْ تفعلْ فلستُ بآسفٍ[١] ... ولا قائلٍ إما عَثَرتَ : لَعاً لَكَا[١]
سقاكَ بها المأمُونُ كأساً رويَّةً ... فأنهَلَك المأمونُ مِنها وعلَّكا[٢]

قال : وبعث بها إلي بُجير ، فلما أتت بُجيراً كره أن يكتمها رسولَ الله ﷺ ، فأنشدَه إيَّاها ، فقال رسولُ الله ﷺ لما سمع « سقاك بها المأمون » : « صدق وإنه لكذوبٌ ، أنا المأمون » .

ولما سمع « على خُلُق لم تلف أُمًّا ولا أباً عليه » قال : أجلْ لمْ يلفِ عليه أباه ولا أمَّه

قال ابن إسحاق :

فلما بلغ كعباً الكتابُ ضاقت به الأرض ، وأشفقَ على نفسه ، وأرجف من كان في حاضرِه من عدوِّه ، فقالوا : هو مقتول . فلما لم يجد من شيءٍ بُدًّا قال قصيدته التي يمدح فيها رسولِ الله ﷺ ، وذكر فيها خوفه وإرجافَ الوشاة به من عدوِّه ، ثم خرج حتى قدم المدينة ، فنزل على رجلٍ كانت بينه وبينه معرفة من جُهينةَ ، كما ذكر لي ، فغدا به إلى رسولَ الله ﷺ حين صلَّى الصُّبح ، فصلَّى مع رسول الله ﷺ ، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ ، فقال : هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه . فذُكر لي أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه ، فوضع يده في يده ، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه ، فقال : يا رسولَ الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابلٌ منه إن أنَا جئتك به ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم » . قال : أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

---

(١) بآسف : بنادم . وقوله « لعاًلكَ » كلمة تقال للعاثر ، يدعى له بها ، ومعناها قم وانتعش .
(٢)أنهلك : سقاك النهل ، وهو الشرب الأول ، وعلك : سقاك العلل ، والعلل : الشرب الثاني .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب عليه رجل من الأنصار ، فقال : يا رسول الله ، دَعنِي وعَدُوَّ الله أضربْ عنقه ! فقال رسول الله ﷺ « دَعْهُ عَنكَ فإنَّهُ قَد جاء تائباً نازِعاً عمَّا كان عليه » .

فغضب كعبُ على هذا الحيِّ من الأنصار لما صنع به صَاحبُهم ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، فقَال قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلبِي اليومَ مَتبولُ ... مُتَيَّمٌ إثرَهَا لَم يُفْدَ مكْبولُ(١)
نُبِّئْتُ أنَّ رسولَ اللَّهِ أَوْعَدَني ... والعَفْوُ عند رسولِ الله مأمُولُ
مهلاً هَداك الذي أعطاكَ نافلةَ الْـ ... ـقرآن فيها مواعيظٌ وتَفصيلُ
لَا تَأْخُذَنِّي بأقوال الوُشاةِ ولَمْ ... أُذنبْ ولو كَثُرَت فِيَّ الأقاويلُ
لَقَدْ أقُومُ مَقاماً لَو يَقُومُ بهِ ... يَرَى وَيَسْمَعُ مَا قَد أَسمَعُ الفيلُ
لظَلَّ يُرْعَدُ إلَّا أن يكونَ لهُ ... من الرسولِ بإذنِ اللَّهِ تَنوِيلُ
مَا زلتُ أقتطعُ البيداء مُدَّرعاً ... جُنْحَ الظلام وثوبُ اللَّيلِ مَسدُولُ(٢)
حتَّى وضعتُ يميني مَا أُنَازِعُهَا ... فِي كَفِّ ذِي نَقَمات قِيلُه القيلُ(٣)
فلَهْو أخْوفُ عِندِي إذْ أُكَلِّمُه ... وقيـل إنَّكَ مَنسوبٌ ومسئُولُ(٤)
مِنْ ضَيْغَمٍ بِضَرَاءِ الأرض مَخْدَرُهُ ... في بطن عَثَّرَ غيلٌ دونه غِيلُ(٥)
يَغْدُو فيُلْحِم ضِرغامين عيشُهمَا ... لحمٌ من الناس مَعفورٌ خراديلُ(٦)
إذا يساوِرُ قِرْناً لا يحلُّ لهُ ... أن يترُكَ القِرن إلَّا وهو مفْلولُ(٧)
مِنه تظلُّ سِباعُ الجوِّ نافِرةً ... ولا تمشَّى بواديه الأراجيلُ(٨)

---

(١) البين : الفراق ، وبانت : ذهبت وفارقت . وسعاد : اسم صاحبته . ومتبول : هالك ، والتبل ، بفتح فسكون ، هو الهلاك وطلب الثأر . ومتيم : معبد مذلل . ويروى : « متيم عندها لم يجز » .

(٢) مدرعاً : لابساً والمراد شمول الظلام له .

(٣) أي قوله هو القول الحق .

(٤) منسوب ، أي إلى أمور صدرت منه وصارت موضع مساءلة .

(٥) الضيغم : الأسد . ضراء الأرض : ما واراك من شجر ونحوه . مخدر الأسد : أجمته وغابته . عثر : موضع مشهور بالأسد . الغيل : الأجمة .

(٦) يلحم : يطعم اللحم . معفور : ممرغ في العفر ، وهو التراب . خراديل : قطع .

(٧) يساور : يواثب . مفلول : مكسور منهزم .

(٨) الجو : اسم موضع . والأراجيل : الجماعات من الرجال .

ولا يزال بواديه أخو ثقةٍ مُضرّجُ البَزِّ والدِّرسانِ مأكولُ(١)
إنَّ الرسولَ لَنُورٌ يُستَضاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ من سُيوف الله مَسْلُولُ(٢)
في عُصبةٍ من قُريشٍ قالَ قائلُهُمْ ببطنِ مكةَ لمَّا أسلموا : زولُوا(٣)
زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ عندَ اللقاءِ ولا مِيلٌ مَعازِيلُ(٤)
شمّ العرانين أبطالٌ لَبوسُهمُ مِنْ نَسج داودَ في الهَيْجا سَرَابِيلُ(٥)
بيضٌ سوابغُ قد شُكَّتْ لها حَلَقٌ كأنَّها حَلَقُ القَفْعاء مجدُولُ(٦)
ليسوا مَفاريحَ إن نالتْ رِمَاحُهُمُ قوماً ، وليسوا مجازيعاً إذا نِيلوا(٧)
يمشون مَشيَ الجمالِ الزُّهْرِ يعصِمُهُمْ ضَربٌ إذَا عَرّدَ السُّودُ التَّنابِيلُ(٨)
لا يَقَعُ الطعنُ إلا في نحورِهِمُ وما لهُمْ عن حِياضِ الموتِ تَهْليلُ(٩)

---

(١) مضرج : مخضب بالدماء . والبز : السلاح . والدرسان ، بكسر الدال وسكون الراء ، جمع درس ، وهو الثوب الخلق البالي .

(٢) سيوف الهند مضرب المثل في الجودة . يستضاء به : أي يهتدي به إلى الحق .

(٣) « في عصبة » يروي أيضاً : « في فتية » . وزولوا : انتقلوا من مكان إلى مكان .

(٤) أنكاس : جمع نكس بالكسر ، وهو الرجل الضعيف . سمي بذلك تشبيهاً بالنكس من السهام وهو الذي انكسر فوقه . والكشف : جمع أكشف ، وهو الذي لا ترس معه في الحرب . والميل : جمع أميل ، وهو الذي لا سيف معه ، أو هو الذي لا يحسن ركوب الخيل ولا يستقر على السرج . والمعازيل : جمع معزال ، وهو الذي لا سلاح معه .

(٥) الشم : جمع أشم ، وهو الذي في قصبة أنفه علو مع استواء أعلاه ، وذلك من علامات السيادة والكرم . والعرانين : جمع عرنين ، وهو الأنف . والأبطال : جمع بطل ، وهو الرجل الشجاع ، وسمي بذلك لأنه تبطل عنده الدماء وتهدر ولا ينال منه ثأر . ونسج داود أراد به الدروع . والهيجاء : الحرب ، وأصله ممدود فقصره . والسرابيل : جمع سربال .

(٦) بيض : جمع أبيض ، وسوابغ : جمع سابغ ، وهو الطويل التام ، وهذان وصفانْ للسرابيل في البيت السابق . وشكت : أراد نسجت ، وأصل الشك إدخال الشيء في الشيء . ويروى : « سكت » بالسين المهملة ، ومعناه ضيقت . والحلق : جمع حلقة ، بفتح فسكون . والقفعاء : شجر ينبسط على وجه الأرض يشبه حلق الدروع . ومجدول : محكم الصنعة .

(٧) مفاريح : جمع مفراح ، ومجازيع : جمع مجزاع : وكلاهما صيغة مبالغة من الفرح ومن الجزع . يريد أنهم إذا تغلبوا على عدوهم لم يفرحوا لذلك ، لأن هذا أمر تعودوه ، وإذا غلبهم أحد لم يجزعوا ، لأنهم يعلمون أن الأمور بيد الله ، وأنهم منتصرون عليه فيما بعد .

(٨) الزهر : جمع أزهر ، وهو الأبيض . وعرد : نكب عن قرنه وهرب منه . والتنابيل : جمع تنبال ، وهو القصير .

(٩) وصفهم بأنهم لا يفرون فيقع الطعن في ظهورهم ، بل من شأنهم الإقدام على أعدائهم فيقع الطعن في

قال عاصم بن عُمر بن قتادة : فلما قال كعب « إذَا عرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ » . . وإنما يريدنَا معشرَ الأنصار لما كان صاحبنا صنع به ما صنع ، وخصَّ المهاجرين من قريش من أصحاب رسول الله ﷺ بمَدْحَتِهِ ـ غَضِبَتْ عليه الأنصار ، فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار ويذكر بَلَاءهم مع رسولَ الله ﷺ ، وموضعهم من اليَمَن :

مَنْ سرَّه كرمُ الحَيَاةِ فلا يزلْ ... في مِقنبٍ من صالحي الأنصار[1]
وَرِثُوا المَكَارِمَ كابراً عن كابر ... إنَّ الخِيارَ هُمُ بَنُو الأخيار
المُكرِهِينَ السّمهرِيَّ بأذرع ... كسوافل الهندِيِّ غيرِ قِصار[2]
والناظِرِينَ بِأعينٍ مُحمرَّةٍ ... كالجَمرِ غَيرِ كَلِيلَةِ الإبصارِ
والبائِعينَ نفوسَهم لِنَبِيِّهم ... لِلموتِ يومَ تَعانُق وكِرَارِ
والذائدِينَ الناسَ عن أديانِهم ... بالمشرِفيِّ وبالقنا الخطَّارِ[3]
يتطهَّرون يرونه نُسُكاً لهم ... بِدِماءِ مَن عَلِقُوا مِن الكُفَّارِ
دَرِبُوا كَمَا دَرِبَتْ بِبَطنِ خَفِيَّةٍ ... غُلْبُ الرِّقَابِ منَ الأُسُودِ ضَوَارِي[4]
وإذَا حَلَلتَ لِيَمْنَعُوكَ إليهِمُ ... أصبحْتَ عندَ مَعَاقِلِ الأغفَار[5]
ضَرَبُوا عَلِيًّا يَوْمَ بَدْرٍ ضَرْبَةً ... دَانَت لوقعَتها جَميعُ نِزَارِ[6]
لَوْ يَعلَمُ الأَقْوَامُ عِلْمِي كُلَّهُ ... فِيهِمْ لَصَدَّقَنِي الَّذِينَ أُمارِي[7]

= نحورهم وصدورهم . تهليل : فرار . هلل عن قرنه تهليلاً ، إذا فر .

(١) أصل المقنب الجماعة من الخيل ، وجمعه المقانب ، أراد الفرسان .

(٢) السمهري : الرمح . « كسوافل الهندي » ، يريد الرماح ، والرماح قد تنسب إلى الهند كما تنسب إلى الخط . أنظر ديوان كعب ص ٢٦ .

(٣) الذائدين : المانعين والدافعين . وقد وقع في نسخة : « والقائدين » . والمشرفي : السيف . والخطار : المهتز .

(٤) دربوا : تعودوا . وخفية : موضع تنسب إليه الأسود . وغلب الرقاب : غلاظها . وضوار : متعودة الصيد ، جمع ضار .

(٥) معاقل : جمع معقل ، وهو الموضع الذي يمتنع في من احتله . والأغفار : جمع غفر ، وهو ولد الوعل . ويضرب بها المثل في الإمتناع .

(٦) علياً : أراد به علي بن مسعود بن مازن الغساني . وإليه تنسب بنو كنانة لأنه كفل ولد أخيه عبد مناة بن كنانة بعد وفاته ، فنسبوا إليه .

(٧) أماري : أجادل .

قَوْمٌ إِذَا خَوتِ النُّجُومُ فَإِنَّهُمْ   للطَّارِقِينَ النَّازلينَ مَقارِي[1]
في الغُرِّ مِنْ غَسَّانَ مِنْ جُرْثُومَةٍ   أَعْيَتْ مَحافِرُهَا عَلَى المنقارِ[2]

قال ابن هشام :

ويقال : إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده :

* بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولُ *

« لَوْلَا ذَكَرْتَ الأَنْصَارَ بِخَيْرٍ فَإِنَّهُمْ لِذَلك أَهْلٌ » ! فقال كعب هذه الأبيات وهي في قصيدة له .

وذكر لي عن عليّ بن زيد بن جُدعان أنَّه قال : أنشَدَ كعبُ بن زهير رسولَ الله ﷺ في المسجد :

* بَانَتْ سُعادُ فقلبي اليومَ متبولُ *

* غَزْوَةُ تَبُوكٍ فِي رَجَبٍ سَنَةَ تِسْعٍ *

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب ، ثم أمر الناس بالتَّهيُّؤ لغزوة الروم .

وقد ذَكر لنا الزُّهْرِيُّ ، ويزيد بن رُومَان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وغيرهم من علمائنا ، كلٌّ حَدَّث في غزوةِ تَبُوكَ ما بلغه عنها ، وبعض القوم يُحَدِّث ما لا يحدِّث بعضٌ

أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيُّؤ لغزو الروم ، وذلك في زمن عُسْرَةٍ من لناس ، وشِدَّة من الحر ، وجَدْبٍ من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يُحبُّون لمُقَام في ثمارهم وظلالهم ، ويكْرهون الشُّخُوص على الحال من الزَّمان الذي هم عليه ، وكان رسولُ الله ﷺ قَلَّما يخرج من غزوة إلاَّ كَنَى عنها ، وأخبر أنه يُرِيد غَيرَ الوجه الذي يَصمِدُ له[3] ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بيَّنها للناس ، لبعد الشُّقَّة[4] وشدة

---

(١) خوت النجوم : سقطت ولم تمطر في نوئها . والطارقين : الذين يأتون ليلاً . والقاري : جمع مقري : وهو الكثير الإطعام للضيف .

(٢) المحافر : مواضع الحفر . والمنقار : حديدة كالفأس ينقر بها .

(٣) يصمد له : يقصده .   (٤) الشقة : بعد المسير .

الزمان ، وكثرة العدو الذي يصمِدُ له ؛ ليتأهَّب الناسُ لذلك أُهبتَه . فأمر الناسَ بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم ، فقال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جَهاز ذلك للجَدِّ بن قيس ، أحد بني سَلَمَة : « يا جَدُّ هل لَكَ العامَ في جِلاد بني الأصفر ؟ »(١) فقال : يا رسولَ الله ، أوَ تأذن لي ولا تَفتِنِّي ، فوالله لقد عَرَفَ قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عُجْباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « قد أذِنْتُ لك » . ففي الجدِّ بـن قيس نزلت هذه الآية : ﴿ومِنهم من يقول ائذَنْ لي ولا تفتِنِّي ألاَ في الفِتْنَةِ سَقَطُوا وإنَّ جَهنَّمَ لَمُحِيطةٌ بِالكافرين﴾ أي : إنْ كان إنما خشي الفتنة من نساء بني الأصفر ، وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة أكبر ، بتخَلفه عن رسول الله ﷺ ، والرغبة بنفسه عَنْ نفسه . يقول : وإنَّ جهنَّمَ لمِنْ ورائه .

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تفرُّوا في الحرِّ ! زَهادَةً في الجهاد ، وشَكًّا في الحق ، وإرْجَافاً برسول الله ﷺ ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِروا في الحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهونَ * فَلْيَضحَكُوا قليلاً وَلْيَبْكُوا كثيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون﴾ ..

قال ابن إسحاق :

ثم إنَّ رسول الله ﷺ جَدَّ في سفره وأمر الناس بالجهاز والإنكماش ، وحضَّ أهل الغنى على النفقة والحُملان(٢) في سبيل الله ، فحمل رجالٌ من أهل الغنى ، واحتسبوا ، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة لَم يُنفِق أحدٌ مثلها(٣) .

ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ ، وهم البكاءُون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم : من بني عمرو بن عوف : سالمُ بن عُمير ، وعُلْبَة بن زيد أخو بني حارثة ، وأبو لَيْلَى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بـن النَّجَّار ، وعمرو بن حُمَام بن الجَمُوح أخو بني سَلَمَةَ ، وعبد الله بن المُغَفَّل المُزَنيّ ، وبعض الناس يقول : بل هو

---

(١) بنو الأصفر : هم الروم .

(٢) الحملان : مصدر حمل يحمل ، وقد يراد به ما يحمل عليه من الدواب .

(٣) قال ابن هشام : حدثني من أثق به أن عثمان بن عفان أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارض عن عثمان ، فإني عنه راض » .

عبد الله بن عمرو المزني ، وهَرْمِيُّ بن عبد الله أخو بني واقف ، وعِرْباض بن سارية الفزاري ـ فاستحملوا[1] رسول الله ﷺ ، وكانوا أهلَ حاجة ، فقال : ﴿ لا أجِدُ ما أحمِلُكم عليه ﴾فتولَّوا وأعْيُنُهُمْ تَفيض من الدمع حَزَناً ألَّا يجدوا ما ينفقون .

فبلَغني أن ابن يامين بن عمير بن كعب النَّضْري لقي أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفَّل ، وهما يبكيان فقال : ما يبكيكما ؟ قالا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوّى به على الخروج معه . فأعطاهما ناضِحاً له[2] ، فارتحلاه[3] ، وَزَوَّدَهُما شيئاً من تَمر ، فخرجا مع رسول الله ﷺ .

وجاءه المُعَذِّرون من الأعراب ، فاعتذروا إليه ، فلم يَعْذِرهم الله تعالى . وقد ذُكِر لي أنهم نفر من بني غِفار .

ثم استتبَّ[4] برسول الله ﷺ سفره ، وأجمعَ السّيرَ . وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النِّيَّة عن رسول الله ﷺ حتى تخلَّفوا عنه ، عن غير شكٍّ ولا ارتياب ، منهم كعبُ بن مالك بن أبي كعب ، ومَرَارة بن ربيع ، وهِلالُ بن أُمَيَّة ، وأبو خيثمة ، وكانوا نفرَ صِدقٍ لا يُتَّهمونَ في إسلامهم ، فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثَنِيَّةِ الوَدَاع[5] .

وضرب عبد الله بن أُبَيّ معه على حِدَةٍ عَسكَرَهُ أسفلَ منه ، نحو ذُباب[6] ، وكان فيما يزعمون ليس بأقلِّ العسكرين ، فلما سار رسول الله ﷺ تخلَّف عنه عبدُ الله بن أُبَيّ فيمن تخلَّفَ من المنافقين وأهل الرَّيب ، وخَلَّفَ رسول الله ﷺ عَلِيَّ بن أبي طالب رضْوان الله عليه على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجَف به المنافقون[7]، وقالوا: ما خلَّفه إلَّا استِثقالاً وتخففاً منه . فلما قال ذلك المنافقون أخذ علي بن أبي طالب رضوان

(١) استحملوا : طلبوا منه أن يحملهم على الدواب .

(٢) الناضح : الجمل الذي يستقى عليه الماء .

(٣) ارتحلاه : وضعا عليه الرحل .

(٤) استتب : تتابع واستمر .

(٥) ثنية الوداع : ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة .

(٦) ذباب : جبل بالمدينة .

(٧) الإرجاف : توليد الأخبار الكاذبة .

الله عليه سلاحَه ثم خرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ ، وهو نازل بالجُرف[1] ، فقال : يا نبيَّ الله ، زعم المنافقون أنك إنما خَلَّفْتني أنك استثقلتني وتخفَّفْت منِّي ! فقال : « كَذَبوا ، ولكنّني خَلَّفْتُك لِمَا تركتُ وَرائي ، فارجِعْ فاخلُفني في أهلِي وأهلك . أفلا ترضى يا عَليُّ أن تكون منِّي بمنزلةِ هارون من موسى ؛ إلاَّ أنه لا نبيَّ بعدي » . فرجع عليٌّ إلى المدينة ، ومضى رسولُ الله ﷺ على سفره .

ثم إنَّ أبا خيثمة رجع ، بعد أن سار رسولُ الله ﷺ أياماً ، إلى أهله في يوم حارّ ، فوجد امرأتين له في عرِيشَيْن[2] لهما في حائطه[3] قد رَشَّت كلُّ واحدة منهما عريشَها ، وبرَّدَت له فيه ماءً ، وهيَّأت له فيه طعاماً ، فلما دخل قامَ على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسولُ الله ﷺ في الضحِّ[4] والريح والحَرِّ ، وأبو خَيْثَمَةَ في ظلٍّ بارد ، وطعام مهيَّإٍ ، وامرأة حسناء ، في ماله مقيم ؟! ما هذا بالنَّصْف[5] . ثم قال : والله لا أدخل عريشَ واحدةٍ منكما حتى ألحقَ برسول الله ﷺ ، فَهَيِّئا لي زاداً . ففعلتا ، ثم قدَّم ناضِحَه فارتحله[6] ، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتَّى أدرَكه حين نزل تَبوك ، وقد كان أدركَ أبا خيثمة عُمَيْرُ بن وهب الجُمَحِيُّ في الطريق يطلبُ رسولَ الله ﷺ ، فترافقا حتى إذا دَنَوا من تَبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب : إنَّ لي ذَنْباً فلا عليك أن تَخَلَّفَ عنِّي حتَّى آتيَ رسول الله ﷺ . ففعل ، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك قال الناس : هذا راكبٌ على الطريق مُقْبِلٌ . فقال رسول الله ﷺ : « كُنْ أبا خَيْثَمَةَ ! » فقالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة . فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « أَوْلَى لك يا أبا خَيْثَمَةَ »[7] . ثم أخبر رسولَ الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له بخير .

وقد كان رسولُ الله ﷺ حين مَرَّ بالحِجر[8] نزلها واستقى الناسُ من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : « لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تَتَوَضَّئوا مِنه للصَّلاةِ ، وما كانَ

---

(١) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام ، به كانت أموال لعمر بن الخطاب ولأهل المدينة .

(٢) العريش : شبيه بالخيمة ، يظلل فيكون أبرد الأخبية والبيوت .

(٣) الحائط : الحديقة ، أو بستان من النخل قد دار حوله بناء .

(٤) الضح : الشمس .

(٥) النصف ، بالكسر : الإنصاف .

(٦) الناضح : البعير يستقى عليه . ارتحله : وضع عليه الرحل .

(٧) أولى لك : كلمة فيها معنى التهديد ، وهي اسم سمي به الفعل . ومعناها فيما قال المفسرون : دنوت من الهلكة .

(٨) الحجر : قرية من نواحي المدينة بها عيون وآبار لبني سليم خاصة .

من عَجينٍ عَجنتموه فاعْلِفوهُ الإبلَ ، ولا تأكُلُوا مِنهُ شيئاً . ولا يَخْرُجَنَّ أحدُ مِنكم الليلةَ إلا ومعهُ صاحِبٌ له » . ففعل الناس ما أمرهم به رسولُ الله ﷺ ، إلا أنَّ رجلين من بني ساعدة خرج أحدُهما لحاجته ، وخرج الآخر في طلب بعيرٍ له ، فأما الذي ذهب لحاجته فإنه خُنِقَ على مَذهبه[1] ، وأما الذي ذهب في طلب بعيرٍ له فاحتملتْه الريح حتى طرحته بجبليْ طيِّءٍ ، فَأُخبِرَ بذلك رسولُ الله ﷺ ، فقال : « ألم أنْهَكُم أن يخرُجَ منكم أحدُ إلَّا ومعهُ صاحبُه ؟ » . ثم دعا رسول الله ﷺ للذي أُصيب على مذهبه فشُفيَ ، وأما الآخر الذي وقع بجَبَلَيْ طيِّءٍ فإنَّ طيئاً أهدته لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة .

فلما أصبح الناس ولا ماء معهم شكَوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فدعا رسولُ الله ﷺ ، فأرسل الله سحابةً فأمطرت حتى ارتوى الناسُ واحتملوا حاجَتهم من الماء .

ثم إنَّ رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلَّت ناقته ، فخرج أصحابه في طلبها ، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أصحابه يقال له عُمارة بن حزْم ، وكان عَقَبيًّا بدرِيًّا ، وهم عمُّ بني عمرو بن حزْم ، وكان في رحْلِهِ زيد بن اللُّصَيْت القَيْنُقَاعيُّ ، وكان منافقاً .

فقال زيد بن اللُّصَيْت وهو في رَحْل عُمَارة ، وعُمَارة عند رسول الله ﷺ : أليس محمد يَزعمُ أنه نبيٌّ ويُخْبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته ؟ فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده : «إنَّ رَجلًا قال : هذا مُحَمَّدٌ يُخبرُكُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ ويزعُمُ أنَّه يُخْبِركم بأمر السماء وهو لَا يَدرِي أين نَاقَتَهُ ، وإني واللَّهِ مَا أعْلَمُ إلاَّ ما علَّمنِي الله ، وقد دلَّني الله عليها ، وهيَ في هذا الوادي في شعبِ كذَا وكذَا ، قَدْ حَبَسَتْها شَجرةٌ بزمامها ، فَانطَلِقُوا حتَّى تأتوني بها » . فذهبوا فجاءُوا بها ، فرجع عُمارة بن حزم إلى رحله ، فقال : والله لَعَجَبٌ من شيء حَدَّثَنَاه رسولُ الله ﷺ آنفاً ، عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا ـ للذي قال زيد بن لُصْيت ـ فقال رجل ممن كان في رحل عُمَارة ولم يحضُر رسولَ الله ﷺ : زَيْدٌ والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي . فأقبل عمارة على زيد يجَأُ في عُنُقِه[2] ويقول : إليَّ عِبادَ الله ، إن في رَحلي لدَاهيةً وما أشعر ! اخرُجْ أيْ عَدُوَّ الله من رحلي فلا تَصْحَبْني !

---

(١) يقال لموضع الغائط : الخلاء ، والمذهب .

(٢) يجأ في عنقه : يطعن فيها .

فزعم بعضُ الناس أن زيداً تاب بعد ذلك ، وقال بعض الناس : لم يزل مُتَّهَماً بشرٍّ حتى هلك .

ثم مضى رسول الله ﷺ سائراً ، فجعل يتخلَّفُ عنه الرجل ، فيقولون : يا رسول الله ، تخلَّفَ فلان ! فيقول : دَعُوهُ فإن يكُ فِيه خَير فسيُلْحِقُه الله تعالَى بِكُم ، وإن يكُ غَيرَ ذلِك فقد أراحكم الله منه » . حتى قيل : يا رسول الله ، قد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره ، فقال : « دَعُوهُ فَإن يَكُ فيه خير فسَيُلحِقه الله بكم ، وإن يك غيرُ ذلك فقد أَرَاحَكُمُ الله منه » .

وتَلَوَّم(١) أبو ذَرٍّ على بعيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعَه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبَع أثرَ رسول الله ﷺ ماشياً ، ونزل رسولُ الله في بعض منازله ، فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إنّ هذا لَرجلٌ يمشي على الطريق وحدَه . فقال رسول الله ﷺ : « كُنْ أَبا ذَرٍّ » . فلما تأمَّله القوم قالوا : يا رسول الله هو والله أبو ذر ! فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله أبا ذرٍّ ، يَمشي وحده ، ويموت وَحدَه ، ويُبْعَثُ وحدَه » .

عن عبد الله بن مسعود ، قال : لمَا نَفى عثمان أبا ذرٍّ إلى الرَّبَذَة وأصابه بها قَدَرُه ، لم يكن معه أحدٌ إلا امرأته وغلامه ، فأوصاهما : أن اغسِلاني وكفِّنَاني ، ثم ضَعاني على قارعة الطريق ، فأوّل ركبٍ يمرُّ بكم فقولوا : هذا أبو ذرٍّ صاحبُ رسول الله ﷺ ، فأعينونا على دفنه . فلما مات فَعَلَا ذلك به ، ثم وضعاه على قارعة الطريق ؛ وأقبل عبد الله بن مسعود في رهْطٍ من أهل العراق عُمَّارٍ(٢) فلم يَرُعْهُمْ إلا بالجنازة على ظهر الطريق ، قد كادت الإبل تَطَؤُها ، وقام إليهم الغلام ، فقال : هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ ، فأعينونا على دفنه قال : فاسْتَهَلَّ عبدُ الله بن مسعود يبكي ويقول : صَدَقَ رسول الله ﷺ : تَمْشي وحدك ، وتموت وحدك ، وتُبْعَثُ وحدَك ! ثم نزل هو وأصحابه فوارَوْه .

ثم حدَّثهم عبد الله بن مسعود حديثَه وما قال له رسول الله ﷺ في مسيرِه إلى تبوك .

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تَبوك أتاه يُحَنَّةُ بن رُؤْبَة صاحبُ أَيْلَة ، فصالح

(١) تلوم : تمكث وانتظر .

(٢) العمار : المعتمرون ، أي المحرمون بالعمرة .

رسولَ الله ﷺ ، وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جَرْبَاء وأَذْرُحَ فأعطوه الجِزية ، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتاباً ، فهو عندهم .

فكتب ليُحَنَّةَ بن رؤبة :

« بِسم اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ . هذِه أَمَنَةٌ مِنَ اللَّهِ ومحمَّدٍ النبيِّ رسول الله لِيُحَنَّةَ بنِ رُؤْبة وأهل أَيْلَة ، سفنِهم وسيَّارَتِهم[1] في البرِّ والبحرِ ، لهم ذِمَّةُ الله وذمَّةُ مُحمَّدٍ النبيِّ . ومن كان معهم من أهل الشَّام وأهلِ اليمنِ وأهل البَحر . فمن أحدثَ مِنهُم حَدَثاً فإنَّهُ لا يحُولُ ماله دون نفسِه ، وإنهُ طيِّبٌ لِمَنْ أَخذَه مِن الناسِ . وإنَّهُ لا يَحلُّ أن يُمنَعُوا ماءً يَرِدُونه ولا طرِيقاً يُريدونه ، من برٍّ أو بحر » .

* بَعْثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ *
إِلَىٰ أُكَيْدِرِ دُومَةَ

ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد ، فبعثه إلى أكيْدِرِ دُومةَ ، وهو أُكَيْدِرُ بن عبد الملك ، رجل من كندة ، كان ملكاً عليها ، وكان نَصرانياً ، فقال رسول الله ﷺ لخالد : « إنَّك ستجدُهُ يَصيدُ البقرَ » .

فخرج خالدٌ حتَّى إذا كان من حِصنه بمنظر العين ، وفي ليلةٍ مقمِرة صائفة ، وهو على سطحٍ له ومعه امرأته ، فباتت البقر تحكُّ بقرونِها بابَ القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيتَ مثلِ هذا قطُّ ؟ قال : لا والله . قالت : فمن يتركُ هذه ؟ قال : لا أحد . فنزل فأمر بفرسه فأُسرِجَ له ، وركب معه نفرٌ من أهلِ بيته فيهم أخٌ له يقال له حسان ، فركب وخرجوا معه بمطاردهم[2] ، فلما خرجوا تلقَّتْهُم خيل رسول الله ﷺ فأخذته ، وقَتلوا أخاه ، وقد كان عليه قَباءٌ من دِيباج مخوَّصٌ بالذهب[3] ، فاستلبه خالد ! فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه .

عن أنس بن مالك ، قال : رأيت قَباء أُكَيْدِرَ حين قدم به على رسول الله ﷺ ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجَّبون منه ، فقال رسول الله ﷺ : « أتعجبون من هذا ، فوالذي نفسي بيده لمناديلُ سعد بن مُعاذٍ في الجنة أَحْسنُ من هذا » .

---

(١) السيارة : القافلة ، والقوم يسيرون .

(٢) المطارد : جمع مطرد ، بكسر الميم : رمح قصير يطارد به الوحش .

(٣) مخوص بالذهب : منسوج به كخوص النخل ، وهو ورقه .

قال ابن إسحاق : ثم إن خالداً قدم بأكيدِرَ على رسول الله ﷺ : فَحَقَن له دمَه[1] ، وصالحه على الجزية ، ثم خلَّى سبيله ؛ فرجع إلى قريته .

فأقام رسول الله ﷺ بتبوك بِضعَ عَشرةَ ليلةً لم يجاوزْها ، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة ، وكان في الطريق ماءٌ يخرج من وَشَل[2] : مَا يُروى الراكب والراكبين والثلاثة ، بوادٍ يقال له وادي المُشَقَّق ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ سبَقنا إلى ذلك الوادي فلا يَستقِينَّ منه شيئاً حتَّى نأتيَه » . قال : فسبقه إليه نفر من المنافقين ، فاستقَوا ما فيه ، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه ، فلم ير فيه شيئاً ، فقال : « مَنْ سَبَقَنا إلى هذا الماء ؟ » فقيل له : يا رسول الله ، فلان وفلان . فقال : « أوَ لم أنْهَهُم أن يستقُوا مِنه شيئاً حتَّى آتيَه ؟ » ثم لعنهم رسولَ الله ﷺ ، ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يده تحت الوشَلِ ، فجعل يَصُبُّ في يده ما شاء الله أن يصبّ ، ثم نَضَحَه به ، ومسح بيده ، ودعا رسولُ الله ﷺ بما شاء أن يدعُوَ به ، فانخرق من الماء ـ كما يقول من سمعه ـ ما إنَّ لَهُ حِسًّا كحسِّ الصَّواعق ، فشرب الناس ، واستقَوا حاجتهم منه ، فقال رسول الله ﷺ : « لئن بقيتم أو مَنْ بَقي مِنكُم لتَسْمَعُنَّ بهذا الوادِي وهو أخصبُ ما بينَ يدَيه ومَا خَلْفه » .

قال ابن إسحاق :

وذكر إبن شهاب الزُّهري ، عن إبن أُكَيْمَةَ الليثي ، عن إبن أخي أبي رُهم الغفاري : أنه سمع أبا رُهم كلثومَ بن الحصين ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ الذين بايعوا تحت الشجرة ، يقول : غزوتُ مع رسول الله ﷺ غزوة تبوكٍ ، فسرْتُ ذاتَ ليلة معه ونحن بالأخضر[3] قريباً من رسول الله ﷺ ، وألقى الله علينا النُّعاس ، فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلةِ رسول الله ﷺ ، فيُفْزِعُني دنُوُّهَا منه مخافةَ أن أُصيب رجلَه في الغَرز[4]، فطفقت أُحوزُ راحلتي عنه حتى غلبتني عيني في بعض الطريق ونحن في بعض اللَّيل ، فزاحَمَتْ راحلتي راحلةَ رسول الله ﷺ ورجْلُهُ في الغرز ، فما استيقظتُ إلا بقوله : « حَسِّ »[5].

فقلت : يا رسول الله ، إستغفر لي . فقال : « سِرْ » .

---

(١) حقن دمه : أنقذه من القتل .

(٢) الوشل ، بفتح الواو والشين : حجر أو جبل يقطر منه الماء قليلاً قليلاً . والوشل أيضاً : القليل من الماء

(٣) موضع قرب تبوك ، بينه وبين وادي القرى .

(٤) الغرز للرحل بمنزلة الركاب للسرج .

(٥) حس : كلمة معناها أتألم .

فجعل رسول الله ﷺ يسألني عمن تَخَلَّف من بني غِفار فأُخبره به ، فقال وهو يسألني : « ما فَعَل النَّفرُ الحمرُ الطِّوالُ الثِّطَاطُ ؟ »[١] . فَحدَّثته بتخلُّفهم ، قال : « فما فَعَل النفر السُّودُ القصار ؟ » . قلت : والله ما أعرف هؤلاء منَّا . قال : « بَلَى ، الذينَ لهم نَعَمٌ بِشَبكةِ شدخٍ »[٢] . فتذكَّرتهم في بني غِفار ، ولم أذكرهم حتى ذكرت ، أنهم رَهطٌ من أسلمَ كانوا حلفاء فينا . فقلت : يا رسول الله ، أولئك رَهطٌ من أسلم كانوا حلفاء فينا . فقال رسول الله ﷺ : « مَا مَنَعَ أحَدَ أُولئك حين تَخلَّفَ أن يحمِلَ عَلَى بعيرٍ من إبله امرأ نَشيطاً في سبيلِ الله . إنَّ أعزَّ أهلِي عليَّ أن يَتَخلَّف عنِّي المهاجرون مِن قريش ، والأنصار ، وغفار وأسلم » .

* أَمْرُ وَفْدِ ثَقِيفٍ وَإِسْلاَمِهَا *
فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ تِسْعٍ

قال ابن إسحاق :

وقدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ من تَبُوكَ في رمضان ، وقدم عليه في ذلك الشهر وفدُ ثَقِيف .

وكان من حديثهم أنَّ رسولَ الله ﷺ لما انصرف عنهم اتَّبَعَ أثرَهُ عُروةُ بن مَسعود الثَّقفي حتى أدركه قبل أن يصلَ إلى المدينة فأسلم ، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ ، كما يتحدّث قومُه : « إنَّهُمْ قاتِلُوكَ » . وعرف رسولُ الله ﷺ أنَّ فيهم نَخوَةَ الامتناع الذي كان منهم ، فقال عروة : يا رسول الله ، أنا أحبُّ إليهم من أبكارهم[٣] .

وكان فيهم كذلك مُحبَّباً مطاعاً ، فخرج يدعو قومَه إلى الإسلام ؛ رجاء ألا يخالفوه ، لمنزلته فيهم ، فلما أشرف لهم على عِلِّيَّةٍ له[٤] ، وقد دعاهم إلى الإسلام ، وأظهر لهم دينه ، رَمَوهُ بالنَّبْل من كل وجه ، فأصابه سَهمٌ فقتله .

---

(١) الثطاط بالكسر : جمع ثط ، وهو القليل شعر اللحية والحاجبين .

(٢) شبكة شدخ : من منازل غفار وأسلم بالحجاز .

(٣) قال ابن هشام : « ويقال : من أبصارهم » .

(٤) العلية : الغرفة .

فتزعمُ بنو مالك أنه قتله رجل منهم يقال له : أوْسُ بن عَوْف ، أخو بني سالم بن مالك . وتزعم الأحلاف أنه قتله رجل منهم من بني عتّاب بن مالك يقال له : وهب بن جابر . فقيل لعروة : ما ترى في دمك ؟ قال : كَرَامَةٌ أكرمني الله بها ، وشهادةٌ ساقَها الله إليَّ ؛ فليس فيَّ إلاَّ ما في الشُّهداء الذين قُتِلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنوني معهم .

فزعموا أنَّ رسول الله ﷺ قال فيه : « إنَّ مَثَلَهُ في قومه لَكَمَثلِ صاحب يسٓ في قَومِه » .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عُرْوَةَ أَشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحَرْب مَنْ حَولَهُم من العرب ، وقد بايعوا وأسلموا .

فأتَمَروا بينهم ، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عُروَةَ ، فكلموا عَبْدَ ياليل بن عمرو بن عمير ، وكان سنَّ عُروَةَ بنِ مسعود ، وعرضوا ذلك عليه فأبى أن يفعل ، وخَشِيَ أن يُصنَع به ـ إذا رجع ـ كما صُنِعَ بعروة ، فقال : لستُ فاعلاً حتى تُرْسِلوا معي رجالاً . فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف ، وثلاثة من بني مالك ؛ فيكونوا ستة . فبعثوا مع عبد ياليل الحَكَمَ بن عمرو بن وهب بن مُعَتِّب ، وشُرَحْبيلَ بن غَيلان بن سلمة بن مُعَتِّب ، ومن بني مالك : عثمانَ بن أبي العاص بن بِشْر بن عبد دُهْمان أخا بني يَسَار ، وأوسَ بن عوف أخا بني سالم ، ونُمَيْرَ بن خَرَشَةَ بن ربيعةَ أخا بني الحارث . فخرج بهم عبد ياليل ، وهو نابُ القوم[1] وصاحب أمرهم ، ولم يخرج بهم إلا خَشْيَةً من مثل ما صُنع بعروة بن مسعود ، لكي يَشْغَلَ كلُّ رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رَهْطَه .

فلما دنَوْا من المدينة ونزلوا قَنَاةَ ألْفَوْا بها المغيرة بن شُعْبة يَرْعَى في نوبته رِكاب أصحاب رسولِ الله ﷺ ـ وكانت رِعْيَتُها نُوَباً على أصحابه ﷺ ـ فلما رآهم ترك الرِّكاب عند الثقفيين وضَبَرَ يشتدُّ[2] ، ليبشِّر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه ، فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن يدخل على رسول الله ﷺ ، فأخبره عن رَكب ثقيف أن قَدْ قدموا يريدون البيعة والإسلام ، بأن يَشْرِطَ لهم رسول الله ﷺ شُرُوطاً ، ويكتتبوا من رسول الله ﷺ

---

(١) ناب القوم : سيدهم والمدافع عنهم .

(٢) ضبر يشتد : أي وثب . ضبر الفرس ، إذا جمع قوائمه ووثب .

كِتاباً في قومهم وبلادهم وأموالهم . فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمت عليك بالله لا تَسبِقْنِي إلى رسول الله ﷺ حتى أكونَ أنا أحدِّثه . ففعل المغيرة ، فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ ، فأخبره بقدومهم عليه ، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فَروَّحَ الظَّهْرَ معهم ، وعلَّمهم كيف يُحَيُّون رسول الله ﷺ ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية .

ولما قدموا على رسول الله ﷺ ضَرب عليهم قبَّةً في ناحيةِ مسجده ، كما يزعمون ، فكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، حتى اكتتبوا كتابهم ، وكان خالد هو الذي كتب كتابَهم بيده ، وكانوا لا يَطْعَمُون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ حتَّى يأكل منه خالد ، حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم ، وقد كان فيما سألوه رسولَ الله ﷺ أن يدعَ لهم (الطاغية) ، وهي اللاَّتُ ، لا يهدمها ثلاث سنين . فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم ، فما برحوا يسألونه سنةً سنة ويأبى عليهم ، حتَّى سألوا شهراً واحداً بعد مَقْدَمهم ، فأبى عليهم أن يدعَها شيئاً مُسمًّى ، وإنما يريدون بذلك ، فيما يُظْهِرُونَ ، أن يَتَسَلَّمُوا بتركها من سُفَهائهم ونسائهم وذَرَارِيِّهم ، ويكرهون أن يُرَوِّعوا قومهم بهدمها حتَّى يَدخُلَهم الإسلام . فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يَبعثَ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعبة فيهدماها ، وقد كانوا سألوه ـ مع تَرْكِ الطاغية ـ أن يُعْفيَهم من الصلاة ، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ : « أمّا كَسرُ أوثانكم بأيديكم فَسَنُعْفيكم مِنه ، وأمَّا الصلاةُ فإنَّهُ لا خَيْرَ في دين لَا صلاةَ فيه » .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم أمَّرَ عليهم عثمان بن أبي العاص ، وكان من أحدَثهم سِنًّا ، وذلك أنه كان أحرصَهم على التَّفَقُّه في الإسْلام وتعلُّم القرآن ، فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، إني قد رأيت هذا الغلام منهم مِنْ أَحْرَصِهِمْ على التفقُّه في الإسلام وتعلُّم القرآن .

فلما فرغوا من أمرهم وتوجَّهوا إلى بلادهم راجعين بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شُعْبَة ، في هَدْم الطاغية ، فخرجا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يُقدِّم أبا سفيان فأبى ذلك أبو سفيان عليه ، وقال : ادخل أنت على قومك . وأقام أبو سفيان بماله بذي الهُدُم[1]، فلما دخل

---

(١) ماء ليلى : وراء وادي القرى .

المغيرة بن شعبة عَلاها يضربها بالمِعوَل ، وقام قومه دونه ، بنو مُعتِّب ، خَشية أن يُرْمَى أو يصاب كما أُصيب عُرْوَةُ ، وخرج نساءُ ثقيف حُسَّراً[1] يَبْكِينَ عليها ، ويقُلْنَ :

لَتُبْكَيَنَّ دَفَّاعْ[2] أَسلَمَهَا الرُّضَّاعْ[3]

* لَمْ يُحسِنُوا المِصَاعْ[4] *

ويقول أبو سفيان والمغيرةُ يضربها بالفأس : واهاً لَكِ[5] آهاً لك !

فلما هدمها المغيرةُ وأخذ مالها وحُليَّها أرسل إلى أبي سفيان : وحُلِيُّها مجموعٌ ومالها من الذَّهب والجَزْع[6] .

وقد كان أبو مُلَيح بن عروة ، وقاربُ بن الأسود ، قدما على رسول الله ﷺ قبل وفد ثقيف ـ حين قُتل عروة ـ يريدان فراقَ ثقيفٍ ، وأن لا يُجَامِعاهم على شيء أبداً ، فأسلما ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « تَوَلَّيا مَن شِئتما » فقالا : نتولَّى الله ورسوله . فقال رسول الله ﷺ : « وخَالَكُما أبَا سُفيَانَ بن حَرْبٍ ؟ » ، فقالا : وخالَنَا أبا سفيان . فلما أسلم أهل الطائف ووَجَّه رسولُ الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة إلى هدم الطاغية سأل رسولَ الله ﷺ أبو مُلَيح بن عروة أن يَقْضِيَ عن أبيه عُروةَ دَيناً كان عليه من مال الطاغية ، فقال له رسول الله ﷺ : « نَعَمْ ». فقال له قارب بن الأسود : وعن الأسود يا رسول الله فاقضه ـ وعُرْوَةُ والأسود أخوان لأب وأُمّ ـ فقال رسول الله ﷺ : « إنَّ الأَسودَ ماتَ مُشرِكاً » ، فقال قارب لرسول الله ﷺ : يا رسول الله لكن تصِلُ مسلماً ذا قرابة ـ يعني نفسه ـ إنما الدَّيْنُ عَلَيَّ ، وإنما أنا الذي أُطْلَبُ به . فأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضيَ دَيْنَ عروة والأسود من مال الطاغية .

فلما جمع المغيرة مالها قال لأبي سفيان : إن رسول الله ﷺ قد أَمرَكَ أن تقضِي عن عروة والأسود دَينَهما . فقضى عنهما .

---

(١) حسر : جمع حاسرة ، وهي المكشوفة الوجه .

(٢) دفاع : هو صيغة مبالغة من الدفع ، وإنما سموا طاغيتهم دفاعاً لأنهم كانوا يعتقدون أن الأصنام تدافع عنهم أعداءهم وتدفع عنهم البلاء .

(٣) الرضاع : جمع راضع ، وأردن بهم اللئام . من قولهم : لئيم راضع . أي لم يدافعوا عن طاغيتهم وتركوها للمغيرة يهدمها .

(٤) المصاع ، بكسر الميم : المجالدة والمضاربة بالسيوف .

(٥) واهاً لك : كلمة تقال في معنى التأسف .

(٦) الجزع : ضرب من الخرز ، فيه بياض وسواد .

وكان كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبيِّ رسول الله إلى المؤمنينَ . إنَّ عِضَاهَ وَجٍّ[1] وصَيْدَهُ لا يُعْضَدُ[2] . مَن وُجِدَ يفعلُ شَيئاً مِن ذلكَ فإنَّهُ يُجْلَدُ وتُنْزَعُ ثِيَابُهُ ، فإنْ تَعَدَّى ذلك فإنَّه يُؤخَذُ فَيُبلَغُ به النَّبيُّ مُحَمَّد . وإنَّ هذَا أَمْرُ النَّبيِّ مُحمَّدٍ رسولِ الله ﷺ .

وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله . فلا يَتَعَدّهُ أحدٌ فَيَظلِمَ نَفسَه فيما أَمَرَه بِهِ محمدٌ رسولُ الله ﷺ » .

* ذِكْرُ سَنَةِ تِسْعٍ *
وتَسْمِيَتُهَا سَنَةَ الوُفُودِ ، ونُزُولِ سُورَةِ الفَتْح

قال ابن إسحاق : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايَعت ، ضَربتْ إليه وفودُ العرب من كل وجه[3] .

وإنما كانت العرب تَرَبَّصُ بالإسلام أمرَ هذا الحيِّ من قريش ، كانوا إمام الناس وهاديَهم ، وأهلَ البيت والحرم ، وصريحَ ولد إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السلام ، وقادَةَ العرب ، لا يُنكرُونَ ذلك . وكانت قريش هي التي نَصَبَتْ لحرب رسول الله ﷺ وخلافِه ، فلما افتُتِحَتْ مكة ودانت له قريش ودَوَّخها الإسلام[4] ، عَرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوتِه ، فدخلوا في دين الله ، كما قال الله عز وجل ، أفواجاً ، يضربون إليه من كل وجه ، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ أي : فاحمد الله على ما أظهر من دينك واستغفره إنه كان تواباً .

---

(١) العضاه : شجر له شوك ، واحدته عضاهة . ووج : إسم موضع بالطائف ، وهو بفتح الواو وتشديد الجيم .

(٢) يعضد : يقطع .

(٣) قال ابن هشام : حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع ، وأنها كانت تسمى سنة الوفود .

(٤) دوخها الإسلام : ذللها وأخضعها .

* قُدُوم وَفْدِ بَني تَميم *
وَنُزُول سُورَةِ الحُجُرَات

فقدِمت على رسول الله ﷺ وفود العرب ، فقدم عليه عُطَارِد بـن حاجب بن زُرَارة بن عُدُس التميمي في أشراف بني تميم : منهم الأَقْرَعُ بن حابس التميمي ، والزِّبْرقَانُ بن بدر التميمي أحد بني سعد ، وعَمْرو بن الأَهْتَم ، والحبحاب بن يزيد .

وفي وفد بني تميم : نُعَيْم بن يزيد ، وقيس بن الحارث ، وقيس بن عاصم أخو بني سعد ، في وفد عظيم من بني تميم ، ومعهم عُيَيْنَةُ بن حِصْن بن حذيفة بـن بدر الفزاريّ . وقد كان الأقرع بن حابس وعيينة بن حصْن شَهِدَا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحُنَيْناً والطائف ، فلما قدم وفد بني تميم كانا معهم فلما دخل وفدُ بني تميم المسجدَ نادَوا رسولَ الله ﷺ من وراء حُجُراته أن اخرج إلينا يا محمد . فآذى ذلك رسولَ الله ﷺ من صياحهم ، فخرجَ إليهم ، فقالوا : يا محمد ، جئناك نفاخرك فأذَنْ لشاعرنا وخطيبنا . قال : « قَدْ أَذِنْتُ لِخطيبكمْ فَلْيَقُلْ » . فقام عُطارد بن حاجب ، فقال :

الحمد لله الذي له علينا الفضلُ والمَنّ ، وهو أهله ، الذي جعلنا مُلوكاً ، ووهبَ لنا أموالاً عِظاماً نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهلِ المَشرق ، وأكثره عَدَداً ، وأَيْسَرَهُ عُدّةً ، فمن مِثْلُنا في الناس ؟ ألسنا برءُوس الناسِ وأُولِي فضلهم ؟ فمن فَاخرَنَا فلْيعدُدْ مثلَ ما عددنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنَّا نحيا[1] من الإكثار فيما أعطانا ، وإنَّا نُعْرَف بذلك . أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمرٍ أفضَلَ من أمرنا .

ثم جلس فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس ، أخي بني الحارث بن الخزرج : « قُمْ فَأَجِبِ الرَّجل في خُطبته » . فقام ثابت ، فقال :

الحمد لله الذي السمواتُ والأرضُ خَلْقُه ، قضَى فيهن أَمْره ، ووسِع كرسيَّهُ علمُه[2] ، ولم يك شيءٌ قط إلا من فضله . ثم كان من قدرته أنْ جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رَسُولاً أكرمَه نسباً[3] ، وأصدَقهُ حديثاً ، وأفضَله حسباً ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلْقه ، فكان خِيرةَ الله من العالمين . ثم دعا النّاسَ إلى الإيمان

---

(١) يقال : حييت منه أحيا ، أي استحييت .

(٢) الكرسي : ما أحاط بالسموات والأرضين ، كما فسره السهيلي هنا .

(٣) أي أكرم الخلق .

به ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذَوِي رحمه ، أكرم الناس حَسباً ، وأحسن الناسِ وجوهاً ، وخيرُ الناس فَعَالاً . ثم كان أولَ الخلق إجابةً ، واستجاب لله حين دعاه رسولُ الله نحن ، فنحن أنصار الله ، ووزراءُ رسوله ، نقاتل الناسَ حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودَمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتله علينا يسيراً . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات . والسلام عليكم .

فقام الزبرقان بن بدر ، فقال :

نحن الكرام فَلا حيٌّ يعادِلنا … منَّا المُلوكُ وفِينا تُنْصب البِيَعُ[١]
وكم قَسَرنا من الأحياء كلِّهمُ … عند النِّهابِ وفضلُ العِزِّ يُتَّبَعُ
ونحنُ يطعِمُ عِندَ القَحطِ مُطعِمُنَا … مِنَ الشِّواء إذا لم يُؤنَسِ القَزَعُ[٢]
بما تَرى النَّاسَ تأتينا سَراتُهمُ … مِنْ كُلِّ أرضٍ هُوِيًّا ثُمَّ نَصْطنِعُ[٣]
فَننحَرُ الكُومَ عَبْطاً في أَرُومَتِنا … للنَّازلينَ إذا ما أُنزِلوا شَبِعُوا[٤]
فلا تَرانا إلى حيٍّ نفاخِرُهم … إلا اسْتَفَادُوا فكانُوا الرَّأسَ يُقتَطَعُ
فَمَن يُفَاخِرُنا في ذاكَ نَعرفُه … فيرجِعُ القومُ والأخبارُ تُستَمعُ
إنَّا أَبَيْنَا ولَا يَأبَى لنا أَحدٌ … إنَّا كذلكَ عِندَ الفَخر نَرتَفِعُ

وكان حسان غائباً ، فبعث إليه رسولُ الله ﷺ . قال حسان : جاءني رسوله فأخبرني أنَّه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم ، فخرجت إلى رسول الله ﷺ وأنا أقول :

مَنَعنا رسولَ اللَّهِ إذ حلَّ وَسْطنا … عَلَى أنفِ راضٍ مِن مَعَدٍّ وراغِمِ
منعناهُ لمّا حَلَّ بَينَ بُيوتِنا … بأسيافنا من كلِّ باغٍ وظالِمِ
بِبَيْتٍ حَرِيدٍ عِزُّهُ وثَراؤُهُ … بِجَابِيَةِ الجَولَانِ وَسطَ الأَعاجم[٥]
هَلِ المجدُ إلَّا السُّؤْدُدُ العَوْدُ والنَّدَى … وجاهُ الملوكِ واحتِمالُ العَظائِمِ[٦]

---

(١) البيع : مواضع الصلوات والعبادات للنصارى ، وقيل لليهود ، واحدتها بيعة بكسر الباء .
(٢) القزع : سحاب رقيق يكون في الخريف ، واحدته قزعة ، بفتح القاف والزاي فيهما .
(٣) هوياً : سراعاً .
(٤) الكوم : جمع كوماء ، وهي الناقة العظيمة السنام . وعبطاً : أي من غير علة . والأرومة : الأصل ، أي إن الكرم أصيل فينا .
(٥) الحريد : المنفرد ، لا يختلط بغيره لعزته . جابية الجولان : بلد بالشام . يريد أن جاههم متصل بجاه الغساسنة ملوك الشام .
(٦) السؤدد العود : المجد القديم .

قال : فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقام شاعر القوم فقال ما قال عَرَضْت في قوله(١) ، وقلت على نحو ما قال ، فلما فرغ الزبرقان قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت : « قُمْ يا حَسَّانُ فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِيما قالَ » .

فقام حسَّان ، فقال :

إنَّ الذَّوائِبَ مِن فِهرٍ وإخوتـهم ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ(٢)
يَرْضَى بهم كُلُّ مَن كانت سريرتُه ... تَقوى الإلَهِ وكُلَّ الخَيرِ يَصطنِعُ
قَوْمٌ إذا حارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ ... أو حاولُوا النَّفْعَ في أشياعِهم نَفَعُوا
سَجِيةٌ تِلْكَ مِنْهُم غَيرُ مُحْدَثَةٍ ... إنَّ الخلائِقَ فاعلَمْ شَرُّها البِدَعُ(٣)
إن كانَ في النَّاسِ سبَّاقُونَ بَعْدَهم ... فكُلُّ سَبقٍ لأدنَى سَبقِهم تَبَعُ
لا يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَت أَكُفُّهُمُ ... عِنْدَ الدِّفاعِ ولا يُوهُون ما رَقَعُوا(٤)
إنْ سابَقُوا النَّاسَ يَوْماً فَازَ سَبْقُهُمُ ... أو وَازَنُوا أَهْلَ مَجْدٍ بالنَّدى مَتَعُوا(٥)
أَعِفَّةٌ ذُكِرَتْ في الوَحي عِفَّتُهم ... لَا يَطْبَعُونَ ولا يُرْدِيهمُ طَمَعُ(٦)
لَا يَبْخَلُونَ عَلَى جَارٍ بفضلهمُ ... ولا يَمَسُّهمُ من مَطمَعٍ طَبَعُ(٧)
إِذَا نَصَبْنَا لِحيٍّ لَمْ نَدِبَّ لهُم ... كما يَدِبُّ إلى الوَحشيَّةِ الذَّرَعُ(٨)
نَسمُو إذا الحربُ نَالَتنا مَخالِبُها ... إذا الزَّعانِفُ من أظفارِها خَشَعُوا(٩)
لا يَفْخَرُونَ إذا نَالُوا عدُوَّهُمُ ... وَإنْ أُصيبوا فلا خُورٌ ولَا هُلُعُ(١٠)
كَأَنَّهم في الوَغَى والموتُ مُكْتنِعٌ ... أُسدٌ بحَلْيَةَ في أرساغِها فدَعُ(١١)

---

(١) أراد : قلت على مثل عروضه . والعروض ميزان الشعر .

(٢) الذوائب : الأعالي ، واحدتها ذؤابة ، وأراد ههنا السادة .

(٣) السجية : الطبيعة والخليقة .

(٤) أوهت : أضعفت وهدمت .

(٥) متعوا : زادوا وظهروا عليهم . من قولهم : متع النهار ، إذا ارتفع .

(٦) لا يطبعون : أي لا يتدنسون .

(٧) الطبع ، بفتح الطاء والباء : الدنس .

(٨) نصبنا : أظهرنا لهم العداوة ولم نسرها في أنفسنا . والذرع ، بفتحتين : ولد البقرة الوحشية .

(٩) نسمو : ننهض . الزعانف : أطراف الناس وأتباعهم . وخشعوا : خضعوا وتذللوا .

(١٠) الخور : جُمع أخور ، وهو الضعيف . والهلع : جمع هلوع ، وهو الجبان الخائف .

(١١) مكتنع : دان قريب ، تقول : اكتنع منه ، إذا دنا منه . وحلية : اسم موضع تنسب إليه الأسود والأرساغ : جمع رسغ ، وهو موضع مربط القيد . وفدع : اعوجاج إلى ناحية .

خُذْ مِنْهُمْ ما أتَى عَفواً إذا غضِبُوا ... ولا يَكُنْ هَمُّكَ الأمرَ الذي مَنَعُوا[1]

فإِنَّ في حَربِهِمْ ، فاترُكْ عداوَتَهُمْ ، ... شَرًّا يُخَاضُ عليهِ السُّمُّ والسَّلَعُ[2]

أَكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللَّهِ شيعَتُهُمْ ... إِذَا تَفَاوَتَتِ الأهواءُ والشِّيَعُ

أهدَى لهم مِدحتي قلبٌ يوازِرُه ... فِيما أحَبَّ لِسانٌ حائِكٌ صَنَعُ[3]

فإنهم أفضلُ الأحياء كلِّهِمُ ... إن جدَّ بالنَّاس جِدُّ القَول أو شمَعُوا[4]

فلما فرغ القوم أسلموا ، وجوَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم[5].

وكان عمرو بن الأهتم قد خلَّفه القوم في ظَهْرِهم[6] وكان أصغرَهم سنًّا ، فقال قيس بن عاصم ، وكان يبغض عمرو بن الأهتم : يا رسول الله ، إنه قد كان رجلٌ منّا في رحالنا . وهو غلامٌ حَدَثٌ ـ وأَزْرَى به ـ فأعطاه رسول الله ﷺ مثلَ ما أعطى القوم ، فقال عمرو بن الأهتم ـ حين بلغه أن قيساً قال ذلك ـ يهجوه :

ظَلِلْتَ مُفْتَرِشَ الهَلْبَاء تَشْتِمُنِي ... عِنْدَ الرَّسُول فلمْ تَصْدُق ولم تصبِ[7]

سُدْنَاكُمُ سُودَداً رَهْواً وسُودَدُكُمْ ... بَادٍ نَوَاجِذُهُ مَقْعٍ عَلَى الذنَبِ[8]

قال ابن إسحاق : وفيهم نزل من القرآن : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ .

* قِصَّةُ عَامِرِ بنِ الطُّفَيْلِ وأَرْبَدَ بنِ قَيْسٍ * فِي الوِفَادَةِ عَنْ بَنِي عَامِر

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني عامر ، فيهم عامر بن الطُّفَيْل ، وأربد بن قَيْس بن جَزْء بن خالد بن جعفر ، وجبار بن سَلْمَى بن مالك بن جعفر ، وكان هؤلاء

---

(١) عفواً : أي من غير طلب ولا مشقة .

(٢) السلع : نبات مسموم .

(٣) صنع ، بفتح الصاد والنون : صانع ماهر يتقن ما يصنعه ويحسن عمله .

(٤) شمعوا : هزلوا ، وأصل الشمع الطرب واللهو ، ومنه قولهم : جارية شموع ، إذا كانت كثيرة الطرب

(٥) الجوائز : العطايا ، واحدتها جائزة .

(٦) ظهرهم : إبلهم .

(٧) الهلباء : شعر الذنب ، وقد استعاره ههنا للإنسان ، كنى بذلك عن خلفه .

(٨) رهواً ، بالراء المهملة : متسعاً . والنواجذ : الأسنان ، واحدها ناجذ .

الثلاثة رؤساء القوم وشياطينَهم . فقدمَ عامرُ بن الطفيل عَدُوُّ الله على رسول الله ﷺ ، وهو يريد الغدْرَ به ، وقد قال له قومه : يا عامر ، إن الناس قد أسلموا فأسلمْ . قال : والله لقد كنت آليت أن لا أنتهيَ حتى تَتْبَعَ العربُ عَقِبي ، أفأنا أتبع عَقِب هذا الفتى من قريش ؟ ثم قال لأرْبَدَ : إذا قدمنا على الرجل فإني سأشغل عَنكَ وجهه ، فإذا فعلت ذلك فاعْلُه بالسيف[1] .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل : يا محمد خالِّني[2]، قال : « لا واللّهِ حتى تُؤمِنَ باللّهِ وحده » . قال : يا محمد ، خالِّني . وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به ، فجعل أرْبدُ لا يُحِيرُ شيئاً[3] فلما رأى عامر ما يصنع أربد قال : يا محمد خَالِّني . قال : « لَا والله حتى تُؤمِنَ بالله وَحده لا شريك له » . فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال : أما والله لأمْلأَنَّها عليك خَيْلاً ورجالاً ! فلما ولَّى قال رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ اكفني عامرَ بن الطفَيْلِ » .

فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد : ويلك يا أربد ! ! أين ما كنتُ أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجلٌ هو أخْوَفُ عندي على نفسي منك ، وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً ! قال : لا أبا لَكَ ، لا تَعْجَلْ عَلَيَّ ، والله ما هممْتُ بالذي أمرتني به عن أمره إلا دخَلْتَ بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟

وخرجوا راجعين إلى بلادهم ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بَعَثَ الله على عامر بن الطفيل الطاعُونَ في عنقه ، فقتله الله في بيت امرأة من بني سَلُول ، فجعل يقول : يَا بَني عامر ، أَغُدَّةً كَغُدَّة[4] البَكر ، في بيت امرأة من بني سَلول ؟! ثم خرج أصحابه حين وَارَوْهُ حتى قدموا أرض بني عامر شَاتِينَ ، فلما قدموا أتاهم قومهم فقالوا : مَا وَرَاءَكَ يا أربد ؟ قال : لا شيء ، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لَوَدِدْتُ أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله !

---

(١) فاعله بالسيف : يريد أقتله ، ويروى : « فاغتله بالسيف » بالغين المعجمة ، وهو من الغيلة ، وهي القتل خديعة وخفية .

(٢) خالني : يروى بكسر اللام مخففة ، وبتشديدها مكسورة : فالأول معناه تفرد لي خالياً حتى أحدثك على انفراد . والثاني معناه اتخذني خليلاً ، من المخالة ، وهي الصداقة .

(٣) أي لا يرد جواباً .

(٤) الغدة : داء يصيب البعير في حلقه فيموت منه ، وهو شبيه بالذبحة التي تصيب الإنسان ، والبكر بالفتح : الفتى من الإبل . وسلول : قوم يصفهم العرب باللؤم والدناءة ، قال السموءل :

وإنا أناس لا نرى القتل سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول

فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين ، معه جمل له يتبعه ، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعِقَةً فأحرقتهما . وكان أَرْبَدُ بن قيس أخَا لبيدِ بن ربيعة لأُمه ، فقال لبيد يبكي أرْبَد :

مَا إنْ تَعَدَّى المَنُونُ مِنْ أَحَدِ ... لَا والِدٍ مُشْفِق ولا وَلَدِ(١)
أَخشَى عَلَى أربدَ الحُتوفَ ولا ... أرهَبُ نُوءَ السِّماكِ والأسدِ
فَعيْنُ ، هَلَّا بكَيْتِ أَرْبدَ إذْ ... قُمنَا وقامَ النِّساءُ في كَبَدِ(٢)
إنْ يَشْغَبُوا لاَ يُبالِ شَغْبَهُمُ ... أوْ يَقْصدُوا في الحُكُوم يَقْتَصد
حُلْوٌ أرِيبٌ ، وفي حَلاَوَتِهِ ... مُرٌّ ، لَطِيفُ الأحشاءِ والكَبد(٣)
وَعَيْنُ هلَّا بَكَيْتِ أَرْبدَ إذْ ... أَلْوَتْ رِياحُ الشِّتاءِ بالعضَد(٤)
وأَصْبحَتْ لاقحاً مُصَرَّمةً ... حِين تَجَلَّتْ غَوابِرُ المُدَدِ(٥)
أَشْجعُ مِنْ لَيْثِ غَابة لَحِمٍ ... ذُو نَهْمةٍ في العُلا ومُنْتَقدِ(٦)
لَا تَبْلُغُ العَيْنُ كُلَّ نَهْمتهاَ ... ليلَةَ تُمسي الجيادُ كالقِدَدِ(٧)
الباعِثُ النَّوْحَ في مآتمه ... مِثْلَ الظِّبَاءِ الأبكارِ بِالجَرَدِ(٨)
فَجَّعَنِي البَرْقُ والصَّواعقُ بالـ ... ـفارِسِ يومَ الكَريهَةِ النَّجُدِ(٩)
والحَارِبِ الجَابِرِ الحَرِيبَ إذَا ... جَاءَ نَكيباً وإنْ يَعُدْ يَعُدِ(١٠)
يَعْفُو عَلَى الجَهدِ والسُّؤالِ كما ... يَنبُتُ غَيْثُ الرَّبيعِ ذُو الرَّصَدِ(١١)

---

(١) تعدى ، أي تتعدى : أراد به تترك وتتجاوز .

(٢) الكبد ، بفتح الكاف والباء : الجهد والمشقة

(٣) الأريب : العاقل .

(٤) العضد : الشجر ذهبت الريح بأوراقه . وهذا كناية عن الجدب في الشتاء .

(٥) المصرمة : التي لا لبن لها . والغوابر : البقايا ، واحدتها غابرة .

(٦) لحم بفتح فكسر : كثير الأكل للحم . وذو نهمة : أي له ولوع وحب في بلوغ غاية الشيء ، ويروى : « ذو نهية » بالياء المثناة ، وهي العقل ، وجمعها نهي . ومنتقد ، أي بصر بالأمور .

(٧) القدد بكسر ففتح : جمع قدة ، وهي السير الذي يقطع من الجلد . شبه الخيل بالسير في نحولها وضمرها .

(٨) النوح : جماعة النساء النائحات . المآتم : جمع مأتم ، وهو جماعة النساء يجتمعن في خير أو شر . والجرد : الأرض لا نبات فيها .

(٩) النجد ، بفتح فضم : الشجاع .

(١٠) الحارب : السالب . والحريب : المسلوب . والنكيب : المنكوب الذي أصابته نكبة .

(١١) الجهد : المشقة ، يريد أنه يعطي ويكثر عطاؤه مع المشقة . والرصد : الكلأ القليل .

كُلُّ بني حُرَّةٍ مَصيرهم قُلٌّ ، وإن أكثَرتْ مِنَ العَدَدِ[١]
إنْ يُغْبَطُوا يَهْبِطُوا وإنْ أَمِرُوا يَوماً فَهُمْ لِلْهلاكِ والنَّفَدِ[٢]

* قُدُومُ الجَارُودِ فِي وَفْدِ عَبْدِ القَيْسِ *

وقدمَ على رسول الله ﷺ الجَارُودُ بن عمرو بن حَنَش أخو عبد القيس[٣].

عن الحسن ، قال : لما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلَّمه ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، ودَعاه إليه ، ورغَّبَه فيه ، فقال : يا محمد ، إني قد كنت على دين ، وإني تاركٌ ديني لدينك ، أفتضمن لي ديني ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ أنا ضامِن لكَ أنْ قَدْ هَدَاكَ الله إلىٰ ما هو خَيرٌ مِنه » .

فأسلم وأسلم أصحابه ، ثم سأل رسولَ الله ﷺ الحُمَلان ، فقال : « والله ما عندِي ما أحمِلُكُمْ عليه » . قال : يا رسولَ الله ، فإنَّ بيننا وبين بلادنا ضَوالَّ الناس أفنتبلَّغُ عليها إلى بلادنا ؟ قال : « لا ، إيَّاك وإياها ؛ فإنَّما تِلك حَرَقُ النَّار »[٥].

فخرج من عنده الجارودُ راجعاً إلى قومه ، وكان حسنَ الإسلام صُلباً على دينه حتى هلك . وقد أدرك الرِّدَّة .

فلما رجع من قومِهِ مَنْ كان أسلم منهم إلى دينهم الأول مع الغَرُور بن المنذر بن النعمان بن المنذر ، قام الجارود فتكلَّم فتشهَّد شهادة الحق ، ودَعا إلى الإسلام فقال : أيها الناس إني أشهد أن لا إلّه إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأُكَفِّر من لم يشهد[٦] .

---

(١) قل : بضم القاف : أي قليل .

(٢) يغبطوا : هو من الغبطة ، وهو كناية عن حسن حالهم حتى يغبطهم الناس . يهبطوا : ينزلوا ، أي تضعف حالهم بعد ذلك ويلحقهم الذل بعد العزة . وأمروا ، بكسر الميم : كثروا . والنفدِ : انقطاع الشيء وزواله.

(٣) قال ابن هشام : « الجارود : ابن بشر بن المعلى في وفد عبد القيس ، وكان نصرانياً » .

(٤) يعني الإبل الضالة .

(٥) أي لهب النار ، أي تؤدي إلى ذلك .

(٦) قال ابن هشام : « ويروى : وأكفي من لم يشهد » .

* قُدُومُ بَنِي حَنِيفَةَ ومعهم مُسَيْلِمَةُ الكَذَّاب *

وقدم على رسول الله ﷺ وفْدُ بني حنيفة ، فيهم مُسَيْلِمةُ بن حَبيب الحنفي الكذاب[١].

فكان منزلهم في دار بنت الحارث[٢] امرأةٍ من الأنصار ، ثم من بني النجار . فحدثني بعض علمائنا من أهل المدينة أن بني حنيفة أتت به رسولَ الله ﷺ تَسْتُرُهُ بالثياب ، ورسولُ الله ﷺ جالسٌ في أصحابه ، معه عَسِيبٌ من سَعفَ النخل ، في رأسه خُوصَات[٣] ، فلما انتهي إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالثياب كلَّمه وسأله ، فقال له رسول الله ﷺ : « لَوْ سَأَلْتَني هذا العَسِيبَ ما أعطَيْتُكه » .

قال ابن إسحاق : وقد حدثني شيخ من بني حنيفة من أهل اليمامة ، أنَّ حديثه كان على غير هذا :

زعم أن وفدَ بني حنيفة أتَوْا رسول الله ﷺ ، وخَلَّفُوا مُسَيْلمة في رحالهم ، فلما أسلموا ذكروا مكانه ، فقالوا : يا رسولَ الله ، إنا قد خَلَّفْنَا صاحباً لنا في رحالنا وفي ركابنا يحفظها لنا . قال : فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم ، وقال : « أَمَا إِنَّهُ ليسَ بِشَرِّكُمْ مكاناً » أي لحفظه ضيعة أصحابه ، ذلك الذي يريد رسولُ الله ﷺ . قال : ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وجاءُوهُ بما أعطاه ، فلما انتهوا إلى اليمامة ارْتَدَّ عَدوُّ الله ، وتنبأ ، وتَكذَّب لهم ، قال : إني قَدْ أُشْرِكْتُ في الأمر معه . وقال لوفده الذين كانوا معه : ألم يقل لكم حين ذكرتموني له : « أمَا إنه ليس بشركم مكاناً » ؟ ! ما ذاك إلا لما كان يعلم أنِّي قد أُشْرِكْتُ في الأمر معه . ثم جعل يَسْجَعُ لهم الأساجيع ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاةً للقرآن :

لَقَدْ أنعمَ الله على الحُبْلَى ، أَخْرَجَ منها نَسَمَةً تَسْعَى ، من بين صِفاقٍ[٤] وحَشا .

---

(١) قال ابن هشام : « مسيلمة بن ثمامة ، ويكنى أبا ثمامة » .

(٢) قال أبو ذر : « يقال : إن هذه المرأة اسمها كيسة بنت الحارث » .

(٣) العسيب : جريد النخل . والسعف ، بفتحتين : أغصان النخلة . والخوصات : جمع خوصة : ورق النخيل والدوم .

(٤) الصفاق : ما رق من البطن .

وأحلَّ لهم الخمر والزنى ، ووضَع عنهم الصلاة ، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبيّ .

فأصفقت معه [1] حنيفة على ذلك. فالله أعلم أيُّ ذلك كان .

* أمْرُ عَدِيِّ بنِ حَاتِم *

وأمَّا عَديُّ بن حاتم فكان يقول ـ فيما بلغني ـ : ما من رجل من العرب كان أشدَّ كراهيةً لرسول الله ﷺ حين سمع به منِّي . أمَّا أنا فكنت امرأً شريفاً ، وكنت نصرانياً ، وكنت أسِيرُ في قومي بالمِرْبَاع[2].

فكنت في نفسي على دين ، وكنت ملكاً في قومي لما كان يُصنَع بي ، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته ، فقلت لغلام كان لي عربيٍّ وكان راعياً لإبلي : لا أبا لكَ ، أعدِدْ لي من إبلي أجمالاً ذُلُلاً[3] سِماناً ، فاحتَبِسْها قريباً مني ، فإذا سمعتَ بجيشٍ لمحمد قد وطىء هذه البلاد فآذنِّي[4]. ففعل .

ثم إنه أتاني ذاتَ غداةٍ فقال : يا عديُّ ، ما كنتَ صانعاً إذا غَشِيَتْكَ خيلُ خالد فاصنعه الآن ، فإني قد رأيت راياتٍ ، فسألتُ عنها ، فقالوا : هذه جيوش محمد . فقلت : فَقَرِّبْ إليّ أجمالي . فقرَّبَها ، فاحتملت بأهلي وولدي ، ثم قلت : ألحقُ بأهل ديني من النصارى بالشام . فسلكت الجُوشِيَّة[5] ـ ويقال : الحُوشية فيما قال ابن هشام ـ وخلَّفْتُ بنتاً لحاتم في الحاضر[6] ، فلما قدمتُ الشامَ أقمت بها . وتُخالِفني خيلُ لرسول الله ﷺ فتصيب ابنةَ حاتم فيمن أصابت ، فقُدِم بها على رسول الله ﷺ في سبايا من طيِّء. وقد بلغ رسولَ الله ﷺ هربي إلى الشام، فجُعِلَت بنت حاتمٍ في حظيرة بباب المسجد ، كانت السبايا يُحْبَسْنَ فيها ، فمرَّ بها رسول الله ﷺ ، فقامت إليه ، وكانت امرأة جَزْلَةً ؛ فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالدُ ، وغاب الوافد ، فامنن عليَّ

---

(١) أصفقت معه : اجتمعوا عليه

(٢) أي أخذ الربع من الغنائم ، وكان العرب يجعلون ذلك للرئيس .

(٣) ذللا : جمع ذلول ، وهو الجمل السهل الذي قد ارتاض .

(٤) أي أعلمني . آذنه : أعلمه .

(٥) الجوشية : جبل الضباب قرب ضرية من أرض نجد .

(٦) اسمها : سفانة فيما يرجح السهيلي . والحاضر : الحي المقيم .

مَنَّ الله عليك ! قال : « ومَنْ وافِدُك » ؟ قالت : عدِيُّ بن حاتم . قال : « الفارُّ مِنَ الله ورسولِه ؟ » . قالت : ثمَّ مضى رسولُ الله ﷺ وتركني ، حتى إذا كان من الغد مَرَّ بي ، فقلت له مثلَ ذلك ، وقال لي مثل ما قال بالأمس ، حتى إذا كان بعد الغد مَرَّ بي ، وقد يئسْتُ منه ، فأشار إليَّ رجُلٌ من خلفه : أنْ قُومِي فكلِّميه . فقمت إليه ، فقلت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنُنْ عليّ مَنَّ الله عليك . فقال ﷺ : « قَدْ فَعلْتُ ، فلا تَعْجَلي بخُرُوجٍ حتَّى تَجِدِي من قومك من يَكونُ لك ثِقةً حتَّى يُبَلِّغكِ إلى بلادِكِ ، ثُمَّ آذِنيني » . فسألتُ عن الرجل الذي أشار إليَّ أن أُكلمه ، فقيل : علي بن أبي طالب رضوان الله عليه . وأقمت حتَّى قدم ركب من بَلِيٍّ أو قُضَاعة ، وإنما أُريد أن آتيَ أخي بالشام . فجئت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، قد قدم رهْطٌ من قومي لِي فيهم ثقة وبَلاغ . فكساني رسولُ الله ﷺ ، وحَمَلني[١] ، وأعطاني نفقة ، فخرجت معهم حتَّى قدمت الشامْ .

قال عديّ : فوالله إنِّي لقاعِدٌ في أهلي إذْ نظرتُ إلى ظَعينَةٍ[٢] تَصُوبُ إليَّ تؤُمُّنا ، فقلت : إبنةُ حاتم؟قال: فإذا هيَ هيَ. فلما وقفَتْ عليَّ انسحَلتْ[٣] تقول: القاطع ، الظالم ، احتملتَ بأهلك وولدك وتركتَ بقية والدِكَ عَوْرَتَكَ ! قلت : أيْ أخَيَّةُ لا تقولي إلا خيراً ، فوالله ما لي من عذر ، لقد صنعتُ ما ذكرتِ .

ثم نزلَتْ فأقامت عندي ، فقلت لها ـ وكانت امرأةً حازمة : ماذا تَرَيْنَ في أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تَلْحَقَ به سريعاً ، فإن يكن الرجلُ نبيًّا فللسابق إليه فضلُه ، وإن يكن مَلِكاً فلن تَذِلَّ في عِزِّ اليَمَن وأنت أنت !

قلت : والله إن هذا الرَّأيُ .

فخرجتُ حتى أقدمَ على رسولِ الله ﷺ المدينةَ ، فدخلت عليه وهو في مسجده ، فسلَّمت عليه ، فقال : مَنِ الرَّجُلُ ؟ فقلت : عديُّ بن حاتم . فقال رسول الله ﷺ ، فانطلَقَ بي إلى بيته ، فوالله إنه لعامدٌ بي إليه[٤] إذ لقيته امرأةٌ ضعيفة كبيرة ، فاستوقفتْهُ ، فوقف لها طويلاً تكلِّمه في حاجتها ، قلتُ في نفسي : والله ما هذا بملك .

---

(١) حملني : أعطاني ما يحملني من دابة أركبها .

(٢) الظعينة : المرأة في هودجها ، وقد يقال لها ظعينة وإن لم تكن في الهودج . وتصوب إلي : تقبل نحوي . وتؤمنا : تقصدنا .

(٣) انسحلت : أخذت في اللوم ومضت فيه مجدة . (٤) عمد إليه : قصد إليه .

ثم مضى بي رسولُ الله ﷺ ، حتى إذا دخل بي بيته تناول وِسَادَةً من أدَمٍ محشُوَّةً ليفاً ، فقذفها إليّ ، فقال : اجلِس عَلَى هذه . قلت : بل أنت فاجلسْ عليها . فقال : بَلْ أنْتَ . فجلستُ عليها . وجلس رسول الله ﷺ بالأرض .

قلت في نفسي : والله ما هذا بأمرِ مَلِك . ثم قال : إيهِ يَا عَدِيُّ بنَ حاتم ، ألم تَك رَكُوسِيًّا ! ؟[1] قلت : بلى . قال : أَوَلَمْ تَكُنْ تسيرُ في قَومِك بالمربَاع ؟ » قلت : بلى . قال : « فإنَّ ذلِكَ لَمْ يكُن يَحِلُّ في دينِك » ، قلت : أَجَلْ والله ! وعرفتُ أنه نبيٌّ مرسل يعلم ما يُجْهل . ثم قال :

« لَعَلَّكَ يَا عَدِيُّ إنَّما يَمْنعُكَ مِنْ دُخُولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكنَّ المالُ أن يفيض فيهم حتَّى لا يوجد مَن يأخذه . ولعلك إنَّما يمنعك من دخولٍ فيه ما ترى من كثرة عدوِّهم وقلَّة عددهم ، فوالله ليوشكنَّ أن تَسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتَّى تزور هذا البَيتَ لا تخافُ . ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنَّك ترى أن المُلكَ والسُّلطان في غيرهم ، وايمُ الله ليوشكنَّ أن تسمع بالقُصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم » .

قـال : فأسلمت .

وكان عديٌّ يقول : قد مضت اثنتان ، وبقيت الثالثة ، ووالله لتكونَنَّ : قد رأيت القصورَ البيضَ منِ أرض بابلَ قد فُتِحت ، وقد رأيت المرأة تَخرج من القادسيةِ على بعيرِها لا تخاف حتَّى تحجَّ هذا البيت ، وأيمُ الله لتكونَنَّ الثالثة : لَيَفِيضَنَّ المالُ حتَّى لا يوجد من يأخذه .

* قُدُومُ فَرْوَةَ بنِ مُسَيْكٍ المُرَادِيِّ *

قال ابن إسحاق :

وقدم فَرْوَةُ بن مُسَيْكٍ المُرَادِيُّ على رسول الله ﷺ ، مُفَارِقاً لملوك كِنْدة ، ومباعِداً لهم ، إلى رسول الله ﷺ ، وقد كان قبيل الإسلام بين مُرَاد وهَمْدَان وَقْعَة أصابت فيها همدان من مرادٍ ما أرادوا ، حتى أثْخَنُوهم[2] ، في يوم كان يقال له يوم الرَّدْم ، فكان

---

(١) الركوسية : قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين .

(٢) أثخنوهم : أكثروا فيهم القتل .

الذي قاد هَمْدَان إلى مرادٍ الأجدع بن مالك ، في ذلك اليوم(١) .

ولما توجَّه فَرْوَةُ بن مُسَيْك إلى رسول الله ﷺ مفارقاً لملوك كندة قال :

لَمَّا رَأَيْتُ مُلُوكَ كِنْدَةَ أَعْرَضَتْ ... كالرِّجْلِ خَانَ الرِّجْلَ عِرْقُ نَسائها(٢)

قَرَّبْتُ رَاحِلتي أؤمُّ مُحَمَّداً ... أَرْجُو فَواضِلَهَا وحُسْنَ ثَرَائها(٣)

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال له رسول الله ﷺ فيما بلغني : يَا فَرْوَةُ ، هَلْ ساءَكَ ما أصابَ قَوْمَ الرَّدْم ؟ قال : يا رسولَ الله ، مَن ذا يصيبُ قومَه مثلُ ما أصاب قومي يوم الرَّدم لا يسوؤُه ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ له : « أمَا إنَّ ذلك لم يَزِدْ قومَك في الإسلام إلَّا خيراً » .

واستعمله النبي ﷺ على مُراد وزُبَيْد ومَذْحِجٍ كلِّها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصّدَقة ، فكان معه حتى تُوفِّيَ رسول الله ﷺ .

* قُدُومُ عَمْرِو بنِ مَعْدِيكَرِب *
فِي أُنَاسٍ مِنْ زُبَيْدٍ

وقدم على رسُول الله ﷺ عَمْرُو بن مَعْدِيكرب في أُناس من بني زُبَيْد ، فأسلم ، وكان عَمْرُو قد قال لقيس بن مكْشُوحٍ المُرادِيِّ - حين انتهى إليهم أمر رسولِ الله ﷺ - : يا قَيسُ ، إنَّك سيدُ قومك ، وقد ذُكر لنا أنّ رجلاً من قريش يقال له محمد ، قد خرج بالحجاز يقول : إنه نبي ، فانطلقْ بنا إليه حتَّى نعلم عِلمَه ، فإن كان نبيًّا كما يقول فإنه لن يَخفَى عليك ، وإذا لقيناه اتَّبعناه ، وإن كان غير ذلكِ عَلمنا علمه . فأبى عليه قَيْسٌ ذلك ، وسَفَّه رأيه ، فركب عمرو بن معديكرب حتى قدم على رسول الله ﷺ ، فأسلم وصَدَّقَه ، وآمن به ، فلمَّا بلغ ذلك قَيْسَ بن مَكْشُوحٍ أوعَدَ عَمْراً وتحطَّمَ عليه(٤) ، وقال : خالفني وترك رأيي ! فقال عمرو بن معديكرب في ذلك :

---

(١) قال ابن هشام : الذي قاد همدان في ذلك اليوم مالك بن حريم الهمداني .

(٢) النسا : عرق مستبطن في الفخذ . وأصله مقصور فمده للشعر .

(٣) أؤم : أقصد . ثرائها يعني به الجود والعطية . ويروى : « ثنائها » ، وهو الذي يتحدث به عن الرجل من خير أو شر .

(٤) تحطم عليه : اشتد عليه .

أَمَـرْتُـكَ يَـوْمَ ذِي صَنْعَـا ء أمـراً بَـادِيـاً رَشَـدُه[1]
أَمَـرْتُـكَ بِـاتِّـقَـاءِ اللـه والـمَـعْـرُوفِ تَـتَّـعِـدُه
خَـرَجْتَ مِنَ المُنَى مِثْلَ الـ ـحُـمَـيِّـرِ غَـرَّهُ وَتِـدُه
تَـمَـنَّـانِـي عَـلَى فَـرَسٍ عَـلَـيْـهِ جَـالِـسـاً أَسَـدُه
عَـلَيَّ مُفَـاضَـةٌ كَـالنَّهْـ ـيِ أَخْلَصَ مَاءَهُ جَـدَدُه[2]
تَـرُدُّ الـرُّمْـحَ مُنْثَنِيَ الـ ـسِّنَانِ عَـوَائِـراً قِصَـدُه[3]
فَـلَو لاَقَـيْـتَـنِـي لـلِقِـيـ ـتَ لَيْـثاً فَـوقَـه لِبَـدُه[4]
تُـلاَقِي شَنْبَـثـاً شَثْنَ الـ ـبَـرَاثِنِ نَاشِـزاً كَتَـدُه[5]
يُسَـامِي القِـرْنَ إِنْ قِـرْنٌ تَـيَـمَّـمَـهُ فَـيَـعْـتَـضِـدُه[6]
فَـيَـأْخُـذُهُ فَـيَـرفَـعُـهُ فَـيَـخْـفِضُـهُ فَـيَـقْـتَـصِـدُه[7]
فَـيَـدمَـغُـهُ فَـيَـحْـطِـمُـهُ فَـيَـخْـضَـمُـهُ فَـيَـزدَرِدُه[8]
ظَـلُومُ الشِّـرْكِ فِيمَـا أَحْـ ـرَزَتْ أَنْـيَـابُـهُ وَيَـدُهُ

فأقام عمرو بن معديكرب في قومه من بني زُبَيد ، وعليهم فَرْوَة بن مُسَيْك ، فلما توفِّيَ رسول الله ﷺ ارتَدَّ عَمْرو بن معديكرب ، وقال حين ارتد :

وَجَدْنَا مُلْكَ فَرْوَةَ شَر مُلْكٍ حِماراً سافَ مَنْخِرُهُ بِثَفْرِ[9]
وكُنْتَ إذا رأيتَ أبا عُمَيرٍ تَرى الحُوَلاءَ مِن خبثٍ وغَدرِ[10]

---

(١) ذو صنعاء : بلدة باليمن ، وهي صنعاء . والعرب يزيدون « ذو » في كثير من أعلام البلدان .

(٢) المفاضة : الدرع الواسعة . والنهي : الغدير . والجدد : الأرض الصلبة .

(٣) عوائر : أي متطايرة . والقصد ، بكسر القاف وفتح الصاد : جمع قصدة ، وهو ما تكسر من الرمح .

(٤) اللبد ، بكسر ففتح : جمع لبدة ، وهي ما على كتفي الأسد من الشعر .

(٥) الشنبث : بزنة جعفر : الذي يتعلق بقرنه ولا يزايله . وشثن : أي غليظ الأصابع . والبراثن : جمع برثن ، وهو للسبع بمنزلة الإصبع للإنسان . وناشزاً : مرتفعاً . والكتد : ما بين الكتفين .

(٦) يسامي القرن : يعلوه ويرتفع عليه . والقرن ، بالكسر : الذي ينازلك في الشجاعة . وتيممه : قصده . ويعتضده : يجعله تحت عضده ، معناه يفوقه ويتغلب عليه .

(٧) يقتصده : يقتله .

(٨) يدمغه : يخرج دماغه . ويحطمه : يكسره . ويخضمه : يأكله . ويزدرده : يبتلعه .

(٩) ساف : شم . والثفر في البهائم بمنزلة الرحم في الناس .

(١٠) الحولاء : الجلدة التي يخرج فيها ولد الناقة .

* قُدُومُ الأَشْعَثِ بنِ قَيْسٍ فِي وَفْدِ كِنْدَةَ *

قال ابن إسحاق :

وقدم على رسول الله ﷺ الأشعثُ بن قيس في وفد كِنْدَةَ . فحدثني الزُّهْريُّ بنُ شهاب ، أنه قدم على رسول الله ﷺ في ثمانين راكباً من كِنْدَة ، فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجدَه وقد رَجَّلُوا جُمَمَهُمْ[١] ، وتَكَحَّلوا ، عليهم جُبَبُ الحِبرَةَ[٢] ، وقد كَفَّفُوها بالحرير[٣] ، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال : ألم تُسْلِمُوا ؟ قالوا : بلى : قال : فما بالُ هذا الحرير في أعناقِكم ؟ قال : فشَقُّوه منها فألقَوه . ثم قال له الأشعثُ ابن قيس : يا رسولَ الله ، نحن بنو آكل المُرَار ، وأنت ابن آكل المُرار . قال : فتبسم رسولُ الله ﷺ ، وقال : ناسِبُوا بهذا النسب العبَّاسَ بنَ عبد المطَّلب وربيعة بن الحارثِ ـ وكان العباس وربيعة رجلين تاجرين ، وكانا إذا شاعا[٤] في بعض العرب فسُئِلا مِمَّنْ هُما قالا : نحن بنو آكلِ المرار ! يَتعَزَّزان بذلك ، وذلك أن كندة كانوا ملوكاً ـ ثم قال لهم : لا ، بَل نحنُ بَنو النَّضر بنِ كِنانة ، لا نقْفُو[٥] أُمَّنا ولا ننتفي مِن أبِينا . فقالِ الأشعث بن قيس : هل فَرغتم يا معشر كندة ؟ والله لا أسمع رَجُلاً يقولها إلاَّ ضربته ثمانين .

* قُدُومُ صُرَدِ بنْ عَبْدِ اللهِ الأَزْدِيِّ *

وقدم على رسول الله ﷺ صُرَدُ بن عبد الله الأزدي ، فأسلم وحسُن إسلامه في وَفْدٍ من الأزد ، فأمَّره رسول الله ﷺ على مَن أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم مَنْ كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن .

فخرج صُرَد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بِجُرَش ، وهي يومئذ مدينة مُغلقة . وبها قبائل من قبائل اليمن ، وقد ضَوَتْ إليهم[٦] خثْعَمٌ ، فدخلوها معهم

(١) رجلوا جممهم : يريد مشطوا شعورهم وسرحوها . والجمم : جمع جمة ، وهي مجتمع شعر الرأس .

(٢) الجبب : جمع جبة ، وهي ضرب من الثياب . والحبرة : ضرب من برود اليمن ذو خطوط .

(٣) كففوها : أي جعلوا لها طرازاً .

(٤) شاعا : بعدا .

(٥) لا نقفو أمنا : لا نتبعها في نسبها ، لأن نسب الرجل إلى أبيه لا إلى أمه .

(٦) ضوت : انضمت ولجأت واتصلت بهم .

حين سمعوا بمسير المسلمين إليهم ، فحاصروهم فيها قريباً من شهر ، وامتنعوا فيها منه ، ثم إنه رجع عنهم قافلاً ، حتَّى إذا كان إلى جبل لهم يقال له « شَكْر » ظَنَّ أهل جُرَش أنه إنما ولَّى عنهم مُنْهَزِماً ، فخرجوا في طلبه ، حتى إذا أدركوه عَطَفَ عليهم فقتلهم قتلاً شديداً .

وقد كان أهل جُرَشَ بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يَرْتَادَان وينظران ، فبينا هما عند رسول الله ﷺ عشيَّةً بعد صلاة العصر إذ قال رسول الله ﷺ : « بأيِّ بلادِ اللَّهِ شكْر ؟ » فقام الجُرَشِيان فقالا : يا رسول الله ، ببلادنا جَبَلٌ يقال له كَشْر ـ وكذلك يسميه أهل جُرَش ـ فقال : « إنَّهُ لَيسَ بَكَشْر ولكنَّه شَكْر » . قالا : فما شأنه يا رسول الله ؟ قال : « إنَّ بُدْنَ اللَّهِ لَتُنْحَرَ عنده الآن » .

فجلس الرجلان إلى أبي بكر ، أو إلى عثمان ، فقال لهما : ويحكما ! ! إن رسول الله ﷺ الآن لَيَنْعَى لكما قومَكما ، فقوما إلى رسول الله ﷺ فاسألاه أن يدعُوَ الله أن يرفَع عن قومكما . فقاما إليه فسَألاه ذلك . فقال : اللَّهُمَّ ارفعْ عنهم ! فخرجا من عند رسول الله ﷺ راجعَين إلى قومهما ، فوجدا قومهما قد أُصيبوا يوم أصابهم صُرَد بن عبد الله ، في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال ، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكَر .

وخرج وفد جُرَشَ حتى قدموا على رسول الله ﷺ ، فأسلموا وَحَمَى لهم حِمًى حولَ قريتهم ، على أعلام معلومة : للفَرس ، والراحلة[١] وللمُثِيرةِ[٢] بَقَرةِ الحَرْث ، فمن رعاه من الناس فمالُه سُحت[٣] .

* قُدُومُ رَسُولِ مُلُوكِ حِمْيَرَ بِكِتَابِهِم *

وقَدِم على رسول الله ﷺ كتابُ ملوك حِمْيَر مَقْدَمَه من تَبُوك ورسولُهم إليه[٤] بإسلامهم : الحارثُ بن عبد كُلَال ، ونُعيم بن عبد كُلَال ، والنُّعمانُ قَيْلُ ذي رُعَيْن[٥] ومَعافِر وهَمْدَان .

---

(١) الراحلة : واحد الرواحل ، وهي الإبل .

(٢) المثيرة : البقرة ، لأنها تقلب الأرض .

(٣) سحت : حرام لا يحل له أن يأكله .

(٤) في بعض النسخ : « رسل ملوك » بصيغة الجمع ، و « رسلهم إليه » كذلك . والرسول من الألفاظ التي يستوي فيها المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث .

(٥) القيل ، يقال : هو الملك ، ويقال : بل هو الذي دون الملك الأعلى ، وهذا هو الأكثر .

وبعث إليه زُرْعَةُ ذُو يزَنَ ، مالكَ بنَ مُرَّةَ الرَّهاويَّ بإسلامهم ، ومفارقتهم الشرك وأهله .

فكتب إليهم رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله النبي ، إلى الحارث بن عبد كُلال ، وإلى نُعيمٍ بن عبدِ كُلال ، وإلى النُّعمانِ قَيل ذِي رُعَين ومَعافر وهَمدان .

أما بعدَ ذلكم فإني أحْمَدُ إليكم الله الذي لا إلّه إلا هو ، أمَّا بعدُ فإنه قد وقَع بنا رسولُكم مُنقلَبَنَا مِنْ أرض الروم ، فلَقِيَنا بالمدينة ، فبلَّغ ما أرسلتم به ، وخبَّرنا ما قِبَلكُمْ ، وأنبأنا بإسلامِكم وقتْلِكم المشركينَ . وإنَّ الله قَد هَداكم بِهداه ، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسولَهُ وأقمتم الصَّلاة وآتيتم الزَّكاة ، وأعْطَيتم من المغانِم خُمُسَ اللّهِ وسهمَ النَّبيِّ ﷺ وصفِيِّه[١] وما كُتبَ عَلَى المُؤمنينَ من الصَّدَقةِ ، من العقارِ[٢] عُشر مَا سقتِ العينُ وسقت السَّمَاءُ ، وعلى ما سَقَى الغَربُ[٣] نِصفُ العُشرِ . وَإِنَّ في الإبلِ الأرْبَعينَ ابنةَ لَبُونٍ . وفي ثلاثين مِن الإبل ابنُ لَبُونٍ ذَكَرٌ ، وفي كُلِّ خَمْس من الإبل شاةٌ ، وفي كلِّ عَشرٍ مِن الإبِل شاتانِ ، وفي كُلِّ أرْبَعِينَ من البقرة بَقَرَةٌ ، وفي كل ثلاثين من البقر تَبِيعٌ جَذَعٍ أو جَذَعة[٤] ، وفي كلِّ أربعين منَ الغَنَم سَائِمَةٍ وحدَها شاةٌ . وإنَّها فريضةُ الله التي فَرَضَ على المؤمنين في الصَّدَقة ، فمن زادَ خيراً فهو خير له ، ومن أدَّى ذلك وأشْهَدَ على إسلامه وظَاهَر المؤمنين[٥] عَلَى المشركين فإنَّه من المؤمنين ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وله ذمَّةُ الله وذِمة رسوله .

وإنه من أسْلَم من يهوديّ أو نَصرَانيٍّ فإنَّه من المؤمنين : له ما لهم ، وعليه ما عليهم . ومَن كان على يَهُوديَّتِه أو نَصرانِيَّته فإنه لا يُرَدُّ عنهَا ، وعليه الجزْيَة ، على كل حالم ذكرٍ أو أنثى ، حُرٍّ أو عبد ، دينارٌ وافٍ من قيمة المَعَافر[٦] أو عِوَضُه ثياباً ، فَمَنْ أدَّى ذلك إلى رسولِ الله ﷺ فإنَّ له ذِمَّة الله وذمة رسوله ، ومن مَنَعه فإنَّه عدوٌّ لله ولرسوله .

---

(١) الصفى : ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة .

(٢) العقار ، ههنا الأرض ، وهو بفتح العين .

(٣) الغرب ، بفتح فسكون : هي الدلو العظيمة .

(٤) التبيع : ما استكمل سنة من ولد البقر ، فإذا استكمل سنتين فهو جذع .

(٥) ظاهر المؤمنين : عاونهم وقواهم وكان معهم على من سواهم .

(٦) المعافر : ثياب من ثياب اليمن .

أما بعد فإن رسول الله محمداً النبيَّ أرسل إلى زُرْعَةَ ذِي يزن : أن إذا أتاكم رُسلِي فأُوصِيكُمْ بهم خيراً : مُعَاذُ بن جَبَلٍ ، وعبد الله بن زَيْد ، ومالكُ بن عُبادة ، وعُقبةُ بن نَمِر ، ومالكُ بن مُرَّة ، وأصحابهم . وأنِ اجْمَعُوا ما عِندكم من الصَّدقة والجِزيةِ من مَخَاليفكم[١] ؛ وأَبْلِغُوها رُسلي . وإنّ أميرهم مَعاذُ بن جبل . فلا يَنْقَلِبَنّ إلاّ راضياً .

أما بعد ؛ فإن محمداً يَشْهَدُ أن لا إلٓه إلا الله ، وأنه عبده ورسوله .

ثم إنّ مالك بن مُرَّةَ الرَّهاويَّ قد حدَّثني أنَّك أسلمت من أول حمير ، وقتلتَ المشركين ، فأبْشِرْ بخير ، وآمُرُكَ بحمير خَيْراً ، ولا تَخُونُوا ، ولا تَخاذَلُوا ، فإنّ رسول الله هو مَوْلَى غَنِيِّكُمْ وفقيركم ، وإنَّ الصَّدَقَةَ لا تحلّ لمحمد ، ولا لأهل بيته ، وإنما هي زكاةٌ يزكَّى بها على فقراءِ المسلمين وابن السبيل .

وإنّ مالكاً قد بَلَّغَ الخبر وَحفِظَ الغَيْبَ ، وَآمُرُكُمْ به خيراً . وإني قد أرسلت إليكم من صَالِحي أهلي وأُولي دينهم وأُولي علمهم ، وآمركم بهم خيراً ؛ فإنَّهم مَنْظُورٌ إليهم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

* وَصِيَّةُ الرَّسُولِ ﷺ مُعَاذاً *
حِينَ بَعَثَهُ إلَى اليَمَن

قال ابن إسحاق :

وحدثني عبدُ الله بن أبي بكر ، أنه حُدِّث ، أن رسول الله ﷺ ـ حين بعث معاذاً ـ أوصاه وعهد إليه ، ثم قال له : « يَسِّر ولَا تُعَسِّرْ ، وبَشِّرْ ولا تُنَفِّرْ . وإنَّكَ ستَقْدَمُ على قومٍ من أهل الكتابِ يسألونك ما مِفتَاحُ الجَنَّة ؟ فقل : شهادةُ أنْ لا إلٓه إلاّ الله وحده لا شريكَ له » .

---

(١) جمع مخلاف ، وهو لأهل اليمن كالجند لأهل الشام ، والكورة لأهل العراق ، والرستاق لأهل الجبال والطسوج لأهل الأهواز .

* إسْلَامُ بَنِي الحَارِثِ بن كَعْب *
عَلَى يَدَيْ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ لمَّا سَارَ إلَيْهِمْ

قال ابن إسحاق :

ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر ، أو جمادى الأولى ، سنةَ عشر ، إلى بني الحارث بن كعب بِنَجْرَان ، وأمره أن يدعوَهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ، ثلاثاً ، فإن استجابوا فاقبلْ منهم ، وإن لم يَفْعَلوا فقاتلْهم .

فخرج خالدٌ حتى قدم عليهم ، فبعث الرُّكبانَ يضرِبون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون : أيها الناس أسلِمُوا تَسلموا . فأسلم الناس ودخلوا فيما دُعُوا إليه ، فأقام فيهم خالدٌ يعَلِّمُهم الإسلام وكتابَ الله ، وسنةَ نبيه ﷺ . وبذلك كان أمرَه رسول الله ﷺ إن هم أسلموا ، ولم يقاتلوا .

ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد النبي رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد ، السلامُ عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلَه إلا هو . أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنَّك بعثتَني إلى بني الحارث بن كَعْب ، وأمرتني إذا أتَيْتُهُم أن لا أقاتلهم ثلاثةَ أيام ، وأن أدعوَهُم إلى الإسلام ، فإن أسلموا أقمتُ فيهم ، وقبلت منهم وعلَّمتهم معَالم الإسلام وكتابَ الله وسنَّةَ نبيه ، وإن لم يُسْلموا قَاتَلْتُهُمْ . وإنِّي قَدِمْتُ عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثةَ أيام كما أمرني رسول الله ﷺ ، وبعثتُ فيهم رُكباناً قالوا : « يا بني الحارث ، أسْلِمُوا تَسْلموا » ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيمٌ بين أظْهُرهم آمُرُهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأُعَلِّمهم معالم الإسلام وسنَّة النبي ﷺ . والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

* * *

فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي رسول الله ، إلى خالد بن الوليد . سلام الله عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إلَه إلا هو . أما بعد فإن كتابك جاءني مع رسولك ، تخبر أن بني الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلَهم ، وأجابوا

إلى ما دعوتَهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إلَه إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله ، وأنْ قد هَداهم الله بِهُدَاه . فبشِّرْهُمْ وأنذرهم ، وأقبِلْ وليُقبل معك وفْدُهم . والسَلامُ عليك ورحمة الله وبركاته » .

فأقبل خالدٌ إلى رسول الله ﷺ ؛ وأقبل معه وَفدُ بني الحارث بن كعب : منهم قَيْسُ بن الحصَيْن ذي الغُصَّة ، ويزيد بن عَبْدِ المدانِ ، ويزيد بن المُحَجَّل ، وعبد الله بن قُرَاد الزِّيادِي ، وشَدَّاد بن عبد الله القَنَاني ، وعمرو بن عبد الله الضِّبابي . فلما قدموا على رسول الله ﷺ فرآهم قال : مَنْ هؤلاء القوم الذين كأنَّهم رجالُ الهند ؟ قيل : يا رسول الله ، هؤلاء رجال بني الحارث بن كَعب . فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سَلَّموا عليه ، وقالوا : نشهد أنك رسول الله ، وأنه لا إلَه إلا الله . قال رسول الله ﷺ : وأنا أشهد أن لا إلَه إلا الله وأنِّي رسول الله . ثم قال رسول الله ﷺ : أنتم الذين إذا زُجرُوا اسْتَقْدمُوا ؟ فسكتوا ، فلم يراجعه منهم أحد ؛ ثم أعادها الثانية ، فلم يراجعه منهم أحد ؛ ثم أعادها الثالثةَ فلم يراجعْه منهم أحدٌ ؛ ثم أعادها الرابعةَ ، فقال يزيد بن عبد المدَان : نَعَم يا رسول الله ، نحن الذين إذا زُجروا اسْتَقْدَمُوا ، قالها أربَع مِرار ؛ فقال رسول الله ﷺ : « لو أن خالداً لم يكتب إليَّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءُوسكم تحت أقدامكم » . قال يزيد بن عبد المدان : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً . قال : فَمَنْ حَمِدتُمْ ؟ قالوا : حمدنا الله عز وجل الذي هدانا بك يا رسول الله . قال : صدقتُم . ثم قال رسول الله ﷺ : بِمَ كُنْتُم تغلِبُون مَن قاتَلَكم في الجاهليَّة ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحداً . قال : بلى ، قد كنتم تغلبون مَن قاتلكم . قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفترق ، ولا نبدأ أحداً بظلم . قال : صدقتم .

وأمَّر رسولَ الله ﷺ على بني الحارث بن كعب قيسَ بن الحُصَيْن .

فرجع وفد بني الحارث إلى قومهم في بقية من شوال ، أو في صدر ذي القعدة فلم يمكثوا بعد أن رجَعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى تُوفِّيَ رسول الله ﷺ ورحمَ وباركَ ، ورضيَ وأنعم .

وقد كان رسول الله ﷺ قد بعث إليهم ، بعد أن وَلَّى وفدُهم ، عَمْرَو بن حَزْم ؛ لِيُفَقِّهَهُم في الدين ، ويعلِّمهم السنةَ ومعالم الإسلام ، ويأخذ منهم صدقاتهم ، وكتب له كتاباً عهد إليه فيه عَهدَه ، وأمَرَه فيه بأمره :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا بيانٌ من الله ورسوله ، يا أيها الذين آمنوا أوفُوا بالعُقُود . عَهدٌ من محمد النبي رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليَمن : أمره بتقوى الله في أمره كله . فإن الله مع الذين اتَّقَوا والذين هم محسنون . وأمره أن يأخذ بالحقِّ كما أمره الله ، وأن يبشِّر الناسَ بالخير ، ويأمرهم به ، وَيعلِّمَ الناس القرآن ، ويفقِّههم فيه ، وينهى الناس فلا يَمَسّ القرآن إنسانٌ إلا وهو طاهر ؛ ويخبر الناسَ بالذي لهم والذي عليهم ، ويلينَ للناس في الحق ، ويشتدَّ عليهم في الظلم ، فإن الله كرِهَ الظلمَ ونهى عنه ، فقال : ﴿ألا لَعْنَةُ الله على الظالمين﴾ ويبشِّر الناسَ بالجنة وبعَمَلها ، وينذر الناسَ النارَ وعملَها ، ويستألِف الناس حتى يفقَهُوا في الدين ، ويعلم الناس مَعالم الحجِّ وسنته وفريضَته ، وما أمر الله به ، والحجُّ الأكبر : الحجُّ الأكبر ، والحجُّ الأصغر هو العمرة . ونَهى الناس أن يصلِّيَ أحد في ثوب واحد صغير ، إلا أن يكون ثوباً يثنِي طرفيه على عاتقيه . وينهى الناس أن يَحتبِيَ أحد في ثوب واحد يُفْضي بفرجه إلى السماء ، وينهى أن يعقِص أحدٌ شعر رأسِه في قفا ، وَيَنْهَى ، إذا كان بيْن الناس هَيْجٌ ، عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكُنْ دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له ، فمن لم يَدْعُ إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليُقْطعُوا بالسيف حَتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له . ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجُوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ، ويَمْسَحُون برءُوسهم كما أمرهم الله . وأمرَ بالصلاة لوقتها ، وإتمام الركوع والسجود والخشوع ، ويُغَلِّس بالصُّبح(١) ، ويُهَجّر(٢) بالهاجرة حين تميل الشمس ، وَصَلاَةُ العصر والشمسُ في الأرض مُدْبرة ، والمغرب حين يُقْبل الليل ، لا يُؤَخَّر حتى تبدوَ النجومُ في السماء ، والعِشاء أوّلَ الليل . وأمرَ بالسَّعي إلى الجمعة إذا نوديَ لها ، والغُسل عند الرَّوَاح إليها . وأمره أن يأخذ من المغانم خُمْسَ الله .

وما كُتب على المؤمنين في الصدقة : من العَقَار عُشرٌ ما سقت العينُ وسقَت السماءُ ، وعلى ما سقى الغَرْبُ نصف العشر ، وفي كل عَشْرٍ من الإبل شاتان ، وفي كل عِشرين أربعُ شِياه ، وفي كل أربعين من البقرِ بقرة ، وفي كلِّ ثلاثين من البقر تبِيعٌ جَذَع أو جذعة ، وفي كل أربعين من الغنم سائمةٍ وحدها شاةٌ ، فإنها فريضَة الله التي افترض على المؤمنين في الصدَقة ، فمن زاد خيراً فهو خير له .

---

(١) التغليس : أن يصليه في أول الفجر .

(٢) التهجير : الصلاة في أول وقت الظهر ، والهاجرة : نصف النهار حين تزول الشمس .

وإنه من أسلم مِنْ يهوديٍّ أو نصرانيٍّ إسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين : له مثلُ ما لهم ، وعليه مثلُ ما عليهم .

ومن كان على نَصْرانيته أو يهوديَّته فإنه لا يُرَدُّ عنها . وعلى كل حالم ذكرٍ أو أُنثى ، حُرٍّ أو عَبْدٍ ، دينارٌ وافٍ أو عِوَضُه ثياباً . فمن أدَّى ذلك فإن له ذِمَّةَ الله وذمةَ رسوله ، ومن منع ذلك فإنه عَدُوٌّ لله ولرسوله وللمؤمنين جميعاً . صلوات الله على محمد ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته » .

* ذِكْرُ الكَذَّابَيْن *

مُسَيْلِمَةَ الحَنَفِيّ وَالأَسْوَدِ العَنْسِيِّ

قال ابن إسحاق :

وقد كان تكلَّم في عهد رسولِ الله ﷺ الكذَّابان : مُسيلِمَةُ بن حبيب الكذاب باليمامة في بني حنيفة ، والأسودُ بن كعب العنسِيُّ بصنعاء .

عن أبي سعيدٍ الخُدْرِي ، قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو يخطب الناس على مِنبره ، وهو يقول : « أيها الناس ، إنِّي قد رأيتُ ليلة القدر ، ثم أُنْسِيتُها ، ورأيت في ذراعَيّ سِوَارين من ذهب فكرهتُهما ، فنفَخْتهما فطارا ، فأوَّلتُهما هذين الكذابين : صاحب اليمن ، وصاحب اليمامة » .

وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة ، أنه قال : سمعت رَسولَ الله ﷺ يقول : « لا تقومُ الساعة حتى يخرج ثلاثون دجَّالاً ، كلُّهم يدَّعي النُّبوَّة » .

* خُرُوجُ الأُمَرَاءِ وَالعُمَّالِ عَلَى الصَّدَقَاتِ *

وكان رسول الله ﷺ قد بعث أُمراءه وعُمَّالَهُ على الصَّدقات إلى كل ما أوطأ الإسلامُ من البُلْدَان ، فبعث المُهَاجرَ بن أبي أُمية بن المغيرة إلى صنعاء ؛ فخرج عليه العَنْسِيُّ ، وهو بها . وبعث زياد بن لبيد أخا بني بَيَاضة الأنصاري إلى حَضْرَمَوْت ، وعلى صدقاتها . وبعث عدِيَّ بن حاتم على طَيِّءٍ وصدقاتها ، وعلى بني أسد ؛ وبعث مالك بن نُوَيْرة على صَدَقات بني حَنْظَلَة . وفرَّقَ صدقةَ بني سعد على رَجُلَين منهم : فبعث الزِّبْرِقَانَ بن بَدر على ناحية منها ، وقَيسَ بن عاصم على ناحية . وكان قد بعث العَلَاء بن الحَضرمِيِّ على البَحْرَين ، وبعث عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه إلى أهل نجْران ليجْمع صدقتهم ، ويَقْدَمَ عليه بجزيتهم .

* كِتَابُ مُسَيْلِمَةَ إلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالجَوَابُ عَنه *

وقد كان مُسَيْلِمَةُ بن حبيب قد كتب إلى رسول الله ﷺ :

من مُسَيْلِمَة رسولِ الله إلى محمد رسولِ الله . سلام عليك ، أما بعد فإني قد أُشرِكتُ في الأمر معك ، وإنَّ لنا نصفَ الأرض ، ولقريش نصفَ الأرض ، ولكنَّ قُريشاً قومٌ يَعتدُون .

فقدم عليه رسولان بهذا الكتاب .

قال ابن إسحاق : فحدثني شيخ من أشجع ، عن سلَمَة بن نُعَيم بن مسعود الأشجعي ، عن أبيه نُعيم ، قال : سمعتَ رسول الله ﷺ يقول لهما حين قرأ كتابه : « فما تَقُولَان أنتما » ؟ قالا : نقول كما قال . فقال : « أما والله لولا أن الرُّسُلَ لا تُقْتلُ لَضَرَبتُ أعناقَكما » .

ثم كتب إلى مُسَيلمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مُسيْلمة الكذاب ، السلام على من اتَّبَعَ الهدى . أما بعد فإن الأرضَ لله يُورثُها من يشاءُ من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

وذلك في آخر سنة عشر .

* حَجَّةُ الوَدَاع *

فلما دخل على رسول الله ﷺ ذو القَعدة تَجَهَّز للحج وأمر الناس بالجَهَازِ له ، وخرج رسول الله ﷺ إلى الحج لِخَمس ليال بقين من ذي القعدة[١] .

ثم مضى رسولُ الله ﷺ على حَجِّه ، فأرى الناسَ مناسكَهم ، وأعلمهم سُنَن حَجِّهم ، وخطب الناس خطبتَه التي بيَّن فيها ما بيَّن . فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيُّها الناسُ ، اسمعوا قولي ، فإنِّي لا أدري لَعَلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس ، إنَّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تَلقَوا ربَّكم ،

---

(١) قال ابن هشام : فاستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدي ، ويقال سباع بن عرفطة الغفاري .

كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنَّكم سَتَلْقَوْنَ ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بَلَّغْتُ . فمن كانت عنده أمانةٌ فَلْيُؤَدِّها إلى مَن آئتمنه عليها . وإنَّ كلَّ رِباً موضوعٌ[1] ، ولكن لكم رءُوس أموالكم لا تَظْلِمُون ولا تُظْلَمُون . قضى الله أنه لا رِباً ، وإن رِبَا عَبَّاسِ بن عبد المطلب موضوعٌ كله ، وإن كُلّ دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أَضَعُ دَمُ ابنِ ربيعة[2] بن الحارث بن عبد المطلب ـ وكان مسترضَعاً في بني ليث فقتلتْه هذيل ـ فهو أوَّلُ ما أبدأُ به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس ؛ فإن الشيطان قد يئس من أن يُعْبَدَ بأرضكم هذه أبداً ، لكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تَحقِرون من أعمالكم . فاحذروه على دينكم .

أيُّها الناس ، إنَّ النسيءَ زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلُّونه عَاماً ويُحَرِّمونه عاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ ما حرَّم الله ، فيحلُّوا ما حرَّم الله ويحرِّموا ما أحلَّ الله . وإنَّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خلق الله السموات والأرض ، وإن عدَّة الشهور عند الله اثْنَا عَشَرَ شهراً ، منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية ، ورَجَبُ مضر[3] الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس ، فإنَّ لكم على نسائكم حَقًّا ، ولهنَّ عليكم حَقًّا ، لكم عليهن أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبيِّنة ، فإنْ فعلن فإن الله قد أذِنَ لكم أن تهجُرُوهنَّ في المضاجع ، وتضربوهنَّ ضرباً غير مُبَرِّح[4] ؛ فإن انْتَهَيْنَ فلهنَّ رزقهنَّ وكُسوتُهُنَّ بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيراً فإنَّهنَّ عندكم عَوَانٍ[5] لا يَملِكْن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتُموهنَّ بأَمَانة الله ، واستحللتم فروجَهنّ بكلمات الله .

فاعقلوا أيّها الناسِ قَوْلِي ، فإنِّي قد بلَّغْتُ . وقد تَرَكْتُ فيكم ما إن اعتصَمتُم به فلن تَضِلُّوا أبداً ، أمراً بَيِّنا : كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولي واعقِلُوه ، تَعَلَّمُنَّ أن كلّ مسلم أخٌ للمُسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلاَّ ما

---

(١) وضع عنه الدين والدم وجميع أنواع الجناية ، يضعه وضعاً : أسقطه عنه .

(٢) كان اسمه « آدم » كما في عيون الأثر لابن سيد الناس ٢ : ٢٧٥ .

(٣) إنما أضاف رجباً إلى مضر لأنها كانت تعظمه ، ولم يكن أحد من العرب يفعل ذلك سواها .

(٤) غير مبرح : أي غير شديد ، تقول : برح به الأمر ، إذا اشتد عليه وشق .

(٥) عوان : جمع عانية ، وهي الأسيرة .

أعطاه عن طِيب نفسٍ منه ، فلا تَظْلِمُنَّ أنفسَكم . اللهم هل بَلَّغْت ؟ » .

فذكر لي أنَّ الناس قالوا : اللهم : نعم . فقال رسول الله ﷺ : اللَّهُمَّ اشهد .

* بَعْثُ أُسَامَةَ بنِ زَيْدٍ إلَىٰ أَرْضِ فِلَسْطِين *

قال ابنُ إسحاق :

ثم قَفَل رسول الله ﷺ ، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفراً ، وضرب على الناس بعثاً إلى الشام ، وأمَّرَ عليهم أُسامَة بن زيد بن حارثة مولاه ، وأمرَه أن يوطىء الخيلَ تُخُومَ البلقاء والدارُومِ من أرض فِلَسطين . فتجهَّزَ النَّاسُ وأَوْعَبَ[1] مع أُسامة بن زيد المهاجرون الأولون .

* خُرُوجُ رُسُلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلى المُلُوك *

قال ابن هشام :

وقد كان رسول الله ﷺ ، بعثَ إلى الملوك رُسُلاً من أصحابه ، وكتب معهم إليهم يَدعوهم إلى الإسلام .

قال ابن هشام : حدثني من أثق به ، عن أبي بكر الهُذَلي ، قال : بلغني أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذاتَ يوم بعد عُمْرَتِه التي صُدَّ عنها يوم الحُدَيبية فقال : أيها الناس ، إن الله قد بعثني رَحمةً وكافَّةً ؛ فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحَوَارِيُّون على عيسى ابن مريم». فقال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ قال : « دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه ، فأمّا مَن بَعَثَهُ مَبعَثاً قريباً فرضيَ وسَلِم ، وأما من بَعَثَهُ مَبْعَثاً بعيداً فكرِه وَجهَه وتثاقل ، فشكا ذلك عيسى إلى الله ، فأصبح المتثاقلون وكلُّ واحد منهم يَتَكَلَّم بلَغةِ الأمة التي بُعثَ إليها » .

فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه ، وكتب معهم كتباً إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام .

فبعث دِحْيَةَ بن خليفة الكَلْبيَّ إلى قيصر ملك الروم .

وبَعثَ عبدَ الله بن حُذَافة السَّهْمِيَّ إلى كسرى ملك فارس .

---

(١) أوعبوا : خرجوا كلهم ، لم يتخلف منهم أحد .

وبعث عَمْرو بن أُمَيَّة الضَّمْريَّ إلى النَّجَاشِيِّ ملك الحبشة .

وبعث حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ إلى المُقَوْقِس ملك الإسكندرية .

وبعث عَمْرَو بن العاص السَّهْمِيَّ إلى جيْفَر وعِياذ ابنَيِ الجُلَنْدَى الأزديَّين ملكَيْ عُمَان .

وبعث سَليط بن عَمْرٍو ، أحدَ بني عامر بن لؤي ، إلى ثُمَامة بن أُثال وهَوْذَةَ بن علي الحَنفيَّيْن مَلِكَيِ اليمامة .

وبعثَ العلاء بن الحَضرَميّ إلى المُنذِرِ بن ساوَى العَبْدِيِّ ملك البَحْرَين .

وبعث شُجاع بن وهب الأَسَدِيَّ إلى الحارث بن أبي شَمِرٍ الغَسَّاني . ملك تخوم الشام .

قال ابن هشام : أنا نَسَبْتُ سَليطاً وثُمَامة وهَوْذة والمنذر .

قال ابن إسحاق : حدثني يزيد بن أبي حَبيب المصري أنه وجد كتاباً فيه ذِكر من بعثَ رسول الله ﷺ إلى البلدان وملوك العرب والعجم ، وما قال لأصحابه حين بعثهم ، قال : فبعثت به إلى محمد بن شهاب الزُّهري ، فعرفه ، وفيه أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقال لهم : « إن الله بعثني رحمةً وكافَّةً ، فأدُّوا عني يرحمكم الله ، ولا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريُّون على عيسى ابن مريم » . قالوا : وكيف يا رسول الله كان اختلافهم ؟ قال : « دعاهم لمثل ما دعوتكم له ؛ فأما من قرَّبَ به فأحبَّ وسلم ، وأما من بَعَّدَ به فكره وأبى ، فشكا ذلك عيسى منهم إلى الله ، فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلَّم بلغة القوم الذين وجَّه إليهم » .

قال ابن إسحاق :

وكان مَنْ بعثَ عيسى ابن مريم عليه السلام من الحواريين والأتباع الذين كانوا بعْدهم في الأرض بُطْرس الحَوَارِيّ ، ومعه بُولس من الأتباع ولم يكن من الحواريين ، إلى رُومية . وانْدَرَائِس ومَنْتا إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس . وتُوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق . وفيلبُس إلى قَرطاجَنَّةَ ، وهي إفريقية . ويُحنَّس إلى أفْسُوس قرية الفتية أصحاب الكهف . ويَعْقُوبُس إلى أُورَاشَلِم ، وهي إيلياءُ قرية بيت المقدس . وابن ثَلْمَاءَ إلى الأعرابية ، وهي أرض الحجاز . وسِيمُن إلى أرض البربر . ويهوذا ولم يكن من الحواريين جُعل مكان يُودِسَ .

* آخِرُ البُعُوثِ *

قال ابن إسحاق :

وبعث رسولُ الله ﷺ أُسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام ، وأمره أن يوطىء الخيلَ تُخُومَ البَلْقاء والدَّارُوم من أرضِ فلسطين . فتجهّز الناس ، وأوعَبَ مع أُسامة المهاجرُون الأولون[1] .

* ابْتِدَاءُ شَكْوَى رَسُولِ الله ﷺ *

قال ابن إسحاق :

فبينا الناس على ذلك ابتُدىء رسول الله ﷺ بشكوِه الذي قَبضه الله فيه إلى ما أراد به من كرامته ورحمته ، في ليَالٍ بَقينَ من صفر ، أو في أول شهر ربيع الأول ، فكان أول ما ابتدىء به من ذلك ـ فيما ذُكر لي ـ أنه خرجَ إلى بَقيع الغرقد[1] من جَوف الليل فاستغْفرَ لهم ، ثم رجع إلى أهله ، فلما أصبح ابتدِىء بوجعه من يومه ذلك .

عن أبي مُوَيهِبة مولى رسولِ الله ﷺ ، قال : بعثني رسول الله ﷺ من جَوفِ الليل ، فقال : يَا أبَا مُوَيهِبة ، إنِّي قد أُمِرتُ أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانْطَلِقْ مَعي . فانطلقت معه ، فلما وقف بين أظهرهم قال :

« السَّلاَمُ عليكم أهلَ المقابر ، لِيَهْنِىء لكم ما أصبحتُم فيهِ مِما أصبحَ الناسُ فِيهِ . أقبلتِ الفِتنُ كَقِطَع اللَّيلِ المُظلم ، يَتبَع آخرُها أوَّلَها ، الآخرَةُ شرٌّ منَ الأُولى » .

ثم أقبل عليّ فقال : يا أبا مويهبة ، إني قد أوتيتُ مفاتيحَ خزائن الدنيا والخلدَ فيها ، ثم الجنة ، فخيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة .

فقلت : بأبي أنت وأمي ، فخذْ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة . قال : لا ، والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترتُ لقاء ربي والجنة .

ثم استغفر لأهل البقيع ، ثم انصرف ، فبدأ برسولِ الله ﷺ وَجَعُهُ الذي قبضه الله فيه .

---

(١) أوعبوا معه : خرجوا بأجمعهم في الغزو .

(٢) بقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة ، وهي داخل المدينة .

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت :

رجَع رسولُ الله ﷺ من البقيع فوجدَني وأنا أجدُ صُداعاً في رأسي ، وأنا أقول : وا رأساه ! فقال : بل أنا واللهِ يا عائشة ، وا رأساه ! ثم قال : وما ضرَّكِ لو مُتِّ قَبلي فقُمْتُ عليك وَكفَّنْتُكِ وصلَّيت عليك ودفنتك ؟ قلت : والله لكأني بك لو قد فعلتَ ذلك لقد رجعتَ إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك .

قالت : فتبسم رسولُ الله ﷺ . وتَتامَّ به وجَعُهُ وهو يدور على نسائه ، حتى استُعزَّ به[1] وهو في بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهنَّ في أن يمرَّض في بيتي ، فأذِنَّ له .

* ذِكْرُ أَزْوَاجِهِ ﷺ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِين *

قال ابن هشام : وكُنَّ تسعاً : عائشة بنت أبي بكر ، وحَفْصَة بنت عمر بن الخطاب ، وأُمُّ حَبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وأُمُّ سَلَمة بنت أبي أُمية بن المغيرة ، وسَوْدَة بنت زَمْعَة بن قيس ، وزينب بنت جحش بن رئاب ، وميْمُونة بنت الحارث بن حَزْن ، وَجُوَيرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وصفية بنت حُيَيٍّ بن أخطَب ، فيما حدثني غير واحد من أهل العلم .

وكان جميع من تزوَّج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة :

(خَديجةُ بنت خويلد) : وهي أول من تزوج ، زَوَّجَهُ إياها أبوها خويلد بن أسد ، ويقال أخوها عمرو بن خويلد ، وأصدقَها رسول الله ﷺ عشرين بَكْرةً[2] فولدت لرسول الله ﷺ ولدَهُ كلَّهم ، إلا إبراهيم ، وكانت قبله عند أبي هَالةَ بن مالك أحد بني أُسيِّد بن عمرو بن تميم حليف بني عبد الدار ، فولدت له هِند بن أبي هالة ، وزينب بنت أبي هالة ، وكانت قبل أبي هالة عند عتيق بن عابد بن عبد الله بن عُمر بن مخزوم ، فولدت له عبد الله وجارية .

وتزوَّج رسولُ الله ﷺ (عائشة بنتَ أبي بكر الصديق) بمكة ، وهي بنت سبع سنين ، وبَنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر ، ولم يتزوَّجْ رسول الله ﷺ بكْراً غيرها ، زوَّجه إياها أبوها أبو بكر ،وأصدقَها رسول الله ﷺ أربعمَائة دِرهَم .

---

(١) استعز به : اشتد عليه وغلبه على نفسه ﷺ .

(٢) البكرة : الفتية من الإبل .

وتزوَّج رسولُ الله ﷺ (سَودَةَ بنت زَمْعَةَ بن قيس بن عبد شمس بن عبد وُدٍّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي) ، زَوَّجه إياها سليط بن عمرو ، ويقال : أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حِسْل . وأصدقَها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم[1] . وكانت قبله عند السَّكران بن عمرِو بن عبد شمس بن عبد ودٍّ بن نصر بن مالك بن حسل .

وتزوّج رسول الله ﷺ (زينب بنت جحش بن رِئاب الأسدية) زوَّجه إياها أخوها أبو أحمد بن جحش ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ . ففيها أنزل الله تبارك وتعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ .

وتزوَّج رسول الله ﷺ (أُمَّ سلمة بنت أبي أُمية بن المغيرة المخزومية) ، واسمها هند ، زوَّجه إيَّاها سَلمةُ بن أبي سلمة ابنُها ، وأصدقها رسولُ الله ﷺ فراشاً حشوهُ ليفٌ ، وقدحاً وصَحْفَةً ، ومِجَشَّةً[2] وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد ، واسمه عبد الله ، فولدت له : سلمة ، وعُمر ، وزينب ، ورُقَيَّة .

وتزوّج رسول الله ﷺ (حفصة بنت عُمر بن الخطاب) زَوَّجه إياها أبوها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأصدقها رسُول الله ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند خُنَيْس السَّهْمي .

وتزوَّج رسول الله ﷺ (أُمَّ حَبِيبة ـ واسمها رَمْلَةُ ـ بنتَ أبي سفيان بن حرب) ، زوَّجه إياها خالدُ بن سعيد بن العاص ، وهما بأرض الحبشة ، وأصدقَها النجاشيُّ عن رسول الله ﷺ أربعمائة دينار ، وهو الذي كان خطبها على رسول الله ﷺ ، وكانت قبله عند عُبَيْد الله بن جحش الأسدي .

وتزوّج رسولُ الله ﷺ (جُوَيْرِيَةَ بنت الحارث بن أبي ضِرَار الخُزاعيَّة) ، كانت في سبايا بني المُصطلِق من خُزاعة ، فوقعت في السهم لثابت بـن قيس بن الشَّمَّاس الأنصاريّ ، فكاتَبَها على نفسها ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها ، فقال : « هل لكِ في خيرٍ من ذلك ؟ » . قالت : وما هو؟ قال : « أقضِي عنك كتابَتكِ وأتزوَّجُكِ » . فقالت : نعم . فتزوجها .

(١) قال ابن هشام : ابن إسحاق يخالف هذا الحديث ، يذكر أن سليطاً وأبا حاطب كانا غائبين بأرض الحبشة في هذا الوقت .

(٢) المجشة : أراد بها الرحى .

قال ابن هشام :

ويقال : لما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة بني المُصْطلِق ومعه جُويرِيةِ بنت الحارث ، فكان بذات الجيش ، دفع جُويريةَ إلى رجلٍ من الأنصار وديعةً ، وأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رسول الله ﷺ بالمدينة فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضِرار بفداء ابنته ، فلما كان بالعقيق نَظَر إلى الإبل التي جاءت للفداء فرغِب في بعيرين منها ، فَغَيَّبَهُما في شِعْب من شعاب العقيق ، ثم أتى النبيَّ ﷺ ، فقال : يا محمد ، أصبتم ابنتي ، وهذا فداؤها . فقال رسول الله ﷺ : فأيْن البعيران اللذان غَيَّبتَ بالعَقِيقِ في شعبِ كذا وكذا ؟ فقال الحارث : أشهد أن لا إلّه إلا الله ، وأنك رسول الله ﷺ ، فوالله ما اطَّلَعَ على ذلك إلا الله تعالى ! فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له وناس كثير من قومه ، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما ، فدفع الإبلَ إلى النبي ﷺ ، ودُفعت إليه ابنته جويرية ، فأسلمت وحَسُن إسلامها ، وخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها فزوَّجه إياها ، وأصدقها أربعمائة درهم . وكانت قبل رسول الله ﷺ عند ابن عم لها يقال له عبد الله . ويقال : اشتراها رسولُ الله ﷺ من ثابت بن قيس فأعتقها وتزوَّجها ، وأصدقها أربعمائة درهم .

وتزوَّج رسول الله ﷺ (صفيّةَ بنت حُيَيٍّ بن أخطَب) ، سباها من خَيْبر ، فاصطفاها لنفسه ، وأوْلم رسول الله ﷺ وليمةً ما فيها شحمٌ ولا لحم ، كان سويقاً وتمراً . وكانت قبله عند كِنانةَ بن الربيع بن أبي الحُقيق .

وتزوَّج رسول الله ﷺ (ميمونة بنت الحارث بن حَزْن بن بَجِير بن هُزَمَ بن رُويْبَةَ بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة) ، زوَّجه إياها العباسُ بن عبد المطلب ، وأصدقها العباسُ عن رسول الله ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند أبي رُهْم بن عبد العُزَّى بن أبي قيس بن عبد وُدٍّ بن نصر بن مالك بن حِسل بن عامر بن لؤي . ويقال : إنها التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، وذلك أن خِطبةَ النبي ﷺ انتهت إليها وهي على بعيرها ، فقالت : البعير وما عليه لله ولرسوله . فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿وامرأةً مؤمنةً إنْ وَهَبَتْ نفسها للنبيِّ إنْ أَرادَ النبيُّ أن يَسْتَنْكِحَهَا﴾ . ويقال إن التي وهبت نفسها للنبي ﷺ زينب بنت جحش . ويقال : أم شريك غزيَّة بنت جابر بن وهب ، من بني منقذ بن عمرو بن مَعِيص بن عامر بن لؤي . ويقال : بل هي امرأة من بني سَامَة بن لؤي ، فأرجأها[1] رسول الله ﷺ .

---

(١) أي أخر أمرها .

وتزوَّج رسول الله ﷺ (زينبَ بنت خُزيمةَ بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة) وكانت تسمَّى أُمَّ المساكين ؛ لرحمتها إياهم ورقَّتها عليهم ، زوَّجه إياها قَبِيصَةُ بن عمرو الهلالي ، وأصدقَها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند عُبيدةَ بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانت قبل عُبيدة عند جَهْم بن عمرو بن الحارث ، وهو ابن عمها .

فهؤلاء اللاتي بنى بهنَّ رسول الله ﷺ ، إحدى عشرة . فمات قبله منهن اثنتان : خديجة بنت خويلد ، وزينب بنت خزيمة ، وتوفي عن تسع قد ذكرناهنَّ في أول الحديث .

واثنتان لم يدخل بهما : أسماءُ بنت النُّعمان الكِنْدِية ، تزوَّجها فوجد بها بَياضاً ، فمتَّعَهَا وردَّها إلى أهلها ، وعمرة بنت يزيد الكلابية ، وكانت حديثةَ عَهدٍ بكفرٍ ، فلما قدِمت على رسول الله ﷺ استعاذت من رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنيعٌ عائذُ اللَّهِ » فردَّها إلى أهلها . ويقال إن التي استعاذت من رسول الله ﷺ كنديَّةٌ بنتُ عمٍّ لأسماء بنت النعمان ، ويقال : إن رسول الله ﷺ دعاها فقالت : أنا من قوم نُؤتى ولا نأتي ! فردَّها رسول الله ﷺ إلى أهلها .

(القرشيات) من أزواج النبي ﷺ ست : خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصيّ بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي ، وعائشة بنت أبي بكر بن أبي قُحافَةَ بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعْد بن تيم بن مُرَّة بن كعب بن لؤي . وحَفْصَةُ بنت عُمَر بن الخطاب بن نُفَيْل بن عبد العُزَّى بن عبد الله بن قُرْط بن رياح بن رِزاح بن عديّ بن كعب بن لؤي . وأُمُّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي . وأم سلمةَ بنت أبي أُمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي . وسَوْدة بنت زَمْعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر بن لؤي .

و (العَرَبيَّات غيرهن) سبع : زينب بنت جحش بن رئاب بن يَعمُرَ بن صَبِرة بن مرَّة بن كبير بن غَنْم بن دُودان بن أسد بن خزيمة . وميمونة بنت الحارث بن حَزْن بن بَجِير بن هُزَم بن رُوَيْبَةَ بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عِكرِمة بن خَصَفة بن قيس بن عيلان . وزَيْنَبُ بنت خُزَيْمَةَ بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية .

وجُويريَة بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية ثم المصطلقية . وأسماءُ بنت النعمان الكندية . وعمرة بنت يزيد الكلابية .

و (من غير العربيات) صفيّة بنت حُيَيّ بن أخطب ، من بني النَّضِير .

* عُدْنَا إلَىٰ ذِكْرِ شَكْوَىٰ رَسُولِ الله ﷺ *

قال ابن إسحاق :

حدثني يعقوب بن عُتْبة ، عن محمد بن مُسْلم الزهري ؛ عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن عائشة زوج النبي ﷺ ، قالت :

فخرج رسولُ الله ﷺ يمشي بين رجُلين من أهله : أحدهما الفضل بن عباس ، ورجل آخر ، عاصباً رأسَهُ ، تَخُطُّ قدماه حتى دخل بيتي .

قال عبيد الله : فحدثت هذا الحديث عبدَ الله بن العبّاس ، فقال : هل تدري مَن الرجل الآخر ؟ قال : قلت : لا . قال : علي بن أبي طالب .

ثم غُمِر[1] رسول الله ﷺ واشْتَدَّ به وجَعُه ، فقال : « هَرِيقُوا عليَّ سَبْعَ قِرَب مِن آبَارٍ شتَّى ، حتَّى أخرُجَ إلى النَّاس فأعهَد إليهم » . قالت : فأقعدناه في مِخْضَبٍ[2] لحفصة بنت عُمر ، ثم صببنا عليه الماء ، حتى طفق يقول : « حَسْبُكم حَسْبُكم ! ! » .

وقال الزُّهْري :

حدثني أيوب بن بشير ، أن رسول الله ﷺ خرج عاصباً رأسَهُ حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلَّى على أصحاب أُحد ، واستغفر لهم ، فأكثر الصلاةَ عليهم ، ثم قال : « إنَّ عبداً من عباد الله خَيَّرَهُ اللَّهُ بين الدنيا وبين ما عندَهُ فاختارَ ما عندَ الله » . قال : ففهمها أبو بكر ، وعرف أن نفسَه يُريد ، فبكى ، وقال : بل نحن نَفْديك بأنفسنا وأبنائنا ! فقال : « على رِسلكَ يا أبا بكر » ثم قال : « انظُروا هذه الأبوابَ اللاَّفظَة في المسجدِ[3] فسدُّوها إلَّا بيتَ أبي بكر[4] فإنِّي لا أعلَمُ أحَداً كان أفضَلَ في الصُّحبة عندي يداً منه » .

---

(١) غمر : بالبناء للمجهول : أصابته غمرة المرض . (٣) اللافظة في المسجد : أي النافذة إليه .

(٢) المخضب : شبه الإجانة يغسل فيها الثياب . (٤) قال ابن هشام : « ويروى إلا باب أبي بكر » .

وحدثني عبد الرحمن بن عبد الله ، عن بعض آل سعيد بن المعلى :

أن رسول الله ﷺ قال يومئذ في كلامه هذا : « فإنِّي لو كُنْتُ مُتَّخذاً مِن العبادِ خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكرٍ خَليلاً ، وَلكنْ صحبةٌ وإخاءُ إيمانٍ ، حتَّى يجمعَ الله بيننا عِنده » .

وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء ، أن رسول الله ﷺ استبْطأ الناسَ في بعث أُسامة وهو في وجعِه ، فخرج عاصباً رأسَه حتى جلس على المنبر ، وقد كان الناسُ قالوا في إمرة أُسامة : أمَّر غلاماً حَدَثاً على جِلَّة المهاجرين والأنصار ! فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو له أهلٌ . ثم قال :

«أيُّها الناس ، أَنْفِذُوا بَعثَ أُسامة ، فَلَعمرِي لَئِن قُلتم في إمارته لقد قلتم في إمارةِ أبيه مِن قَبْلِهِ ؛ وإنه لخليقٌ للإمارةِ ، وَإنْ كان أبوه لَخليقاً لها » .

ثم نزل رسول الله ﷺ ، وانكمش الناسُ في جَهَازهم[1] ، واستَعَزَّ[2] برسول الله ﷺ وجعُه ، فخرج أُسامة ، وخرج جيشُه معه ، حتى نزلوا الجُرْفَ من المدينة على فرسخ ، فضربَ به عسكرَه ، وتتامَّ إليه الناس ، وثَقُلَ رسولُ الله ﷺ ، فأقام أُسامةُ والناس لينظروا ما الله قاضٍ في رسول الله ﷺ .

قال الزهريُّ : وحدثني عبد الله بن كعب بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال ، يوم صَلَّى واسْتَغفَر لأصحاب أُحدٍ وذكَر من أمرهم ما ذكر مع مقالته يومئذ : « يا معشرَ المهاجرينَ ، استوصُوا بالأنصارِ خيراً ، فإنَّ النَّاسَ يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عَيْبتي[3] التي أوَيتُ إليها . فَأَحْسنوا إلى مُحسنهمْ ، وتجاوزُوا عن مُسيئهم » .

ثم نزل رسول الله ﷺ ، فدخل بيته وتتامَّ به وجعه حتى غُمِرَ[4] .

فاجتمع إليه نساءٌ من نسائه : أُمُّ سلمة وميمونةُ ، ونساءٌ من نساء المسلمين ، منهن أسمَاءُ بنت عُمَيس ، وعنده العباس عمه ، فأجمعوا على أن يَلُدُّوهُ[5] وقال العباس : لأَلُدَّنَّه .

---

(١) انكمشوا : أسرعوا وجدوا .

(٢) استعز به : غدبه واشتد عليه .

(٣) عيبة الرجل : خاصته وموضع سره .

(٤) أنظر ما سبق في ص ٢٩٥ س ٧ .

(٥) لده : سقاه اللدود ، وهو بالفتح : ما يسقاه المريض في أحد شقي فمه .

فلَدُّوه ، فلما أفاق رسول الله ﷺ قال : منْ صنعَ هذا بي ؟ قالوا : يا رسول الله ، عمُّك . قال : هذَا دواءٌ أتَى به نساءٌ جئنَ مِن نحو هذه الأرض - وأشار نحو أرضِ الحبشة - وَلِمَ فعلتم ذلك ؟ فقال العباس : خَشِينا يا رسول الله أن يكون بك ذاتُ الجنْب ، فقال : « إنَّ ذلك لَداءٌ ما كان اللَّهُ ليَقذفني به ، لا يَبْقَ في البيتِ أحدٌ إلاَّ لُدَّ ، إلاَّ عمِّي » . فقد لُدَّت ميمونة وإنها لصائمة ، لِقَسمِ رسول الله ﷺ ؛ عقوبة لهم بما صنعوا به .

عن أُسامة بن زيد ، قال :

لما ثَقُل رسول الله ﷺ هبطتُ وهبط الناسُ معي إلى المدينة فدخلت على رسول الله ﷺ ، وقد أُصْمِتَ فلا يتكلَّم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها عليَّ ، فأعرفُ أنه يدعو لي !

عن عائشة قالت :

كان رسول الله ﷺ كثيراً ما أسمعه يقول : « إنَّ الله لَمْ يَقبض نبيًّا حتَّى يُخيِّره » . قالت : فلما حُضر رسول الله ﷺ كان آخر كَلمة سمعتُها منه وهو يقول : « بل الرَّفِيقَ الأعلَى مِنَ الجنَّة » . قلت : إذاً والله لا يختارنا ، وعرفت أنه الذي كان يقول لنا : « إن نبيًّا لم يُقبَضْ حتى يُخيَّر » .

* صَلاَةُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّاس *

قال الزهري : وحدثني حمزة بن عبد الله بن عمر أن عائشة قالت :

لما استُعزَّ[1] رسول الله ﷺ قال : « مُرُوا أبا بكرٍ فَلْيُصلِّ بالناس » . قلت : يا نبيَّ الله ! إنَّ أبا بكر رجلٌ رقيق ، ضعيفُ الصوت ، كثير البكاء إذا قرأ القرآن ! قال : « مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ بالنَّاس » . فعدتُ بمثل قولي ، إلاَّ أنِّي كنت أُحبُّ أن يُصْرَف ذلك عن أبي بكر ، وعرفتُ أنَّ الناس لا يحبون رجلاً قام مقامه أبداً ، وأن الناسَ سيتشاءمون به في كلّ حدثٍ كان ، فكنت أُحِبُّ أن يصرف ذلك عن أبي بكر .

عن عبد الله بن زَمْعة بن الأسود بن المطَّلب بن أسد ، قال :

---

(١) أنظر ما سبق في ص٢٨٦ س ٧ .

لما استُعزَّ برسول الله ﷺ وأنا عنده في نفر من المسلمين ، دعاه بِلَالٌ إلى الصلاة ، فقال : « مُرُوا مَنْ يُصلِّي بالناس » . فخرجت فإذا عمرُ في الناس ، وكان أبو بكرٍ غائباً ، فقلت : قُمْ يا عمر فصلِّ بالناس . فقام ، فلما كبَّر سمع رسول الله ﷺ صوتَه ـ وكان عمر رجلاً مُجْهِراً[1] ـ فقال رسول الله ﷺ : « فأين أبُو بكرٍ ؟ يأبى الله ذلك والمسلمونَ ، يأبى الله ذلك والمسلمون ! » فبُعث إلى أبي بكر ، فجاء بعد أن صلَّى عمر تلك الصلاة ، فصلَّى بالناس .

قال عبد الله بنِ زمعة : قال لي عمر : ويْحَكَ ! ! ماذا صنعْتَ بي يا ابن زَمْعَة ؟ والله ما ظننتُ حين أمَرْتَني إلاَّ أنَّ رسول الله ﷺ أمرك بذلك ، ولولا ذلك ما صلَّيت بالناس . قلت : والله ما أمرني رسول الله ﷺ بذلك ، ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتُك أحقَّ من حضَر بالصَّلاة بالناس .

قال ابن إسحاق : وقال الزُّهريّ : حدثني أنس بن مالك :

أنه لما كان يومَ الاثنين الذيْ قبَض الله فيه رسوله ﷺ خرجَ إلى الناس وهم يصلُّون الصُّبح ، فَرُفِعَ السِّتر وفتح الباب ، فخرج رسولُ الله ﷺ فقام على باب عائشة ، فكاد المسلمون يَفْتَتِنُونَ في صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوهُ ، فَرحاً به ، وتَفَرَّجوا[2] ، فأشار إليهم : أن اثبُتوا على صلاتكم . فتبسَّم رسول الله ﷺ سُرُوراً لما رأى من هيئتهم في صلاتهم ، وما رأيتُ رسولَ الله ﷺ أحسن هيئةً منه تلك الساعة . ثم رجع وانصرف الناس ، وهم يُرَوْنَ أن رسولَ الله ﷺ قد أَفْرَقَ من وَجَعِه[3] ، فرجع أبو بكرٍ إلى أهله بالسُّنْح[4] .

وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن القاسم بن محمد ، أن رسول الله ﷺ قال حين سمع تكبير عمر في الصلاة : « أين أبو بكرٍ؟ يأبَى الله ذلك والمسلمون » . فلولا مَقَالةٌ قالها عمر عند وفاته لم يشك المسلمون أنَّ رسول الله ﷺ قد استخلف أبا بكر ، ولكنه قال عند وفاته : إنْ أستخلِفْ فقد استخلَفَ مَن هو خيرٌ مني[5] ، وإن أتْرُكْهُمْ فقد تركهم مَن هو خير مني[6] . فعرف الناس أنَّ رسول الله ﷺ لم

(١) مجهراً : أي رفيع الصوت ، يقال : أجهر الرجل ، إذا عرف بشدة الصوت .

(٢) تفرجوا : ذهب عنهم الغم وانكشف الكرب (٣) أفرق من وجعه : برىء واستبل .

(٤) السنح ، بضم فسكون : موضع كان لأبي بكر رضي الله عنه فيه مال ، وكان ينزله بأهله .

(٥) يعني : أبا بكر . (٦) يعني : رسول الله ﷺ . الرياض النضرة للمحب الطبري ٢ : ٧٤

يستخلف أحداً . وكان عمر غيرَ مُتَّهَمٍ على أبي بكر .

وحدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مُلَيْكة ، قال : لما كانَ يومَ الاثنين خرج رسول الله ﷺ عاصباً رأسه ، إلى الصُّبح[1] ، وأبو بكر يُصلِّي بالناس ، فلما خرج رسول الله ﷺ تَفَرَّجَ الناسُ ، فعرفَ أبو بكر أنَّ الناس لم يَصْنَعُوا ذلك إلا لرسول الله ﷺ ، فنكَصَ عن مُصلَّاه ، فدفع رسولُ الله ﷺ في ظهره ، وقال : « صلِّ بالناسِ » وجلس رسول الله ﷺ إلى جَنْبه ، فصلى قاعداً عن يمين أبي بكر ، فلما فرغ من الصلاة أقبل على الناس فكلَّمهم رافعاً صوته ، حتى خرج صوته من بابِ المسجد يقول : « أيُّهَا النَّاسُ ، سُعِّرَت النار ، وأقبلت الفِتَنُ كَقِطَعِ الليلِ المظلم ! وإنِّي واللَّهِ مَا تمسَّكُونَ عليَّ بشيءٍ ، إنِّي لم أُحِلّ إلا ما أحلَّ القرآنُ ، ولم أُحرِّم إلا ما حرَّم القرآن » .

قال : فلما فرغ رسول الله ﷺ من كلامه قال له أبو بكر : يا نبيَّ الله ، إني أراك قد أصبحت بنعمةٍ من الله وفضلٍ كما نُحِبُّ ، واليوم يوم ابنةِ[2] خارجة أفآتيها ؟ قال : نعم . ثم دخل رسولُ الله ﷺ وخرج أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح .

عن عبد الله بن عباس قال :

خرج يومئذٍ عليّ بن أبي طالب ، رضوان الله عليه ، على الناس مِن عِند رسولِ الله ﷺ ، فقال له الناس : يا أبا حَسن ، كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئاً . فأخذ العباسُ بيده ثم قال : يا عليّ ، أنت والله عَبْدُ العصا بعد ثلاث ، أحلف بالله لقد عرفْتُ الموتَ في وجه رسول الله ﷺ كما كنتُ أعرفه في وجوه بنيَ عبد المطَّلب ، فانطلقْ بنا إلى رسول الله ﷺ ، فإن كان هذا الأمر فينا عَرَفْنَاه ، وإن كان في غيرنا أَمَرْنَاه فأوصَى بنا الناسَ . فقال له علي : إنِّي والله لا أفعل ، والله لئن مُنِعناه لا يُؤْتيناهُ أحدٌ بعده !

فَتُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ حين اشتدَّ الضَّحاءُ من ذلك اليوم .

عن عائشة قالت :

رَجَع إليَّ رسول الله ﷺ في ذلك اليوم حين دخل من المسجد ، فاضطجع في

(١) أي إلى صلاة الصبح .

(٢) هي حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية : زوج أبي بكر . الإصابة : ٨ : ٤٨ .

حِجْري ، فدخل عليَّ رجلٌ من آل أبي بكر وفي يده سِوَاكٌ أخضر ، فنظر رسولُ الله ﷺ إليه في يده نظراً عَرَفْتُ أنَّهُ يريده ، فقلت : يا رسول الله ، أتحبّ أن أعطيَكَ هذا الوساك ؟ قال : نعم . فأخذتُه فَمَضَغْتُه حتى لَيَّنْتُه ، ثم أعطيته إياه ، فاسْتَنَّ به[1] ، كأشدِّ ما رأيته يسْتَنُّ بسوكٍ قطُّ ، ثم وَضَعَه ، ووجدتُ رسولَ الله ﷺ يَثْقُل في حجرِي ، فذهبت أنظرُ في وجهه ، فإذا بصرُهُ قد شَخَص ، وهو يقول : « بَلِ الرَّفِيقَ الأعلَى مِنَ الجنَّةِ » . فقلتُ : خُيِّرْتَ فاختَرتَ والذي بَعثك بالحق !

وقُبِضَ رسولُ الله ﷺ .

قال ابن إسحاق : وحدثني يَحيَى بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه عباد ، قال : سمعتُ عائشة تقول :

مات رسول الله ﷺ بين سَحْري ونَحْرِي[2] وفي دَولَتي[3] ، لم أظلم فيه أحداً ، فمِنْ سَفَهي وحَداثة سِنِّي أن رسول الله ﷺ قُبضَ وهو في حجري ، ثم وضَعت رأسَه على وسادة ، وقمت أَلتَدِمُ[4] مع النساء وأضربُ وجهي .

عن أبي هريرة ، قال :

لما تُوفِّيَ رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال : إنَّ رجالاً من المنافقين يَزعُمُون أن رسول الله ﷺ قد تُوفِّيَ ؛ وإن رسول الله ﷺ ما مات ، ولكنه ذَهَبَ إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عِمرَان ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات . ووالله لَيَرْجعَنَّ رسولُ الله ﷺ كما رجع موسى ، فَلَيَقْطَعنَّ أَيْديَ رجال وأرجُلَهم زَعمُوا أنَّ رسول الله ﷺ مات .

قال : وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد ـ حين بلَغه الخبر ـ وعمر يكلِّم الناس ، فلم يلتفتْ إلى شيء حتَّى دخل على رسولِ الله ﷺ في بيت عائشة ، ورسولُ الله ﷺ مُسَجًّى[5] في ناحية البيت ، عليه بُرْدُ حِبرَةٍ[6] ، فأقبلَ حتى كشفَ عن وجه

---

(١) أي استاك به .

(٢) السحر : الرئة وما يتصل بها إلى الحلقوم ، وهو بفتح فسكون ، أو بضم فسكون . والنحر : أعلى الصدر .

(٣) في دولتي : تريد في نوبتها التي كانت لها .

(٤) ألتدم : أضرب صدري .

(٥) مسجى : مغطى .

(٦) هو ضرب من ثياب اليمن .

رسول الله ﷺ ، ثم أقبل عليه فقبَّله ، ثم قال : بأبي أنت وأُمِّي ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذُقْتَها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ! ثم ردَّ البُرْدَ على وجه رسول الله ﷺ ، ثم خرج وعُمَرُ يكلِّم الناسِ ، فقال : على رِسْلِكَ يا عمر ، أَنْصِتْ . فأبَى إلاَّ أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا يُنصتُ أقبلَ على الناس ، فلما سمِع الناسُ كلامَه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيُّها الناس ، إنَّه مَن كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت . ثم تلا هذه الآية : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رسُولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أَعْقَابِكم وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وسَيَجْزِيَ اللَّهُ الشاكرينَ﴾ .

قال : فواللَّهِ لكأنَّ الناس لم يعلموا هذه الآية نزلت حتَّى تلاها أبو بكر يومئذٍ ، وأخذها الناسُ عن أبي بكر ، فإنما هي في أفواهِهم .

فقال أبو هريرة : قال عمر : فوالله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكرٍ تلاها فَعُقِرتُ[1] حتى وقعتُ إلى الأرض مَا تحْمِلني رِجلايَ ، وعرفتُ أن رسول الله ﷺ قد مات .

* أمْرُ سَقِيفَةِ بنِي سَاعِدَة *

قال ابن إسحاق :

ولما قُبضَ رسول الله ﷺ انحاز هذا الحيُّ من الأنصار إلى سعد بـن عُبادة في سقيفة بني ساعدة ، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة ، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر ، وانحاز معهم أُسَيْدُ بنُ حُضَير في بني عبد الأشهل ، فأتى آتٍ إلى أبي بكر وعمر فقال : إن هذا الحيَّ من الأنصار مع سَعْدِ بن عُبَادة في سقيفةِ بني ساعدة قد انحازوا إليه ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجةٌ فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم ، ورسول الله ﷺ في بيته لم يُفْرَغْ من أمره ، قد أغْلَق دونه البابَ أهلُه . قال عمر : فقلت لأبي بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتَّى ننظرَ ما هم عليه .

عن عبد الله بن عباس ، قال : أخبرني عبد الرحمن بن عوف ، قال ـ وكنت في

---

(١) عقرت ، بالبناء للمجهول : دهشت وتحيرت .

منزله بمنًى أنتظره وهو عند عمر في آخر حَجَّة حَجَّها عمر ، فرجع عبد الرحمن بن عوف من عند عمر فوجدني في منزله بمنًى أنتظره ، وكنت أُقرئه القرآن ـ فقال لي عبد الرحمن بن عوف : لو رأيتَ رجلاً أتى أمير المؤمنين فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك في فلان ، يقول : والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلاناً ، والله ما كانت بَيْعَةُ أبي بكر إلا فَلْتَةً فَتَمَّتْ ! قال : فغضب عمر ، فقال إني إن شاء الله لقائمٌ العشيةَ في الناس فَمُحَذِّرهم هؤلاء الذين يريدون أن يَغْصِبُوهم أمرهم . قال عبد الرحمن : فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا تَفْعَلْ ، فإنَّ الموسم يَجمع رَعَاعِ الناس ، وغَوْغاءهم[1] وإنهم هم الذينَ يغلبون على قُرْبك حين تقوم في الناس ، وإني أخشى أن تقوم فتقول مقالةً يَطيرُ بها أولئك عنك كلَّ مَطِيرٍ ، ولا يَعُوها ، ولا يَضَعُوها على مواضعها ، فأَمْهِلْ حتى تَقْدَمَ المدينة ، فإنها دار السُّنَّة ، وتَخْلُصَ بأهل الفقه وأشراف الناس ، فتقولَ ما قلتَ بالمدينة متمكِّناً فيعيَ أهل الفقه مَقَالَتَكَ ، ويضعوها على مواضعها . فقال عمر : أمَا والله إن شاء الله لأقُومَنَّ بذلك أولَ مَقامٍ أقومه بالمدينة !

قال ابن عباس :

فقدمنا المدينة في عَقِبِ ذي الحجة . فلما كان يوم الجمعة عَجَّلْتُ الرواح حين زالت الشمس ، فأجدُ سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل جالساً إلى ركن المنبر ، فجلست حَذْوَهُ تَمسّ ركبتي ركبتَه ، فلم أَنْشَبْ أن خرج عمر بن الخطاب ، فلما رأيته مقبلاً قلت لسعيد بن زيد : لَيَقُولَنَّ العشيةَ على هذا المنبر مقالةً لم يقلْها منذ استُخْلِف ! فأنكر عليّ سعيدُ بن زيد ذلك ، وقال : ما عَسَى أن يقولَ مما لم يقلْ قبله ؟ فجلس عمر على لمنبر ، فلما سكت المؤذِّن قام فأثنى على الله بما هو أهلُه ، ثم قال :

أمّا بعد ، فإنِّي قائل لكم اليوم مقالةً قد قُدِّرَ لي أن أقولها ، ولا أدري لعلَّها بين يَدَيْ أجلي ، فمن عَقَلَهَا ووَعاها فليأخذ بها حيث انتهت به راحلته ، ومن خَشيَ أن لا يعيَها فلا يحلُّ لأحد أن يكذبَ عليّ . إن الله بعث محمداً ، وأنزل عليه الكتابَ ، فكان مما أنزل عليه آيةُ الرجم ، فقرأناها وعَلِمناها ووعَيْنَاها . ورَجَمَ رسول الله ﷺ ورجَمْنا بعده ، فأخشى إن طالَ بالناس زمانٌ أن يقول قائل : والله ما نجد الرجم في كتاب الله ؛ فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله . وإن الرجم في كتاب الله حقٌّ على مَن زنى إذا أُحصِن ،

(١) الرعاع : سقط الناس ، وأصل الغوغاء الجراد ، فشبه سفال الناس به لكثرتهم .

من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو كان الحَبَلُ ، أو الاعتراف . ثم إنا قد كنا نقرأُ من كتاب الله : لا تَرْغَبُوا عن آبائكم ، فإنَّه كفرٌ بكم أن ترغبوا عن آبائكم . ألاَ إن رسولَ الله ﷺ قال : « لا تُطْرُوني كما أُطْرِيَ عِيسَى ابنُ مَريم ، وقولوا : عبد الله ورسوله » . ثمّ إنَّه قد بلغني أن فلاناً قال : والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعتُ فلاناً ! فلا يَغْرَّنَّ امرأ أن يقول : إن بيعة أبي بكر كانت فَلْتَةً فَتَمَّتْ . وإنها قد كانت كذلك ، إلا إنَّ الله قد وَقَى شرها ، وليس فيكم من تَنْقطع الأعناق إليه مثلُ أبي بكر ، فمن بايعَ رجلاً عن غير مَشورَة من المسلمين فإنه لا بَيْعَةَ له هو ولا الذي بايعه تَغرَّةً أن يُقْتَلاَ[١] . إنه كان من خبرنا ـ حين تَوفَّى الله نبيَّه ﷺ ـ أنَّ الأنصار خالفونا ، فاجتمعوا بأشرافهم في سَقيفة بني ساعدة ، وتخلَّفَ عنا عليٌّ بن أبي طالب والزُّبَيْر بن العوام ومن معهما ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ، فقلت لأبي بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار . فانطلقْنا نَؤُمُّهم ، حتَّى لَقِينَا منهم رجلان صَالحان ، فذكرا لنا ما تَمَالأ عليه القوم ، وقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلن : نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار . قالا : فلا عليكم أن لا تقربوهم يا معشر المهاجرين اقْضُوا أمركم . قلت : والله لَنَأتِيَنَّهُم . فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة ، فإذا بين ظَهْرَانَيْهِمْ رجل مُزَّمَّلٌ[٢] ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : سَعْدُ بن عُبادة . فقلت : ما له ؟ فقالوا : وَجِعٌ . فلما جلسنا تَشَهّد خطيبُهم فأثنى على الله بما هو له أهل ، ثم قال : أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين رَهْطٌ منا . وقد دَفَّتْ دافَّةٌ[٣] من قومكم . قال : وإذا هم يريدون أن يَختَازُونا من أصلنا ويَغتَصِبونا الأمر .

فلما سكَتَ أردتُ أن أتكلَّم وقد زَوَّرْتُ[٤] في نفسي مقالةً قد أعجبتني ، أُريد أن أُقدّمها بين يدَيْ أبي بكر ، وكنت أُداري منه بعض الحَدِّ[٥] ، فقال أبو بكر : على

(١) أي خوف التغرة ، وهي التغرير . ومعناه أن البيعة حقها أن تقع صادرة عن المشورة والإتفاق ، فإذا استبد رجلان اثنان الجماعة فبايع أحدهما الآخر فذلك تظاهر منهما بشق العصا واطراح الجماعة . فإن عقد لأحد بيعة فلا يكون المعقود له واحداً منهما ، وليكونا معزولين من الطائفة التي تتفق على تمييز الإمام منها . لأنه لو عقد لواحد منهما وقد ارتكبا تلك الفعلة الشنيعة التي أحفظت الجماعة من التهاون بهم والإستغناء عن رأيهم ، لم يؤمن أن يقتلا . عن لسان العرب (غرر) .

(٢) مزمل : ملتف ، تزمل الرجل ، إذا التف في كساء أو نحوه .

(٣) الدافة : الجماعة تأتي من البادية إلى الحاضرة ، وهي أيضاً الجماعة تسير برفق .

(٤) زورت مقالة : أعددتها وحسنتها في نفسي .

(٥) يريد أنه قد كان في أخلاقه بعض الحدة ، فكان جهد عمر أن يداريه .

رِسلكَ يا عمر ! فكرهت أن أُغضبه ، فتكلَّم وهو كان أعلم منِّي وأوقر ، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تَزْويري إلاَّ قالها في بديهته ، أو مثلَها ، أو أفضل ، حتى سكتَ . قال : أمَّا ما ذكرتم فيكم من خيرٍ فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش : هم أوسط العرب نسباً وداراً . وقد رضيتُ لكم أحدَ هذين الرجلين فبايعوا أيَّهما شئتم . وأخذ بيدي وبيد أبي عُبيدة بن الجرَّاحِ وهو جالس بيننا ، ولم أكره شيئاً مما قال غيرها . وكان والله أن أُقدَّمَ فتضرب عنقي ، لا يُقرِّبُني ذلك إلى إثمٍ ، أحبَّ إلي من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر .

قال : فقال قائل من الأنصار : أنا جُذَيْلها المُحَكَّك ، وعُذَيْقُها المُرَجَّب[1] منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش .

قال : فكثُر اللَّغَط ، وارتفعت الأصوات ، حتى تَخَوَّفْت الاختلاف ، فقلت : ابْسُطْ يدك يا أبا بكر . فبسط يده ، فبايعته ، ثم بايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار ، ونَزَوْنا[2] على سعد بن عُبادة ، فقال قائل منهم : قتلتم سعد بن عُبادة . فقلت : قتل الله سَعْدَ بن عُبادة .

قال الزهري : أخبرني عروة بن الزبير ، أن أحد الرجلين اللذين لَقُوا من الأنصار حين ذهبوا إلى السَّقيفة عُوَيْمُ بن ساعدة ، والآخر مَعْنُ بن عديّ أخو بني العَجْلَان ؛ فأما عُوَيْمُ بن ساعدة فهو الذي بلغنا أنه قيل لرسول الله ﷺ : مَن الذين قال الله عز وجل لهم : ﴿فيهِ رِجَالٌ يُحبُّونَ أن يَتطَهَّروا وَاللَّهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرينَ﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نِعمَ المرءُ منهم عُويمُ بنُ ساعِدة » . وأما مَعْن بن عديّ فبلغنا أن الناس بَكَوْا على رسولِ الله ﷺ حين توفَّاه الله عز وجلٍ ، وقالوا : والله لَوَدِدْنا أنَّا مُتْنا قبله ، إنا نخشَى أن نُفْتَتِن بعده . قال مَعن بن عديٍّ : لكنِّي والله ما أُحبُّ أني متّ قبله ، حتى أُصدِّقه ميتاً كما صدقته حيًّا ! فَقُتِلَ مَعنٌ يوم اليمامة شهيداً في خلافة أبي بكر يوم مسيلمة الكذاب .

وحدثني الزهري ، قال : حدثني أنس بن مالك ، قال :

لما بويع أبو بكر في السَّقيفة وكان الغد ، جلس أبو بكر على المنبر ، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

---

(١) الجذيل : تصغير جذل ، وهو عود ينصب للإبل تحتك به وتستريح إليه . والعرب تضرب به المثل للرجل يستشفى برأيه ، والعذيق : تصغير عذق ، وهي النخلة نفسها . والمرجب : الذي تبنى إلى جانبه دعامة ، لكثرة حمله وعزه على أهله ، وهو مضروب به المثل للرجل الشريف المبجل .

(٢) النزو : الوثب .

أيــها النــاس قد كنت قلتُ لكم بالأمس مقالةً ما كانت ، وما وَجَدْتها في كتاب الله ، ولا كانت عهداً عَهِدَهُ إليَّ رسول الله ﷺ ، ولكني قد كنت أُرَى أن رسول الله ﷺ سَيَدْبُرُ أمرنا ـ يقول : يكون آخرنا ـ وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هَدَى الله رسولَهُ ﷺ ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له ؛ وإنَّ الله قد جمَع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ﷺ ، ثاني اثنين إذ هُما في الغار ، فقوموا فبايعوه .

فبايع الناس أبا بكر بَيْعته العامة بعد بيعة السقيفة .

ثم تكلم أبو بكر ، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ، ثم قال : أما بعد أيها الناس فإني قد ولِّيت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحْسَنْتُ فأعينوني ، وإن أسأت فَقَوِّمُوني . الصِّدْقُ أمانة ، والكذب خيانةٌ ، والضعيف فيكم قَوِيٌّ عندي حتى أُريح[1] عليه حَقَه إن شاء الله ، والقويُّ فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخُذ الحقَّ منه إن شاء الله . لا يدَعُ قومٌ الجهادَ في سبيل الله إلَّا ضربَهم الله بالذل ، ولا تَشِيعُ الفاحشة في قوم قَطُّ إلا عَمَّهُمُ الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عَصَيْتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله .

عن ابن عباس ، قال : والله إني لأمشِي مع عمر في خلافته وهو عامدٌ إلى حاجة له ، وفي يده الدِّرَّةُ[2] وما معه غيري ، وهو يحدِّث نفسه ، ويضرب وَحْشِيَّ قَدَمِهِ[3] بدِرَّته ، إذِ التَفَتَ إليَّ فقال : يا ابن عباس ، هل تدري ما كان حملَني على مقالتي التي قلتُ حين تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ ؟ قلت : لا أدري يا أمير المؤمنين ، أنت أعلم . قال : فإنَّه والله إن كان الذي حملني على ذلك إلا أني كنت أقرأ هذه الآية : ﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكمْ أُمَّةً وسَطاً لِتَكونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ ، فوالله إن كنت لأظن أنَّ رسول الله ﷺ سيبقى في أُمته حتَّى يشهد عليها بآخر أعمالها ؛ فإنَّه لَلَّذي حملني على أن قلت ما قلت .

---

(١) أراحه : أرجعه ورده .

(٢) الدرة ، بالكسر : ضربٌ من السياط يضرب به ، يكون للسلطان .

(٣) وحشي القدم : جانبها الخارجي .

* جِهَازُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَفْنُه *

قال ابن إسحاق :

فلما بويع أبو بكر رضي الله عنه أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء .

فحدثني عبدُ الله بن أبي بكر وحسين بن عبد الله وغيرهما من أصحابنا ، أن علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، وقُثَم بن العباس ، وأسامة بن زيد ، وشُقرانَ مولى رسول الله ﷺ هم الذي وَلُوا غسله ، وأن أوسَ بن خَوْليٍّ أحد بني عوف بن الخَزرج قال لعلي بن أبي طالب : أَنْشُدُكَ الله يا عليّ وحَظَّنا من رسول الله ﷺ . وكان أوس من أصحاب رسول الله ﷺ وأهل بدر - قال : ادخل . فدخل فجلس ، وحضر غُسلَ رسُول الله ﷺ ، فأسنَده عليٌّ بن أبي طالب إلى صدره وكان العباس والفضل وقُثَم يقلِّبونه معه ، وكان أُسامة بن زيد وشُقْرَان مولاه هما اللذان يَصُبَّان الماء وعليٌّ يغسله ، وقد أسنده إلى صدره ، وعليه قميصه يَدلُكه به من ورائه ، لا يُفْضِي بيده إلى رسول الله ﷺ ، وعليٌّ يقول : بأبي أنت وأُمي ، ما أَطْيَبَكَ حَيًّا وميتاً ! !

ولم يُرَ من رسول الله ﷺ شيءٌ مما يُرَى من الميت .

عن عائشة ، قالت : لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه ، فقالوا : والله ما ندري ، أنُجَرِّد رسولَ الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا ، أو نغسِله وعليه ثيابه ؟ فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النومَ حتى ما منهم رجل إلا ذَقْنُه في صدره ، ثم كَلَّمهم مُكَلِّم من ناحية البيت لا يدرون مَن هو : أن اغسلوا النبيَّ وعليه ثيابه . فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه ، يَصُبُّون الماءَ فوق القميص ويدلُكونه ، والقميصُ دون أيديهم .

قال ابن إسحاق :

فلما فُرِغ من غسل رسول الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب : ثوبين صُحَارِيَّين[1] وبُرْدِ حِبَرَةٍ أُدْرِجَ فيه إدراجاً .

---

(١) صحاريين : نسبة إلى صحار ، وهي بلدة من بلاد اليمن . ويقال : هي عمان .

عن ابن عباس ، قال :

لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ ، وكان أبو عبيدة بن الجراح يَضْرَحُ[1] كحفر أهل مكة ، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يَحفِر لأهل المدينة فكان يَلْحد[2] ، فدعا العباس رجلين ، فقال لأحدهما : اذهب إلى أبي عبيدة بن الجرّاح ، وللآخر : اذهب إلى أبي طلحة ، اللهم خِرْ لرسول الله ﷺ . فوجد صاحبُ أبي طلحة أبا طلحة ، فجاء به فلحد لرسول الله ﷺ .

فلما فُرِغ من جَهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء وُضِعَ على سريره في بيته ، وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه ، فقال قائل : ندفنه في مسجده ، وقال قائل : بل ندفنه مع أصحابه ، فقال أبو بكر : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما قُبِضَ نَبِيٌّ إلاَّ دُفِنَ حَيْثُ يُقْبَضُ » .

فرُفع فِراش رسول الله ﷺ الذي تُوفِّيَ عليه ، فحُفِر له تحته ، ثم دخل الناسُ على رسول الله ﷺ يُصَلُّونَ عليه أرسَالاً[3] : دخل الرجال حتى إذا فرغوا أُدخل النساءُ ، حتى إذا فرغ النساءُ أُدخل الصبيان . ولم يَؤُمَّ الناسَ على رسول الله ﷺ أحدٌ .

ثم دفن رسول الله ﷺ من وَسط الليل ليلة الأربعاء .

عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صَوْتَ المَسَاحِي[4] من جَوْف الليل من ليلة الأربعاء .

قال ابن إسحاق :

وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ : علي بن أبي طالب والفضل بن عَبَّاس ، وقُثَم بن عباس ، وشُقْران مولى رسول الله ﷺ .

وقد قال أوس بن خَوْليٍّ لعلي بن أبي طالب : يا علي أنشدك الله وحَظَّنَا من رسول الله ﷺ ! فقال له : انزلْ . فنزل مع القوم .

---

(١) الضرح : الشق . والضريح : القبر يشق في وسط الأرض شقاً .

(٢) اللحد : الشق يكون في جانب القبر .

(٣) أرسالاً : جماعة بعد جماعة ، الواحد رسل بالتحريك .

(٤) المساحي : جمع مسحاة ، وهي مجرفة من حديد .

وقد كان مولاه شُقران ـ حين وُضِعَ رسول الله ﷺ في حُفرته وبُنيَ عليه ـ قد أخذ قطيفةً[1] قد كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشُها ، فدفنها في القبر ، وقال : والله لا يلبسها أحدٌ بعدك أبداً !

قال : فدُفنتْ مع رسول الله ﷺ .

وقد كان المغيرة بن شعبة يدَّعي أنه أَحْدَثُ الناس عهداً برسول الله ﷺ ، يقول : أخذت خاتمي ، فألقيته في القبر ، وقلت : إن خاتمي سقَطَ منّي . وإنما طرحته عمداً لأَمَسَّ رسول الله ﷺ فأكونَ أحدث الناس عهداً به ﷺ .

عن مِقسم أبي القاسم مولى عبدِ الله بن الحارث بن نوفل ، عن مولاه عبد الله بن الحارث ، قال :

اعتمرت مع علي بن أبي طالب رضوان الله عليه في زمان عمر أو زمان عثمان . فنزل على أُخته أمّ هانىء بنتِ أبي طالب ، فلما فرغ من عمرته رجع ، فسُكِب له غسل فاغتسل ، فلما فرغ من غُسله دخل عليه نفر من أهل العراق ، فقالوا : يا أبا حسن ، جئناك نسألك عن أمر نحبُّ أن تخبرنا عنه . قال : أظنُّ المغيرة بن شعبة يحدِّثكم أنه كان أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ قالوا : أجل ، عن ذلك جئنا نسألك . قال : أَحْدَثُ الناس عهداً برسول الله ﷺ قُثَم بن عباس .

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، أن عائشة حدثته قالت :

كان على رسول الله ﷺ خَميصَةٌ سَوْداءُ[2] به حينَ اشتدَّ به وجَعُه ، قالت : فهو يضعها مرَّةً على وجهه ، ومرَّة يكشفها عنه ، وهو يقول : « قَاتَلَ اللَّهُ قَوْماً اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَساجِد ! » ، يَحذَر مِنْ ذلك على أُمته .

عن عائشة ، قالت :

كان آخر ما عَهِدَ رسول الله ﷺ : أن قال : « لَا يُتْرَكُ بِجزِيرَة العَرَبِ دِينَانِ » .

قال ابن إسحاق :

ولما تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ عَظُمَت به مصيبةُ المسلمين ، فكانت عائشة ـ فيما بلغني ـ تقول :

---

(١) القطيفة : كساء له خمل ، أي أهداب . (٢) الخميصة : كساء أسود مربع ، له علمان ، أي خطان .

لما تُوفِّيَ رسول الله ﷺ ارْتَدَّت العرب ، واشْرَأَبَّت اليهودية[1] والنصرانية ، ونَجَم النفاق[2] ، وصار المسلمون كالغَنَم المَطِيرة[3] في الليلة الشاتية ؛ لفقدِ نبيِّهم ﷺ ، حتَّى جمعهم الله على أبي بكر .

قال ابن هشام : حدثني أبو عبيدة وغيره من أهل العلم :

أنَّ أكثر أهلِ مكَّة لما توفِّيَ رسول الله ﷺ هَمُّوا بالرجوع عن الإسلام ، وأرادوا ذلك ، حتى خافهم عتَّابُ بن أسِيد[4] ، فَتَوَارَى ، فقام سُهَيْل بن عمرو ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم ذكر وفاةَ رسول الله ﷺ ، وقال : إن ذلك لم يزد الإسلام إلَّا قوّة ، فمن رَابَنَا ضَرَبْنا عنقَه ! !

فتراجع الناسُ ، وكَفُّوا عما هَمُّوا به ، وظهر عَتَّاب بن أسيد .

فهذا المقامُ الذي أراد رسول الله ﷺ في قوله لعمر بن الخطاب : « إنَّهُ عَسَى أن يقُومَ مَقاماً لا تَذُمُّه » .

وقال حسان بن ثابت يبكي رسول الله ﷺ ، فيما حدثنا ابن هشام ، عن أبي زيد الأنصاري :

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ للرَّسُولِ ومَعْهدُ ... مُنِيرٌ وقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وتَهْمُدُ[5]
ولا تَمْتَحِي الآياتُ مِنْ دارِ حُرمةٍ ... بِهَا مِنْبَرُ الهَادِي الَّذِي كانَ يصعدُ[6]
وواضحُ آثارٍ وباقِي مَعالمٍ ... ورَبْعٌ لَهُ فيه مُصَلًّى ومسجِدُ
بِهَا حُجُراتٌ كانَ يَنْزِلُ وسْطَهَا ... من اللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ ويُوقَدُ
مَعارِفُ لَم تُطْمَسْ عَلَى العَهْدِ آيُها ... أَتَاها البِلَى فالآيُ مِنهَا تَجَدَّدُ[7]
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرسُولِ ، وعهْدَهُ ... وقَبْراً بِهَا واراهُ في التُّرْبِ مُلْحِدُ[8]
ظَلِلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فأسْعَدَت ... عُيُونٌ ومِثْلَاهَا مِنَ الجَفنِ تُسْعِدُ[9]

---

(١) اشرأب الرجل : صعد عنقه لينظر . ومعناه تطلعت وبرزت .
(٢) نجم النفاق : ظهر وبدا .
(٤) عتاب بن أسيد : كان والي مكة وأميرها حين وفاة النبي ﷺ .
(٥) طيبة بفتح الطاء : اسم للمدينة . والرسم : ما بقي من آثار الدار .
(٦) تمتحي : تزول . الآيات : العلامات . (٧) الآي : جمع آية .
(٨) الملحد ، هنا : الذي يضع الميت في لحده . (٩) تسعد : تعين . والإسعاد : المعاونة .

يُذَكِّرْنَ آلاءَ الرَّسُولِ وما أرى   لَها مُحْصِياً نَفْسِي فَنَفْسِي تَبَلَّدُ
مُفَجَّعَةً قد شَفَّهَا فَقْدُ أحمدٍ   فَظَلت لآلاء الرَّسُولِ تُعَدِّدُ(١)
وما بَلَغَتْ مِن كلِّ أمرٍ عَشيرَهُ   ولكن لِنَفْسِي بَعدُ ما قد تَوَجَّدُ(٢)
أطالَت وُقُوفاً تَذْرِفُ العينُ جَهدَها   على طَلَلِ القَبرِ الَّذِي فيهِ أحمدُ
فَبُورِكْت يا قَبرَ الرَّسولِ وبُورِكَت   بِلادٌ ثَوَى فيها الرَّشيدُ المُسَدَّدُ(٣)
وبُورِكَ لَحْدٌ مِنكَ ضُمِّنَ طَيِّباً   عَليهِ بِنَاءٌ مِن صَفِيحٍ مُنَضَّدُ
تَهيلُ عليهِ التُّربَ أيدٍ وأعينٌ   عَليهِ وقد غارت بذلكَ أَسعُدُ(٤)
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلماً وعِلماً ورحمةً   عشيَّةَ عَلَّوْهُ الثرَى لا يُوَسَّدُ
وراحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فيهم نَبيُّهُمْ   وقد وَهَنَتْ مِنهم ظُهورٌ وأعضُدُ
يُبَكُّونَ مَن تَبكِي السَّمواتُ يومَهُ   ومَن قد بكَته الأرضُ فالنَّاسُ أَكْمَدُ
وهَلْ عَدَلَتْ يوْماً رَزِيَّةُ هَالِكٍ   رَزِيَّةَ يَوْمٍ ماتَ فيهِ مُحَمَّدُ(٥)
تَقَطَّعَ فيه مُنزَلُ الوَحيِ عنْهُمُ   وقَدْ كانَ ذا نُورٍ يَغُورُ ويُنْجِدُ(٦)
يَدُلُّ عَلَى الرَّحمنِ مَنْ يُقتَدَى به   ويُنْقِذُ من هَولِ الخَزايا ويُرْشِدُ
إمامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الحَقَّ جَاهِداً   مُعَلِّمُ صِدْقٍ إنْ يُطِيعُوهُ يَسعَدُوا
عَفوٌّ عن الزَّلَّاتِ يَقبَلُ عُذْرَهُمْ   وَإنْ يُحْسِنُوا فاللَّهُ بالخيرِ أجوَدُ
وإن نَابَ أمرٌ لَم يَقُوموا بِحَملِهِ   فَمِن عِندِهِ تَيْسِيرُ ما يَتَشَدَّدُ
فبينا هُمُ في نعمةِ اللَّهِ بينَهُمْ   دليلٌ بِهِ نَهجُ الطَّرِيقَةِ يُقصَدُ
عَزِيزٌ عليهِ أنْ يَجُورُوا عَنِ الهُدَى   حَرِيصٌ عَلَى أن يَسْتَقيمُوا ويَهْتَدُوا
عَطُوفٌ عَليهم لَا يُثَنِّي جَنَاحَهُ   إلى كَنَفٍ يَحنُو عَلَيْهِمْ ويمهدُ(٧)
فَبَيْنَا هُمُ في ذلكَ النُورِ إذ غَدا   إلى نُورِهم سَهْمٌ من المَوْتِ مُقْصِدُ(٨)
فأصبَحَ محموداً إلى اللَّهِ راجعاً   يُبَكِّيهِ جَفْنُ المُرسَلاتِ ويَحْمَدُ(٩)

---

(١) شفها : أضعفها وأهزلها .
(٢) العشير : العشر . توجد ، من الوجد ، وهو الحزن .
(٣) ثوى : أقام . المسدد : الذي هدي إلى السداد ، وهو الصواب .
(٤) نهيل : تصب . الأسعد : جمع السعد .
(٥) عدله : ساواه . الرزيئة : المصيبة .
(٦) يغور : يبلغ الغور ، وهو تهامة وما يلي اليمن . وينجد : يأتي نجداً .
(٧) الكنف : الجانب والناحية .
(٨) أقصده : أصابه فلم يخطىء مقاتله .
(٩) المرسلات : الملائكة .

وأَمْسَتْ بِلَادُ الحِرْمِ وَحشاً بِقَاعُها ... لِغَيْبَةِ ما كانت مِنَ الوحيِ تَعهَدُ
قِفَاراً سِوَى مَعمورةِ اللَّحدِ ضَافَهَا ... فَقيدٌ يُبَكِّيهِ بلاطٌ وغَرقَدُ[1]
ومَسْجِدُهُ فَالمُوحشَاتُ لِفقَدِهِ ... خَلَاءٌ لَهُ فيهِ مَقَامٌ وَمَقعَدُ
وبِالجَمرةِ الكُبْرَى لهُ ثَمَّ أوحَشَتْ ... دِيَارٌ وَعَرْصَاتٌ وربعٌ ومولِدُ[2]
فبَكِّي رسولَ اللَّهِ يا عَيْنُ عَبْرةً ... ولا أعرِفَنْكِ الدَّهرَ دَمعُكِ يَجْمُدُ
ومالَكِ لا تَبْكِينَ ذا النِّعْمَةِ الَّتي ... عَلَى النَّاسِ منها سَابغٌ يَتَغمَّدُ[3]
فجُودِي عليهِ بالدُّمُوعِ وأعْوِلِي ... لِفَقْدِ الَّذِي لا مِثْلُهُ الدَّهرَ يُوجَدُ[4]
وما فَقَدَ المَاضُون مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... ولا مِثْلُهُ حتَّى القِيَامةِ يُفْقَدُ
أعَفَّ وأوْفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ ... وأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلاً لا يُنَكَّدُ[5]
وأَبْذَلَ منهُ لِلطَّرِيفِ وتَالِدٍ ... إذَا ضَنَّ مِعْطَاءٌ بِمَا كان يُتْلَدُ[6]
وأَكْرَمَ صِيتاً في البُيوتِ إذَا انْتَمَى ... وأَكْرَم جَدًّا أَبْطَحيًّا يُسَوَّدُ[7]
وأَمْنَعَ ذِرْواتٍ وأَثْبَتَ في العُلَا ... دعائِمَ عِزٍّ شَاهِقاتٍ تُشَيَّدُ[8]
وأَثْبَتَ فَرْعاً في الفُرُوعِ ومَنْبتاً ... وعُوداً غَذَاهُ المُزْنُ فالعُودُ أَغْيَدُ[9]
رَبَاهُ وليداً فاسْتَتَمَّ تَمَامُهُ ... عَلَى أَكْرَمِ الخَيْرَاتِ رَبٌّ مُمَجَّدُ
تَنَاهَتْ وَصَاةُ المُسْلِمينَ بِكَفِّهِ ... فَلَا العِلْمُ محبوسٌ ولا الرَّأْيُ يُفْنَدُ[10]
أَقُولُ ولا يُلْقَى لِقَولِيَ عَائِبٌ ... من النَّاسِ إلَّا عازِبُ العَقلِ مُبْعَدُ[11]
ولَيْسَ هَوَايَ نَازعاً عن ثَنَائِهِ ... لَعَلِّي بهِ في جَنَّةِ الخُلْدِ أخلُدُ
مَعَ المُصطَفَى أرجُو بِذَاكَ جِوارَهُ ... وفي نَيْلِ ذَاكَ اليَومِ أسعَى وأجهَدُ

* * *

(١) ضافها : نزل بها . البلاط : المستوي من الأرض . الغرقد : شجر .
(٢) العرصات : جمع عرصة ، وهي الساحة ، سكن الراء لضرورة الشعر .
(٣) سابغ : كثير فياض . يتغمد : يستر ، والمراد يعم .
(٤) الإعوال : رفع الصوت بالبكاء .
(٥) التنكيد : قلة العطاء ، ومنعه .
(٦) الطريف : المال المستحدث . يتلد : يكتسب قديماً .
(٧) الأبطحي : المنسوب إلى أبطح مكة ، وهو مكان سهل متسع .
(٨) الذروات : الأعالي . شاهقات : مرتفعات .
(٩) المزن : السحاب ، واحدته مزنة . أغيد : ناعم متثن .
(١٠) يفند : يعاب .
(١١) عازب العقل : بعد عنه عقله .

وقال حسان بن ثابتٍ أيضاً يبكي رسول الله ﷺ :

ما بَالُ عَيْنِكَ لا تَنامُ كأنما ... كُحِلَتْ مآقِيهَا بِكُحْلِ الأَرْمَدِ(١)
جَزَعاً عَلَى المَهْدِيِّ أُصبحَ ثَاوِياً ... يا خَيْرَ مَنْ وطِىءَ الحصَى لا تَبْعَدِ(٢)
وجهي يَقِيكَ التُربَ لَهْفِي لَيْتَنِي ... غُيِّبْتُ قَبْلَكَ في بَقِيعِ الغَرْقَدِ(٣)
بأَبِي وأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وفَاتَهُ ... في يوم الاثنَيْن النَّبيِّ المُهتَدِي
فَظَلِلْتُ بَعدَ وفاتِه مُتَبَلِّداً ... مُتَلَدِّداً يا لَيْتَنِي لَمْ أُولَدِ(٤)
أَأُقِيمُ بَعْدَكَ بالمَدينَةِ بَيْنَهُمْ ... يا لَيْتَنِي صُبِّحْتُ سُمَّ الأَسْوَدِ(٥)
أَوْ حَلَّ أَمْرُ الله فينا عاجِلاً ... في رَوْحَةٍ مِنْ يوْمِنا أَوْ مِنْ غَدِ
فتقُومَ ساعَتُنَا فَنَلْقَى طَيِّباً ... مَحْضاً ضَرَائِبُهُ كَرِيمَ المَحْتِدِ(٦)
يَا بِكْرَ آمِنَةَ المُبَارَكِ بِكْرُها ... ولَدَتْهُ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الأَسْعُدِ
نُوراً أضاء عَلَى البَرِيَّةِ كُلِّهَا ... مَنْ يُهْدَ لِلنُّورِ المُبَارَكِ يَهْتَدِي
يَا رَبِّ فاجْمَعْنَا مَعاً ونَبِيَّنَا ... في جَنَّةٍ تَثْنِي عُيُونَ الحُسَّدِ
في جَنَّةِ الفِردَوْسِ فَاكْتُبْها لَنا ... ياذَا الجَلَالِ وذا العُلا والسُّودَدِ
واللّهِ ، أَسْمَعُ ما بقيتُ بهالِكٍ ... إلَّا بكيتُ على النبيِّ محمَّدِ(٧)
يا ويْحَ أنصار النبيِّ ورَهْطِه ... بعد المُغيَّبُ في سواء المَلْحَدِ(٨)
ضَاقت بالأنصار البلادُ فأصبَحُوا ... سُوداً وجوهُهُمُ كلَوْنِ الإثمد
ولَقَدْ وَلَدناهُ وفِينَا قَبْرُهُ ... وفُضُولَ نِعمَتِهِ بِنَا لم نَجْحَدِ
واللّهُ أكرمَنَا بِهِ وهدَى به ... أنصَارَه في كل ساعةٍ مَشهَد
صلى الإِلهُ ومن يَحُفُّ بِعَرشِهِ ... والطَّيبُونَ عَلَى المُبَارَكِ أَحْمَدِ

---

(١) المآقي : جمع المأق ، وهو مجرى الدمع في العين .
(٢) لا تبعد : لا تهلك . أي ليبق ذكرك خالداً .
(٣) بقيع الغرقد : مقبرة أهل المدينة .
(٤) المتبلد : المتحير .
(٥) صبحه : سقاه الصبوح ، وهو شرب الصباح . والأسود : ضرب من الحيات .
(٦) المحض : الخالص . الضريبة : الطبيعة . المحتد : الأصل .
(٧) والله أسمع ، أي أقسم بالله لا أسمع : حذف حرف النفي .
(٨) سواء الملحد ، أي وسط اللحد .

قال ابن إسحاق :

وقال حسان بن ثابت يبكي رسول الله ﷺ :

نَبِّ المَسَاكِينَ أنَّ الخَيْرَ فَارَقَهُمْ ... مَعَ النَّبِيِّ تَوَلَّى عَنْهُمُ سَحَرا[1]
مَنْ ذَا الَّذِي عِنْدَهُ رَحْلِي ورَاحِلَتي ... ورِزْقُ أَهْلِي إذَا لَم يُؤْنِسُوا المَطَرا[2]
أَمْ مَنْ نُعَاتِبُ لا نَخْشَى جَنَادِعَهُ ... إذا اللِّسَانُ عتَا في القَولِ أو عَثَرَا[3]
كانَ الضِّيَاءَ وكانَ النورَ نَتْبَعُهُ ... بعدَ الإلَهِ وكانَ السَّمعَ والبصرا
فَلَيْتَنَا يوم وارَوه بَمَلْحَدِهِ ... وغَيَّبُوهُ وألقوا فَوقَه المدرا
لَمِ يَتْرُكِ الله مِنَّا بَعدَهُ أحداً ... ولَمَ يعش بَعدَهُ ، أُنثَى ولا ذَكَرَا
ذَلَّتْ رِقَابُ بني النَّجَّار كُلِّهِمُ ... وكان أمْراً مِنَ آمرِ اللَّهِ قد قُدِرا

وقال حسان بن ثابت يبكي رسول الله ﷺ أيضاً :

آليتُ ما في جمِيعِ النَّاس مجْتهِداً ... مِنِّي ألِيَّةَ بَرٍّ غَيْرَ إفْنادِ[4]
تَاللَّهِ ما حَمَلَتْ أُنثى ولا وضعَتْ ... مثل الرَّسولِ نَبيِّ الأُمَّةِ الهَادي
ولا بَرَا الله خَلْقاً مِن بَرِيَّته ... أوْفى بِذمَّةِ جارٍ أو بميعَادِ[5]
مِنَ الذي كان فينا يُسْتَضَاءُ به ... مُبارَكَ الأمرِ ذَا عَدل وإرشَادِ
أمسَى نِسَاؤُكَ عَطَّلْنَ البُيُوتَ فما ... يَضرِبْنَ فوقَ قَفَا سِتْرٍ بأوتَادِ
مثلَ الرَّواهِبِ يَلبسنَ المباذِلَ قد ... أيقَنَّ بالبؤسِ بَعدَ النِّعمةِ البَادِي[6]
يا أفضلَ النَّاس إني كُنْتُ في نَهَرٍ ... أصبَحْتُ منهُ كمِثل المفرَد الصَّادي[7]

قال ابن هشام :

عجزالبيت الأول عن غير ابن إسحاق .

وجد بآخر نسخة من الأصول ما نصه :

(١) نبهم ، أي نبئهم وأخبرهم .
(٢) لم يؤنسوا المطر : لم يحسوه .
(٣) الجنادع : أوائل الشر . عتا : طغا وزاد .
(٤) الألية :اليمين والحلف . الإفناد : الكذب .
(٥) برا ، أي برأ وخلق .
(٦) المباذل : جمع مبذل ، وهو الثوب الذي يبتذل فيه .
(٧) الصادي : العطشان .

وهذا آخر الكتاب ، والحمد لله كثيراً ، وصلاته وسلامه على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الأخيار الراشدين .

أنشدني أبو محمد بن عبد الواحد ، عن محمد بن عبد الرحمن البرقي ، قال : أوعب أبو محمد عبد الملك بن هشام كتاب السيرة وبحضرته رجال من فصحاء العرب فقال :

تَمَّ الكتاب وصار في العَرْض عشرين جزءاً كلها ترضي
كملت بلا لحن ولا خَطَل في الشَّكل والإعجام والقرض
والحمل حتى صحَّ ناقله بعضٌ من العلماء عن بعض

تم تهذيب سيرة ابن هشام في ليلة الخميس ، وهي الليلة الأولى من شهر رمضان سنة ١٣٨٣هـ .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وكتب
عَبد السَّلام مُحمد هَارُون

الفهارِسُ الفَنِّيَّة

١ ـ فهرس السِّيَر والمغازي

٢ - فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين)

حرف الشين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف الواو

حرف الياء

٣ ـ فهرس القبائل والطوائف ونحوها

٤ ـ فهرس البلدان والمواضع

(١) تركت أرقام صفحاتها لكثرتها كثرة مفرطة لا تتحقق معها الفائدة .

٥ ـ فهرس اللغة

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف الغين

حرف الفاء

حرف اللام

حرف الميم

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

٦ ـ فهرس الأشعار والأرجاز

ايداع رقم ٨٧/٨٥٧٠

دار الجيل للطباعة ١١ قصر اللؤلؤة - الفجالة
جمهورية مصر العربية تلفون ٩٠٤٣٤٣ — ٩٠٥٢٩٦